الثقافة والشخصيّة

الشخصيّة ومحدّداتها الثقافيّة

تأليف

الدكتور عاطف وصفي

رئيس قسم الاجتماع - جامعة الامارات العربية المتحدة

دار النهضة العربية

للطباعة والنشر

بيروت ص. ب ٧٤٩

الثقافة والشخصية

الشخصية ومحدداتها الثقافية

تأليف
الدكتور عاطف وصفي
استاذ علم الإجتماع
جامعة القاهرة ـ جامعة بيروت العربية

١٩٨١

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص. ب ٧٤٩

الفهرس

الصفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

يتشابه الفرد الانسانى مع جميع البشر فى بعض الخواص ، ومع بعضهم فقط فى خصائص اخرى ، ويفترق عنهم جميعا فى مجموعة ثالثة من الخواص ، وفى د خل شخصية كل فرد منا ، تتفاعل وتتواقف هذه المجموعات الثلاث من الخواص ، وبرغم تعرف المفكرين على تلك الحقيقة منذ القدم ، فانهم يختلفون فى تحديد تلك الخواص ، وفى تحديد طبيعة التواقف بينها ، وفى تحديد دلالة كل منها ، وفى تحديد الأهمية النسبية لمحدداتها ، ومن هنا تنوعت وتعددت النظريات ، واختلفت وتناقضت الآراء .

وفى السنوات الاخيرة ، وخاصة بعد الحرب العالمية الأولى ، تدافع عدد كبير من العلماء لبحث هذه المشكلة ، وينتمى هؤلاء العلماء لفروع تخصصية مختلفة ، فمنهم علماء النفس والأطباء النفسيون وعلماء الاجتماع وعلماء التربية والأنثروبولوجيون ، وكثرت النظريات والأبحاث التى تحاول الاجابة عن تساؤلات هامة ، مثل : هل يوجد علاقة بين الأمراض العصابية والذهانية المنتشرة فى جماعة ما والنظم الاجتماعية والثقافية المطبقة فى تلك الجماعة ؟ لماذا تظهر انواع معينة من الانحرافات بصورة أكثر تكرارا بين اطفال طبقات اجتماعية معينة ؟ هل تؤدى طريقة معينة فى تربية اطفال جماعة معينة الى نمو شكل معين للشخصية فى تلك الجماعة ؟ الى اى مدى يحدد التكوين البيولوجى للفرد شخصيته ، والى اى مدى تحدد ثقافة المجتمع شخصيات حاملى تلك الثقافة ؟

لماذا تختلف أنماط العقاب والثواب فى الثقافات المختلفة ، فبينما يعاقب سلوك معين فى مجتمع ما ، يكافأ أو يقابل بالتسامح فى مجتمع آخر ؟ هل يحدد الانحراف الفردى ثقافيا ، أو هناك مقاييس مطلقة للتفرقة بين الفرد السوى وغير السوى ؟

ما هو دور الشخصيات البارزة والشخصيات العادية فى عمليات التغير الاجتماعى والثقافى ؟

من أهم مجالات التخصص التى حاولت الاجابة عن تلك التساؤلات مجال الثقافة والشخصية أو فرع الأنثروبولوجيا النفسية ، ويتضح من هذين المفهومين أن موضوع هذا الفرع من المعرفة هو دراسة العلاقة بين الثقافة

والشخصية او بحث التوافق بين الخواص النفسية لاعضاء جماعة ما وثقافة تلك الجماعة . وبرغم حداثة هذا الفرع الذى يستخدم طرق البحث العلمى فى دراسة هذا الموضوع ، فان الموضوع نفسه قد اكتشف اهميته المفكرون منذ القدم ، ففى القرن الخامس قبل الميلاد قال ابو الطب أبقراط ان الأوربيين اكثر شجاعة من الآسيوين ، ويرجع ذلك الى عامل التشابه والتجانس الذى يولد الاهمال والراحة فى المجتمعات الآسيوية والى عامل التنوع الذى يولد التحمل والاجتهاد فى المجتمعات الأوربية . ان الراحة والاهمال هما غذاء الجبن أما التحمل والاجتهاد فهما غذاء الشجاعة .

تمثل الأفكار السابقة تاملات قائمة على الملاحظات العامة للخواص النفسية والاجتماعية للشعوب المختلفة ، ولا تمثل حقائق قائمة على طرق البحث العلمى ، ويمكن القول ان اول من نادى بأهمية دراسة موضـــوع الثقافة والشخصية دراسة علمية كان الأنثروبولوجى الأمريكى « هوايت » ، ونشر رايه فى مقالة بعنوان « الشخصية والثقافة » فى عام ١٩٢٥ فى احدى المجلات العلمية ، وفى عامى ١٩٣٢ و ١٩٣٣ نظم الانثروبولوجيان الأمريكيان « سابير » و « دولارد » حلقة مناقشة حول موضوع (الثقافة والشخصية) فى جامعة بيل الأمريكية ، وقد مولت مؤسسة روكفلر تلك الحلقة ، واشترك فيها بعض العلماء الأوربيين ، وفى عام ١٩٣٣ نشر العلامة توماس تقريرا بعنوان « حول تنظيم برنامج فى مجال الشخصية والثقافة » ، وكان « مجلس ابحاث العلوم الاجتماعية » قد طلب منه القيام بمسح الدراسات التى أجريت حول هذا الموضوع ، وقد نادى « توماس » فى هذا التقرير باهمية الموضوع وبضرورة اجراء الأبحاث المتكاملة والمتعددة الجوانب ، وذلك لأن ابحـــاث الثقافة والشخصية كانت فى ذلك الوقت تقتصر على جانب واحد سواء كان بيولوجيا أو اجتماعيا أو ثقافيا . وبعد ذلك تتابعت النظريات والأبحاث حول موضوع الثقافة والشخصية ، وأصبح من المواد الرئيسية التى تدرس فـــى أقسام الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلم النفس بالجامعات فى العالم ، هذا بالرغم من حداثة نشأة هذا الفرع من المعرفة وحداثة تدريسه فى الجامعات، كان أول من درس موضوع الثقافة والشخصية بالجامعة هو الأنثروبولوجى الأمريكى « سابير » فى أوائل الثلاثينات .

واليوم ، لم يقتصر ازدهار هذا الفرع من المعرفة على كثرة النظريات والابحاث الخاصة به ، وانما ظهرت المؤلفات التى توضح تاريخه ونظرياتـــه وأبحاثه وطرق البحث الخاصة به ، وقد لاحظت ان المكتبة العربية خالية من كتاب متخصص فى الثقافة والشخصية برغم تدريسها كمادة رئيسية فى كثير من الجامعات العربية ، دفعنى هذا للمساهمة بهذا الجهد المتواضع آملا فى أن يتبعه الكثير من جهود أساتذتى وزملائى حول هذا الموضوع الهام .

يدرس الفصل الأول نشأة الأنثروبولوجيا النفسية وهى أحد فروع الأنثروبولوجيا الثقافية المتخصصة فى دراسة الثقافة والشخصية ، فبدأت بشرح مختصر لموضوع الثقافة والشخصية ثم شرحت الأصول التاريخية له ، وانتقلت بعد ذلك الى عرض مجهودات الرواد الأوائل التى مهدت لظهور الأنثروبولوجيا النفسية بصورة واضحة بفضل مجهودات الأنثروبولوجيا الأمريكية « بينيديكت » .

أما الفصل الثانى فيختص بدراسة عامة عن موضوع الأنثروبولوجيا النفسية وهو العلاقة بين الثقافة والشخصية ، فبينت كيف تؤثر الثقافة فى الشخصية ، وكذلك كيف تؤثر الشخصية فى الثقافة ، ولا يمكن عرض موضوع علم ما دون تحديد مصطلحاته ومفاهيمه الأساسية ، وتبين ان أهم تلك المفاهيم هى الثقافة والشخصية ، وقد رؤى ، زيادة فى الوضوح ، ولانتماء هذين المفهومين لعلمين مختلفين الأنثروبولوجيا الثقافية وعلم النفس، أن يدرسا بشىء من التفصيل .

يعالج الفصل الثالث مفهوم الثقافة بشىء من التفصيل ، فبعد عرض مختصر لبعض تعاريف الثقافة عرضت نظرية « هوايت » فى تفسير الثقافة، وهى نظرية توضح التقارب بين الأنثروبولوجيا الثقافية وعلم النفس لاهتمامهما بموضوع واحد وهو السلوك الانسانى ، وتناولت فى هذا الفصل خصائص وقطاعات الثقافة واخيرا مستوياتها .

أما الفصل الرابع فيختص بمفهوم الشخصية ، فعرضت لأهم تعاريف الشخصية وتناولت بالشرح محددات الشخصية ، مع التركيز على المحددات الثقافية ، وكذلك يحتوى هذا الفصل على فقرات خاصة لسمات الشخصية وكيفية قياسها ، واخيرا اشرت بايجاز شديد لنظريات الشخصية .

ويهتم الفصل الخامس بعرض نظريات الأنثروبولوجيا النفسية ، وهى النظريات التى حاولت تفسير العلاقة بين الثقافة والشخصية ، فعرضت لنظريات الصيغة الكلية وهى نظرية روح الثقافة ونظرية أسلوب النظر الى الحياة ، ونظرية ثنائية سجية الثقافة ، ونظرية الثيمات الرئيسية ، وعرضت كذلك لنظرية البناء الرئيسى للشخصية ونظرية الشخصية المنوالية ونظرية الشخصية القومية .

ويدرس الفصل السادس منهج الأنثروبولوجيا النفسية ، فعرضت لأهم طرق البحث التى يعتمد عليها الباحث فى دراسته لتحديد شخصية جماعة ما او لتحديد العوامل الثقافية المؤثرة فى تلك الشخصية ، فتناولت بالشرح طرق ملاحظة السلوك ودراسة سير الحياة وتفسير الأحلام والرؤى والاختبارات الاسقاطية ودراسة الأدب الشعبى ودراسة الفن وأخيرا

الدراسات الترابطية ، ثم عرضت لنماذج من أبحاث الثقافة والشخصية التي اجريت على المجتمعات البدائية .

أما الفصل السابع والأخير ، فقد اقتصر على دراسة الشخصية المصرية التقليدية ومحدداتها الثقافية ، ولا يمكن اغفال دراسة هذا الموضوع الهام فى كتاب متخصص فى دراسة الثقافة والشخصية ، وفى هذا الفصل عرضت لنظرية الحتمية الجغرافية ونظرية الحتمية الاقتصادية فى تفسير الشخصية القومية ، ثم بينت المشكلات التى تواجه الباحث عند دراسة الشخصية القومية المصرية ، وبعد ذلك انتقلت الى شرح أبعاد الشخصية المصرية التقليدية وعرضت الأدلة والمحددات الثقافية الخاصة بكل بعد ، وتعد تلك الدراسة محاولة لدراسة الشخصية التقليدية المصرية فى اطار المنظور الأنثروبولوجى الثقافى .

وأنتهز هذه الفرصة لأتقدم شكرى الى اساتذتى وزملائى الأفاضل على ما قدموه من توجيهات وملاحظات ، فلسيادتهم جزيل الشكر والامتنان .

والله ولى التوفيق

عاطف وصفى
أستاذ علم الاجتماع
كلية الآداب ــ جامعة القاهرة

القاهرة فى أول يناير ١٩٧٧

الفصل الأول

نشأة الأنثروبولوجيا النفسية

- تمهيد
- الأصول التاريخية
- الرواد الأوائل
- النشأة

الفصل الأول

نشأة الأنثروبولوجيا النفسية

تمهيد :

يتلخص موضوع الأنثروبولوجيا النفسية فى الدراسة العلمية للعلاقة بين الثقافة والشخصية ، وتعد الأنثروبولوجيا النفسية أحد فروع الأنثروبولوجيا الثقافية الذى يجمع بين مفاهيم الأنثروبولوجيا عن الثقافة ومفاهيم علم النفس عن الشخصية ، ولذلك يتطلب هذا الفرع من المعرفة تعاونا وثيقا بين المتخصصين فى الأنثروبولوجيا الثقافية وعلم نفس الشخصية .

عرفت الأنثروبولوجيا النفسية عالميا بعنوان « الثقافة والشخصية »، واخذ ينتشر هذا الاصطلاح ويزداد الاهتمام ببحث موضوعاته بصورة سريعة للغاية بالنسبة لحداثة نشأة هذا الفرع .

تهتم الأنثروبولوجيا الثقافية بدراسة ثقافات الانسان فى المناطق المختلفة فى العالم دون الاهتمام بتأثير الثقافة على شخصيات حامليها ، ويقوم علماء النفس ، وعلى وجه الخصوص الأطباء النفسيون ، بتحليل شخصيات الأفراد المرضى ويركزون اهتمامهم على مظاهر الاختلاف والتفرد فى شخصيات البشر ، ولاتثر الثقافة انتباههم ، وانه فقط فى الفترة الأخيرة ظهر الاهتمام عند بعض الأنثروبولوجيين بدراسة العلاقة بين الثقافة والشخصية ، ووجد هذا الاهتمام تعاونا وتجاوبا من بعض علماء النفس وعلى الخصوص الأطباء والمحللين النفسيين ، واعترف هؤلاء بالثقافة كعامل محدد للشخصية لا يمكن اغفاله عند دراسة الشخصية السوية وغير السوية .

انتشر اصطلاح « الثقافة والشخصية » بصورة سريعة للدلالة على هذا الفرع من المعرفة ، ولكن صاحب هذا الانتشار بعض الاعتراضات التى تنادى بتغييره ، فمثلا يرى العالمان « كلاكهوهن » و « موراى » أن اصطلاح « الثقافة الشخصية » قد يفهم منه تناقض وثنائية مثل التى توجد فى اصطلاح « الروح والمادة » ولذلك يفضلون استخدام اصطلاح « الثقافة فى الشخصية أو الشخصية فى الثقافة » (١) .

---

(١) Kluckhohn, C. and Murray, H. (eds), Personality in Nature, Society and Culture, Alfred A. Knopf, N.Y. 1959, P. 44.

ويفضل العلامة « هسو » استخدام اصطلاح الانثروبولوجيا النفسية بدلا من « الثقافة الشخصية » لأن الاصطلاح الأخير يشير الى الشخصية ككل مستقل عن الثقافة ، في حين هي في الواقع تنمو من خلال تفاعلها مع الثقافة(١) ، ويضيف الكاتب ميزة اخرى لاصطلاح الأنثروبولوجيا النفسية تتمثل في تحديد هوية هذا الفرع من المعرفة على أنه فرع للانثروبولوجيا الثقافية ، ويتفق هذا التحديد مع الحقائق التالية التى تبين ان نشأته قد تمت بفضل مجهودات علماء الانثروبولوجيا الثقافية ، ويوجد اصطلاح ثالث لم يكتب له النجاح ، وهو « الانثوجرافيا النفسية »(٢) برغم انه يمتاز على الاصطلاحين السابقين من ناحية انه يتكون من كلمة واحدة في اللغات الأجنبية ووضوح هويته كفرع للأنثروبولوجيا الثقافية .

يتعاون الأنثروبولوجيون مع علماء النفس في هذا الميدان بصورة واضحة ومن أمثلة ذلك اعتماد الأنثروبولوجيين على المحللين النفسيين في اجراء وتحليل اختبارات الشخصية وفي تفسير الأحلام ، في حين يستعين الأطباء النفسيون بالتقارير الأثنوجرافية للأنثروبولوجيين عند دراستهم للشخصيات السوية والمرضية .

اخذ الاهتمام بموضوع الثقافة والشخصية يتزايد في الوقت الحاضر بعد تركيز الأنثروبولوجيين على دراسة عمليات التغير الثقافي في المجتمعات البدائية والنامية ، وقد أظهرت دراسة عمليات التغير الثقافي أن الفرد في المجتمع ليس مجرد حامل سلبي لثقافة المجتمع ، وانما هو ايضا مخترع لعناصر ثقافية جديدة ، ولديه القدرة على رفض أو قبول اى تجديد في ثقافته ، وهكذا وجد الباحثون أن الفهم الدقيق لظاهرة التكامل الثقافي ولعمليات التغير الثقافي يتطلب الرجوع الى حقائق علم النفس وعلى الخصوص علم نفس الشخصية ، فقد لاحظوا أن حالات رفض أو قبول تغيرات ثقافية في مجتمع ما ترتبط بصورة ما بمدى توافق العنصر أو المركب الثقافي الجديد مع الشخصية العامة لأعضاء المجتمع ، هذا بالاضافة الى ملاحظة ان شخصيات اعضاء المجتمع الواحد تتفق في سمات معينة ، ويرجع ذلك الاتفاق الى معيشتهم في ثقافة واحدة (٣) .

يتضح لنا مما سبق ان الأنثروبولوجيا النفسية هي احد فروع

---

(١) Hsu, F. (ed), Psychological Anthropology: Approaches to Culture and Personality, The Dorsey press, INC., Homewood, ILL 1960.

(٢) Psychoethnography.

(٣) Linton, R., The cultural Background of Personality, Appleton Century Crofts, INC. N.Y. 1945, P. XV.

الأنثروبولوجيا الثقافية المتخصصة في دراسة العلاقة بين الثقافة والشخصية، ولا يعنى هذا التخصص القول بالحتمية الثقافية فى دراسة الشخصية ، أى المنادة بأن الثقافة هى العامل الوحيد المحدد للشخصية وبأن العلاقة بين الثقافة والشخصية ذات اتجاه واحد يتمثل فى أن الثقافة هى التى تؤثر فى الشخصية فى حين لا تؤثر الشخصية فى الثقافة ، اثبتت الأبحاث الميدانيـــة خطأ الحتمية الثقافية ولم يعد يدافع عنها احد فى الوقت الحاضر .

الأصول التاريخية :

ولعل هذا التعريف المختصر للأنثروبولوجيا النفسية يكون كافيا للانتقال الى الموضوع الرئيسى وهو نشأة هذا الفرع للمعرفـــة ، برغم أن نشــأة الأنثروبولوجيا النفسية قد تمت بصورة كاملة فى الثلاثينات ، الا أن الأصول التاريخية عرفت منذ القدم بدرجات متفاوتة من الوضوح ، ويتمثل بعضها فى ملاحظة وجود سمات مشتركة فى شخصيات الأفراد الحاملين لثقافة ما .

فقد لاحظ المؤرخ « هيرودوت »(١) فى القرن الرابع قبل الميلاد الفروق الواضحة بين العادات الاغريقية والعادات الفرعونية ، وفى القرن الأول الميلادى قام المفكر « تاسيتوس » (٢) بمقارنة سلوك القبـــائل الجرمانية الشمالية بأسلوب الحياة فى مدينة روما ، وعندما جاء عصر الاكتشـــافات واكتشفت أمريكا وباقى اجزاء العالم ، بدأ الأوربيون يعرفون الكثير عـــن أساليب معيشة الشعوب الأخرى ، ولاحظوا الاختلافات الشاسعة بين لغات الشعوب الأخرى وثقافاتهم ، وصاحب هذه الفترة اختراع الطباعة وانتشار المعلومات عن الشعوب المختلفة وأقاليمهم ، ومن أمثلة المؤلفـــات التى ساهمت فى توضيح فكرة اختلاف أساليب معيشة الشعوب تقارير حمـــلات التبشير للجزويت وتقارير الفاتحين مثل « كاستيلو » (٣) .

وفى القرن التاسع عشر ، اهتم المفكرون بمقارنة الشعوب المختلفـــة سواء المعاصرة أو القديمة ، وقد ساعد على تنمية وإثارة هـــذا الاهتمـــام اكتشافات الجيولوجيا والآثار وعلم طبقات الأرض ونظرية دارون .

ومع بداية النصف الثانى من القرن التاســـع عشر الميلادى ، كثرت الدراسات الأثنولوجية والتاريخية التى اهتمت بمقارنة الثقافات والفترات الزمنية المختلفة ، وفى نهاية القرن التاسع عشر نشـــأت الأنثروبولوجيـــا

---

(١) Herodotus.
(٢) Tacitus.
(٣) Bernal Diaz del Castillo.

الثقافة بفضل مجهودات العالمين « تايلور » (١) و «مورجان» (٢) ، وأن كان الفضل الأول فى نشأة الأنثروبولوجيا الثقافية يرجع للعلامة البريطانى « تايلور » الا أنه فى مؤلفات بعض المؤرخين وفلاسفة التاريخ ظهرت اللبنات الأولى لموضوع الثقافة الشخصية ، وهم « بوركخارت » و « هايزينجا » و « شبنجلر » ، هذا بالاضافة الى مجهودات الانثروبولجى « مالينوسكى » .

الرواد الأوائل :

درس بوركخارت فى كتابه « مدنية عصر النهضة فى ايطاليا » (٣) ، الذى نشر لأول مرة فى عام ١٨٦٠ ، الثقافة الايطالية فى تلك الفترة ، فتحدث عن الملابس والأعياد وقواعد الايتكيت والعقائد الدينية والعقائد الشخصية وأساليب الفكاهة ، ودرس كذلك الانجازات العظيمة لعصر النهضة ، وقام بمقارنة مدنية عصر النهضة فى ايطاليا بالثقافة الايطالية فى فترة العصور الوسطى ، وتوصل الى نتيجة هامة ، وهى أن مدنية النهضة يسودها الاتجاه الفردى والنزعة للتفرد ، واثبت ذلك عن طريق كثرة وتعدد أنماط الملابس ، والاهتمام بانجازات الأفراد ، وقصص النجاح الفردى ، وانتشار الأساطير حول أماكن ميلاد الرجال المشهورين ، وأماكن قبورهم ، وتقدم فن كتاب سير المشاهير من الرجال ، هذا بالاضافة الى ضعف تطبيق القوانين فى تلك الفترة ، مما يؤيد ظهور الاتجاه الفردى فى صورة التمرد على القوانين، ولا يمكن اغفال حقيقة هامة ، وهى أن الاتجاه الفردى من أهم خصائص الثقافة الغربية ، ولا يزال مسيطرا على الكثير من نظم وأنساق تلك الثقافة، وهذا يبين أهمية تلك الدراسة المبكرة .

أما العلامة هايزينجا فقد درس اتجاه ثقافة العصور الوسطى فى فرنسا وهولندا فى القرن الرابع عشر الميلادى ، وقد تأثر فى دراسته بالمؤرخ بوركخارت ، ولذلك يقارن بين العصور الوسطى وعصر النهضة ، ولكنه يختلف عنه فى عدم دراسة مولد عصر النهضة ، وانما درس فترة انحسار وتداعى ثقافة العصور الوسطى ، واهتم بدراسة الاتجاهات العاطفية السائدة فى تلك الفترة ــ القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادي فى فرنسا وهولندا ــ وحددها بأنها التذبذب الدائم بين اليأس والفرحة وبين القسوة والرقة ، وناقش الآثار العاطفية التى ترتبت على المواكب الدرامية،

---

(١) Tylor, E.

(٢) Morgan, L.

(٣) Burckhardt, J., The Civilization of The Renaissance in Italy, Phaidon Press, Oxford 1945, PP. 82-92.

مثل الجنازات والتعذيب العلنى ومواكب الاعدام العلنى والمواعظ المزخرفة لرجال الدين ، وهكذا كانت تتمثل روح ثقافة العصور الوسطى فى فترة انحسارها فى حالة من تناقض المشاعر تجمع بين القسوة والشفقة ، فبينما كانت حالات المرض والفقر والجنون هى اكثر الحالات التى تدعو للشفقة ، كانت تعامل تلك الحالات — فى الوقت نفسه — بقسوة غير معقولة .

ويستمر « هايزينجا » فى تحليله لروح تلك الثقافة فيقول ان رجال هذا العصر كانوا دائما يتذبذبون بين الخوف من جهنم والفرح الشديد وبين القسوة والرقة وبين الزهد الشديد والتمسك بمباهج الدنيا وبين الحقد والطيبة ، اى أن الاتجاه السائد فى عواطفهم كان الانتقال السريع من النقيض الى النقيض ، وقد توصل « هايزينجا » لتلك النتيجة العامة فيما يتعلق بالسمات المشتركة فى شخصيات حاملى ثقافة العصور الوسطى فى زمان ومكان محددين عن طريق دراسة بعض الأنماط الثقافية مثل القصائد والقوانين والمواعظ الدينية والرسومات والفنون الشعبية وشواهد القبور(١) . ويجب ملاحظة أن العاملين السابقين قد أشارا الى حقيقة هامة وهى تكامل الثقافة وامكانية وجود صيغة كلية للثقافة الواحدة ، ويمتاز هايزينجا على بوركخارت — فيما يتعلق بموضوع الأنثروبولوجيا النفسية — بأنه انتقل صراحة من مجرد وصف ثقافة مجتمع ما الى تحديد السمات المشتركة فى شخصيات الأفراد حاملى تلك الثقافة ، ثم تأكيده أن تلك السمات فى شخصياتهم ترجع الى ثقافتهم ، وهو بذلك يكون قد خطا خطوة كبيرة نحو نشأة الأنثروبولوجيا النفسية .

ومن اهم الرواد الأوائل الفيلسوف الكبير « شبنجلر » ودراسته القيمة فى فلسفة التاريخ عن « انهيار الغرب » ، يشبه شبنجلر الثقافات بالكائنات الحية ، فالثقافة مثل الكائن البيولوجى تولد وتموت ، ومن الواضح أن العلامة ابن خلدون قد سبقه فى ذلك بقرون طويلة ، وقد تعرض هذا الاتجاه البيولوجى فى تفسير تطور الثقافات للنقد الشديد .

كان « شبنجلر » أول من بحث ظاهرة ثقافية هامة وهى « الاستعارة الانتقائية » (٢) للعناصر الثقافية ، فقد شرح كيف تنتقل العناصر الثقافية من مجتمع الى آخر ، وما يطرأ على تلك العناصر من تغيرات لكى تلائم الثقافة

---

(١) Huizinga, J.: The Waning of The Middle Ages, A study of the Forms of Life, Thought and Art in France and the Netherlands in the XIVth Century, Edward Arnold, London 1942, p. 59.

(٢) Selective Borrowing.

الجديدة ، فمثلا انتشار البوذية من الهند الى الصين وما صاحبها من تغيرات في المجتمع الجديد . ويرى شبنجلر ان الأساليب التى يطبقها مجتمع ما فى تعديل وتغيير العناصر الثقافية المستعارة من مجتمع آخر تعكس الاتجاهات والقيم السائدة فى ثقافة ذلك المجتمع ، ولا تقتصر تلك الأساليب على تعديل العناصر الثقافية المستعارة وانما تشمل كذلك عمليات رفض بعض العناصر المستعارة ، ويفهم من تحليلات شبنجلر ان « اسلوب النظر الى الحياة » (١) السائد فى ثقافة ما هو المسئول عن عمليات التغيير والرفض التى تجريهـا تلك الثقافة على العناصر الثقافية المستعارة من ثقافة اخرى . وفى مقارنة بين الثقافة الاغريقية والثقافة الفرعونية توصل « شبنجلر » الى تحديـد اختلاف واضح فى « اسلوب النظر الى الحياة » فى الثقافتين قيد البحث ، فبينما يتعمق المصريون القدماء فى مفهوم الزمن — ولذلك يسيطر اهتمامهم بالزمن على الكثير من عناصر وانساق الثقافة الفرعونية — نجد أن الاغريق ينظرون الى الزمن نظرة سطحية ، ولذلك لا يؤثر هذا المفهوم على معظم عناصر وانساق الثقافة الاغريقية ، حقا عرف الاغريق « نظام التسلسـل الزمنى » واستعاروه من الثقافة البابلية والثقافة الفرعونية ، ولكن فقد هذا النظام الكثير من أهميته وثقله الثقافى فى الثقافة الجديدة التى نقل اليها ، فبالرغم من وجود مؤرخين اغريقيين مثل « هيرودوت » و «توثيديدس» (٢) الا أن الأخير ادعى عدم وجود اى أحداث تاريخية هامة قبل عصره ممـا يؤيد عدم عمق مفهوم الزمن فى الفكر الاغريقى ، وتختلف الصورة تماما فى الثقافة الفرعونية حيث نجد أن الاهتمام بالزمان يسود الكثير من مركبات وانساق تلك الثقافة ، ومن امثلة ذلك استخدام سجلات محفورة على حجر الجرانيت ، وتطبيق نظم ادارية متطورة فى مشروعات الرى ، وما تتضمنه من تنظيم زمنى لفترات الفيضانات والتحاريق ، وبناء الأهرام كرمز للخلود واستمرار الزمان ، والاهتمام بالسجلات القديمة وحفظها ، واختراع فن التحنيط لحفظ الموت عبر القرون . وهكذا يعتبر « شبنجلـر » الثقافـة الفرعونية ثقافـة « تاريخيـة » فى حين أن الثقافـة الاغريقيـة ثقافـة « لا تاريخية » (٣) ولا ادل على ذلك من حرق الاغريق لجثث موتاهم (٤) .

وينتقل « شبنجلر » بعد ذلك الى تحليل الثقافة الغربية الحديثة ، ويحدد تاريخ ميلادها بالقرن العاشر الميلادى ، ومكان ميلادها بأوربا الغربيـة ،

---

(١) World View.

(٢) Thucydides.

(٣) Ahistorical.

(٤) Spengler, O., The Decline of The West, Trans. C.F. Atkinson, Knopf N.Y. 1959, vol.II, pp. 40-65.

ويطلق عليها اصطلاح ثقافة « الرجل الفاوستى » (١) ويحرك الشخصية الفاوستية شعور عميق بالانا واستبطان قوى للانا ، وتتميز بالاهتمام بالذكريات والتأملات الشخصية ، وتجمع كذلك بين الاهتمام بالماضى والتخطيط للمستقبل .

وبالاضافة الى تحليله لشخصية حاملى الثقافة الغربية ، كما رمز لهـا بالرجل الفاوستى ، حدد شبنجلر الكثير من خصائص الثقافة الغربية الحديثة ، وقارنها بخصائص الثقافات الانسانية الكبرى ، فقد لاحظ ان الثقافة الغربية تشبه الثقافة الفرعونية فى اهتمامها بالزمن ، فهى تهتم بالماضى وتخطط للمستقبل ، ولا أدل على ذلك من انتشار ساعات الحائط وساعات الأبراج فى كل مكان ، ولكن تتميز الثقافة الغربية بخاصية فريدة لا تشاركها فيها الثقافة الفرعونية وهى الاهتمام كذلك بمفهوم المكان ، ويرى أن الآلات الموسيقية الغربية هى تعبير عن الرغبة فى شغل المكان اللانهائى بالصوت ، ويسمى الأرغن «بالمارد المسيطر على المكان » ، ويحلل «شبنجلر» رياضيات الثقافة الغربية ، ويرى انها تعبر عن « الميل الفاوستى » (٢) أى الميل نحو التأمل والتصور والتخطيط للمستقبل ، ويتضح ذلك فى نظام الاعداد ، وما تحتويه من كسور عشرية وأعداد سالبة ضخمة جدا معقولة ، ولم يكن فى الامكان التوصل لمثل ذلك النظام العددى عن طريق روح الثقافة الاغريقية ، ولذلك لم يعرف الرياضى التقليدى (الكلاسيكى) سوى ما يمكن ان يراه أو يمسكه ولم ينتقل الى عالم التجريدات الا عن طريق الثقافة الغربية .

قارن شبنجلر بين الثقافة التقليدية التى وجدت فى الغرب قبل عصر النهضة والثقافة الفاوسية الحديثة التى صاحبت عصر النهضة ، وتوصل الى تحديد اختلافات واضحة فى الصيغ الكلية للثقافتين ، فمثلا ، الفرق بين فن التراجيديا الاغريقية التى تؤكد دراما الموقف وتراجيديات شكسبير التى تؤكد دراما الشخصية ، فان «لير» (٣) و «أوتيللو» (٤) يمثلان شخصيتين من نوع خاص ، اذ تحللان بعمق السمات الشخصية فى الانسان ، وتخلو التراجيديا الاغريقية من مثل تلك التحليلات لسمات الشخصية .

ويلاحظ «شبنجلر» أن رسومات زخارف أوانى الزهور فى الثقافة التقليدية لا تهتم بعامل الزمن ، فان تلك الرسومات لم تبين فترات النهار ،

---

(١) Feustian Man.

(٢) Faustian Tendency.

(٣) Lear.

(٤) Othello.

اى لم تبين ماذا كانت تلك الرسومات تعبر عن الصباح او الظهر او العصر او المغرب ، وذلك لخلوها من الظلال التى تشير لموقع الشمس ، ولخلوها كذلك من النجوم والسحب ، ويختلف الوضع تماما فى الثقافة الغربيـة الحديثة ، التى تهتم بعامل الزمن ، وتسد اوجه النقص سابقة الذكر . ويستمر « شبنجلر » فى توضيح اهمية تأكيد عامل الزمن فى الثقافةالحديثة عن طريق تحليله لفن الرسم والنحت، فقدكانت التماثيل الاغريقية والرومانية تماثيل عارية بدون ملابس وبدون روح وبدون شخصية ، ولذلك كانتوجوه التماثيل متشابهة تماما ، فقد كان التعبير يتركز على توضيح التناسقوالجمال فى الجسم البشرى ككل ، ولا تعبر عن شخصية معينة بالذات ، وتختلف التماثيل والرسومات فى الثقافة الفاوستية عن ذلك تماما ، فأصبحت التماثيل والرسومات معبرة عن شخصيات معينة ، ومبرزة للسمات الشخصية فى الوجه والجسم ، ويبرهن « شبنجلر » على ذلك باهتمام الثقافة بدافـع «العذراء والطفل» (١) فى اعمالهم ، ويعبر ذلك الدافع عن اهتمام الرجـل الفاوستى بالأحداث المستقبلة بالملامح الشخصية (٢) .

ويتابع « سبنجلر » تحليله المقارن لعناصر مركبات الثقافتين ليصل الي الاختلافات الجوهرية فى الصيغ الكلية ، ومن اهم تلك التحليلات دراسته لأنماط اللغة فى العصرين ، وقد لاحظ أن الكلمة اللاتينية الواحدة التى معناها باللغة العربية « أنا أكون » (٣) قد استبدلت فى الثقافة الفاوستية أو الغربية الحديثة بكلمتين . وبالتالى ظهرت فى لغات تلك الفترة كلمة خاصة تعبر عن الأنا ، وهذا واضح فى اللغة الانجليزية واللغة الفرنسية واللغة الألمانية ، (٤) ويؤكد هذا التطور الطابع الشخصى فى الثقافة الغربيـة الحديثة .

ومن خصائص الثقافة الفاوستية كذلك الشعور بالعمق وباللانهائية ، ويتضح ذلك عند مقارنة نظام الكاتدرائيات الجوطية والضخمة بالمعبـد الافريقى المسطح المنخفض ، هذا بالاضافة الى اهتمام الرجل الفاوستى بالتمتع بالمناظر الطبيعية الجميلة الشاسعة والمترامية الأطراف ، ويستدل على ذلك من تقدم فن الحدائق فى الثقافة الحديثة ، واهتمام الانسانالغربى الحديث بتسلق قمم الجبال للتمتع بمشاهدة المناظر الطبيعية الشاسعة ؛

---

(١) Madonna-and-child.

(٢) Ibid., pp. 136-267.

(٣) Sum.

(٤) I am - je suis - Ich bin.

وترتب على ذلك الاهتمام بغزو المكان فكانت الاكتشافات الجغرافية التى تميز الثقافة الغربية الحديثة .

وهكذا قدم «شبنجلر» فى فلسفته التاريخية وتحليله القيم للثقافة الغربية اسهامات عظيمة للانثروبولوجيا النفسية فقد قدم مبدأ «الصيغة الكلية » (١) فى الثقافة ، ويقصد به تكامل الثقافة حول مجموعة من القيم والاتجاهات . هذا بالاضافة الى اهتمامه بمبدأ « الاستعارة الثقافية الانتقائية » ، ولكن قرر «شبنجلر» أن التكامل الثقافى والصيغة الكلية لا يوجدان الا فى المدنيات والثقافات المعقدة الكبرى ، وأنكر وجودهما فى الثقافات البدائية والبسيطة ، ويرجع ذلك الخطأ الى عدم المامه بالثقافات البدائية .

واذا انتقلنا من دراسات فلسفة التاريخ العامة الى الدراسات الاثنوجرافية الخاصة ، نجد أن دراسات العلامة « مالينوسكى » عن سكان جزر « التروبرياند » من أهم الدراسات الميدانية التى مهدت لظهور الانثروبولوجيا النفسية ، وهى أول دراسة انثروبولوجية تشير الى أهمية مرحلة الطفولة فى تكوين الشخصية . من المعروف أن مدرسة التحليل النفسى ، وعلى رأسها فرويد تهتم بدراسة أثر تلك المرحلة ، من مراحل نمو الانسان ، فى تكوين شخصيته ، تعارض دراسةالأنثروبولوجى مالينوسكى بعض تفاصيل نظرية التحليل النفسى ، وان كانت تتفق معها فى أهمية هذه المرحلة فى تكوين الشخصية . درس «مالينوسكى » هذا الموضوع فى كتابه « الجنس والكبت فى مجتمع متوحش» (٢) الذى نشر لأول فى عام١٩٢٧، وقد سبق له ان نشر الجزء الأول من هذا الكتاب فى مقالين فى عام ١٩٢٤ بعنوان التحليل النفسى والأنثروبولوجيا (٣) ، وعارض فيهما بشدة نظرية التحليل النفسى فى تصورها كيفية تاثير مرحلة الطفولة على الشخصية ، وفى العام التالى (١٩٢٥) نشر المحلل النفسى « جونس » مقاله بالمجلة الدولية للتحليل النفسى يرد فيها على اعتراض مالينوسكى ويدافع عن نظرية التحليل النفسى ، وقد رد « مالينوسكى » فى النصف الثانى من كتابه على «جونس» وغيره من اتباع مذهب فرويد ، ولنتناول الآن فى ايجاز هذا النقاش العلمى .

---

(١) Configuration.

(٢) Malinowski, B., Sex and Repression in Savage Society, Routledge and Kegan Paul, London 1953.

(٣) Malinowski, B., Psychoanalysis and Anthropology, Psyche, Vol. IV (April, 1924), pp. 293-332

يدور تصور مدرسة التحليل النفسى لعملية تاثير مرحلة الطفولة على الشخصية حول عقدة أوديب ، فحص « مالينوسكى » هذه النظرية فى ضوء دراسته الانثوجرافية لسكان جزر تروبوياند (١) ، وبدأ دراسته بوضـــــع السؤال التالى : « هل ننظر الى « عقدة أوديب » كما حددها فرويد على انها ظاهرة انسانية عالمية توجد فى كل الثقافات أو على أنها من نتاج شكل معين لنظم الأسرة ؟ من الواضح أن «فرويد» تصور عقدة أوديب كظاهرة عالمية وخاصية أساسية للحياة البشرية ، لأنه أرجع جذورها للبيولوجيا ولعمليات التنشئة الاجتماعية ، فعندما يرضع الطفل من صدر امه لا يستقبل فقط الغذاء ، وانما يستقبل كذلك أول احساساته الشبقية ، فتتمركز تلك الاحساسات حول الفم ، والفم هو أول واسطة يستخدمهـــا الطفـــل فـــى اتصالاته مع العالم الخارجي ، وبعد فترة متأخرة من نمو الطفل ترتبـــط المشاعر الشبقية بمنطقة الشرج ، واخيرا ترتبط بالأعضاء التناسلية ، وتصبح الأم عن طريق عملية الرضاعة أول شخص أو شيء يحبه الطفل ، فى حين يستمر الوضع كذلك بالنسبة للولد الصغير تحول الفتاة حبها نحـــو الأب ، ويرى فرويـــد أن الانسان الحديث يتأثـــر فى سلوكـــه بروايـــة «سوفوكليس» (٢) الشهيرة ، وهى الرواية التى تمثل وجود رغبة ممنوعـــة عند الابن وهى رغبته فى قتل ابيه والزواج من امه ، ويرى « فرويد » أن تلك الرغبة تظل مكبوتة فى نفس الابن ، ولكنها بالرغم من ذلـــك تبقى فى اللاشعور عند كل انسان ، وتظهر بقوة عند العصابيين والذهانيين الذين يخفقون فى حل « عقدة أوديب » بنجاح الى هنا ينتهى رأى العلامة فرويد وأتباعه من أصحاب مدرسة التحليـــل النفسى ، ولكن مالينوسكى يتساءل هل حقا « عقدة أوديب » حقيقة انسانية عالمية ؟ وهل يمكن لتلك العقدة أن تظهر فى مجتمع يطبق نظام القرابة الأمى (٣) ؟ ، وخاصـــــة أن دور الأب فى مثل هذا المجتمع يختلف تماما عن دوره فى المجتمع الغربى الذى ناخذ بنظام القرابة الأبوى (٤) ، وهو المجتمع الذى استقى منه « فرويـــد » نظرية عقدة أوديب . لكى يجيب مالينوسكى عن السؤال السابق قدم وصفا كاملا لخصائص الأسرة فى قبائل تروبرياند ، وهى تتبع نظام القرابة الأمى ، ويقع هذا الوصف فى النصف الأول من كتابه سابق الذكر ، يسير

---

(١) Trobriand Islanders.

(٢) Sophocles : Oedipus Rex.

(٣) Matrilineal Descent.

(٤) Patrilineal Descent.

التسلسل القرابى فى مجتمع تروبرياند فى خط الاناث ، ولذلك يصبح المولود عضوا فى عشيرة الأم ، ولا يرتبط بأية علاقة قرابة مع عشيرة الاب ، أما نظام السكنى فهو السكنى مع والد الزوج (١) ، اذ تعيش الزوجة فى عشيرة الزوج ، وتطبق القبيلة نظام وحدانية الزوجة فيما عدا الزعماء الذين يتزوجون عده زوجات ، ولا يعتقد التروبرياندبون فى وجود علاقة بين الاتصال الجنسى والحمل ، وانما يعتقدون أن الطفل يوضع فى رحم الأم عن طريق احــدى قريباتها من الموتى ، وهكذا لا يعد الأب شريكا للأم فى الانجاب ، بالتالى ينظر للطفل على انه من صنع الأم فقط ويرتبط بأسرتها فى خط الاناث ، ولايرث الابن شيئا من ابيه وانما يرث خاله ، وينظر الطفل الى خاله على انـــه صاحب السلطة الرئيسية فى الأسرة ، وذلك لأنه العائل للأسرة ، اذ يعطى الرجل منتجات حديقته لأخته ، برغم انه عادة يقطن فى قرية اخرى ، وأحيانا تكون تلك القرية على بعد ستة أو ثمانية أميال عن مسكن أخته ، والخال هو المربى والمؤدب للأطفال ، ولا يقوم الأب بتلك الوظيفة التربوية ، ولكن قد يتساءل القارىء كيف يقوم الخال بتلك الوظيفة التربوية واخته تعيـــش مع أطفالها فى عشيرة الأب ، وذلك لأن نظام السكنى هو نظام السكنى مع والد الزوج لا تتلخص اجابة هذا السؤال فى واقعة ان الطفل عندما يبلـــغ السابعة من عمره يذهب الى قرية خاله ويعيش فيها ويتعلم منه فنون الزراعة وتقاليد عشيرته . وهكذا يتلخص الوضع الاقتصادى ونظام لسلطة فى ان الخال هو عائل الأسرة وهو الرئيس الشرعى للاسرة ــ تليه فى المركـــز أخته التى تتمتع بمركز ولها ممتلكاتها الخاصة ، ولا يحدث ان يشاهـــد الأطفال أمهم وهى فى حالة خضوع لزوجها . والغريب فى الأمر انه بالرغم من هذه الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية فان الاب يعيش فى قريتـــــه ويمتلك البيت الذى يعيش فيه ، ولا يهمل الأب أطفاله بالرغم من تلـــك الظروف ، بل انه يهتم بهم ويلعب معهم ، وخاصة قبل ذهابهم لعشيرة خالهم ويعطيهم من الوقت اكبر مما يعطيه الأب الغربى لأطفاله .

ينمو الأطفال فى هذا المجتمع متمتعين بحرية كبيرة فى جميع المجالات بما فى ذلك مجال الجنس ، اذ يؤدى الأطفال العابا جنسية بصورة علنيـــة ، يقلدون فيها الاتصال الجنسى عند الكبار ، وتقابل تلك الالعاب بتسامح الكبار وتبادل الضحكات ، ولكن تسود الحرية الجنسية فى فترة الطفولة والبلوغ فقط وتتوقف بعد الزواج، ولا يحد تلك الحرية الا نظام المحارم الذى يمنع العلاقات الجنسية بين الاخوة وبين الأصول والفروع ، ويلاحظ انـــه يوجد تباعد اجتماعى بين الأخ واخته عند اقتراب مرحلة البلوغ وما بعدها،

---

(١) Patrilocal System.

ولدرجة اقل يطبق هذا التابو على الأولاد والبنات المنتمين لعشيرة واحدة ، وخلال مرحلة المراهقة يعيش الأولاد فى بيوت العزاب وهى أكواخ يقيمونها فى الغابة بعيدا عن القرى السكنية ، وهناك يمارس الأولاد العلاقات الجنسية مع بنات العشائر الأخرى ، وعندما يعيش الولد فى بيت العزاب يستمر فى تناول طعامه عند والده او عند خاله اذا كان قد انتقل للمعيشة فى قرية خاله ، وذلك لأنه عند البلوغ او قبل ذلك يترك قرية والده ويعيش مع خاله فى قريته ، وهناك يرتبط الولد بعشيرة امه وينتمى اليها وفيها يرث ممتلكاته . وبعد سنوات قليلة من الانغماس فى اتصالات جنسية متعددة يختار الولد احدى الفتيات ويتزوجها ، ويحضر عروسه الى بيت والده فى الفترة التى يبنى فيها كوخا مستقلا لنفسه ، وهكذا يعيش العروسان فترة شهر العسل فى بيت والد العريس ، وبعد الزواج تختفى الاباحية الجنسية ويحل محلها نظام صارم يشجع على انتشار تجاه الاخلاص فى العلاقات بين الزوجين ، ويجعل من الخيانة الزوجية أمرا نادرا الحدوث ، بل انه من المحرمات تبادل نظرات الحب أو الضحكات أو تماسك الأيدى بين الأزواج بصورة علنية . ويرى « مالينوسكى » أن هؤلاء القوم يعيشون فى سعادة وهناء ، ويسود الوفاق بين الأزواج ، ولا يوجد بينهم حالات من الأمراض النفسية أو الذهانية أو حالات الجنسية المثلية ، ولذلك لم يقابل اثناء فترة اقامته الطويلة بجزر تروبرياند اى فرد مصاب بالهستريا او اللوازم العصبية أو الأفعال القهرية والأفكار المتطرفة . بعد ذلك العرض لبعض جوانب ثقافة التروباند نرجع الى الموضوع الأساسى ويتمثل فى السؤال التالى : ما هو وضع « عقدة أوديب » فى هذا المجتمع ؟ وهل يوجد اى دليل على وجود رغبات شبقية مكبوتة نحو الأم ؟

لم يجد مالينوسكى اى دليل يؤيد وجود مثل تلك الرغبات فى تلك القبيلة ، وحاول أن يجمع بعض الأحلام بغرض تفسيرها ، ولكنه فوجىء بأن الأحلام من الأمور النادرة عندهم ، وهنا يؤيد « مالينوسكى » « فرويد » فى قوله ان الأحلام تقوم بوظيفة تخفيف التوترات المكبوتة ، وبالتالى تدل ظاهرة ندرة الأحلام فى تلك القبيلة على أعضائها يتمتعون بشخصيات سوية ، وبرغم ذلك نجح « مالينوسكى » فى جمع عدد قليل من الأحلام الجنسية ولاحظ انها خالية من اى رمز يدل على وجود رغبة مكبوتة للاتصال بالأم ، وعندما سأل بعض الأشخاص ما اذا كانوا قد حلموا بممارسة اى علاقة جنسية مع الأم ، قوبل سؤاله بالاستنكار الشديد ، وأجابوا بالنفى ، ولكنهم أعترفوا بوجود بعض أحلام تشمل علاقات جنسية مع الأخوات ، ولم يستطع «مالينوسكى » اكتشاف وقوع حالة اتصال واحدة بين الأصول والفروع ، ولكنه اكتشف حالات نادرة عن اتصالات بين بعض الأولاد وأخواتهم ، وعند تحليله القصص الشعبية والأساطير لم يعثر على اى اثر لعقدة أوديب ،

ولكنه لاحظ أن نظام المحارم بين الأخ والأخت يعد موضوعا رئيسيا فـــى الأساطير الشعبية . ينتهى « مالينوسكى » من تحليلاته السابقة الى نتيجة هامة وهى عدم وجود رغبات شبقية مكبوتة نحو الأم فى تلك القبيـــلة . وينتقل بعد ذلك الى جانب آخر من عقدة أوديب ، فيتساءل : هل توجـــد اتجاهات عدائية نحو الاب فى تلك القبيلة ؟ لم يعثر « مالينوسكى » فى مذكراته الميدانية على أدلة تؤيد وجود مثل تلك الاتجاهات ، وانما عثر على أدلـــة تؤكد أن الأبناء يحملون مشاعر طيبة نحو آبائهم ، ولكنه لاحظ ظاهرة هامة وهى أن الأبناء يظهرون ، فى بعض الأحيان ، مشاعر عدوانية نحو أخوالهم. ومن أهم ما استرعى انتباه مالينوسكى ندرة حدوث جريمة القتل فى تلك القبيلة ، لم يعثر على أية حالة من حالات قتل الأم أو الأب أو الخال أو الأقارب بصورة عامة .

أن النتيجة النهائية التى وصل اليها مالينوسكى هى عدم وجود عقدة أوديب ، كما وصفها فرويد ، فى مجتمع تروبرياند ، وبالتالى لا يجب أن نفترض الوجود العالمى لعقدة أوديب ، وقد شرح تلك النتيجة بقوله :

« فى مجتمع تروبرياند لا يوجد أى عداء بين الابن وأبيه ، وتسمح الأنماط الثقافية بوجود مشاعر تعلق الطفل بأمه وشوقه اليها ، وتنمو تلك المشاعر بصورة طبيعية تلقائية ، ويشعر الابن بالكراهية لخاله ، ويتمثل الاتجاه الجنسى المكبوت الخاص بنظام المحارم فى الاتصال بالأخت ، وهكذا نلاحظ انه فى حين تؤكد عقدة أوديب وجود رغبة مكبوتة عند الابن لقتل الأب للزواج من الأم نجد أن ثقافة التروبرياند التى بنظام التسلسل القرابى الأمى تتضمن رغبة مكبوتة تتمثل فى الزواج من الأخت وقتل الخال » (١) .

ويعتقد « مالينوفسكى » فى انتشار عقدة الخال فى المجتمعات ذات التسلسل القرابى الأمى ، وذلك لكثرة الأساطير الخاصة بالزنى المحـرم بين الأخ والأخت فى تلك المجتمعات وخاصة فى مجتمعات الباسيفيك التى تنتشر فيها كذلك بعض القصص التى تعبر عن مشاعر العداء بين الرجل وخالـــه .

واذا انتقلنا الى النصف الثانى من كتاب الجنس والكبت فى مجتمـــع متوحش نجد تغيرا واضحا قد طرأ على افكار مالينوسكى ، هذا بالرغم من استمراره فى نقد بعض جوانب نظرية فرويد . عندما نشر « مالينوسكى» تحليلاته السابقة لأول مرة تصدى له احد اتباع فرويد وهو العـــلامـــة

---

(١) Ibid., p. 8.

«جونز» (١)« الذى أصر على وجود عقدة أوديب فى مجتمع تروبرياند فالأب مكروه فى هذا المجتمع ، ويستدل على وجود تلك الكراهية من انكارالتروبرياند لدور الأب فى عملية الانجاب ، فالأب عندهم لا يشارك فى انجاب الأطفال لرفضهم العلاقة بين الاتصال الجنسى والحمل ، اذ يعتقد اعضاء تلك القبيلة ان الطفل يوضع فى رحم الأم عن طريق احدى القريبات الموتى ، وهكذا يرى «جونز» أن عدم اعتراف أعضاء تلك القبيلة بدور الأب فى الانجاب يدل على وجود اتجاه كراهية نحوه ، وقد حدث فى تلك القبيلة ان انحرف او تحول هذا الاتجاه نحو الخال ، فأصبحت المشاعر العدائية متجهة نحو الخال ، ولكنها فى الحقيقة أو فى الأصل خاصة بالأب . وافق «مالينوسكى» فى النصف الثانى من كتابه « الجنس والكبت » «على رأى» جونز « وتفسيره كيفية تحول كراهية الأب الى كراهية الخال ، وهذا يعد تغييرا هاما فى رأى «مالينوسكى» ، وذلك لأنه فى النصف الأول من كتابه رفض تماما وجود عقدة أوديب فى مجتمع التروبرياند ، بل انه رفض تفسير فرويد لوجود اتجاه كراهية الأب فى الثقافة الغربية ، فبينما يرجع «فرويد» تلك الكراهية الى التنافس الجنسى بين الأب والابن ، فان مالينوسكى يرجع تلك الكراهية الى الدور التسلطى الذى يتمتع به الأب فى الثقافة الغربية وفى الثقافات التى تأخذ بنظام التسلسل القرابى الأبوى ، ولذلك فهو فى النصف الأول من كتابه يفسر اتجاه كراهية الخال فى مجتمع التروبرياند بارجاعه للدور السلطى الذى يلعبه الخال نحو أبناء أخته . وهكذا فان مالينوسكى يرفض التنافس الجنسى فى تفسير الاتجاهات العدائية نحو الأب أو نحو الخال .

ان كتاب «الجنس والكبت فى مجتمع متوحش » له أهمية وقيمة علمية مرتفعة ، فهو أول دراسة أنثروبولوجية تختص بفحص النظرية الفرويدية فى مجتمع بدائى غير غربى . وقد سلط هذا البحث الأضواء على حقيقة هامة وهى أن الجنس يمكن أن ينظر اليه ويعبر عنه بصور مختلفة فى الثقافات المختلفة ، فهو ليس ظاهرة بيولوجية عالمية ، وانما ظاهرة متغيرة تخضع لثقافة المجتمع .

ولا يمكن اغفال الأهمية الكبرى لهذا البحث ، ولكن لا تصل تلك الأهمية الى اعتباره ممثلا لنشأة الأنثروبولوجيا النفسية ، حقا لقد قدم هذا البحث المنهج الميدانى الذى افتقدناه فى أعمال الرواد الأوائل السابقين ، ولكن البحث لم يقدم لنا تحليلا لأثر ثقافة التروبرياند فى شخصيات حاملى

---

(١) Jones, E., Mother-Right and The Sexual Ignorance of Savages, International Journal of Psycho-Analysis, Vol. IV, Part 2, 1925, pp. 109-130.

تلك الثقافة ، ولم يهتم بتحليل سمات تلك الشخصيات وتحديد دور الثقافة فى وجود بعضها ، وانما اقتصر على تطبيق نظرية فرويد وخاصة عقـدة أوديب فى هذا المجتمع ، وركز كل اهتمامه على اثبات عدم وجودها ، ثـم عاد فى النصف الثانى من كتابه وغير رايه واعترف بوجودها بصورة معدلة ، ومع ذلك ، قام هذا البحث بدور فعال فى التمهيد المباشر لنشأة الأنثروبولوجيا النفسية بصورتها الكاملة الناضجة عند الأنثروبولوجية الأمريكية « روث بينيديكت » .

النشـــــأة :

تجمع دراسة بينيكت « نماذج من الثقافة » (١) بوضوح تـام بيـن موضوع الأنثروبولوجيا النفسية وبين طرق البحث العلمى التى يجب تطبيقها فى دراسة العلاقة بين الثقافة والشخصية ، ولذلك يرى الكاتب أن هـــذه العالمة هى مؤسسة الأنثروبولوجيا النفسية ، وهى التى وضعت هــذا الفرع من المعرفة فى مكانه المناسب كفرع للأنثروبولوجيا الثقافية .

تقول الأنثروبولوجية « مرجريت ميد » :

«يعد كتاب «بينيديكت» نماذج من الثقافة واحدا من أعظم الكتب التى ظهرت فى الربع الثانى من القرن العشرين فى العالم » (٢) .

ويقول العلامة « جورير » :

« يجب على أن اختار عام ١٨٩٥ الذى نشر فيه العالمان « فرويد » و « بروير » كتابهما « دراسة عن الهستريا » على أنه تاريخ ميلاد علـــم نفس الفرد ، وعام ١٩٣٤ الذى نشرت فيه العلامة « بينيديكت » كتابهـــا « نماذج من الثقافة » على أن تاريخ ميلاد الدراســـة العلميــة للشخصية القومية » (٣) .

ويتكون كتاب « نماذج من الثقافة » من مجموعة من المقالات التى نشرتها العلامة « بينيديكيت » من قبل ، مضافا اليها وصف وتحليل ثـــلاث

---

(١) Benedict, R., Patterns of Culture, Penguin Books, N.Y. 1946.

(٢) Mead, M., Ruth Fulton Benedict, American Anthropoogist, Sepember, 1949, p. 460.

(٣) Gorer, F., The concept of National character, in Kluckhohn, Murray and Shneider (eds) Personality in Naure, society and Culture, Alfred A. Knopf, N.Y. 1953, p. 247.

مجموعات من ثقافات قبائل الهنود الحمر ، وهى قبائل بيبلو (١) و«دوبو» (٢) و «كواكيوتل» (٣) .

لاحظت العلامة «بينديكت» أن ثقافات تلك القبائل قد طبعت شخصيات حامليها بسمات معينة ، واستخدمت فى مقارنتها بين تلك الثقافات وتأثيراتها فى الشخصية مفهومين هما « الأسلـــوب الديونيزيانى » (٤) والأســلوب « الأبوللونيانى » (٥) ، وكان الفيلسوف «نيتشه» (٦) قــد استخدم هذين المفهومين فى دراسته للتراجيديا الاغريقية ، فقد لاحظ وجود أسلوبين متناقضين للوصول الى قيم الوجود ، أطلق على الأسلوب الأول اصطلاح الأسلوب الديونيزيانى ، والشخصية التى تتبع ذلك الأسلوب تصل الــى أكثر اللحظات قيمة فى الوجود عن طريق الغاء الحدود العادية للوجود ، والغاء القيــود المفروضة عليها من خلال الحواس الخمس ، وتهدف هذه الشخصية الــى تحطيم تلك القيود والدخول فى تجارب ذاتية جديدة تتصف بشحنات انفعالية عالية ومتطرفة مثل ما يحدث فى حالات السكر والانفعــالات الشديــدة والعنف .

أما الأسلوب الأبوللونيانى ، فان الشخصية التى تتبعه لا تثق فــى الأفعال السابقة ، لتحقيق قيم الوجود ، وانما تبعد عن حالات العنف والافراط ، وتحافظ دائما على البقاء فى حالة انفعالية متوسطة ، تحتفظ فيها بالوعى وادراك الواقع المحيط ، وحتى فى حالات الرقص فان تلك الشخصيــة تحتفظ بوعيها ولا تفقده عن طريق السكر ، أى هى شخصية متزنة من الناحية الانفعالية ولا تدخل فى تجارب نفسية عميقة ممزقة ، شخصية تتمسك بأن خير الأمور الوسط . لاحظت العلامة «بينيديكت» أن اتجاهات معظم قبائل الهنود الحمر نحو الحياة تقترب من الأسلوب الديونيزيانى ، اذ يعطى الهنود الحمر قيمة كبيرة للخبرات العنيفة والحالات الانفعالية المتطرفة ولكل الوسائل التى يستطيع الانسان طريقها تحطيم الروتين الحسى العادى — ومن أمثلة تلك الوسائل الصيام وتعذيب الذات وتعاطى المخدرات فى احتفالات معينة وادمان الخمور ، ويستخدمون تلك الوسائل كطقوس دينية تصل بالانسان لحالة من فقدان الوعى ، وبالرغم من انتشار تلك الاتجاهات فى معظم

---

(١) Pueblo.

(٢) Dobu.

(٣) Kwakiutl.

(٤) Dionysian.

(٥) Appollonian.

(٦) Nitzche.

قبائل الهنود الحمر ، فان العلامة « بينيديكت» لاحظت أن أعضاء قبائل بيبلو ، ومن فروعها قبيلة هوبى وقبيلة زونى ، يرفضون ذلك الأسلوب فى الحياة ولا يتعاطون المخدرات والخمور والسموم برغم انتشارها فى القبائل المحيطة بهم ، وتبرهن على عدم وجود الاتجاه الديونيزيانى فى قبيلة بيبلو عن طريق عرض الكثير من الأدلة ، فمثلا عدم وجود رقصة الشبح وما يصاحبها من حالات الاغماء الشامانية ، وعدم طقوس تعذيب الذات ، وعدم وجود عادات التفاخر والتباهى والمنافسة على الشهرة ، وخلو ثقافة بيبلو من العقوبات القاسية على اقتراف جريمة الزنى ومن حالات الحزن المسعورة فى الجنازات ، ومن حالات اللجوء للانتحار كوسيلة للهرب من مواجهة المشاكل الواقعية ، ومن المغالاة فى الشعور بالذنب ، وبرغم وجود طقس الضرب بالكرباج ، فى احتفالات بلوغ الرشد ، فانه يمارس بلطف وبصورة رمزية لا تسيل الدماء أو تترك أثرا على الجسم ، لذلك تقرر « بينيديكت » أن ثقافة بيبلو ثقافة أبوللونيانية وغير ديونيزيانية فأعضاء تلك القبيلة قوم معتدلون فى تصرفاتهم ، لا يشربون ولا يستخدمون الضرب بالكرباج فى تربية أطفالهم ، ولا يبحث هؤلاء الأعضاء عن الوظائف ولا يلهثون وراءها وانما يطلب منهم القيام بها (١) . اعتمدت « بينيديكيت » فى دراستها لثقافة قبيلة كواكيوتل على المادة الوفيرة التى جمعها الأنثروبولوجى الشهير «بواز» (٢) عن ثقافات الهنود الحمر فى الساحل الشمالى الغربى ، وقد استغرق فى جمعها مدة طويلة تصل الى أربعين عاما . وقد توصل « بواز » الى وضع المفهوم الأنثروبولوجى الهام « الصيغة الكلية » (٣) فهو يقول :

« يوجد فى كل مكان اتجاه عقلى سائد فى كل الحياة الثقافية ، ويستمر هذا الاتجاه العقلى لفترات طويلة ، ويبقى موجودا برغم حدوث تغييرات فى شكل الحياة الثقافية ، ويسهل ملاحظة وجود هذا الاتجاه العقلى السائد فى الثقافات ذات الجانب الواحد ، وهى الثقافات التى تتميز بفكرة واحدة مسيطرة ومن امثلة ذلك أن ثقافات الهنود الحمر بالساحل الباسيفيكى يسيطر عليها اتجاه عقلى يتمثل فى وجود قيمة اجتماعية مرتفعة للرتب الاجتماعية المتوارثة والقائمة على أساس الثروة ، ويوجه هذا الاتجاه سلوك الأفراد (٤) » .

---

(١) Ibid, pp. 30-44.

(٢) Boas, F.

(٣) Configuration.

(٤) Boss, F., Anthropology and Modern Life, W.W. Norton, N.Y. 1928, pp. 151, 512.

ويجب ملاحظة أن « بواز » قد نشر رأيه السابق قبل ظهور كتاب « بينيديكت» « نماذج من الثقافة » بمدة ست سنوات ، مما يدل على تأثر « بينيديكت » العميق بنظريات استاذها العلامة « بواز » .

ابتدأت « بينيديكت » تحليلاتها لثقافة « كيوكيوتل » بملخص قصير عن البيئة الجغرافية والنظام الاقتصادى فى الساحل الشمالى الغربى ، ثم انتقلت فجأة الى وصف ثقافة تلك القبلة ، وقد ركزت فى وصفها على الجوانب التى تؤكد وجود الأسلوب الديونزيانى ، ومنها الاحتفالات الدينية وما يصاحبها من رقصات تنتهى بحالات من «الاغماء» و « الانجذاب » ، وفى تلك الطقوس يصل الراقص الرئيسى الى الذروة اى أقصى حالات العنف عندما يفقد السيطرة على نفسه ، وينتقل الى حالة أخرى من الوجود ، فنراه يرتعش بعنف ويمتلىء فمه بالزبد ، ويأتى بأفعال تعد شاذة ورهيبة فى الظروف العادية ، ومن انماط الأسلوب الديونيزيانى كذلك طقوس التحاق الشباب بالجمعيات الدينية . فعلى الشاب أن يعيش منعزلا هائما فى الغابات فترة من الزمن تحددها الكائنات «فوق الطبيعية» ، ويصاب بالهزال الشديد فى تلك الفترة ، وعند انتهائها يعود للقبيلة ليؤدى فورا طقوس « الهياج » ، وفيها يبدو الشاب وكان قوة هائلة دخلت جسمه ، ويأتى بحركات عنيفة لا يمكن أن يؤديها وهو فى الحالة العادية .

ومن اهم الأمثلة التى تدل على سيادة الأسلوب الديونيزيانى «فى ثقافة « كيوكيوتل» هو حفل تخريج « الراقص الكانيبالى » (١) اى الراقص الذى يأكل لحم البشر ، تعد « جمعية أكل لحوم البشر » أرقى الجمعيات الدينية فى كيوكيوتل وغيرها من قبائل الساحل الشمالى الغربى ، اذ يخصص لأعضائها مقاعد الشرف فى حفلات الشتاء ، وعلى الجميع أن ينسحبوا بعيدا عندما يبدأ أعضاء تلك الجمعية فى تناول طعامهم ، ويختلف اعضاء تلك الجمعية عن الجمعيات الدينية الأخرى فى ميلهم القوى لأكل لحوم البشر ، وتقدم «بينيديكت» وصفا لحفلات تخريج الراقص الكانيبالى ، يبدأ الاحتفال بتجمع عدد غفير من اهل القبيلة حول كوخ الاحتفال الذى يوجد فيه الراقص الجديد ، وبعد التجمع يقف الراقص فوق سطح الكوخ ، ويقفز منه الى الأرض وسط المشاهدين ، ويقوم برقصات وحركات عنيفة ، ويكون فى حالة هياج شديد ، ويحاول الناس الامساك به ، ولكنه يهرب منهم ويختفى فى الغابة والناس يجرون وراءه ، حتى يمسكوا به ويحضرونه الى كوخ الاحتفالات ، ويتكرر هذا المشهد أو الطقس ثلاث مرات ، وفى المرة الرابعة يتقدم اليه رجل عجوز يسمى «الطعم» وهنا يندفع اليه الراقص ويمسك

Canibal Dancer. (١)

بذراعه ويعضه ، وعند ذلك ينقض عليه المشاهدون ويحاولــون ادخاله الى كوخ الاحتفال ، ولكنه لا يستطيع الدخول لأنه يكون فى حالة من الاغماء والغياب عن الوعى ، وهنا تتقدم اليه امرأة عارية وهى تحمل على ذراعيها الممدودتين جثة أحد العبيد الذى يقتل لهذا الغرض ، وتقدم له الجثة ثم تقوم بحركات راقصة وتدعوه لدخول كوخ الاحتفال ، ولكنه يكون لا يزال فى حالة عدم السيطرة على نفسه ، ثم يهب واقفا ويقفز ثانيا على السطح ويقفز منه الى الأرض وسط الناس ويرقص بوحشية وعنف ويرتعش جسمه وكل عضلاته برعشة ذات ايقاع معين خاص بحالات الهياج عند كمواكيوتل، وتستمر هذه الرقصات ، وفى أثنائها يأكل بعض أشلاء الجثة المقدمة لـــه وفى احيان أخرى يقضم بعض أجزاء أذرع وصدور المشاهــدين ويأكلهـــا ، ويستمر هذا الحال الى أن يغمى عليه تماما ويصل الى حالة « الانجذاب » وهنا ينتهى الاحتفال (١) .

ان الأهمية الكبرى لدراسة بينيديكت وتحليلاتها لتلك الثقافات تتمثل فى أنها حددت فى هذا الكتاب موضوع ومنهج الأنثروبولوجيا النفسية ، فقد بينت بوضوح كيف تؤثر الثقافة فى شخصيات حامليها ، وكيف يؤدى مثــل ذلك التأثير الى وجود نمطين مختلفين تماما من الشخصية ، الشخصية الديونيزيانية والشخصية الأبوللونيانية ، وبالتالى تؤكد «بينيديكت» أهميــة الثقافة كعامل محدد للشخصية ، وفيما يتعلق بمنهج الأنثروبولوجيا النفسية، فقد قررت أن الدراسة الميدانية للثقافات والدراسات العلمية للشخصيات هى منهج الأنثروبولوجيا النفسية ، أما مجهودات الرواد الأوائل فقــد اقتصرت على اكتشاف موضوع الأنثرولوجيا النفسية واستخدمت المنهج الفلسفى الخاص بفلسفة التاريخ ، ولذلك لا يمكن ادخال تلك الدراسات فى اطار الأنثروبولوجيا النفسية لأن المنهج الأنثروبولوجى كان ينقصها .

وبرغــم الأهمية الكبرى لدراســـة العلامة بينيديكيت فى مجال نشـــأة الأنثروبولوجيا النفسية فقد أثير حولها الكثير من أصوات الاعتراض والنقد، ومن أمثلة ذلك كثرة التعميمات غير الدقيقة ، فقد قالت على سبيل المثال : « أن كل الهنود الحمر الأمريكيين وكذلــك المكسيكيين يتبعــون الأسلــوب الديونيزيانى بدرجة كبيرة » ، يرفض العلامة «بارنو» (٢) هذا التعميم غير الدقيق لأنه يجمع ثقافات عديدة ومختلفة عن بعضها كثيرا مثل ثقافات جماعات الصيد فى « لابرادور » (٣) وجماعات الصيد فى الساحل الشمالــى

---

(١) Ibid, pp. 162, 164, 166.

(٢) Barnouw, V., Culture and Personality, The Dorsey, Press, INC, Illinois 1963, pp. 42, 43.

(٣) Labrador.

الغربى وثقافات مجتمعات الطبقات المغلقة فى الجزء الجنوبى الشرقى بأمريكا الشمالية والثقافية المعقدة لمدينة جماعة « ازتيكس» (١) ، ويرى « بارنو » أن «بينيديكيت» عندما جمعت تلك الثقافات المتعددة والمختلفة تحت اصطلاح «ديونيزيانى» قد وقعت فى الخطأ المعروف الذى سبقها فيه أنثروبولوجيو « المقاعد الوثيرة » فى القرن التاسع عشر الميلادى وهو خطأ اطلاق التعميمات على الشعوب البدائية برغم ما تتضمنه ثقافاتها من الاختلافات .

هذا بالاضافة الى الاعتراض القائل بأن العلامة «بينيديكيت» قد وقعت فى الخطأ نفسه الذى وقع فيه من قبل الأنثروبولوجى الكبير«فريزر»(٢) والذى حذرت من الوقوع فيه العلامة «بينيديكيت» نفسها (٣) . ويتمثل هذا الخطأ فى تجاهل مبدأ التكامل الثقافى عندما يهتم الأنثروبولوجى بجمع أكبر عدد يمكن من العناصر الثقافية ، اذ يقوم باقتلاعها من الوسط الثقافى بغرض اثبات فكرة معينة ، فلكى تثبت العلامة «بينيديكيت» وجود الاتجاه الديونيزيانى فى معظم ثقافات الهنود الحمر ، أخذت تجمع أكبر عدد من العناصر الثقافية واقتطعتها من محيطها الثقافى ، متجاهلة بذلك مبدأ التكامل الثقافى ، وهكذا اهتمت بينيديكيت بجمع حالات متفرقة مثل « لسان مثقوب » من احدى ثقافات هنود المكسيك ، « واصبع مقطوع » من طقوس هنود السهول ، وأنف معضوض ، أو مقطوع من طقوس هنود «أباش» ، جمعت «بينيديكيت» تلك العناصر المعزولة ثقافيا ورأت أنها تمثل «روح» (٤) أو الصيغة الكلية (٥) للثقافة الديونيزيانية .

ان واحدا من أوجه النقد الأخرى التى وجهت لدراسة «بينيديكيت» هو أنها لم تعالج أو تشرح الوسائل والميكانيزمات التى عن طريقها يصبح الأفراد « ابو للونيانيين » أو « ديونيزيانيين » فمثلا كيف يصبح أعضاء قبيلة الهوبى — فرع من قبيلة بيلو — خاضعين لطانا ، أو كيف تزرع وتنمو الاتجاهات الديونيزيانية فى كل جيل جديد فى قبيلة كيوكيوتل .

ويعارض «بارنو» (٦) الأحكام التقويمية التىتطلقها العلامة «بينيديكيت» مما يضيف مبدأ الموضوعية الذى يجب أن تتسم بها الدراسات عند وصف

---

(١) Aztecs.

(٢) Frazer.

(٣) Benedict, R. 1946, p. 44.

(٤) Ethos.

(٥) Configuration.

(٦) Barnouw, V., .. 1963, p. 55.

أو مقارنة الثقافات المختلفة .هذا بالاضافة الى ظهور أوجه قصور أخرى يمكن الرجوع اليها فى مكان آخر (١) .

لا تلغى الاعتراضات السابقة اهمية دراسة العلامة « بينيدكيت » كأول دراسة متكاملة فى الانثروبولوجيا النفسية ، وهكذا نشأت الانثروبولوجيا النفسية بفضل مجهودات تلك العالمة التى تعد بجدارة مؤسسة هـذا الفرع الهام للأنثروبولوجيا الثقافية .

وكذلك تعد الانثروبولوجية الأمريكية «مارجريت » ، زميلة بينيديكت، من اهم المساهمين فى نمو وازدهار موضوع الثقافة والشخصية ، وذلك بفضل ابحاثها الثلاثة الشهيرة ، مرحلة المراهقة فى سموا ، والنمو فى غُينيا الجديدة ، واخيرا النوع والمزاج فى ثلاثة مجتمعات بدائية ، لقد اضافت«ميد» بابحاثها الثلاثة نمطا جديدا فى المدرسة الانثروبولوجية الأمريكية ، بعد أن سيطر عليها المنهج الكلاسيكى الخاص بالعلامة «بواز» ، ويتمثل المنهج الكلاسيكى فى الدراسة الحقلية الكلية التى تهتم بتسجيل وجمـــع كـل صغيرة وكبيرة عن الثقافات قيد البحث . والحقيقة أن اتباع «بواز» وتلاميذه هذا الأسلوب «الكلى» فى البحث الميدانى ، يرجع لاهتمامه بتسجيل كـــل خصائص ثقافات الهنود الحمر البدائية قبل اختفائها تحت تأثير المدنيــة الغربية ، يتمثل النمط الجديد الذى قدمته «ميد» فى الابتعاد عن المنهج الكلى فى دراسة ثقافات المجتمعات البدائية واهتمامها ببحث موضوعات محددة واسئلة معينة لها اهمية فى حياة المجتمعات المتمدينة ودراستهـا فى المجتمع البدائى .

وقد نشرت «ميد» ابحاثها الثلاثة فى مجلد واحد بعنوان « من بحار الجنوب ، دراسات عن المراهقة والنوع فى مجتمعات بدائية » (٢) .

درست «ميد» فى بحثها الأول العلاقة بين المراهقة والثقافة أو بصورة ادق العلاقة بين سمات الشخصية فى مرحلة المراهقة وثقافة المجتمع ، وقد حددت موضوع بحثها بالسؤال التالى : هل ترجع الاضطرابات والتوترات التى تصاحب المراهقين فى الثقافة الغربية الى طبيعة مرحلة المراهقة ذاتها أو الى المدنية الغربية ؟ يميل الغربيون الى النظر الى مرحلة المراهقة على انها فترة تتميز بالصراع العاطفى والثورة على السلطة ، فهل ترجع هذه الاتجاهات

---

(١) Williams, E., Anthropology for the Common Man, American Anthropoogist, January March, 1947, p. 88.

(٢) Mead, M., From The South Seas, Studies of Adolescence and Sex in Primitive Societies, William Morrow, N.Y. 1939.

وسمات الشخصية الى تغيرات فسيولوجية تصاحب مرحلة الحلم ، أو أنها ترجع الى ظروف اجتماعية وثقافية معينة فى المجتمع الغربى ؟ (١) فاذا كان الرأى الأول صحيحا ، يجب أن تتوحد خصائص مرحلة المراهقة فى كل الثقافات ، واذا لم يكن الأمر كذلك ، تكون العوامل الثقافية والاجتماعية هى المسئولة عن خصائص مرحلة المراهقة فى المجتمع قيد الدراسة .

استخدمت العلامة «ميد» المنهج الانثروبولوجى وخاصة طريقة الملاحظة بالمشاركة فى دراسة تلك المشكلة الهامة ، ونظرا لأنها سيدة ، فقد ساعدها ذلك فى تطبيق الملاحظة بالمشاركة فى المجتمع البدائى الذى اختارته ، وهو جزيرة «سموا» (٢) ، عاشت «ميد» فى تلك الجزيرة مدة تسعة أشهر ، استطاعت أن تندمج فى المجتمع وأن تكسب ثقة الفتيات وأن تلاحظ اتجاهاتهم عن قرب ، ودرست فى تلك الفترة خمسين فتاة من ثلاث قرى متجاورة فى الجزيرة ، وقد توصلت فى نهاية دراستها الميدانية الى نتيجة هامة وهى أن فتيات تلك الجزيرة لا يشعرون بالتوتر والاضطراب أثناء مرحلة المراهقة ، ولاحظت أن أهل الجزيرة ينقصهم ، بصورة عامة ، المشاعر العميقة ومشاعر التورط ، وهكذا تتلخص نتيجة بحث «ميد» فى أن مرحلة المراهقة ليست مرحلة صعبة فى حياة أهل جزيرة سموا . وقد نتساءل عن خصائص ثقافة «سموا» التى تجعل من فترة المراهقة فترة سهلة وعادية وهادئة . يولد وينمو الأطفال فى وحدات عائلية كبيرة الحجم ، يكثر فيها الكبار ، ولذلك لا تتركز علاقاتهم العاطفية حول شخصين بالذات هما الأب والأم ، وانما تصبح منتشرة غير مركزة ، لأنها توزع على عدد كبير من الأقارب الكبار ، وهى تتصف كذلك بالسطحية بصورة نسبية . يتحدث الكبار مع الصغار فى سن مبكرة فى موضوعات الولادة والجنس والموت ، ولا تغلف تلك الموضوعات بالسرية والغموض والتشويه . يعيش الأطفال فى مناخ من الحرية الجنسية فى العابهم ، وعندما يصلون لمرحلة المراهقة يشتركون فى علاقات جنسية متعددة ، ويعد هذا السلوك أمرا مقبولا وعاديا على أنه شىء طبيعى قبل الزواج ، ونظرا لعلانية تلك العلاقات وسهولة تحقيقها ، لاحظت «ميد» أن تلك العلاقات تصاحبها شحنة عاطفية ضعيفة عند المشتركين فيها ، أى أنها لا تتميز بالانفعال والتوتر . تخلو ثقافة «ساموا» من المتغيرات الاجتماعية الثقافية الموجودة فى المجتمعات الغربية وخاصة المجتمع الأمريكى الذى تنتمى اليه العالمة «ميد» ، فلا توجد الأيديولوجيا المتعددة والمتعارضة ، والأحزاب السياسية المتصارعة ، والمذاهب الدينية المختلفة ، والقيم الاخلاقية المتناقضة ، وهذا

---

(١) Ibid. p. II.

(٢) Samoa

العدد الهائل من المهن الموجودة فى المدنية الغربية ، ترى العلامة « ميـد » ان وجودمثل تلك المتغيرات الثقافية والاجتماعية هو المسئول عن تميزمرحلة المراهقة فى المجتمع الغربى بالتوتر والصراع العاطفى والثورة ، وان عدم وجودها فى مجتمع « سموا » ترتب عليه خلو مرحلة المراهقة من تلـك الخصائص وتميزها بالهدوء وتكيف شخصيات المراهقين والمراهقات مـع باقى افراد المجتمع وعوم وجود صراع الأجيال والثـورة على تقاليـد المجتمـع .

تعرضت تلك الدراسة لكثير من النقد من علماء الاجتماع وعلمـاء النفس والانثروبوولوجيا مما زاد من أهمية المشكلة قيد البحث . تحيزبعض علماء الاجتماع للمنهج السوسيولوجى ، وتساءلوا : هل من الضرورى لدراسة المشكلة السابقة ان نذهب لمجتمع بدائى لفحص تلك المشكلة ؟ وهل مـن الضرورى أن نطبق المنهج الأنثروبولوجى أى الملاحظة بالمشاركة لدراستها؟ يرى هؤلاء انه لا يوجد أى ضرورة علمية تحتم القيام بذلك البحث ، اذ انه كان من الأفضل والأسهل دراسة المشكلة فى اطار علم الاجتماع ، وذلك باختيار بعض الشباب المراهق الامريكى ، على أن يتم اختيارهم بحيث يمكن تقسيمهم الى جماعتين ، جماعة تعيش فى حالة تكيف مع تقاليد المجتمع ، وجماعة تعانى الاضطراب والمشاكل فى تكيفها مع تقاليد المجتمع ، وعن طريق دراسة لجماعة الضابطة والجماعة التجريبية يمكن تحديد اثر العوامل الثقافية والاجتماعية فى مرحلة المراهقة ، وسيترتب على استخدام المنهج السوسيولوجى توفير الجهد والمـال الذى بـذل فى دراسـة « ميـد » الانثروبولوجية ، فلا داعى للسفر آلاف الأميال ، والبقاء فى مجتمع بدائى لمدة تسعة اشهر ، وتعلم لغة جديدة ، وكتابة تقرير كامل عن جزيرة سموا ، هذا بالاضافة الى أن بحث «ميد» اقتصر على دراسة الفتيات المراهقات ولم يتحدث عن المراهقين فى حين ان الدراسة السوسيولوجية يمكن ان تجمع الفتيات والفتيان (١) .

أما علماء النفس فقد انتقدوا بحث «ميد» على أساس انها لـم تستخدم اختبارات الشخصية وخاصة اختبار روشاخ (٢) واختبار تفهم الموضوع (٣) ، ويمكن هنا الرد بأن تلك الاختبارات لم تكن قد اكتشفت بعد فى الفترة التى قامت بها العلامة «ميد» ببحثها . ويرى هؤلاء النقاد ان العلامة «ميد» قد اعترفت فى الفصل الحادى عشر من بحثها بوجـود « نتيـات

---

(١) Barnouw, V., Culture and Personality, p. 15.

(٢) Rorschach Test.

(٣) Thematic Apperception Test (T.A.T.)

منحرفات » ، وهن الفتيات اللاتى يظهرن صراعات واضحة ، وهنا يتساءل هؤلاء النقاد لماذا لا تعانى الفتيات الاخريات اللاتى يظهرن بصـــورة لطيفة وهادئة من توترات وضغوط داخلية ؟ ان المنهج الانثروبولوجى ــ الملاحظة بالمشاركة ــ لا يسمح باكتشاف مثل تلك الحالات النفسية ، وقد استخدم بعض علماء النفس الاختبارات الاسقاطية للشخصية فى بعض المجتمعات البدائية الشبيهة فى انماطها الثقافية بمجتمع «سموا» ، وتوصـــــلوا الى نتائج مناقضة لما توصلت اليها العلامة «ميد» . من هذه الدراسات البحث الخاص بقبيلة «تورك» (١) ، تشبه ثقافة هذا المجتمع ثقافة مجتمـــع سموا فى كثير من النواحى ، اذ لا يوجد التعقيد فى العلاقات الاجتماعية ونظـــــام تقسيم العمل الدقيق وغيرها من الخصائص المميزة للمدنية الغربية هـــذا بالاضافة الى التسامح والحرية الجنسية قبل الزواج وطبيعة العلاقـــات الاجتماعية داخل الأسرة وخبرات آرحلة الطفولة . وقد دلت نتائج الاختبارات الاسقاطية على وجود توترات وصراع عاطفى يتركز حول الجنس ، بل ان تلك التوترات كانت اقوى من مثيلاتها فى المجتمع الغربى ، ولم تكن تلك النتيجة متوقعة فى مجتمع يتمتع اعضاؤه بحرية جنسية قبـــل الزواج ، ويستنتج العالمان «جلادوين» و «ساراسون» من تلك الدراسة أن الحرية الجنسية قبل الزواج لا تلغى وجود التوتر العاطفى فى فترة المراهقة ، وكذلك لا يترتب دائما على بساطـــة النظـــام الاقتصادى والاجتمـــاعى اختفاء ذلــــك التوتر (٢) .

ولم يسلم بحث «ميد» من نقد زملائها الانثروبولوجيين ، فقد قـــال البعض أن دراسة «ميد» تصور الثقافة التقليدية البدائية لقبيلة « سموا » ، ولم تهتم بالتغيرات الثقافية والاجتماعية التى طرأت على تلك الثقافة ، مما جعلها فى صورة متطورة مغايرة للصورة التى رسمتها «ميد» ، ومن امثلة تلك التغيرات انتشار المسيحية وبعض العناصر المادية للثقافة الغربيـــــة وضعت السلطة المطلقة التى كان يتمتع بها الآباء ، فقد كان الآباء لهم سلطة الحياة أو الموت على اعضاء عائلتهم ، وكانوا يعاقبون الفتيات اللائى لا يحترمن تابو المحارم فى العلاقات الجنسية بالضرب المبرح وبحلق رءوسهن بالموسى ، وفى احتفالات الزواج فتيات الطبقة الراقية كانوا يمارسون طقوس «فض البكارة » بصورة علنية لاثبات عفة الفتاة . حدثت تغيرات واضحة فى تلك الأنماط الثقافية بتأثير القانون الأمريكى وتعاليم المبشرين ، وترتب عليهما

---

(١) Turk.

(٢) Gladwin, T. and Sarson, S., Turk : Man in Paradise, Viking Fund Publications in Anthropology, N.Y. 1953, p. 449.

ضعف السلطة التقليدية للآباء ، والغى القانون طقوس «فض البكارة » وأصبحت من الأمور المكروهة ضرب الفتيات وحلق رءوسهن — لم توضح «ميد» الآثار التى ترتبت على تلك التغيرات فى سمات شخصيات المراهقات (١) .

وفيما يتعلق بالبحث الثانى وهو النمو فى غينيا الجديدة ، فان له عنوانا فرعيا آخر وهو دراسة مقارنة للتربية البدائية ، وقد اجرت «ميد» ذلك البحث فى قبيلة «مانوس» (٢) بجزر «ادميرالت» (٣) فى شمال غينيا الجديدة ، وقد قامت «ميد» بدراستها الميدانية فى تلك القبيلة فى عام ١٩٢٨ ، وفى ذلك الوقت كان اعضاء قبيلة «مانوس» يعيشون فى بيوت مرفوعة على ركائز فوق سطح بحيرة ضحلة ، وكان مورد رزقهم الأساسى هو صيد السمك والتجارة ، وتتميز قيمهم بخصائص تشبه قيم الثقافة الغربية ، فمثلا يضفون قيمة عالية للملكية والعمل الشاق والنجاح المالى . يرتفع فيها معدل وفيات الأطفال ، ولكن الأطفال الذين يعيشون يتمتعون بصحة جيدة ، وبثقة النفس وبشدة الانتباه . يتعلم الأطفال العوم فى سن الثالثة وبعد فترة وجيزة يتنقلون ويلعبون فى زوارق صغيرة (٤) ، ويتمتعون بحرية فى الحركة وفى اللعب ، ويشعرون باستقلال نسبى عن الكبار ، وتتعمق فيهم منذ الصغر قيمة احترام الملكية ، فان السرقة غير معروفة تقريبا فى هذا المجتمع ، ويتمتع الأطفال بفترة لعب طويلة نسبيا ، فان الفتيات لا يقمن بالأعمال المنزلية الا بعد بلوغهن ١١ أو ١٢ سنة ، اما الأولاد فلا يقومون بأى عمل شاق الابعد زواجهم . ويظهر الأطفال القليل من الاحترام نحو الآباء وكبار السن . ينظم الزواج عن طريق الآباء ، ويقبل عليه الشباب بشىء من الرفض وذلك لانه مع الزواج تبدأ اعباء الكبار وتنتهى حياة الطفولة المليئة بالحرية وعدم المسئولية ، وبعد الزواج يأخذ الشاب عروسه لبيت والده ، لأن قاعدة السكنى هى قاعدة السكنى مع والد الزوج ، وتعد العروس غريبة فى بيت والد زوجها ، والعلاقة بين الزوج والزوجة هى علاقة ضاغطة وصعبة ، وعندما يولد الطفل أو يتبنى يظهر الأب الكثير من الاهتمام به ، وتنمو علاقة قوية بين الأب وطفله ، وتتميز تلك العلاقة بانها اقوى من العلاقة التى تنمو بين الأم وطفلها ، ولكن الصورة العامة هى أن الأطفال يعيشون معا ويقضون معظم أوقاتهم مع اترابهم بعيدا عن آبائهم ، ولذلك لا توجد علاقة تربوية

---

(١)

(٢) Manus.

(٣) Admiralty Islands.

(٤) Canoes.

واضحة بين الكبار والصغار ، فلا يحكى الكبار للاطفال اى قصص أو الغاز أو نوادر ، ولا يشتركون معهم فى اللعب ، بل ان فكرة امكانية سماع الطفل لحكاية ما يعد أمرا خياليا ، ويختلف هذا الوضع تماما عن اساليب التربية فى الثقافة الغربية حيث يحكى الكبار لأطفالهم الكثير من القصص الشعبية التى تشخص الشمس والقمر والنجوم ، وكذلك الفوازير والأساطير (١) . ويترتب على ذلك عدم تلقين اطفال «مانوس» اية مفاهيم «حيوية» (٢) أو « تشخيصية » ، وانما يتلقون على العكس تصوراتطبيعية مادية عنالعالم، ويضعف عندهم الخيال ، فمثلا لا يمكن لهم أن يتخيلوا امكانية وجود دب تحت السرير ما لم يمدهم الكبار بدب حقيقى ويرونه بأنفسهم . ولكن بالرغم من ذلك ، يعتقد الأطفال والكبار فى الأرواح ، ولكنهم يتجاهلونها ، ويعد الطفل شخصية ممتازة عندما يخلق شيئا بنفسه ، ولا شك أن هذا الخلق يعتمد على الخيال لدرجة كبيرة . ويتركز الاهتمام فى ثقافة « ماتوس » على النجاح العملــى ولذلك يمكن اعتباره مركز تلك الثقافة أو محورها ، ويقل الاهتمام بالفنون بصورة واضحة .

اما البحث الثالث ، النوع والمزاج فى ثلاثة مجتمعات بدائية ، فيختص بدراسة تأثير الثقافة على الأدوار والاتجاهات الخاصة بالذكور والاناث . ان الموضوع الأساسى يدور حول اثبات أن سمات الشخصية المعروفة باسم سمات الرجولة وسمات الأنوثة هى من ثقافة المجتمع اكثر من كونهااختلافات بيولوجية بين النوعين (٣) .

قامت «ميد» بدراسة ميدانية لثلاث قبائل فى غينيا الجديدة ، وهى قبائل أرابش (٤) وموندوجومور (٥) وتشامبولى (٦) ، وبالرغم من التجاور المكانى بين تلك القبائل ، اذ تقع فى أرض يبلغ مساحتها ١٠٠ ميل مربع ، الا أنها تختلف فى الثقافة والمزاج (الشخصية) ، وقد توصلت «ميد» فى نهاية بحثها الى نتيجة تؤكد الموضوع الأساسى أو الفرض سابق الذكر ، ففى الفصل الختامى (مضمون هذه النتائج) تقول « تقترح المادة ــ الدراسات الميدانية ــ انه يمكن القول بأن الكثير ــ ان لم يكن الكل ــ من سمــات

---

(١) Mead, M., Growing up in New Guinea, op. cit., pp. 125-130.

(٢) Animistic.

(٣) Mead, M., Sex and Temperament in Three Primitive Societies, 1950 (First edition in 1955), p. 257.

(٤) Arapesh.

(٥) Mundugumor.

(٦) Tchambuli.

الشخصية التى نسميها عادة بسمات الرجولة وسمات الأنوثة هى سمات مرتبطة بصورة ضعيفة بالنوع ، شأنها فى ذلك شأن الملابس وأساليب التعامل وشكل غطاء الرأس التى تفرضها المجتمعات فى فترة معينة على كل نوع (١) » .

وفيما يتعلق بالمادة التى اعتمدت عليها فى وصولها الى النتيجة السابقة فان يمكن تلخيص بعضها فيما يأتى : لاحظت « ميد » أنه بينما فى قبيلة أرابش تتصف اتجاهات الرجال والنساء ومعاملاتهم بعضهم لبعض باللطف والدعة و لهدوء والتعاون ، وهى الاتجاهات نفسها التى نتوقعها من النساء فى الثقافة الغربية ، فان الموقف يتناقض تماما فى قبيلة موندوجومور حيث تتسم اتجاهات الرجال والنساء ومعاملاتهم بعضهم لبعض بالخشونة والعداء والتوحش ، وتشبه تلك الاتجاهات ما نتوقعه فى سلوك الرجال فى الثقافة الغربية . لا تؤيد تلك المادة الفرض القائل بوجود اختلافات مزاجية بيولوجية بين النوعين . أما الوضع فى القبيلة الثالثة تشامبولى ، فيتمثل فى وجود اختلافات حاسمة فى سمات الشخصية بين الرجال والنساء ، ولكن فى صورة مناقضة للاختلافات الموجودة فى الثقافة الغربية ، فالمرأة هنا هى عائلة الأسرة وتمدها بالطعام ، وتتميز بالقوة وصلابة الجسم وبالمهارة و لحماس ، وتسود بين النساء روح الزمالة والتعاون ، ولا يستخدمن الزينة ، ويحلقن شعورهن ، ويجلسن فى جماعات لفترات طويلة ، يتبادلن الأحاديث والضحكات ، أما الرجال ، فان اهتمامهم يتركز حول الأعمال الفنية وتسريحات الشعر وعلاقاتهم بالنساء ، ولا يقومون بأى عمل اقتصادى لتوفير الطعام للأسرة ، وانما يعد هذا من عمل النساء .

تعرضت الأبحاث السابقة لكثير من النقد وخاصة من علماء النفس ، وعلى سبيل المثال نعرض هنا لنقد العلامة «ثورنوالد» (٢) الذى يقتصر على دراسة «ميد» لثقافة أرابش ، وفيه يقول : «تحاول المؤلفة أن تصور مجتمع أرابش على أنه قصيدة منظومة رومانتكية هادئة وخالية من العنف اذ لا يوجد فيه أفراد أنانيون أو جشعون ، ولكن بالرغم من ذلك توجد بعض الجمل فى تقارير المؤلفة نفسها تثبت غير ذلك ، ومن أمثلة ذلك : وجود أطفال يصرخون ، وأطفال يتسمون بالعنف فى صفحات (٥٠ ، ١٤٣ ، ١٤٥) ، ووجود دراما فى العلاقات الجنسية (ص ١١٢) ، وبحدوث شجار بخصوص النساء (ص ٧٩) ، وعندما يتوتر المزاج يلوحون بقبضة اليد (ص ١٥٣) ، وحدث أن تهجم كل من الزوج على الآخر مستخدمين فى ذلك الفئوس

---

(١) Ibid. p. 280.

(٢) Thurnwald, R., Review of Sex and Temperament in Three Primitive Societies, in American Anthropologist, Vol. 38, 1936, pp 558-561.

(ص ١٦١) ، ووجود علاقات عنيفة بين انصاف أخوة (ص ١٥٣) ، وملاحظة وقائع يضرب فيها الرجال زوجاتهم (صفحات ١٤٧ و١٥١ و١٥٣) ، ووجود واقعة تضرب فيها زوجة زوجها (ص ١٤٩) ، وحدوث شجار بعد عملية خطف امرأة (ص ١٣٧) ، وحدث إن حاولت أم ان تخنق طفلها بعد ان ركلت رأسه بقدمها (ص ١٥١) ، وحدث ان حاول اخ استخدام القوة مع أخيه»(١) ولكن ، يجب ملاحظة ان الوقائع السابقة ، المأخوذة من بعض صفحات بحث «ميد» «النوع والمزاج في ثلاثة مجتمعات بدائية» ، قد ذكرتها عند كلامها عن الحالات المنحرفة في الفصل الخاص بالمنحرفين ولكن لم تبين «ميد» في هذا البحث مدى تكرار وانتشار تلك الحالات المنحرفة ، وحدث الشيء نفسه في بحثها «البلوغ في سموا» ، حيث نجد ان الحالات الاستثنائية قد جمعتها في فصل عن المنحرفين دون ذكر مدى انتشار تلك الحالات ، مما شجع بعض الباحثين على توجيه النقد اليها من تلك الزاوية . وقد ردت العلامة «ميد» على تلك الانتقادات (٢) ، فيما يتعلق بالنسب المئوية للحالاتالمنحرفة اجابت «ميد» بانهانسب منخفضة ، وتحدث تلك الحالات في ظروف الانهيار الثقافي ، وفي حالات خاصة قد يصبح الفرد في سن معينة ومن نوع معين تابعا لعقله فقط، وهنا يعد منحرفا في رأى المجتمع . ان المنحرفين هم الأفراد الذين اخفقوا في التكيف مع مجتمعهم ، وبالتالي لا تتوافر لديهم سمات الشخصية التي توافق عليها الثقافة . ولا تهتم «ميد» بالنسب المئوية لأنها لا تستخدم المنهج الاحصائي وذلك امكانية استخدامه في المجتمعات البدائية وفي الظـروف التي احاطت دراساتها .

ويعلق العلامة «بورنو» على كتاب « النوع والمزاج » بأنه كتاب يعكس ويساهم في تدعيم الأيديولوجية البيئية التي تميز مؤلفات الثلاثينات . وهي الفترة التي نرى فيها الماركسية تجذب اليها الكثير من المثقفين وأتباعالفرويدية الجديدة (٣) مثل «فروم» (٤) و «هورني» (٥) ، اللذين أكدا أهمية العوامـل الاجتماعية والثقافية في التأثير على الشخصية . ويعد هذا الاهتمام بالبيئة الثقافية احد جوانب التقليد التحرري (٦) الذي تأثر بفلسفات عديدة منهـا

---

(١) Ibid, pp. 560.

(٢) Mead, M., A Reply to a Review of Sex and Teperament in Three Primitive Societies' American Anthropolaogist, Vol. 39, 1937, p. 558.

(٣) Neo - Freudians.

(٤) Fromm.

(٥) Harney.

(٦) Libral Tradition.

فلسفة «ديوى» (١) . ويرتبط هذا التقليد باتجاه رفض العنصرية السلالية(٢)، وهى الفترة ذاتها التى حصل فيها النساء على الكثير من الحقوق والحريات، ولا شك ان التحيز للنساء أمر ليس من الصعب اكتشافه وتتبعه فى أبحاث كل من «ببنيديكت» و «ميد» (٣) .

برغم الانتقادات السابقة فان الحقيقة التى يوافق عليها الجميع هى أن مؤلفات «ببنيديكت» و «ميد» قد وضعت الأسس القوية لنشأة فرع جديد للأنثروبولوجيا الثقافية يتخصص فى دراسة الثقافة والشخصية .

توالت الدراسات والأبحاث فى ميدان الثقافة والشخصية بعد نشر ابحاث «بينيديكت و ميد » ، وتعد فترة الحرب العالمية الثانية بدء ازدهار هذا الميدان ، واليوم أصبح موضوع الثقافة والشخصية من المواد الدراسية اساسية فى اقسام الأنثروبولوجيا وعلم النفس وعلم الاجتماع بالجامعات الكبرى . وعمل كثير من الأنثروبولوجيين فى مؤسسات عسكرية بالولايات المتحدة الأمريكية فى فترة الحرب ، ومن بين المتخصصين فى الثقافة والشخصية العلامة «باتسون» الذى عمل فى مكتب الخدمات الاستراتيجية ، وحاضرت العلامة «ميد» فى مكتب المعلومات الحربية بانجلترا ، وعمل كل من«لايتون»(٤) و «جورير» وكلاكهوهن وبينيديكت فى مكتب المعلومات الحربية . وخلال فترة الحرب حاول كل من «ميد» و «جورير» و «باتسون» تحديد سمات « الشخصية القومية » لدول مختلفة مثل رومانيا وتايلاند واليابان ، وبعد الحرب العالمية الثانية ، استمر هؤلاء الأنثروبولوجيون فى ابحاثهم عن الشخصية القومية ، وقادت العلامة «بينيديكت» فريقا علميا لدراسة مجموعة كبيرة من الثقافات ، وتجمع تلك المجموعة ثقافات الصين وتشيكوسلوفاكيا ويهود أوربا الشرقية وفرنسا وبولندا وروسيا وسوريا والمانيا . وفى الفترة بين عام ١٩٤٧ وعام ١٩٥٣ تعاون فريق من العلماء يتكون من ١٢٠ عالما ، ويمثل ١٦ جنسية مختلفة فى بحث مشترك عن الشخصية القومية . وقد اشترك فى هذا البحث ، بالاضافة الى بينيديكت و «ميد» و «جورير» و «ارينسبرج»(٥)

---

(١) John Dewey.

(٢) Racism.

(٣) Barnouw, V., Culture and Personality, pp. 89, 90.

(٤) Leighton, A.

(٥) Arensberg, C.

و «بينيت» (١) و «بانـزل» (٢) و «رودينـك» (٣) و « وولفنشتين » (٤) و «ميترو» (٥) . وقد نشر هذا التحث بعنوان « دراسة الثقافة عن بعد »(٦) واستمرت الأبحاث فى الظهور تباعا منذ تلك الفترة حتى اليوم .

---

(١) Benet, Sula.

(٢) Bunzel, Ruth.

(٣) Rodnick, D.

(٤) Wolfenstein, Martha.

(٥) Metraux, Rhoda.

(٦) Mead, M. and Metraux, D. (eds), The study of Culture at a distance, University of Chicago Press, Chicago, 1953.

الفصل الثانى

موضوع الانثروبولوجيا النفسية

- تمهيـــد
- اثر الثقافة فى الشخصية
- اثر الشخصية فى الثقافة
- المصطلحات

الفصل الثانـــى
موضوع الانثروبولوجيا النفسية

تمهيـــد :

من اعظم الانجازات فى مجهودات الانسان الطويلة لفهم طبيعة النفس البشرية وقدراتها ووظائفها ظهور وتقدم العلوم الاجتماعية ، ويهمنا هنـــا ثلاثة علوم رئيسية ، هى علم النفس وعلم الاجتماع والانثروبولوجيا ، وفى الوقت نفسه الذى فيه تحقق تلك العلوم الكثير من النجاح لتعمقها فـــى المجالات التى تخصصت فيها ، فان الشعور بأهمية التعاون بين تلك التخصصات يتعاظم مع مرور الوقت ، بحيث اصبحت الحاجة الى ظهور علم جديد يجمع الفرد والمجتمع والثقافة فى موضوع واحد أمرا لا مفر منه لدراسة ديناميات السلوك الانسانى ولشرح المستويات العميقة التى وصل اليها كل علم متخصص على حـــــدة .

ان الأساس الذى يجمع تلك العلوم الثلاثة هو الفرد ، لأن الفرد بحاجاته وقدراته هو فى النهاية الأساس لكل الظواهر النفسية والاجتماعية والثقافية، فالمجتمعات هى جماعات منظمة من الأفراد ، والثقافات فى تحليلها النهائى ليست الا استجابات متكررة ومنظمة لأعضاء المجتمع ، اى للافراد ، فالفرد اذن هو نقطة البداية المنطقية لأى بحث فى اى صيغة كلية كبرى ، سواء كانت مجتمعا أو ثقافة ، والفرد أيضا هو نقطة التقاء علم النفس وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا . ويقف أمام تحقيق الدراسة المتكاملة للفرد والمجتمـــع والثقافة عدة عوائق ، فبالاضافة الى المصالح الخاصة المتمثلة فى استقلال الأقسام العلمية بالجامعات ومراكز الأبحاث ، يوجد عائق عدم دراســـة المتخصص فى أحد تلك العلوم موضوعات العلمين الآخرين ، ويوجد كذلك عائق عدم وجود مصطلحات مشتركة ، ويمكن تذليل تلك العقبات عن طريق تعاون المتخصصين معا ، والعمل كفريق فى دراسة العلاقات بين الفـــرد والمجتمع والثقافة ، وسوف يتبع ذلك التعاون الاتفاق على مصطلحـــات مشتركة ، وقد بدأت فعلا بعض الأقسام العلمية فى الجامعات فى الجمـــع بان العلوم الثلاثة السابقة تحت عنوان علم السلوك الانسانى أو علم العلاقات الانسانية .

ومن أهم الموضوعات التى تتطلب مثل ذلك التعاون موضوع الشخصية، أن المشكلة الرئيسية التى تواجه علماء النفس عند دراسة الشخصية هى تحديد السمات التى ترجع للعوامل البيئية ، وتشمل العوامل البيئية العوامل الطبيعية والاجتماعية والثقافية ، ولا يمكن حل تلك المشكلة عن طريـــق

التجارب المعملية ، فانه من المستحيل مثلا ، خلق مجتمعات وثقافات مختلفة للتعرف على تأثيرها على الشخصية ، ولا يمكن كذلك اقتصار الدراسة على ثقافة الباحث لتحديد اثر العوامل البيئية المختلفة ، ولا يستطيع عالم النفس ان يجرى الدراسات الميدانية للحصول على المادة الخاصة بالثقافات المختلفة ، ولكنه يستطيع الحصول على تلك المادة اللازمة عن طريق الدراسات الاثنوجرافية والاثنولوجية للأنثروبولوجيين . ومن الواضح ان العلاقات الشخصية من الموضوعات التى يهتم بها عالم النفس عند دراسة الشخصية ، لأنها من العوامل الهامة فى تكوين الشخصية ، ولا يمكن فهم العلاقات الشخصية الا بالرجوع الى الاوضاع او المراكز الاجتماعية التى يشغلها الأفراد قيد البحث فى البناء الاجتماعى لمجتمعهم ، وهنا يتطلب رجوع عالم النفس لأبحاث علماء الاجتماع للاستفادة منها ، وايضا من المستحيل ان نفهم الحقوق والالتزامات التى تحددها الثقافة للأفراد ، بدون اخذ البناء الاجتماعى فى الاعتبار ، ومن ناحية اخرى ، يجب ملاحظة ان البناء الاجتماعى ذاته هو جزء من ثقافة المجتمع ، وبالتالى لا يمكن فهمه الا عن طريق ربطه بالثقافة ككل ، وهكذا تظهر اهمية التعاون بين عالم الاجتماع والانثروبولوجى وعالم النفس ، وقد اظهرت دراسات الأنثروبولوجيين لعمليات التغير الثقافى والتكامل الثقافى ان الفرد لا يمكن النظر اليه كمجرد حامل سلبى للثقافة ، وانما يجب النظر اليه ايضا كمخترع للثقافة ، اذ لا يمكن ان يكون هناك اختراعات بدون مخترعين ؛ ويجب النظر الى الفرد كذلك كقوة لديها القدرة على قبول او رفض اى جديد فى الثقافة ؛ وبالتالى لا يمكن تفسير عمليات قبول المجتمع او رفضه لعنصر ثقافى جديد بالرجوع الى اصطلاح التكامل الثقافى . وانما يجب لكى نفهم هذه الأمور الرجوع لعلم النفس ، ولا يمكن للمناهج الأنثروبولوجية البحتة ان تدرس طبيعة الشخصية ، او ان تقدم لنا الاختبارات الاسقاطية لتحديد سمات الشخصية ، وهكذا يضطر الأنثروبولوجى الى طلب معاونة عالم النفس عند بحث عمليات التغير الثقافى والتكامل الثانى (١) . وخلاصة القول ان التعاون بين علم النفس وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا ضرورة لبحث موضوعات العلاقة بين الفرد والمجتمع والثقافة .

لقد سبق ان بينا ان موضوع الشخصية من اهم الموضوعات التىتتطلب التعاون بين تلك العلوم ، بل ان الابحاث الميدانية عن السمات المشتركة فى شخصيات اعضاء المجتمع الواحد قد اثبتت ان الدراسة الدقيقة لهذا الموضوع تتطلب تعاونا اوسع من تعاون علم النفس وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا .

---

(١) Linton, R., The Cultural Background of Personality, Appleton-Century-Crofts, INC., N.Y. 1945.pp. XIII-XVIII.

ولنتناول فى ايجاز واحدا من تلك الأبحاث لتوضيح صعوبة وتعقـــد موضوع الشخصية .

درس عدد من الانثروبولوجيين مجموعة من الهنود الحمر تسمـــى جماعات «ايمارا» (١) فى بوليفيا وبيرو ، تعيش تلك الجماعات على سفوح جبال «انديز» (٢) حول بحيرة «تيتيكاكا» (٣) . ويتفق الرأى على ان شخصيات تلك الجماعات تتسم بما يأتى : الخضوع والاكتئاب والقلق والارتياب والقذارة والاهمال واثارة الشجار والقسوة والحقد ، ومن الواضح أن تلك الدراسات لا تفترض أن كل اعضاء جماعات «ايمارا» لديهم كل السمات السابقة أو أن لديهم تلك السمات بنفس الدرجة ، وانما تقر بوجود الكثير من الفـــروق الفردية ، ولكنهم كجماعة تغلب فيهم تلك السمات .

وقد يتساءل القارىء : لماذا يخيم على هؤلاء الناس القلق والتعاسة ؟ ان دراسة العوامل المحددة لشخصيات جماعات «ايمارا» ، تبين أهميـــة التعاون بين عدد كبير من العلوم للاجابة عن هذا السؤال ، اذ يوجد عـــدد كبير من الأسباب المحتملة لانتشار تلك السمات فى تلك الجماعة .

فأولا : تعيش تلك الجماعات فى مناطق جبلية مرتفعة ، ويترتب على المعيشة فى تلك المناطق اصابة السكان بمرض يسمى محليا «سوروش» (٤) ، ويرجع ذلك المرض لنقص الأوكسيجين ومن أعراضه الصداع ودوران البحر والاحساس بالتعب وضيق الصدر ، وهنا يظهر تعاون الطب فى تفسير تلك الشخصية العامة .

وثانيا : يشير العلامة «لابار» الى الكميات الضخمة من الخمور التى يشربها هؤلاء الهنود فى أعيادهم ، ولهذا يمكن اعتبار الشراب والسكر من العوامل المحددة لتلك الشخصية (٥) وهنا نحتاج لتعاون الأطباء لشرح تأثير الافراط فى تعاطى الخمور على الشخصية ، وكذلك نحتاج للأنثروبولوجيين لشرح دور الخمر فى تلك الإحتفالات وسبب انتشار تلك العادة .

---

(١) Aymara

(٢) Andes

(٣) Titicaca

(٤) Sorroche

(٥) La Barre, W., The Aymara Indians of the Lake Titicaca Plateau Bolivia, Memoir of the American Anthropological Association, No. 68, 1948, p. 174.

وثالثا : تنتشر فى تلك الجماعات عادة مضغ نبات كوكا المخدر ، وتبين التجارب الطبية أن تعاطى هذا المخدر يؤدى الى شحوب غير طبيعى وضعف العضلات ، ويرى البعض الآخر ان مضغ الكوكا يؤدى الى نوع من الخمول العاطفى واللامبالاة والضعف العام وعدم تركيز الانتباه . ويقرر الأنثروبولوجى «تشوبيك» أن ماضغى هذا المخدر يتسمون بالارتياب والخجل والانعزال والتردد (١) .

ورابعا : يتضح لنا من وصف الأنثروبولوجى «تشوبيك» أن منازلهم غير صحية ، فهى مزدحمة وغير مدفأة وقذرة . هذا بالاضافة الىقلة ملابسهم وسير الرجال حفاة فى جو قارس البرودة ، ويعانى الأطفال سوء التغذية ، وتتمثل فى نقص فيتامين «أ» وفيتامين «جـ» والدهنيات والحديد والكلسيوم. ولا توفر الأطعمة التى يتناولونها الطاقة اللازمة فى مثل تلك المناطق المرتفعة . ترتب على تلك الظروف القاسية انتشار أمراض الرئتين والأمراض الجلدية والجدرى وامراض القلب والأمراض التناسلية ، ويرتفع عندهم معدل وفاة الأطفال .

وخامسا : يوجد عامل تاريخى هام يمكن ان يفسر تعاسة وقلق تلك الجماعة ، وهذا العامل هو استعمار الأسبان لبلادهم ، وقداستخدم الأسبان كل وسائل التعذيب لاستغلال هؤلاء البشر ، ويقدر ان حوالى ثمانية ملايين هندى قد قتل ابان فترة الاستعمار الأسبانى ، ويشمل هذا العدد غالبية افراد تلك الجماعة . وقد قاموا بعدة ثورات ولكن لم يحالفهم النجاح ، وظلوا خاضعين لأسيادهم الأسبان وسلالة المستيزو (٢) — وهى سلالة نتجت عن زواج الأسبان من الهنود الحمر — لمدة خمسة قرون من الزمان ، ولا يزال أسيادهم القدامى يحتلون المناصب السياسية الهامة ويملكون افضل المزارع والمنازل ، وتعيش تلك السلالة الجديدة فى مستوى اجتماعى واقتصادى افضل من الوضع الاجتماعى والاقتصادى لجماعات ايمارا ، ولا يزال افراد جماعات «ايمارا» يرفعون قبعاتهم احتراما عند المرور بأحد المستيزو ، ويقبلون أيديهم وملابسهم للتعبير عن شكرهم لأى مساعدة أو عون يحصلون عليها . أليس من الممكن أن طول فترة الاستعمار واستخدام وسائل التعذيب الوحشية وحالة الخضوع المستمر والشعور بالنقص امام جماعة المستيزو والمستعمرين الأسبان هى العوامل المسئولة عن تعاسة وقلق تلك الجماعات ؟

(١) Toschopik, H., Jr., The Aymara of Chucuito, Peru, Anthropological Papers of the American Museum of Natural History, Vol. 44, Part II, 1951, p. 187.

(٢) Mestizo.

وسادسا : تواجه جماعات ايمارا مشكلة اقتصادية هامة وهى التقلص المستمر فى مساحة الأرض المزروعة ، وذلك لاستيلاء الحكومات على أجزاء من اراضيهم من وقت لآخر ، وترتب على ذلك انتشار العداء والصراع بين العائلات الممتدة التى تنافس على البقية من الأرض ، وادت تلك الصراعات الى انتشار الاتجاهات الفردية والانانية ، وهى أمور من شأنها اثارة القلق والضيق فى الصدور .

وسابعا : يتصف النظام الأسرى بالتفكك والانهيار وذلك لانتشار الطلاق والخيانات الزوجية ، ويعانى الأطفال من تلك الظروف القاسية ، هذا بالاضافة الى قلة الحنان والعاطفة ، اليس فى الامكان أن تكون تلك الظروف الأسرية هى المسئولة عن تعاسة وقلق أفراد تلك الجماعات ؟

وهكذا توجد عدة عوامل قد تكون هى جميعها المفسرة لسمات شخصيات أعضاء تلك الجماعات ، ولما كانت تلك العوامل تنتمى الى علوم مختلفة ، فان التعاون بين تلك العلوم جميعها أو بين بعضها يصير أمرا ضروريا لفهم شخصيات ايمارا . واذا سلمنا — جدلا — بأن جميع تلك العوامل تؤثر فى تشكيل شخصيات هؤلاء الافراد ، فاننا قد نتساءل ،هل تتساوى تلك العوامل فى درجة اهميتها وفاعليتها ؟ اليس لبعض تلك العوامل فاعلية أكبرمن فاعلية العوامل الأخرى ؟ كيف نحدد الاختلاف فى درجة فاعلية كل عامل من تلك العوامل ؟

ان تحليل العوامل السابقة بين ان بعضها خاص بالبيئة الجغرافية والبعض الآخر بالاتجاهات والعادات الثقافية ، وهناك عوامل خاصة بالظروف الاجتماعية المحيطة ، هذا بالاضافة الى العوامل الاقتصادية . يميل كل عالم الى تاكيد اهمية العوامل الداخلة فى دائرة اختصاصه والتقليل من اهمية العوامل الأخرى ، ويعرف هذا بتحيز العلماء لتخصصاتهم ، وهو خطأ شائع يجب عدم الوقوع فيه ، وخاصة فى تلك الدراسات التى تقوم على أساس التعاون بين العلوم ، وليس على أساس استقلالها .

وفيما يتعلق بالدراسة الميدانية السابقة عن شخصيات جماعات ايمارا ، تبين الدراسات التحليلية والمقارنة ان ارتفاع المناطق السكنية لتلك الجماعات لس عاملا دالا ، وذلك لأن الدراسات الميدانية التى اجريت على سكان جبال الهملايا قررت أن شخصياتهم تتسم بالمرح والابتهاج والتعاون والثقة بالنفس ، وزيادة على ذلك فقد لاحظ كل من «لابار» و «تشوبيك» ان صفة الاكتئاب تظهر بصورة أقوى عند سكان السهول عنها عند سكان المناطق الجبلية المرتفعة ، واذ استبعدنا العوامل الطبيعية نجد انفسنا متجهين الى العوامل الثقافية والاجتماعية لتفسير سمات شخصيات جماعات ايمارا ، ان اهمية

تلك العوامل فى تفسير سمات الشخصية تمثل الضرورة العلمية لظهـــور الأنثروبولوجيا النفسية التى تجمع بين الأنثروبولوجيا الثقافية وعــلم نفس الشخصية ، وتتطلب ابحاثها تعاون الأنثروبولوجيين وعلماء النفس .

يتلخص موضوع الانثروبولوجيا النفسية فى تحديد العلاقة بين الثقافة والشخصية ، ولا تسير تلك العلاقة فى اتجاه واحد وانما فى اتجاهين ، اثر الثقافة فى الشخصية واثر الشخصية فى الثقافة ، ولتناول الآن فى ايجاز شرح كل جانب على حدة .

اولا ــ أثر الثقافة فى الشخصية :

يستخدم الأنثروبولوجيون مفهوم الثقافة على انه اسلوب الحياة الذى يميز مجتمع ما عن غيره من المجتمعات ، واهم مميزات هذا المفهوم النظرة الكلية الشاملة ، فالثقافة تشمل جميع انماط السلوك المكتسبة ، ســـواء اكانت تمثل علاقة الانسان بالمادة او علاقته بغيره من البشر أو علاقته بالأفكار والرموز ، وبالتالى يمكن تمييز ثلاثة قطاعات متداخلة الثقافة ، القطاع المادى أو التكنولوجى والقطاع الاجتماعى والقطاع الفكرى والرمزى . ان هــذا التعريف البسيط للثقافة لا يعتبر من المدارس الفكرية والنظريات الأنثروبولوجية التى بحثت بعمق مفهوم الثقافة ، وتوصلت الى تعريفات مختلفة ومبادىء متعددة لهذا المفهوم ، وانما يعطينا فكرة مبسطة تسمح بشرح اثر الثقافة فى الشخصية ، ولكن لا يعنى ذلك أن الباحث فى الثقافة والشخصية لا يحتاج الى دراسة دقيقة لمفهوم الثقافة ، ولذلك رؤى تخصيص الفصل الثالث لتلك الدراسة .

بينما يتميز مفهوم الثقافة بالشمول وبتنميط السلوك ، فان مفهــوم الشخصية ــ على النقيض ــ يتميز بالتفرد وتخصيص السلوك ، فالشخصية هى تنظيم دينامى ثابت نسبيا داخل الفرد يتمثل فى مجموعة من السمـــات الجسيمة والنفسية ، ويستدل على ذلك التنظيم من خلال ملاحظة سلوك الفرد واخضـاع تلك الملاحظة للقياس الكمى الذى يمكن التعبيرعنه بتكوينات متوسطة مثل السمات او الاتجاهات ، لكل فرد شخصية منفردة ومتميزة ، ولا يشاركه فيها اى شخص آخر ، ومن هنا كان القول بأن الفرد من ناحية معينة لا يشبه اى فرد آخر . ان هذا التعريف المبسط للشخصية يكفـى بمتطلبات هذا الفصل ، ولكن على دارسى موضوع الثقافة والشخصية دراسة مفهوم الشخصية بصورة اكثر تفصيلا ، ولذلك خصص فصل كامل وهــو الفصل الرابع لمفهوم الشخصية . ولكن ، برغم هذا الاختلاف الواضح بين المفهومين ، الثقافة والشخصية نلاحظ أن العلاقة بينهما علاقة ضروريـــة وجوهرية ، فبدون الثقافة لا توجد الشخصية ، وبدون الشخصية لا توجد

ثقافة ، وذلك لأن الثقافة هى مجموعة من انماط السلوك التى تميز مجتمع ما ، واذا حللنا انماط السلوك نجد انها اكثر الحالات تكرارا لسلوك معين ، وهذا السلوك المعين صادر عن فرد معين اى من شخصية معينة .

سبق القول بأن الفرد من ناحية معينة لا يشبه اى فرد آخر ، وفسر ذلك القول على اساس ان كل فرد له شخصية مميزه وفريدة ، لايشاركه فيها احد ، بمعنى انه لايوجد فردان ، حتى فى حالة التوائم ، يتشابهان تماما فى السمات الجسيمة والنفسية ، ولكن ، هناك حقيقة اخرى ، وهى ان الفرد من ناحية اخرى يشبه بعض الأفراد الآخرين ، ويقصد بذلك ان الفرد كعضو فى جماعة معينة وكحامل لثقافة معينة كذلك يشبه فى بعض السمات النفسية الكثيرين من اعضاء هذا المجتمع ، قد يتبادر الى الذهن وجود بعض التعارض بين القولين السابقين ، ولكن الحقيقة انه لا يوجد تعارض وانما تكامل بينهما ، فالفرد ككل له شخصية فريدة متميزة ، ولكن بعض عناصر تلك الشخصية يشاركه فيها افراد آخرون . فمن الواضح ان اعضاء اى مجتمع يشتركون فى مجموعة من سمات أو عناصر الشخصية ، ولا شك ان تلك العناصر المشتركه تحتوى على مدى واسع مع الاختلافات الفردية ، وتتنوع تلك العناصر المشتركة من الاستجابات الظاهرية البسيطة مثل آداب المائدة الى الاتجاهات العامة جدا مثل القيم .

ويتفق الأنثروبولوجيون على وجود الاختلافات والفروق الفردية فى شخصيات أعضاء المجتمع الواحد ، ويتفقون على وجود تفرع وتعدد لأشكال الشخصية فى المجتمع الواحد . ولكنهم يتفقون كذلك على ان العناصر المشتركة فى شخصيات اعضاء المجتمع الواحد تكون معا « صيغة كلية » (١) متكاملة يمكن ان تسمى «الشكل الرئيسى للشخصية» (٢) هذا بالنسبة للمجتمع ككل . تمد تلك « الصيغة الكلية » افراد المجتمع الواحد . بالمفاهيم العامة والقيم التى تجعل فى الامكان حدوث استجابة عاطفية موحدة لأعضاء المجتمع نحو مواقف تتضمن قيمهم العامة المشتركة . وبالاضافة الى تلك «الصيغة الكلية» العامة والمتعلقة بالمجتمع ككل ، كذلك توجد فى كل مجتمع « صيغ كلية » اضافية ، أو اقل عمومية ، للاستجابة الخاصة بجماعات معينة فى داخل المجتمع وهكذا ، ففى كل مجتمع توجد « صيغ كلية » مختلفة ومتميزة لكل من جماعات الرجال والنساء والمراهقين والكبار وما الى ذلك ، وفى المجتمع الطبقى توجد اختلافات مشابهة فى الاستجابة المميزة لأعضاء المستويات

---

(١) Configuration.

(٢) Basic personality type.

الاجتماعية المختلفة مثلا النبلاء والعامة والعبيد ، ويطلق العلامة لينتون على « الصيغ الكلية » الخاصة بالاستجابات المرتبطة بالمراكز الاجتماعية اصطلاح « شخصيات المركز » (١) ، ويؤكد لينتون على اهمية شخصيات المركز فى نجاح تفاعل أعضاء المجتمع الواحد على اساس المركز وحده ، فعندما يقابل احد الافراد فردا آخر غريبا تماما عنه ، فان اى تعرف بسيط على الأوضاع الاجتماعية للفردين يجعل فى الامكان أن يتنبأ كل منهما بنوع الاستجابات التى تصدر عن الآخر فى المواقف المختلفة .ويجب ملاحظة ان شخصيات المركز لا تتعارض مع الشكل الرئيسى للشخصية وانما تتكامل معه ، ولكنها تختلف عن الشكل الأخير من ناحية أنها تتضمن الكثير من الاستجابات الظاهرية المتخصصة ، فى حين يتضمن الشكل الرئيسى للشخصية الاتجاهات والقيم العامة (٢) . ويفرق « لينتون» بين معرفة نظام قيمة — اتجاه معين والمشاركة فى هذا النظام ، فمن النادر ان تشمل شخصية المركز اى نظام قيمة — اتجاه يكون غير معروف لأعضاء المراكز الأخرى فى المجتمع الواحد ، هذا بالرغم من امكانية وجود عداء قوى بين جماعات تلك المراكز ، ولكن كثيرا ما تشتمل شخصيات المركز على نظم قيمة — اتجاه لا يشاركها فيها أعضاء جماعات المراكز الاخرى ، فمثلا ، قد يعرف الرجال الأحرار بقيم واتجاهات العبيد بل ويسمحون بوجودها ، ولكن بدون المشاركة الواقعية فيها ، اى بدون الاقتناع بتلك القيم ، ويجب ملاحظة أن الاستجابات الظاهرية المتخصصة ، وليست القيم والاتجاهات ، هى التى تعطى شخصيات المركز معظم دلالتها الاجتماعية ، فطالما ان الفرد ينمى تلك الاستجابات ، فهو يستطيع ان يؤدى أدوار المركز بنجاح ، سواء اكان الشخص يشارك ام لا يشارك فى القيم والاتجاهات . وقدم المجتمع انماط الاستجابة الظاهرية المتخصصة لشخصيات المركز فى صورة بسيطة ومحسوسة ، تجعل تعلمها أمرا سهلا ، ثم يقوم المجتمع من خلال عملية التنشئة الاجتماعية وعلى الخصوص من خلال الضغط الاجتماعى بدفع الأفراد المختصين بالأخذ بتلك الاستجابات بصورة ثابتة مستمرة ، فيكافأ الفرد على تعلم تلك الاستجابات ويعاقب من ينحرف عنها ، حقا من الممكن ان تظهر صراعات عند الفرد اذا قام بتعلم استجابات تخصصية تتعارض مع القيم والاتجاهات الخاصة به ، ولكن تأخذ الصراعات فى الضعف الى أن تختفى تماما عندما تصبح الاستجابة آلية لا شعورية . ينتهى لينتون من المناقشة السابقة الى حقيقة هامة وهى أن لكل مجتمع شكلا رئيسيا للشخصية خاصا به ، ولديه كذلك مجموعة محددة من شخصيات المركز (٣) .

---

(١) Status personalities.

(٢) Linton, R., The Cultural Background of Personality, Appleton Century-Crofts, INC. N.Y. 1945, pp. 128-130.

(٣) Ibid. pp. 129 & 130.

ولننتقل الآن الى موضوعنا الاساسى هو كيف تؤثر الثقافة فى تكوين تلك الصيغ الكلية للشخصية ؟

يهتم الأنثروبولوجيون النفسيون بتحديد سمات الشكل الرئيسى للشخصية وكذلك سمات شخصيات المركز فى المجتمع قيد الدراسة ، وهنا يتضح اختلاف ميدان التخصص بين الأنثروبولوجيا النفسية وعلم نفس الشخصية ، وان كان التعاون بينهما أمرا ضروريا ، اذ لا يمكن ان نصل الى تحديد تلك الصيغ الكلية للشخصية بدون معاونة الأطباء والمحللين النفسيين الذين يطبقون الاختبارات الاسقاطية على عدد مناسب من الأفراد ، وبالتالى يمكن استخراج المتوسطات التى تحدد الشكل الرئيسى للشخصية وشخصيات المركز . ويقوم المتخصصون فى الأنثروبولوجيا النفسية بهذا العمل ، سواء كانوا من علماء النفس أم من الأنثروبولوجيين ، ويلى ذلك تحديد اثر الثقافة فى تلك الصيغ الكلية للشخصية ، وهو الجانب الأول من موضوع الأنثروبولوجيا النفسية ، ان الأنثروبولوجيين أمريكيين وعلى راسهم العلامة «بواز» كانوا من اول من اكتشف قصور العوامل الفسيولوجية والوراثية فى تفسير الاشكال العامة للشخصية فى المجتمعات المختلفة ، ولكنهم فى غمرة حماسهم فى التصدى للمذاهب العنصرية غفلوا عن تقديم بديل للعناصر السلالية التى ثبت قصورها ، والثقافة هى هذا البديل ، وهنا يجب ملاحظة ان قصور العوامل الفسيولوجية والوراثية فى تفسير الأشكال العامة للشخصية فى المجتمعات ، لا يعنى عدم تأثيرها فى تكوين الشخصية الفردية ، ويشرح هذا التأثير فى الفصل الرابع عند دراسة محددات الشخصية .

ترتب على ازدهار الدراسات الاثنوجرافية والاثنولوجية فى نهاية القرن التاسع عشر وفى القرن العشرين ان حصل الأنثروبولوجيون على مادة وفيرة تسمح باجراء الدراسات المقارنة للثقافات المختلفة ، وملاحظة الفروق الشاسعة بين الأشكال الرئيسية للشخصية فى تلك الثقافات ، مما ادى الى تأكيد قصور العوامل البيولوجية والوراثية فى شرح تلك الاختلافات، واتجه التحث الى تحديد أثر العوامل البيئية ، ويقصد بها هنا الناس والأشياء. تتعدد وتتنوع اشكال سلوك الأفراد فى اى مجتمع وكذلك اشكال معظم الأشياء التى يستخدمونها ، وتدخل تلك الأشكال فى اطار الأنماط الثقافية، وذلك على حسب التعريف الكلى لمفهوم الثقافة ، وهو التعريف المذكور سابقا والذى يأخذ به الأنثروبولوجيون . فمن خلال نمو الفرد فى مجتمعه تنمو وتتشكل شخصيته من خلال الخبرات التى يستقبلها من اتصاله بالأنماط الثقافية المختلفة ، ولا يختلف احد أنه بدون هذا الاتصال لا يكون للفرد شخصية ، فالشخصية تنمو وتتشكل من خلال عملية التنشئة الاجتماعية او عملية التثقيف ، وتمثل تلك العمليات التربوية تأثيرات الثقافة على الشخصية ، ويقسم «لينتون» هذه التأثيرات فى العمل منذ اللحظة الأولى

للولادة ، وتكون ذات أهمية كبرى اثناء مرحلة الطفولة ، وثانيا : تأثيراتترجع لاكتساب الفرد وتعلمه بنفسه لأنماط السلوك المميزة لمجتمعه ، ولا تؤثر تلك الأنماط فى الفرد مباشرة ، وانما تمده بنماذج يحتذيها فىتكوين الاستجابات المعتادة للمواقف المختلفة ، ان هذه التأثيرات الأخيرة لا تكون ذات أهميـــة فى مرحلة الطفولة المبكرة (١) .

وبرغم الاختلاف الواضح بين النوعين السابقين للتأثيرات الثقافية فى الشخصية ، فانهما يتداخلان فى نقطة معينة ، وهى أن السلوك المنمط ثقافيا والموجه نحو الطفل ، اى النوع الأول ، يمكن أن يستخدم كذلـــك كنموذج يحتذيه الطفل ، وبالتالى يلتقى النوع الأول مع النوع الثانى مـــن التأثيرات الثقافية ، ويتم هذا اللقاء عندما يكبر الطفل ويصبح قادرا على ملاحظة وتذكر ما يفعله الآخرون ، وعندما يبلغ ويكبر، ويصبح عائلا لأسرة ويواجه بالكثير من المشكلات المتعلقة بتربية اطفاله ، فانه يعود للاستفادة من ذكريات طفولته ، فمثلا المجتمع الأمريكى ، يميل بعض الآباء الى ارسال ابنائهم الى «مدرسة الأحد» لأنهم هم انفسهم قد ارسلوا الى تلك المدارس ، مع أنهم أنفسهم بعد الكبر قد يفضلون لعب الجولف عن الذهاب للكنيسة ، وفى المجتمع المصرى كثيرا ما يقرع الآباء ابناءهم بأنهم ضعاف البنية نسبيا ولا يمكن الاعتماد عليهم ، ويقصون عليهم الكثير من ذكريات طفولتهمويحثونهم على تقليدهم .

تتميز انماط التربية المبكرة ، وما يصاحبها من تدريبات وتنظيمات يخضع لها الأطفال ، بتأثيرها على المستويات العميقة لشخصيات هؤلاء الأطفال ، ويتفق الراى بين علماء النفس والانثروبولوجيين وعلماء التربية على ان السنوات الأولى فى حياة الفرد هى مرحلة حاسمة فى تكوين القيم والاتجاهات العامة جدا (٢) ، وتمثل تلك الأمور المستويات العميقة مـــن مضمون الشخصية . واتفاق الراى على اهمية مرحلة الطفولة المبكرة فى تكوين الشخصية يرجع للدراسات والأبحاث التى اجريت فى المجتمعـــات الغربية وغير الغربية والتى شملت معظم ثقافات العالم . وتبين بعض تلك الدراسات التى تركزت حول دراسة الأشخاص غير الأسوياء والشواذ أن بعض سمات شخصياتهم ترجع الى تعرضهم لخبرات غير عادية فى مرحلة الطفولة ، وتقرر الدراسات المقارنة للثقافات المختلفة أن الكثير من الصفات

---

(١) Ibid., pp. 139 & 140.

(٢) يعرف العلامة لينتون القيمة بأنها اى عنصر مشترك فى عدد من المواقف ، بشرط أن يثير هذا العنصر المشترك استجابة داخلية عند الفرد . أما الاتجاه فهو استجابة داخلية تثار عن طريق القيمة ، وتتميز تلك الاستجابات بأنها فى معظمها ذات مضمون عاطفى .

السوية لشخصيات الأوربيين ، والتى قبلت فى أول الأمر على أنها ترجع لعوامل غريزية ، قد ثبت أنها ترجع لأنماط ثقافية خاصة بتربيةالأطفال (١).

وبرغم حداثة الأنثروبولوجيا النفسية فانه يوجد عدد كاف من الأبحاث يسمح باكتشاف بعض الترابطات بين الأنماط المختلفة فى تربية الأطفال والاشكال الرئيسية لشخصيات الكبار . فمثلا لوحظ انه فى المجتمعات التى يسود فيها نمط ثقافى يحتم الطاعة المطلقة من الطفل لوالديه كشرط مسبق للحصول على مكافأة ما ، تتسم شخصيات البالغين الأسوياء بالخضوع والتبعية وعدم الخلق ، هذا بالرغم أن هؤلاء الأفراد يكونون قد نسوا تماما خبرات الطفولة التى أدت الى تكوين تلك الاتجاهات العامة ، وفى تلك المجتمعات ذات السلطة المطلقة للآباء ، يكون رد فعل الشخص البالغ فى اى موقف جديد هو البحث عن شخص له سلطان أو نفوذ ليطلب منه الدعم والتوجيه . ومن الأمور الجديرة بالملاحظة حول هذا الموضوع ان فى بعض تلك المجتمعات ذات السلطة المطلقة للوالدين ، يوجد برامج لتدريب عدد قليل من الأفراد على القيادة ، وذلك لعدم امكانية ظهور قادة من خلال الأنماط الثقافية العامة ، ففى قبيلة تانالا بمدغشقر ، يعامل اكبر الأبناء سنا معاملة خاصة المولد ، وتهدف تلك المعملة الخاصة الى تنمية الارادة والمبادأة وتحمل المسئولية فى حين يخضع باقى الأطفال للانماط الثقافية العامة القائمة على الصرامة والكبت (٢) .

وفيما يتعلق بالترابط بين الأنماط الثقافية وسمات الشخصية عند الكبار ، تشير الأبحاث التى اجريت على الأسر الصغيرة جدا فى المجتمعات الغربية الى أن الأشخاص الأسوياء فى تلك المجتمعات يميلون الى تركيز عواطفهم وتوقعاتهم للمكافأة أو العقاب على عدد قليل من الأفراد ، ويرجع هذا التركيز بصورة لا شعورية لمواقف معينة فى مرحلة الطفولة ، وهى المواقف التى يستقى منها الأطفال كل الاشباعات والاحباطات من والديهم فقط . أما فى المجتمعات غير الغربية ذات الأسر الممتدة فان الطفل يتصل بعدد كبير من البالغين وبالتالى لا يركز عواطفه واتصالاته عند الكبر بعدد قليل من الأفراد ، وتتضمن كل علاقاتهم الشخصية اتجاها لا شعوريا يتمثل فى عبارة « حسنا هناك آخرون للتعامل معهم » ، ولذلك لا تنتشر فى تلك المجتمعات غير الغربية مفاهيم الحب الرومانتيكى التى تركز عاطفة الحب على فرد معين بالذات وبدون الاقتران به تصبح الحياة بدون معنى ، ولكن توجد هذه المفاهيم فى الثقافة الغربية .

(١) Ibid. pp. 140, 141.

(٢) Ibid. p. 142.

يتضح لنا من المثالين السابقين ان ثقافة أى مجتمع تحدد المستويات العميقة لشخصيات اعضائها عن طريق الأنماط الثقافية الخاصة بتربية الأطفال ، ولا ينتهى اثر الثقافة فى الشخصية عند ذلك الحد ، وانما يستمرهذا فى تشكيل الكثير من العناصر الباقية فى شخصيات افراد المجتمع ، وذلك عن طريق تزويدهم بنماذج يقلدونها فى استجاباتهم التخصصية ايضا ، وتستمرتلك العملية طوال حياة الفرد ولا تقتصر على مرحلة الطفولة ، ويختلف هـذا التأثير الثقافى فى الشخصية عن التأثير السابق فى عدة جوانب ، فبينما يستمر الفرد بالنماذج طوال فترة الحياة ، فان تطبيق أنماط تربية الأطفال خاص بمرحلة الطفولة فقط ، وبينما تختص انماط تربية الأطفال بتكـوين المستويات العميقة للشخصية والتى تتمثل فى القيم والاتجاهات العامة جدا ، يختص تزويد الفردبالنماذج بالمستويات السطحية للشخصية والتى تتمثـل فى الاستجابات الظاهرية التخصصية ، وهذا يؤيدى القول المأثور« التعلم فى الصغر كالنقش على الحجر » ، ولا تمد الثقافة الأفراد بنماذج للادوار المتغيرة فى المجتمع فقط وانما تؤكد لهم كذلك أن تلك الأدوار الجديدة ستكون بصورة عامة ملائمة مع قيمهم واتجاهاتهم العامة المتمركزة فى أعمـاق شخصياتهم ، ولكن يجب ملاحظة انه كلما كبر سن الفرد وأصبح شيخا قل هذا النـوع من التأثير الثقافى لشخصيته ، وأصبح لا يميل لتعلم الجديد ، وفى الغالب يحدث اختلاف بين شخصية الجيل القديم وأبنائهم من الجيل الجديد ، ويعكس هذا الاختلاف اختلافا فى ثقافة الجيلين .

ويميل «لينتون» الى تاكيد صفة التكامل بين الثقافة والشخصيـة السوية ، وذلك يرى أن جميع الأنماط الخاصة بثقافة ما تميل الى نوع من الانسجام او التوافق مع القيم والاتجاهات العامة التى تمثل المستويات العميقة فى شخصيات الأفراد الأسوياء ، ولذلك لا يطلب من الشخصالسوى فى مجتمع ما القيام بأى عمل غير متلائم مع المستويات العميقـة للشخصية ، وفى حالة استعارة مجتمع ما لبعض الأنماط السلوكية من مجتمع آخـر ، فانه عادة تجرى تعديلات فى هذه الأنماط لكى تصبح منسجمة مع الشكل الرئيسى للشخصية فى المجتمع الجديد . حقا قد تجبر الثقافة بعض الأفراد بالالتزام بأشكال سلوكية يكرهونها ، ولكن عندما يصبح هذا السلـوك مكروها عند معظم اعضاء المجتمع ، فان الثقافة تتخلى عنه فورا ، فمثلا عندما أصبحت عقوبة الاعدام مكروهة عند معظم افراد بعض المجتمعات ، الغتها المجتمعات واستبدلتها بعقوبة السجن المؤبد .

أما بالنسبة لأنماط السلوك الجديدة التى تنسجم مع القيم والاتجاهات العامة للفرد ، أى مع المستوى العميق للشخصية ، فان الفرد لا يجـد صعوبة فى اكتساب تلك الأنماط السلوكية الجديدة ، وكلما اعتاد على تكرارها،

فان هذا التكرار يساعد على تقوية وتثبيت قيم الفرد واتجاهاته العامة، ولذلك فالفرد الذى يقضى حياته فى مجتمع ذى ثقافة مستقرة نسبيا ، يشعر بأن شخصيته اصبحت اكثر تكاملا مع مرور الوقت ، وكلما كبر فى السن فان شكوكه وتساؤلاته ، التى تصاحب مرحلة المراهقة والتى تتعلق بقيم واتجاهات الثقافة ، تختفى عن طريق التزامه وادائه المتكرر للسلوك الظاهرى المنسجم مع تلك القيم والاتجاهات ، وهكذا يترتب على الأداء المتكرر للأنماط السلوكية القديمة والجديدة المنسجمة مع روح الثقافة تقوية وتدعيم قيم الفرد واتجاهاته العامة ، وبالتالى لا يشعر بأى جبر او اكراه فى اداء تلك الأنماط . ولا شك ان حالة هذا الشخص تكون أسعد كثيرا من حالة الشخص الذى يجد نفسه مجبرا على الالتزام بأنماط السلوك الظاهرى ، التى ليست منسجمة مع قيمه واتجاهاته العامة اى مع المستوى العميق من شخصيته الذى يتكون عن طريق خبراته المبكرة ، ومن امثلة هذه الشخصيات «الأفراد الهامشيون » (١) ، وهم الأفراد الذين يحاولون التكيف بعد الكبر مع ثقافة جديدة وغريبة عنهم ، ويتضح ذلك فى حالات الهجرة الخارجية عند البالغين ، وعند افراد المجتمعات المتقدمة التى تتصف بالتغير الثقافى السريع ، يعانى هؤلاء الأفراد من التناقض بين ما يؤمنون به من قيم واتجاهات عامة وما يطلب منهم القيام به من اعمال ، ولاشك ان تكرار القيام بتلك الاشكال من السلوك الظاهرى سيضعف فى المدى البعيد تلك القيم والاتجاهات العامة ، ويبدو أنه من النادر — أن تختفى تلك القيم التى تأسست فى الشخصية فى مرحلة الطفولة ، ومن النادر كذلك ان تستبدل القيم والاتجاهات الأصلية بقيم جديدة عند الفرد . حقا ، ان الشخص البالغ الذى يعيش فى ثقافة جديدة يستطيع أن يعمل ، أو حتى أن يفكر وفق الثقافة الجديدة ، ولكنه لا يستطيع أن يجعل مشاعره منسجمة معها ، وفى كل موقف يطلب منه اتخاذ قرار ، يجد نفسه موزعا بين قيم واتجاهات متعارضة (٢) .

وخلاصة القول ان الثقافة هى المسئولة عن الشكل الرئيسى للشخصية فى اى مجتمع ، وباختلاف الثقافات تختلف اشكال الشخصية ، ويقصد بشكل الشخصية مجموعة السمات الاكثر تكرارا بين افراد المجتمع الواحد، وقد ميز «لينتون» بين شكلين ، الشكل الرئيسى للشخصية وهو يميز معظم شخصيات افراد المجتمع ويتمثل هذا الشكل الرئيسى فى مجموعة من القيم والاتجاهات العامة التى تتمركز فى المستويات العميقة من شخصية الفرد ،

---

(١) Marginal personalities.

(٢) Ibid pp. 143-146.

وتؤسس تلك القيم والاتجاهات فى الشخصية أثناء مرحلة الطفولة عنطريق اتصالات الطفل المستمرة والقوية بأعضاء أسرته ، والى جانب الشكل الرئيسى للشخصية يوجد فى المجتمع الواحد عدة أشكال اخرى للشخصية وهى شخصيات المركز . وذلك لأن الأفراد الذين يشغلون مركزا اجتماعيا واحدا فى المجتمع ، يقومون بأداء عدة ادوار متشابهة ، ويطبع هذا الاداء شخصياتهم بسمات مشتركة ، فمثلا فى أى مجتمع يوجد اختلافبين شخصيات النساء وشخصيات الرجال ، وبين شخصيات الأطفال والبالغين والشيوخ ، وفى المجتمعات المتقدمة نلاحظ تشابها بين شخصيات الموظفين الكتابيين ، وما الى ذلك من المهن المختلفة .

ان الشرح السابق لأثر الثقافة فى تكوين أشكال عامة للشخصية فى المجتمع الواحد لا يعنى مطلقا القول بأن أفراد المجتمع الواحد تتشابه شخصياتهم ، لأنه يوجد فرق كبير جدا بين شكل الشخصية والشخصية الفردية أو الشخصية ، يقصد بشكل الشخصية مجموعة تجريدية منالسمات المشتركة بين عدة شخصيات فردية ، أما الشخصية فيقصد بها شخصية فرد معين بالذات . ويتفق الأنثروبولوجيون مع علماء النفس على أنه لا يوجد فردان فى العالم متشابهان تماما فى الشخصية ، وينطبق هذا التعميم على التوائم كذلك ، وعلى المجتمعات الصغيرة التى تطبق نظام الزواج من الداخل ، وذلك لأن الأفراد يختلفون فى امكانياتهم الوراثية للنمو ، كما يختلفون فى العوامل البيئية التى يعيشون فيها ، وتتأثر بها تلك الامكانيات الوراثية ، فمنذ الولادة كذلك يختلف الأفراد فى الحجم والقوة ثم فى الذكاء وفى القدرة على التعلم ، وبما أن عملية تكوين الشخصية هى فى الأصل عملية تكامل للخبرة ، وتستمد تلك الخبرة من تفاعل الفرد مع بيئته الثقافية ، فان الأفراد سيكتسبون خبرات مختلفة حتى فى البيئات المتشابهة ، وبالتالى تنمو شخصيات بالغة مختلفة . ان الثقافة تعبر عن ذاتها للفرد فى اطار سلوك الناس الآخرين وفى اتصاله بالأشياء التى عادة يصنعها ويستخدمها أفراد مجتمعه ، ولا شك أن اختلاف وتعدد أشكال سلوك الأفراد وأشكال الأشياء من الأمور الواضحة فى المجتمعات المتمدينة المعقدة ، وحتى بالنسبة للمجتمعات البسيطة التى تتميز بالتجانس وصرامة الانماط الثقافية وبساطة الأشياء التى يستخدمها الفرد فانه وجد اختلافات فى العلاقات الاجتماعية الفردية ، وتسمح الانماط الثقافية الصارمة جدا بقدر من التنوع فى السلوك الفردى ، هذا بالاضافة الى انماط العلاقات الأسرية لا يمكن أن تكون صارمة جدا من الناحية العملية ، فان التفاعلات الشخصية المتكررة بين الطفل ووالده تؤدى الى نمو انماط متنوعة للسلوك ، ويتحدد مدى هذا التنوع عن طريق الخوف مما قد يقوله الآخرون وعن طريق الأنماط الثقافية التى تسمح بمثل هذا التنوع . وفى اطار الحدود المفروضة

عن طريق الثقافة ، فانه من الممكن للآباء فى كل مجتمع ان يكونوا عاطفيين أو لا مبالين أو صارمين أو متسامحين أو منابـع عداء . أن الاختلافات الفردية والاختلافات البيئية تتفاعل فى مجموعة لا نهائية تقريبـا من الترابـطات والتغيرات ، وان الخبرة التى يمكن للافراد ان يستمدوها من تلك الترابطات تكون كذلك مختلفة لدرجة كبيرة وبالتالى تنمو كل شخصية فردية كحالـة منفردة لا تطابقها شخصية اخرى .

يتفق الانثروبولوجيون على حدوث تغيرات فى الشخصية العامة للمجتمع عبر الزمان ، وتختلف معدلات تلك التغيرات ، ويرجع ذلك لتأثير عوامـل متنوعة ومتشابكة ، ومن اهم عوامل تغير الشخصية العامة للمجتمع التغير الثقافى ، ويتجه الرأى الى التعميم بأن تغير شخصية المجتمع يسير بمعـدل ابطأ من معدل التغير الثقافى ، وتتضح تغيرات شخصيـة المجتمـع عبـر الاجيال ، فان اختلاف سمات شخصيات الآباء عن شخصيات الأبناء من الظواهر النفسية التى تبرز بوضوح فى المجتمعـات المتمدينـة التى تتميز بوضوح عملية التغير الثقافى ، وترى العلامة « ميد » أن كل عضو فى كل جيل ، من الطفولة حتى الشيخوخة ، يساهم فى اعـادة شرح الأشكـال الثقافية ، وبالتالى يساهم اعضاء المجتمع فى عملية التغير الثقافى ، ولكن يجب ملاحظة ان التغيرات الثقافية التى تصطدم مع الشخصية العامـة للمجتمع يكون مآلها الفشل فى الغالب(١) ، وهكذا فان التأثير متبادل بين الثقافة والشخصية لحدوث تغير فى احدهما أو بعضهما معا .

ويرى الكثيرون من المتخصصين فى الثقافـة والشخصيـة أن تأثير التغيرات البيئية والاقتصادية فى مجتمع ما فى شخصية هذا المجتمع ، لا يتم الا عن طريق احداث تغيير فى أساليب تربية الطفل . وهكذا فان التغيرات بين شخصيات الأجيال قد تتحقق عن طريق التغيرات الثقافية التى تؤثر أولا فى الخبرات الخاصة بمرحلة الطفولة ، فمثلا يرى العلامة « ريسمـان » وجود علاقة عامة بين الوضع الديموجرافى والنظام الاقتصادى وبناء الأسرة وبناء الشخصية ، فالشخصية ينظر اليها على انها متغير تابع ، فى حين ينظر للتغير الاقتصادى على أنه متغير مستقل ، وأساليب التنشئة الاجتماعية على انها متغير وسيط ، ولكنها تمثل متغيرا تابعا للتغير الاقتصادى فى الوقت نفسه(٢) .

---

(١) Mead, M. Metraux, R. (eds), The study of Culture at a Distance, Chicago 1953, p. 647.

(٢) Riesman, D. and Others, The Lonely Crowd : A study of The Changing American Character, Yale Uni. Press, New Haven 1950.

وكان هناك راى سائد الى عهد قريب يقرر بأن التغيرات الثقافية التى تزيد حالة اللاتجانس فى مجتمع ما ، مثل امتزاج الثقافات والتحضر ، تمثل تهايدا خطيرا لشخصية ذلك المجتمع ولتكامله الاجتماعى ، ويستند هذا الراى على افتراض ان الثقافات غير المتجانسة اى المنقسمة الى اجزاء غير منسجمة لا بد وان تؤدى الى شخصيات من خصائصها الصراع ، ويعتمد هذا الراى على نظرية الدوافع التى تقرر أن التكامل والانسجام هو وظيفة للتجانس ، ولكن تعارض الدراسات الميدانية الحديثة لعمليات التغير الثقافى هذا الراى فقد بينت أن التغير الثقافى العادى هو حالة عادية وطبيعية للثقافات ولا يعد بالضرورة خطرا وضررا ، وخاصة ان معظم الثقافات المعاصرة هى ثقافات غير متجانسة ، وفى حالة تغير ثابت وسريع نسبيا ، اختفت معانى الصراع النفسى والتفكك الاجتماعى والثقافى التى كانت مصاحبة لمفهوم اللاتجانس والتغير الثقافى ، ومن الواضح أن الدراسات الميدانية لا تنكر وجود حالات من التفكك الاجتماعى والصراع النفسى فى كثير من المجتمعات التى تتصف باللاتجانس و لتغير الثقافى ، وانما تنكر ارجاع تلك الحالات لخواص اللاتجانس والتغير الثقافى ، حقا أن اللاتجانس والتغير الثقافى السريع يؤديان الى ايجاد تنوع عريض لأشكال الشخصية فى المجتمع قيد البحث ، ويتمثل ذلك فى كثرة شخصيات المركز ، ولا يوجد مثل هذا التنوع فى الثقافات المتجانسة ذات التغير الثقافى البطىء ، ولا يعنى تنوع أشكال الشخصية فى المجتمعات غير المتجانسة ذات التغير الثقافى السريع كثرة الشخصيات غير السوية ، لأن كل شكل من اشكال الشخصية يمكن أن يكون مستقرا وثابتا فى اطار الثقافة الفرعية التى ينتمى اليها ، تماما مثل الحال بالنسبة لشكل الشخصية الذى يوجد فى ثقافة متجانسة ثابتة . ان مشكلة المجتمعات المعقدة ذات التغير الثقافى السريع لا تمثل فى أن كل اعضائه يعانون من امراض نفسية وذهانية ، وانما هى مشكلة متعلقة بأن التنظيم الاجتماعى والثقافى يتطلب المزيد من قدرات وتخصصات اعضائه ، وفى تلك الظروف قد يتعرض بعض الأفراد بصورة ثانوية لحالات الاحباط وحرمان المركز وفقدان الوظيفة ، وبالتالى يعانون من بعض الأمراض العصابية والذهانية ولكن يجب ارجاع تلك الحالات المرضية لأسبابها الحقيقية ، وهى فشل بعض النظم الاجتماعية فى اشباع حاجات أعضاء المجتمع ، فمثلا ، لا يمكن القول ان الجماعات الفرعية الفقيرة فى المجتمعات المعاصرة ، مثل الاقليات الدينية والثقافية والطبقات الاقتصادية السفلى والمواطنون الذين يعانون من استعمار أوطانهم ، يعانون من كثرة حالات المرض والضيق بسبب وجود حالة اللاتجانس او التغير الثقافى أو هما معا فى تلك المجتمعات ، ان الأسباب الحقيقة تتمثل فى الظروف الاقتصادية والاجتماعية السيئة التى تفرض على تلك الجماعات من البشر ، ومن أمثلة تلك الظروف سوء التغذية

والأمراض الوبائية والاحتقار والايذاء الجسمى وصدمة فقـدان الثقافـة والصدمة الثقافية(١) .

ومن أهم الموضوعات المتعلقة بأثر الثقافة فى الشخصية دراسة الآثار النفسية لصدمة فقدان الثقافة(٢) ، ويقصد بفقـدان الثقافـة الظروف الاستثنائية القاسية التى يتعرض لها المجتمع والتى يترتب عليها انهيار ثقافة لمجتمع أو انهيار بعض انماطها ، ومن أمثلة تلك الظروف القاسية الكوارث الطبيعية مثل الزلازل والأعاصير والأبئة وكذلك الحروب المدمرة وحـالات انهيار المدنيات الكبرى مثل المدنية الاغريقية والمدنية الرومانية ومدنيـة اسبانيا الاستعمارية وحالات انقراض الكثير من الثقافات البدائية ، يواجه اعضاء المجتمع فى اثناء تلك الكوارث بما يعرف بصدمة الفقدان الثقافى ، اذ يفاجأ الفرد بأن ثقافته قد اختفت ، وأنه مضطر الى التخلى عنها فجاة أو الى التخلى عن بعض عناصرها من نظم او عادات أو قيم ، وفى احيان اخرى يتم التخلى عن الثقافة (٣) أو عن بعض عناصرها تهربا من الاذى أو الضرر الذى يلحق بالأفراد فى حالة عدم التخلى .

ولنتناول الآن فى ايجاز دراسة الثمن العاطفى لعملية الدمار الثقافى(٤)، ونبين الدراسات أن هذا الثمن يرتفع كثيرا فى حالة عدم وجود بديل معد فى الحال ليحل محل النمط الثقافى المفقود ، ويتضح ذلك فى حالة الكـوارث الطبيعية والحروب مثل الزلازل والأعاصير المدمرة والغارات العنيفـة ، يصاحب تلك الكوارث خسائر فى الارواح والممتلكات ، ويتعرض الافـراد الناجون ، سواء كانوا من المصابين او غير المصابين ، لحالة نفسية تسمى «أعراض الكارثة» (٥) وتتمثل فى تتابع سلوكى له خصائص معينة ، وقـد تستمر تلك الغيبوبة لدقائق معدودة أو لساعات او أيام ، ويعتمد ذلك على طبيعة الكارثة من ناحية وعلى خصائص شخصيات الأفراد ، وفى المرحلة الأولى لتلك الغيبوبة يوصف الفرد على أنه فى حالة ذهول أو دوار وانـه « سلبى » و « لا هدف له » « وبليد الاحسـاس » ، وكذلك يكون الفرد فى حالة لا يشعر فيها بالالم ولا يشعر باصابته أو بمدى اصابة الآخرين ، ويميل الفرد أيضـا الى تجاهل مدى التدمير الظاهرى . وفى أثناء تلك المرحلة قـد

---

(١) Wallace, A., Culture and Fersonality, Random Houce, N.Y. 1961 pp. 118 & 119.

(٢) The Cultural Chock.

(٣) The Cultural loss.

(٤) Cultural abondement.

(٥) Disaster sundrome.

يقوم بعض الأفراد بأعمال تلقائية تافهة ، مثل كنس عتبة الباب فى المنازل ذات الطابق الواحد أو الطابقين ، أو ترك أقاربهم المصابين والثرثرة مع الجيران . أما فى المرحلة الثانية فتختفى حالة الذهول ويصبح الفرد متحمسا لتقديم العون ، ويكرر التأكيدات على أن الأشخاص المشهورين والأبنية الهامة قد نجت من التدمير وأن المجتمع المحلى لا يزال سليما . وفى تلك المرحلة يكون الأفراد فى حالة يسهل فيها قيادتهم وتنظيمهم فى فرق عمل ، ولكنهم لا يصلحون لأن يكونوا قادة ناجحين . وفى المرحلة الثالثة ، يسود الفرد مشاعر غيرية ، ولذلك يشترك بحماس فى النشاط الجماعى الذى يهدف لاعادة تنظيم وتأهيل المجتمع المحلى . ويتسم الفرد فى تلك المرحلة بارتفاع الروح المعنوية وانعدام الانانية . وفى المرحلة الأخيرة ، يقل الحماس تدريجيا ويتعرف الفرد على الخسائر الحقيقية وعلى هول المصيبة ، هنا ترتفع الشكاوى ضد المؤسسات العامة وتظهر المشاحنات (١) .

ويتصل بموضوعات الكوارث الطبيعية والكوارث الثقافية وما تحدثه من آثار فى نفسية الأفراد ، دراسة حالة « مأزق التجمد » (٢) التى تصيب الكثير من الأفراد فى حالة صدمة الفقدان الثقافى . ويقصد بتلك الحالة تشبث الأفراد بنسق اجتماعى وثقافى غير منظم ومضطرب ، وبالرغم من عدم صلاحية هذا النسق فانهم يتمسكون به كبديل عن القلق الذى يصاحب عملية الفقدان الثقافى ، فبدلا من التخلى عن ذلك النسق الثقافى لعدم صلاحيته وما يصاحب ذلك من الشعور بالقلق ، فانهم يتمسكون به ، ويتجمد وضعهم على هذه الصورة . وتظهر حالة « مأزق التجمد » بوضوح فى مواقف الامتزاج الثقافى ، حيث توجد جماعة قوية مسيطرة تحاول الضغط على اقلية ثقافية بغرض اجبارها على التخلى عن نسق ثقافى معين ، فان استجابة الأقلية الثقافية لهذا الموقف يتمثل فى تمسكهم بهذا النسق الثقافى برغم عدم صلاحيته ، وبرغم تعرضهم للايذاء ، ويتجمد وضعهم على هذا النحو . ان الآثار النفسية المصاحبة لمأزق التجمد تتلخص فى اصابة الأفراد بحالات من القلق الشديد والقيام بدفاعات شبه مرضية ، ويشعر هؤلاء الأفراد بالخجل من نسقهم الثقافى غير المنظم وبعدم الثقة فيه ، هذا بالاضافة الى شعورهم بالخوف من امكانية عدم وجود بديل مناسب فى حالة تخليهم عن هذا النسق الثقافى ، ويترتب على تكرار تلك الحالات النفسية تدمير شخصية الأفراد الذين يمرون فى تلك التجارب القاسية . وتزخر مؤلفات الثقافة والشخصية بالدراسات الميدانية المؤيدة للشرح السابق ،

---

(٤) Wallace, A., Culture and Personality, pp. 157-160.

(٥) Dilemma of immobility.

فمثلا ، دراسة العلامة «هالويل »(١) لشخصيات جماعات أوجيبوا ، واستخدم فى تلك الدراسة اختيار رورشاخ لقياس الشخصية ، وتبين لـه أن الأفراد الذين يتعرضون لعملية الامتزاج الثقافى يعانون من صراعات نفسية ومن شخصية شبه مرضية ، فى حين لا توجد تلك الشخصية عند الجماعات التى لم تخضع لعملية الامتزاج الثقافى ، وتعانى شخصيات الجماعة الخاضعة للامتزاج الثقافى لمشاعر المركز الاجتماعى المنخفض (شعور مركب النقص) ومشاعر مأزق التجميد ، والقلق لعدم وجود بديل يمكن قبوله ، والقلق لوجود ثقافة لا يمكن الاعتماد عليها . وتوصل العالمان « كاردنير » و « أوفيس » لنتائج مشابهة عند دراستهما للزنوج فى أمريكا ، اذ تبين أن موضوعات مثل الانتماء الثقافى والانتماء السلالى تتمتع باهتمام كبير عند هؤلاء الزنزج(٢) .

وكذلك تبين الدراسات الخاصة بالثقافات الهامشية ، أن ما يسمى « بالرجل الهامشى » يعد نموذجا للشخصيات التى تعانى من حالة الفقدان الثقافى ، اذ يقع هؤلاء الأفراد فى مأزق التجميد ، فهم لا يستطيعون التضحية بالثقافة القديمة وكذلك لا يستطيعون فى الوقت نفسه الانتماء الكامل للثقافة الجديدة . يتضح لنا مما سبق كثرة الموضوعات المتعلقة بأثر الثقافة فى الشخصية .

ثانيا ــ اثر الشخصية فى الثقافة :

الثقافة مكتسبة ، والانسان هو صانعها ، تشير الحقيقة العلمية السابقة الى اهمية موضوع أثر الشخصية فى الثقافة ، وهو الجانب الثانى من موضوع الأنثروبولوجيا النفسية . ومن أهم الدراسات المرتبطة بموضوعنا هذا دراسة عملية التجديد والاختراع ، وهناك عدة نظريات تشرح عملية التجديد ، ندرس منها على سبيل المثال نظرية العلامة بارنت المعروفة باسم نظرية « اعادة الربط » ، يعرف العلامة «بارنت» (٣) التجديد بأنه عملية عقلية يتم فيها اعادة تركيب لاثنين أو اكثر من الصيغ الكلية العقلية ، وفيها يقوم المجدد بثلاث عمليات عقلية ، وهى ، أولا : أن يحلل بعض الصيغ

---

(١) Hallowell, A., Culture and Experience, Univ. of Pennsylvania Press, Philadelphia 1955.

(٢) Kardiner, A. and Oversey, L., The Mark of Oppression, Norton, N.Y. 1951.

(٣) Barnett, H., Innovation, The Basis of Cultural Change, McGraw, Hill, N.Y. 1953.

الكلية العقلية ، وأن يحلل كل صيغة منها بحيث يميز العناصر المكونة لهــا والعلاقات التى بين تلك العناصر ، وثانيا : يقوم المجدد بمقارنة ومضاهاة تلك العناصر بعضها ببعض ، بحيث يستطيع ملاحظة أوجه التشابه والاختلاف بين تلك العناصر ، وثالثا : يعيد المجدد الربط بين عناصر تلك الصيغ الكلية ، وذلك عن طريق استبدال بعض العناصر بعناصر أخرى واحداث تغييرات فى العلاقات التى تربط تلك العناصر . ويمكن توضيح العمليات العقلية السابقة بمثال مبسط يتكون من العبارات اللفظية التالية :

المرحلة الأولى ـــ عملية التحليل(١) :

النموذج الأصلى : « الغواصات ذات شكل غواصة ، تتحرك ببطء بالنسبة لطولها » .

المنبه : « الأسماك ، ذات شكل سمكة ، تعــوم بسرعـــة بالنسبة لطولها » .

المرحلة الثانية ـــ عملية تطابق (٢) :

تطابق « سمكة » مع « غواصة »

تطابق « يعوم » مع « يتحرك »

تطابق « شكل سمكة » مع « شكل غواصة »

المرحلة الثالثة ـــ عملية اعادة الربط (٣) :

استبدال « شكل غواصة » بـ « شكل سمكة »

استبدال « ببطء » بـ « بسرعة »

العبارة الجديدة :

الغواصات ، ذات شكل سمكة ، تتحرك بسرعة بالنسبة لطولها .

وجدير بالملاحظة أنه بالرغم من أن العبارة الجديدة هى صيغة كلية جديدة تماما ، فان العناصر والعلاقات المتضمنة فيها لا توصف بالحدة ، لأنها

---

(١) Analysis.

(٢) Identification.

(٣) Recombination.

ماخوذة من العبارات السابقة . ولكن اذا طبقنا نظرية « بارنت » هذه على التغير الثقافى ، نصل الى نتيجة هامة وهى أن كل تغير يجب أن ينظر اليه على انه اعادة ربط بين الصيغ الكلية الموجودة من قبل ، وبالتالى لا بد من وجود « نقطة الابتداء» حتى يستطيع الفرد أن يعيد صياغتهـــا للوصول الى صيغة كلية جديدة . هذا بالاضافة الى أن النظرية السابقة تتضمن الاقرار بوجود عدد محدد ، حتى لو كان كبيرا ، من الصيغ الكلية الممكنة ، ويحدد هذا العدد حجم المجموعات الأصلية من العناصر والعلاقات وعدد محدد من الثقافات الممكنة ، وهو أمر لا تقبله النظريات الأنثروبولوجية الحديثـــة ؛ ويضيف العلامة « والاس » الـــى أوجه القصور السابقة ، عـــدم اهتمام تلك النظرية بتحديد الشروط التى على أساسها سوف يحدث تجديد معين ، وكذلك بالتنبؤ بالارتباطات التى سوف تحدث ، والتنبؤ بالأشخاص الذين سيقومون بها ، والموعد الذى يمكن أن تظهر فيه ، وبما تحتويه مثل تلك التنبؤات على موضوعات خاصة بالدوافع الشخصية والخبرات الخاصة والوسط الموقفى والثقافى ، ولذلك يرفض العلامة « والاس » الأخذ بتلك النظرية كأساس لدراسات التغير الثقافى(١) .

ولتفادى بعض أوجه النقص السابقة يقدم العلامة « والاس » نظرية « التنظيم الأقصى » ، وهى تقوم على أساس المسلمة التى تؤكد أن الكائن فى افعاله يسعى الى تحقيق الحد الأقصى ــ فى اطار الشروط الموجودة وفى حدود قدراته ــ لكمية التنظيم فى النظام الدينامى الممثل فى الصورة الفعلية التى يطلق عليها اصطلاح « تصور الفرد لذاته وللعالم الخارجى »(٢) ، وهكذا يكون الكائن مزودا بدافع فطرى يدفعه الى زيادة كل من درجة التعقيـــد والتنظيم فى خبراته ، ويرى « والاس » أن مبدأ الحد الأقصى هذا ، يسمح بامكانية حدوث تجديدات من عناصر وعلاقات غير موجودة من قبل ، وذلك اذا توافرت الشروط اللازمة (٣) .

واذا انتقلنا الى موضوع الخواص النفسية الخاصة بالمجددين ، وعـــلى وجه الخصوص الحوافز ، نجد أن كلا من نظرية « اعادة الربط » للعلامـــة « بارنت » ونظرية « الحد الأقصى » للعلامة « والاس » تفترض أن المجددين يجددون فى اطار الحدود التى تفرضها ثقافاتهم والموقف المحلى والقدرات الفردية ، هذا بالاضافة الى عامل قبول المجتمع أو عدم قبوله للتجديد ، وعامل العملية

---

(١) Wallace, A .... 1961, pp. 120-124.

(٢) Mazeway.

(٣) Ibid. p. 125.

المعرفية التى يصاغ فيها التجديد . ولا تمنع العوامل السابقة امكانية حدوث التجديد عن طريق المصادفة او عن طريق الخطأ المعرفى .

ولا يقتصر موضوع اثر الشخصية فى الثقافة على دراسة عمليات التجديد والاختراع فى ذاتها ، وانما يتعلق ايضا بدراسة استجابة الجماعات للتجديد ، سواء كانت تلك الاستجابة بالقبول او بالرفض . يهتم الأنثروبولوجيون النفسيون بدراسة العمليات النفسية ، التى تحدد ما اذ كان تجديد مقترح سوف يقبل استخدامه أو سوف يرفض عن طريق المجدد نفسه وباقى المجتمع الذى يبزغ فيه التجديد ، وكذلك يهتمون بدراسة حالات الانتشار الثقافى والامتزاج الثقافى واستجابة اعضاء المجتمعات الأخرى لتلك الحالات ، ويمكن القول بصورة عامة أن التجديد يبدأ فى صورة صيغة كلية جديدة تظهر فى ثقافة ما عن طريق عامل من عوامل التغير ، قد يكون مخترعا أو تاجرا أو مصلحا دينيا أو قائدا سياسيا أو اسير حرب أو زوجا أجنبيا ، وعادة لا يقبل المجتمع هذه الصيغة الكلية الجديدة كما هى ، وانما يجرى عليها بعض التعديل بغرض ملائمتها مع صيغة كلية أكبر وهى ثقافة المجتمع ، ولكن ، لا تحدث تلك العملية دفعة واحدة ، وانما يتخللها عملية تتمثل فى مرور التجديد فى الشاشة النفسية للمجتمع قيد البحث ، ويحدد بناء الشخصية العامة للمجتمع تلك الشاشة النفسية ، وتقوم الشاشة النفسية بعملية فحص وتمحيص للتجديدات المقدمة ، ويترتب على ذلك الفحص تقسيم تلك التجديدات الى مجموعتين ، مجموعة التجديدات التى تنسجم مع البناء العام للحوافز ، ويقصد به بناء على مستوى عال من التجريد ، ويتكون من قيم عريضة متضمنة فى روح الثقافة أو الشخصية القومية المتوالية فى المجتمع قيد البحث ، ومن أمثلة تلك القيم العريضة الاتجاه المادى والرغبة فى الثراء والأهمية النسبية لنظام القرابة أو لالتزامات المجتمع المحلى أو لصفات الرجولة أو لدقة المواعيد . أما المجموعة الثانية فهى التجديدات التى لا تنسجم مع البناء العام للحوافز . وهكذا تعمل القيم الأساسية فى مجتمع ما كمقياس ثابت لاختيار ما يصلح من التجديدات الثقافية ، وتعطى تلك القيم المعانى لمعظم الظواهر وما تتضمنها من تجديدات مقترحة . واذا نجح التجديد المقترح فى المرور من خلال شاشة القيم الأساسية بحيث يدخل فى المجموعة الأولى من التجديدات ، ينتقل الى اختبارات أخرى فى طريقه للحصول على قبول الثقافة المستقلة ، وفى الغالب يكون مقياس القبول فى تلك الاختبارات هو اقتناع المستقبلين بأن هذا التجديد سيساهم فى اشباع شبكة من الرغبات والحاجات ، وليس فى احباط تلك الرغبات والحاجات ، وعندما يكتسب التجديد المقترح مثل هذا المعنى الثقافى عند المستقبلين ، يكون قد وصل الى مرحلة القبول . وفى حالة الاستعارات الثقافية ، وعمليات الامتزاج الثقافى يجب التمييز بين الثقافة المانحة للتجديد والثقافة المستقبلة

له ، وجدير بالذكر ملاحظة انه كثيرا ما يحدث اختلاف بين فهم الثقافة المانحة لرغبات وحاجات اعضاء الثقافة المستقبلة وفهم الثقافة المستقبلة لرغبات وحاجات اعضائها ، ومن أهم اسباب هذا الاختلاف قصور المتخصصين فى الثقافة المانحة فى فهم والتعرف على الشخصية العامة للثقافة المستقلة ، وهناك امثلة لمحاولات عديدة فاشلة قامت بها الدول الاستعمارية لادخال تجديدات فى ثقافات مستعمراتهم .

ويمكن اضافة عائق آخر فى طريق قبول الثقافة المستقلة للتجديدات المقترحة ، وهو وجود جماعات ذات مصالح متعارضة فى داخل المجتمع قيد الملاحظة ، ومن امثلة ذلك : الطبقات الاجتماعية المتصارعة . وكثيرا ما يكون من الصعب الحصول على موافقة جميع جماعات المجتمع على التجديد المقترح ، وذلك لقوة الشعور بالانتماء والاخلاص للجماعات ، ولوجود التعارض بين مصالح تلك الجماعات ، وقد يحدث ان التجديد الواحد يصبح مقبولا لدى فريق فى المجتمع فى حين يرفضه فريق آخر ، وقد ينشأ صراع قوى بين الفريقين عندما ينقسم المجتمع ويتمسك كل فريق بمثقفه ، وأحيانا يسود هذا الصراع بين الفريقين بالنسبة لأى تجديد مقترح بغض النظر عن موضوع التجديد ، ويتضح ذلك فى المجتمعات المتدينة التى ينقسم فيها الأعضاء الى فريق محافظ يرفض التجديد والتغير الثقافى السريع ، وفريق تقدمى يحبذ التجديد بصورة عامة ، وقد تبلورت تلك الاتجاهات فى صورة احزاب سياسية فى كثير من المجتمعات المعاصرة ، وقد أطلق العلامة « كارل مانهيم » ، وهو عالم اجتماع يستخدم المنهج الأنثروبولوجى فى التحليل ، اصطلاحى الأيديولوجيا واليوتوبيا للتعبير عن هذين الاتجاهين . ويعرف اتجاه الأيديولوجيا بأنه تصور المفكر المحافظ الذى يعقلن ويدعم النسق الاجتماعى والثقافى الموجود والذى يرغب فيه بعض اعضاء المجتمع ، اما اتجاه اليوتوبيا فهو تصور المفكر الثائر الذى يعقلن ويدعم المجهودات الهادفة التى تغير النسق الاجتماعى والثقافى الذى لا يرغب فيه بعض اعضاء المجتمع ، ويوفر هذا التغيير الاشباع الكامل لرغبات وحاجات الفريق الثائر (١) .

يتصل موضوع الصراعات داخل المجتمعية بين الأيديولوجيا واليوتوبيا بموضوع الامتزاج الثقافى ، وما يحدث فيه من استعارات ثقافية ، وذلك لأن فى مثل تلك الحالة ستكون استجابة الاتجاه اليوتوبى لأى تجديد مقترح

---

(١) Manheim, K., Ideology and Utopia, Harcourt, Brace, N.Y. 1963, p. 49.

ورفض الاتجاه الأيديولوجي لأى تجديد مقترح ، غير نابعين من الاعتبارات الخاصة بمدى توافقه الوظيفى مع النسق الاجتماعى الثقافى الموجود ، وانما من اعتبارات اخرى ، فان فريق اليوتوبيا يقوم التجديد المقترح على أساس مدى فاعليته فى تحطيم النسق الاجتماعى والثقافى الحالى وفى رسم صورة افضل للمستقبل ، وهكذا فان تجديدا ما قد يكون منسجما وظيفيا مع النسق الموجود فى المجتمع ولا يحدث الا اقل قدر ممكن من المشكلات ، وبالرغم من ذلك ترفضه اليوتوبيا ، ومن الواضح أن يكون التجديد ذاته مقبولا من فريق الأيدولوجيا ، ويمكن ملاحظة نتيجة أخرى للصراع بين فريق المحافظين وفريق المجددين فى المجتمعات المعاصرة ، وهى امكانية تقويم التجديدات المقترحة بغض النظر عن قيمتها الوظيفية ، وهكذا تصبح التجديدات رموزا للانتماء فى جماعة معينة ، وبالتالى ، اذا كان التحديد يعنى تأكيد الانتماء للجماعة التى ينتمى اليها الفرد (١) فانه يقبله بصورة آلية ، وبدونتقويم قيمته الوظيفية الذاتية ، وبصورة عكسية ، اذا كان قبول التجديد يتضمن الانتماء الى جماعة معادية أو جماعة ضعيفة أو محتقرة مثل جماعات الأقليات ، فان الفرد يرفض هذا التجديد بصورة آلية ، وذلك لأن قبوله لمثل هذا التجديد يتطلب منه التخلى عن الجماعة التى ينتمى اليها ، أو تخلى تلك الجماعة عن الفرد ، ولذلك عندما يتضمن قبول تجديد ما الانتماء لمانح له قيمة سالبة ، فان قبول مثل هذا التجديد يكتنفه الكثير من الصعوبات(٢).

ولا يقتصر موضوع اثر الشخصية فى الثقافة على دراسة عملية الاختراع أو التجديد الثقافى ذاتها ودراسة عوامل قبول ورفض التجديدات الثقافية ، وانما يشمل ايضا دراسة أنواع الضغوط التى قد يستخدمها اعضاء الثقافة المانحة على أعضاء الثقافة المستقبلة لتأكيد قبول أو رفض تجديد ما . وتبين الدراسات الخاصة بالاستعارات الثقافية ندرة حياد الثقافة المانحة فى عملية استجابة الثقافة المستقبلة لتجديد ما ، وذلك ، لأنه عادة يكون لأعضاء الثقافة المانحة مصالح فى قبول الثقافة المستقبلة لتحديد معين ، وتتنوع تلك المصالح من مجرد الاهتمام الأمين والمخلص برفاهية المجتمع المستقبل الى مصالح انانية ذات طابع عسكرى أو اقتصادى أو سياسى أو جميعهم ، ويزخر تاريخ الاستعمار الأوربى لأفريقيا بأمثلة المصالح الأنانية سابقة الذكر .

وعادة تشمل الوسائل التى يستخدمها عضاء المجتمع المانح أساليب تشير الى أن قبول المجتمع المستقبل للتجديد المقترح سيصاحبه تقديم مكافأة

---

(١) Refernce Group.

(٢) Wallace, A., Culture and Personality, pp. 130-133.

ما ، قد تكون معونة اقتصادية أو دعما سياسيا أو عسكريا ، بينما يعنى رفضه انزال العقاب على المجتمع المستقبل ، ويحدث ذلك الموقف عندما تكون المجمعات المالحة فى مركز القوة . وفى كثير من الاحيان تختفى تلك الأساليب الصريحة ويحل محلها اساليب رقيقة مهذبة تختفى وراءها مصالح المجتمع المانح ، وهنا تقدم المكافآت بصورة وكأنها بعيدة عن موضوع قبول المجتمع المستقبل لتجديد ما ، وكذلك لا تشير التهديدات بصراحة الى اى فعل عقابى يقوم به المجتمع المانح فى حالة رفض المجتمع المستقبل للتجديد قيد البحث ، وتظهر تلك التهديدات على انها مجرد تتابع غير مرغوب فيه للحوادث ، او على انها امور لا يمكن تجنبها فى ظل الظروف الموجودة ، وأنها غير مرتبطة بمصالح المجتمع المانح . وبرغم عدم تعارض الوسائل الاجبارية لفرض العناصر الثقافية الجديدة مع المبادىء الاخلاقية ، فانها تستخدم كثيرا فى معظم المجتمعات بماقى ذلك المجتمعات المتقدمة . وتشهد الحروب الدينية والثورات السياسية والصراعات الطبقيـة وحملات البعثات التبشيرية والصراع حول الحقوق المدنية والكثير من حالات التوتر بين الجماعات على ميل الجماعات المانحة لاستخدام الوسائل الجبرية لتشجيع قبول التجديدات، ويتأكد ذلك عندما ترى الجماعة المانحة أن قبول الجماعة المستقبلة للتجديد من الأمور الضرورية لاشباع رغباتها . ويمكن النظر للوسائل الاجبارية كمتصل يبدأ فى نقطة تتصف بأقل قدر ممكن من القسوة وينتهى الى نقطة تمثل اعلى درجات القسوة ، ويمكن تمثيل نقطة البدء بالمواقف التى تقدم فيها الجماعات المانحة التجديد فى أسلوب محايد ، وفى تلك الحالة يكون للجماعة المستقبلة حرية القبول والرفض ، ويؤثر فى تجديد نوع استجابة الجماعة المستقبلة للتجديد فى تلك الحالة خصائص الشخصية العامة للجماعة وروح الثقافة وما اطلق عليه من قبل بالشاشة النفسية ، هذا بالاضافة الى القيمة الوظيفية للتجديد نفسه بالنسبة للجماعة المستقبلة . وفى حالة رفض الجماعة المستقبلة للتجديد ، تستخدم الجماعة المانحة وسائل اخرى ذات صيغة سلمية ولكنها لا تتسم بالحياد ، ومن امثلة تلك الوسائل الاقناع والتفاوض والتعاون ، وفى هذه المواقف تؤسس الجماعة المانحة مع الجماعة المستقبلة علاقة تبادلية يتخللها اشباع كاف لمصالح ورغبات الجماعتين فى المدى الطويل ، ولا تتضمن تلك الوسائل اى تهديد صريح ، واذا انتقلنا من هذا الموقف المتصل الخاص بالاجبار الى الموقف التالى ، نجد ان التهديد يأخذ صورة صريحة تتمثل بصورة مبسطة فى العبارة التالية « اقبل (او ارفض) هذا التجديد ، والا سوف أمنع اشباع احدى رغباتك » ، ولا يقتصر استخدام هذا الأسلوب على العلاقات بين المجتمعات وانما يطبق ايضا فى العلاقات الاجتماعية بين الافراد ، اذ يميل الوعاظ الدينيون والزعماء السياسيون وحتى الأصدقاء لاستخدام هذا الأسلوب عندما تفشل وسائل

الاقناع والتعاون . وكثيرا ما يستخدم خبراء الاعلان هذا الأسلوب التهذيبى لتشجيع جماعة معينة على قبول سلعة ما ، فكثيرا ما نسمعهم فى أجهزة الاعلام يهددون المستهلكين بفقدان الأصدقاء أو العمل أو الصحة فى حالة رفضهم شراء سلعة ما مثل الصابون أو معجـــون الأسنان أو الروائــح العطرية . ويشبك أسلوب الايحاء الجمعى(١) الأسلوب التهديدى من حيث وضع الجماعة المستقبلة فى جو يستحيل فيه الهروب من وسائل الاعلان . ان مثل هذا الايحاء يكون فعالا فى تشجيع القبول الجماعى لأنماط سلوكية جديدة قد تتعرض لرفض الجماعة فى حالة توافر امكانية حرية الاختيار . واخيرا ، نصل الى اكثر الوسائل قسوة ، وتتمثل فى التعذيب الجســدى والارهاق الذى يحدث فى الفرد حالة نفسية فسيولوجية تجعل قبول التجديد يتم بصورة آلية تقريبا ، وتستخدم تلك الوسائل المتطرفة فى حالات تغيير الدين وغسل المخ .

يتضح مما سبق أن التنبؤ بقبول أو رفض جماعة ما لتجديد ما يتحدد عن طريق الموازنة بين مجموعة من العلاقات النفسية المرتبطة بعضها ببعض بصورة معقدة ، وهى علاقات بعضها موجب والآخر سالب ، وتتم تلــك الموازنة فى عقول افراد الجماعة ، وهكذا على الفرد ان يحسب ، بصورة مقصودة أو غير مقصودة ، مجمع الخسائر والارباح التى ستترتب عــلى قبول التجديد ، وكذلك مجموع الخسائر والأرباح التى ستترتب عــلى الرفض ، فاذا كان المجموع الاجمالى لكل الخسائر والأرباح يشير الى زيادة الأرباح فانه يقبل التجديد ، وفى حالة العكس يرفضه . ان القيم المتضمنة فى مثل تلك الحسابات ستكون فى التحليل النهائى قيما شخصية ، وهنا نعود الى موضوع الشخصية . وهناك عدة عوامل تساعد على التنبؤ باحتمال قبول أو رفض جماعة ما لتجديد معين ، وهى معرفــة شاشــة القيم التى تفرضها روح الثقافة ومعرفة الشخصية القومية او الشخصية الرئيسيـــة للجماعة ، ومعرفة البناء الوظيفى للثقافة الواقعية للجماعة ، ومعرفة طبيعة وسيلة الاجبار (اذا وجدت) المستخدمة فى تقديم التجديد ، وكذلك معرفة القوى الموجهة للاتجاهات الأيدلوجية والاتجاهات اليوتوبية للجماعـــة . ولكن برغم ذلك ، يجب ملاحظة أن قبول الجماعة أو رفضها لتجديد ما ، قد لا يكون أمرا موحدا بالنسبة لجميع افراد الجماعة ، وذلك لوجود اختلافات فى مصالح الجماعات الفرعية المكونة للمجتمع او الجماعة الكبرى ، ويتطلب هذا دراسة مفصلة للعوامل السابقة فى الجماعات الفرعية حتى يمكن التنبؤ باحتمال قبول أو رفض جماعة ما لتجديد ما . وخلاصة القول أن الشخصية

---

(١) Mass suggestion.

وما تحتويه من قيم واتجاهات تؤثر في الثقافة من زاوية قبول أو رفـض الجماعات للعناصر الثقافية الجديدة .

كذلك يرتبط موضوع أثر الشخصية في الثقافة بصورة اخرى بعمليات التغير الثقافي ذات المدى القصير(١) وهي العمليات الاحيائية(٢) ، وتعرف العمليات الاحيائية على انها محاولات منظمة ومقصودة يقوم بها بعض أعضاء مجتمع ما يهدف بناء ثقافة تمدهم باشباع افضل لرغباتهم ، ويتحقق هـذا الهدف عن طريق قبول سريع لنمط من التجديدات المتعددة الممكنة(٣) ، وعادة تظهر الحركات الاحيائية في المجتمعات التي تتعرض لحالات من التفكك الثقافي والاجتماعي ، وتحدث تلك الحالات عن طريـق ضغط وتأثير بعض العوامل التي من شأنها أن تدفع بثقافة المجتمع خارج وضع التوازن العادي، ومن امثلة تلك العوامل التغيرات المناخية والطبيعية التي تدمر الأساس الاقتصادي لمجتمع ما ، والأمراض الوبائية التي تغير بصورة واضحـة البناء السكاني في المجتمع ، والحروب التي تستنزف موارد المجتمع من القوى العاملة ومصادر الثروة او التي تؤدي الى احتلال أو هزيمة ، وكذلك الصراعات الداخلية بين الجماعات ذات المصالح المختلفة وما تلحقه مـن اضرار لاحدى تلك الجماعات على الاقل ، وخضوع المجتمع للاستعمار وما يصاحبه من التبعية الواضحة والمهانة والاستغلال . يترتب على العوامل السابقة حدوث تغيرات اجتماعية وثقافية غير منسقة مما يؤدي الى حالة من اللاتوازن الاجتماعي والثقافي ، يمكن تسميتها بحالة الانهيار والتفكك الاجتماعي والثقافي . ومن وجهة نظر بعض اعضاء هذا المجتمع ، تصبح تلك الثقافة المفككة غير قادرة على توفير الاشبـاع المتوقـع لبعض القيم الأساسية في المجتمع مثل قيمة الوحدة الوطنية أو قيمة احترام الذات أو قيمة العدالة او قيمة الوضع الاقتصادي الكريم ، ويعيش معظم أفراد هذا المجتمع في حالة من الانهيار النفسي ، وبالتالي يتكون « تصور الفرد لذاته وللعالم »(٤) من صورة لعالم لا يمكن التنبؤ بأحداثه في المستقبل ، أو صورة لعالم مجدب وقاحل ، أو الصورتين معا ، وكذلك ينتشر مزاج من خصائصه القلق المصاحب برعب والخجل والشعور بالـذنب والكبت أو اللامبالاة ، ويقوم بعض أفراد هذا المجتمع بمحاولات منظمة لاعادة التوازن الاجتماعي

---

(١) Micro - Temporal processes.

(٢) Revitalization.

(٣) Wallace, A., Revitalization Movements, American Anthropologist, 1956, 58, P. 264.

(٤) Mazeway.

والثقافى ، وتتمثل تلك المحاولات فى تشجيع أعضاء المجتمع على قبول واستخدام تجديدات ثقافية من شأنها القضاء على حالات الانهيار النفسى والاجتماعى والثقافى .

ويقدم العلامة «والاس» (١) مثالا توضيحيا من احدى قبائل الهنود الحمر وهى قبيلة سينيكا (٢) فى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى ، كانت تضفى تلك الجماعة قيمة مرتفعة جدا على مفهوم الفرد الحر والمستقل بصورة مطلقة ، وهو فرد لا يهتم بآلامه الشخصية او بآلام الآخرين ، ويطلق هذا الشخص العنان لدوافعه العاطفية ، ولكن فى حالة الملمات ، يخضع هذا الشخص بمحض ارادته رغباته لحاجات مجتمعه المحلى ، كانت هذه الصورة المثالية للأنا من العناصر الأساسية فى شخصيات الرجال على وجه الخصوص ، وقد حددت ثقافة الجماعة ادوار الصيد والحرب والزعامة على انها الشروط الأساسية لتحقيق تلك القيمة ، وحددت صور النجاح فى حصول الرجال على مراكز الصياد الماهر والمحارب الشجاع وزعيم الغابة . ولكن حدثت تغيرات جوهرية فى بيئة تلك القبيلة جعلت من المستحيل القيام بتلك الأدوار ، فلم يعد الصياد الماهر قادرا على الصيد لندرة الحيوانات ، ولم يعد المحارب الشجاع قادرا على شن الحرب لقوة جيرانه البيض ، أما زعيم الغابة ، فقد أصبح موضع ازدراء واحتقار من أعضاء القبيلة ، لأنه تنازل عن سلطاته ومعظم أرضه ووقع معاهدة سلام مع الأمريكيين . كانت استجابة أعضاء جماعة « سينيكا » لتلك الظروف القاسية ، التى تمثل حالة واضحة من حالات الانهيار الاجتماعى والثقافى ، استجابة شبه مرضية ، اذ انتشرت عادة الادمان على الخمر وزاد الخوف من السحرة ، وانتشرت النزاعات الداخلية ، واخفق الزعماء فى وضع سياسة عامة مشتركة ، واستمر هذا الوضع فترة طويلة الى ان ظهرت حركة احيائية فى عام ١٧٩٩ ، قام بها أحد زعماء الغابة عن طريق الالهام الدينى ، فنادى،باصلاح دينى وثقافى يتكون من مجموعة من التجديدات الثقافية ، فمثلا حرم شرب الخمر ومنع السحر ، وأدخل تعديلات فى النظام الاقتصادى بأن اقنع الرجال بالاشتغال فى الزراعة بعد أن كانت مقصورة على النساء ،وركز المسئوليات فى داخل الأسرة الصغيرة بعد أن كانت مركزة فى العشيرة ، واقنع أعضاء القبيلة بقبول واحترام القوانين الأمريكية المتعلقة بتنظيم قبائل الهنود الحمر ، وهكذا ظهرت فجأة فى تلك المنطقة مجتمعات محلية زراعية نظيفة وعصرية ، وتعلم معظم أعضائها القراءة والكتابة ، واختفت الأحياء القذرة القديمة .

---

(١) Wallace, A., Culture and Personality, pp. 144 - 146.

(٢) Seneca.

تعد تلك التغيرات الجذرية من المعجزات ، وذلك لصعوبة تحقيقها فى فترة قصيرة من الزمان ، ويرجع بعض الفضل فى نجاح تلك الحركة الاحيائية الى شخصية زعيم الغابة وقدرته على التجديد ، ثم قدرته على اقناع الآخرين بقبول التجديدات واستخدامها .

وهكذا تتميز الحركات الاحيائية باحداث تغيرات مكثفة او عميقة فى الأنماط الثقافية فى فترة قصيرة من الوقت ويمكن تمييز خمس مراحل وظيفية ذات تداخل زمنى فى بناء الحركات الاحيائية بصورة عامة ، تمثل المرحلة الأولى حالة الثبات النسبى(١) ، وهى فترة يكون المجتمع فيها فى حالة توازن ، ويحدث التغير الثقافى فى اثنائها ببطء وبصورة منظمة لايقاسى منها الافراد . أما المرحلة الثانية فهى فترة الضغط الفردى المتزايد(٢) ، وهنا تتعرض لحالة من التفكك والانهيار بتاثير عوامل خارجية أو داخلية سبق ذكرها ، وهنا ينعكس هذا التفكك الاجتماعى والثقافى على شخصيات الافراد ، فيتعرضون لحالة من الضغط غير المحتمل بسبب فشل الانماط الثقافية فى اشباع حاجاتهم، ويحدث انهيار نفسى فى شخصياتهم ، فتكثر الانحرافات والتحرر من القوانين والنظم الاجتماعية ، ويرتفع معدل الجريمة وتنتشر الأمراض كاستجابات لا اجتماعية فردية ، ويطلق على المرحلة الثالثة اصطلاح فترة التشويه الثقافى (٣) ، وفيها يستمر الانهيار الثقافى ، وكذلك يستمر الانهيار النفسى لكثير من أعضاء المجتمع ، ويحاول بعضهم استرجاع حالة التوازن النفسى عن طريق تكرار تصرفات انانية نفعية ، ولكنها تزيد من حالة الانهيار الثقافى ، ومن أمثلة ذلك الفساد والرشوة فى المكاتب الحكومية وانتشار السوق السوداء وانتشار المقامرة والدعارة وانتشار ظاهرة « كبش الفداء » ، وتأخذ تلك الانحرافات صورة المجهودات المنظمة ، بحيث يتصور البعض أن الأنماط الثقافية الاصلية قد انهارت تماما وحلت محلها تلك الانحرافات وهذا هو المقصود باصطلاح التشويه الثقافى . وفى تلك الفترة تتصارع الجماعات الداخلية لتحقيق مصالح خاصة على حساب المصلحة العامة . وتتمثل المرحلة الرابعة فى فترة الحركة الاحيائية (٤) ، عندما يسود التشويه الثقافى فى مجتمع ما ، يصبح من الصعب استرجاع حالة التوازن والثبات بدون عملية احيائية، وذلك لأنه بدون الحركات الاحيائية يكون المجتمع معرضا للانهيار التام عن طريق انقراض السكان او انقسامهم الى مجتمعات مستقلة أو انضمامهم

---

(١) Steady state.

(٢) The period of Increased individual Stress.

(٣) The period of cultural distortion.

(٤) The period of revitalization.

لمجتمع آخر اكثر استقرارا وقوة . وتعتمد الحركة الاحيائية على نجاح صاحب الحركة والمؤيدين في القيام بعدة وظائف ، وهى صياغة برنامج عمل لتحقيق مجتمع مثالى أو ثقافى مثالية ، ويجب ملاحظة أن صياغة هذا البرنامج يتطلب اعادة صياغة أفكار صاحب الحركة الاحيائية بصورة تمده بالثقة فى المستقبل وبامكانية التخلص من حالة الانهيار الثقافى وبامكانية تحقيق الثقافة المثالية، وبعد ذلك يقوم أصحاب الحركة الاحيائية بالاتصال بالناس لشرح التجديدات المقترحة وإقناعهم بقبولها ، وفى الغالب يقدمون هذه التجديدات على أنها وسيلة للتطهير الروحى بالنسبة للفرد وللتطهير الثقافى بالنسبة للمجتمع ، ويتلو ذلك ، النجاح فى تنظيم الأتباع والمؤيدين ، وفى الغالب ينقسمون الى مجموعة من المنظمين ومجموعة من جمهور التابعين والمؤيدين ، وهنا يصبح اصحاب الحركة الاحيائية هم المؤسسون لها وبجانبهم يوجد المنظمون والتابعون . وفى الغالب ينظر لمؤسس الحركة على أنه يتمتع بقوى خارقة او بمواهب فذة وهذه الخصائص تبرر مطالبة الجماهير التابعة بالطاعة المطلقة والاعتقاد التام فى حكمته ، ويأتى بعد ذلك النجاح فى تكييف الجماهير مع التجديدات الثقافية التى ينادى بها اصحاب الحركة الاحيائية ، وفى سبيل ذلك تستخدم أساليب متعددة بعضها سلمى وبعضها عنيف للغاية ، وذلك عندما يوصف غير المتكيفين مع التجديدات الثقافية بالخيانة ، ويتعرضون لأقسى العذاب ، ويتلو التكيف حدوث التحول الثقافى ، وهنا تحل الثقافة الجديدة مكان الثقافة القديمة التى اصابها التشوه . وبعد ذلك يسود النظام فى الثقافة الجديدة وتسمى تلك الحالة بالعملية الروتينية (١) ، وهكذا تتطلب الحركة الاحيائية النجاح فى القيام بالعمليات سابقة الذكر ، وهى عمليات صياغة الثقافة الجديدة والاتصال والتنظيم والتكيف والروتينية . وبعد أن تثبت الحركة الاحيائية أقدامها تأتى المرحلة الخامسة والأخيرة وهى مرحلة الحالة المستقرة الجديدة (٢) وتبدأ عندما تحدث التغيرات فى بناء أقيم للثقافة القديمة ، ويحل محله بناء القيم الخاصة بالثقافة الجديدة ، وبرغم تمتع المرحلة بالاتزان والهدوء النسبى الا أنها لا تخلو من التغيرات الثقافية المتتابعة والتى تستمر لفترات طويلة ، ومن أمثلة ذلك التغيرات الاقتصادية والتكنولوجية التى تتابعت بعد انتشار الاخلاق البروتستانتية (٣) .

وخلاصة القول ان اثر الشخصية فى الثقافة يتضح من طريق دراسة الحركات الاحيائية وتحليلها ، وبالتالى تدخل تلك الدراسات فى اطار موضوع الأنثروبولوجيا النفسية .

---

(١) Rouutinization.

(٢) The New steady state.

(٣) Ibid pp. 142-153.

ثالثا ـ المصطلحات :

يهتم المتخصصون فى دراسة الثقافة والشخصية بوضع مصطلحات خاصة بهذا الفرع من المعرفة ، وتمثل تلك المصطلحات المفاهيم الأساسية المتضمنة فى النظريات المختلفة وفى التعريفات الاجرائية المستخدمة فى الأبحاث الميدانية ، ويتخصص الفصلان الثالث والرابع فى دراسة الاصطلاحين الأساسيين وهما الثقافة والشخصية ، وتبين هذه الدراسة الاختلافات الواضحة بين تعاريف هذين الاصطلاحين ، وتنتقل تلك الاختلافات الى باقى الاصطلاحات ، وترجع تلك الاختلافات الى تنوع النظريات الثقافية والنفسية حول الثقافة وحول الشخصية وحول العلاقة بين الثقافة والشخصية ، ولكن لا يمنع تعدد تلك النظريات من قيام العلماء بمجهودات بناءة فى سبيل حصر تلك المصطلحات وتصنيفها ، ويزيد من صعوبة القيام بتلك المحاولات أن تلك المصطلحات ليست مقصورة على الأنثروبولوجيا النفسية ، وانما تستخدم كذلك فى عدد كبير من فروع علم النفس وعلم الانسان وعلم الاجتماع . ومن اهم المحاولات التى قام بها المتخصصون فى ميدان الثقافة والشخصية دراسة العلامة « والاس » (١) ، وقد صنف « والاس » الاصطلاحات ذات العلاقة بموضوع الثقافة والشخصية باستخدام اساسين للتصنيف ، وهما عدد الأشخاص الخاضعين للملاحظة ، سواء كانت الملاحظة مباشرة أو غير مباشرة، وعدد فئات السلوك الخاضعة للملاحظة ، وباستخدام اساس التصنيف الأول يقسم تلك المصطلحات الى ثلاث مجموعات ، مجموعة خاصة بفرد واحد ومجموعة خاصة بفردين أو أكثر من أفراد الجماعة أو المجتمع قيد البحث ، ومجموعة خاصة بكل افراد الجماعة أو المجتمع ، وبتطبيق اساس التصنيف الثانى يقسم « والاس » تلك المصطلحات الى ثلاث مجموعات أيضا ، مجموعة خاصة بفئة واحدة للسلوك ومجموعة خاصة بكل فئات السلوك . وعند تطبيق الاساسين معا يمكن تصنيف مصطلحات الأنثربولوجيا النفسية الى تسع مجموعات ، ويشترط لاستخدام هذا التصنيف افتراض أن هؤلاء الأفراد ينتمون الى جماعة واحدة وأن ملاحظتهم تتم فى وقت معين . وفيما يلى عرض موجز لتلك المصطلحات :

المجموعة الأولى :

وهى المصطلحات الخاصة بفرد واحد وبفئة سلوكية واحدة ، ومن

---

(١) Wallace A., Culture and Personality, Random House, N.Y. 1961, pp. 9-15.

امثلة ذلك عادة فردية(١) واستجابة(٢) وسلوك كامن(٣) . فمثلا ، اثناء قيام احد البحاث بدراسة ميدانية فى قرية ما من قرى قبائل الهنود الحمر لاحظ أن فردا معينا ، وهو رجل عجوز يعيش وحيدا فى بيت صغير ، يضع عصا فى فتحة باب البيت المفتوح ، كلما خرج من بيته ، وعندما سأل الباحث هـذا الرجل عن معنى هذا السلوك اجابه بأنه يقصد بوضع العصا فى فتحة بـاب البيت أن يبلغ الذين يأتونه بأنه غير موجود ، ويجب الا يدخلوا بيته ، هذا بالرغم من أن الباب مفتوح ، يوصف هذا السلوك على انه عادة فردية .

المجموعة الثانية :

وتتكون من المصطلحات الخاصة بفردين او اكثر من أفراد الجماعـة وبفئة سلوكية واحدة ، ومن امثلة ذلك عنصر ثقافى(٤) وعـادة(٥) ودور(٦) وبديل(٧) وخاصية(٨) . فمثلا ، عندما قام هذا الباحث بملاحظات اخرى ، تبين له أن عددا من اعضاء المجتمع الذى ينتمى اليه هذا العجوز الهندى يؤدون نفس السلوك عندما يتركون منازلهم خالية ، وقد أدلى هؤلاء الأفراد بأنهم يضعون العصاة بتلك الصورة للدلالة على خلو البيت من أصحابه وللدلالة على رغبتهم فى عدم دخول أحد المنزل برغم ترك الباب مفتوحا ، ويقرر الباحث استخدام اصطلاح عادة (جماعية) أو عنصر ثقافى للسلوك سابق الذكر .

المجموعة الثالثة :

وهى المصطلحات الخاصة بكل أفراد الجماعة قيد البحث ولكنها تتعلق بفئة سلوكية واحدة ، ومن امثلة ذلك عنصر ثقافى وعادة ودور وثيمـة(٩) وعمومية(١٠) فمثلا ، استطاع الباحث أن يتأكد أن كل افراد هذا المجتمـع يقومون بالسلوك نفسه عند الخروج من المنزل ، وبالتالى يمكن اطـلاق الاصطلاحات السابقة على هذا السلوك ، وخاصة اصطلاح عمومية .

---

(١) Habit.
(٢) Response.
(٣) Behavior potential.
(٤) Culture trait.
(٥) Custom.
(٦) Role.
(٧) Alternative.
(٨) Speciality.
(٩) Theme.
(١٠) Universal.

المجموعة الرابعة :

وتشمل المصطلحات الخاصة بفرد معين وبفئتين للسلوك ، ومن أمثلة ذلك سمة للشخصية (١) ودافع(٢) ومركب(٣) وقيمة(٤) ومجموعة أعراض تظهر في وقت واحد(٥) . فمثلا ، أثار سلوك وضع العصا في الباب المفتوح الباحث الذي ينتمي الى ثقافة أخرى (ينتشر فيها عادة اغلاق الأبواب والشبابيك عند الخروج خوفا من السرقة) ، ودفعه ذلك الى استجواب ذلك الرجل العجوز لمدة أطول ، وسأله عن موضوعات أخرى خاصة بالثقة وضمان تحقيق الرغبات ، تبين ان هذا العجوز واثق من أن جيرانه لن يدخلوا منزله في أثناء غيابه لأنهم سيرون العصا الموضوعة في فتحة الباب ، وهو واثق ايضا من عدم حدوث سرقة منزله ، لأنه يرغب في ذلك وهو واثق ان هذه الرغبة تحمل في طياتها توقع التحقق ، أى أنه واثق من تحقق تلك الرغبة . وينتهى الباحث الى أن هذه المجموعة من فئات السلوك عند هذا العجوز هى احدى سمات شخصيته .

المجموعة الخامسة :

وتشمل المصطلحات الخاصة بفردين أو أكثر من أعضاء المجتمع قيد البحث وبفئتين أو أكثر من فئات السلوك ، ومن أمثلة تلك المصطلحات علاقة(٦) ونظام(٧) وطقس(٨) وثيمة(٩) فمثلا ، لاحظ هذا الباحث إنتشار خاصية توقع « تحقيق الرغبة » عند بعض أعضاء هذا المجتمع ، وهم الأفراد الذين قابلوه وتحدثوا معه ، وهنا لاحظ الباحث وجود تكامل بين وجود العصا بالباب المفتوح وعدم دخول الغرباء المنزل ، وأن العلاقة بين هذين السلوكين هى علاقة تطابق أو تكافؤ منطقية ، ويتمثل ذلك في أن الفرد (س) عندما يضع عصاه في فتحة الباب(أ) ، فان الشخص (ص) سوف يقوم بالدور (ب) وهو عدم دخول المنزل ، ويشار الى بناء التكافؤ(١٠) الذى يتمثل في أ = ب وب = أ ، باصطلاح نظام او طقس .

---

(١) Character trait.
(٢) Motive.
(٣) Complex.
(٤) Value.
(٥) Syndrom.
(٦) Relationship.
(٧) Institution.
(٨) Ritual.
(٩) Theme.
(١٠) Equivalence structure.

المجموعة السادسة :

وتتكون من المصطلحات الخاصة بجميع افراد المجتمع قيد البحث وبفئتين أو اكثر من فئات السلوك . ومن أمثلة ذلك علاقة ونظـام وطقس وثيمـة ومحور(١) فمثلا ، عندما يلاحظ الباحث السابق انتشار بناء التكائؤ الخاص بعادة وضع العصى في الباب وعدم دخول الأعراب فى المنزل الخالى ، فانه يستنتج أن هذا النظام هو مجرد تعبير واحد لثيمة(٢) أكثر عمومية ، وهى « توقع تحقيق الرغبة » ، واذا تأكد الباحث من انتشار هذا المبدأ عند الجميع فانه يستطيع أن يستخدم اصطلاح « محور ثقافى »(٣) للدلالة على تلك الثيمة . ويستخدم بعض طرق البحث للتأكد من صلاحية استخدام الاصطلاح السابق، ومن تلك الطرق دراسة الأحلام لمعرفة الرغبات العامة ودراسة الأساطير .

المجموعة السابعة :

وتشمل المصطلحات المتعلقة بفرد واحد فى الجماعة ولكنها خاصة بكل فئات السلوك قيد الملاحظة . ومن أمثلة ذلك « تصور الفرد لذاته وللعالم الخارجى »(٤) والشخصية ونظام بيولوجى نفسى(٥) .

ولو توثقت العلاقة بين الباحث وهذا الهندى العجوز ، فانه يستطيع ان يكتسب ثقته ، وأن يعرف منه تاريخ حياته وبعض احلامه ، واذا كان الباحث متخصصا أصلا فى علم نفس الشخصية او فى التحليل النفسى ، فانه يستطيع أن يطبق عليه بعض الاختبارات الاسقاطية مثل اختبار رورشاخ . وعندما يجمع هذا الباحث القدر الكافى من المعلومات النفسية الخاصة بهذا الرجل العجوز ، فانه يستطيع تحليل تلك المعلومات ، والوصول فى النهاية الى تحديد شخصيته التى تعبر عن كل فئات سلوكه .

المجموعة التاسعة :

يذكر العلامة « والاس » المجموعة التاسعة قبل المجموعة الثامنة من المصطلحات لأن دراسة المجموعة الثامنـة تطلب شرح بعض مصطلحـات المجموعة التاسعة . وتتكون المجموعة التاسعة من المصطلحات الخاصـة

---

(١) Focus.

(٢) Theme.

(٣) Cultural focus.

(٤) Mazeway.

(٥) Psycho - biological system.

بكل افراد الجماعة قيد البحث وبجميع فئات السلوك الملاحظة ، ومن أمثلة ذلك نمط (١) وصيغة كلية (٢) وثقافة (٣) والشخصية القومية (٤) والشخصية المنوالية (٥) . فمثلا ، اذا استطاع الباحث السابق جمع معلومات نفسية ، مشابهة لتلك التى جمعها من الهندى العجوز ، من عينة ممثلة لجميع أفراد الجماعة قيد البحث ، يكون فى مقدوره تحديد ثقافة هذا المجتمع ، وعادة لا يستطيع الباحث تحليل هذا القدر الضخم من المعلومات فى ميدان البحث ، وانما يعود بها الى مقر عمله ويقوم بدراستها بدقة وعلى مهل ، وقد يعرض بعضها على المتخصصين لمعاونته فى تحديد الشخصية المنوالية لهذا المجتمع .

المجموعة الثامنة :

وتشمل المصطلحات الخاصة ببعض افراد الجماعة قيد البحث وبجميع فئات السلوك الخاضعة للملاحظة ، ومن أمثلة ذلك ثقافة فرعية (٦) وشخصية المركز (٧) . يتيح تطبيق طرق البحث السابقة التوصل الى مصطلحات عامة، مثل اصطلاح الشخصية المنوالية ، ولكن يتضمن مثل هذا التعميم ، لقائل بوجود مجموعة من الخصائص النفسية عند جميع أفراد المجتمع ، بعض المخاطر والأخطاء ، واهم تلك الاخطاء وجود اختلافات فى شخصيات افراد المجتمع ، وذلك لانقسام افراد المجتمع لجماعات على أساس النوع والعمر والمهن ، وان تلك الاختلافات لا تسمح بتعميم شكل الشخصية المنوالية على الجميع لاختلاف شخصيات افراد تلك الجماعات عن الشخصية المنوالية العامة ، واطلق العلامة لينتون على شخصيات تلك الجماعات الفرعية اصطلاح شخصيات المركز ، وبالتالى يكون لجماعة الرجال فى المجتمع قيد البحث شخصية مركز الرجال وهى تختلف عن شخصية مركز الاناث ، ويمكن تطبيق نفس الاتجاه على شخصية الأطفال وشخصية الشباب وشخصية كبار السن وشخصية المحاربين وشخصية التجار وما الى ذلك . ويرى العلامة « والاس » أن وجود شخصيات المركز لا يلغى وجود الشخصية المنوالية العامة ، وذلك لأن شخصيات المركز ، فى واقع الأمر ، لا تتكرر عند جميع

---

(١) Pattern.
(٢) Configuration.
(٣) Culture.
(٤) National character.
(٥) Modal personality.
(٦) Sub - culture.
(٧) Status personality.

افراد المجتمع وانما عند بعض افراده المشتركين فى مركز معين ، وفى الغالب لا يوجد تعارض بين شخصيات المركز والشخصية المنوالية وانما يوجد تكامل وتداخل (١) .

ومن الواضح ان العرض السابق لمصطلحات الأنثروبولوجيا النفسية يتضمن بعض اوجه النقص ، اهمها ، أن بعض تلك المصطلحات تعريفات غير مانعة ، وبالتالى يمكن استخدام اصطلاح واحد فى اكثر من مجموعة واحدة ، ومن أمثلة ذلك دور وعنصر ثقافى ونظام وطقس . وكذلك لا يوجد تعريف دقيق لتحديد وحدة فئة السلوك ، وبالتالى قد يحدث خلط ، فمثلا علاقة الأم بأطفالها يمكن ان يصفها احد البحاث على انها فئة سلوكية واحدة وتدخل فى المجموعة الأولى ، ويمكن أن تحلل تلك العلاقة الى فئـات سلوكيـة اكثر خصوصية ، منها الاطعام والتنظيف والتدليل ، وفى هذه الحالة توضع تلك الفئات السلوكية الخصوصية فى المجموعة الأولى ، فى حين توضع علاقة هذه الأم بأطفالها فى المجموعة الرابعة .

تتناول الفصول القادمة شرح ودراسة المصطلحات السابقة وغيرهـا بالتفصيل ، وجدير بالذكر ان نشير هنا الى مفهوم « تصـور الفـرد لذاته وللعالم » (٢) ، ولعدم دراسته فى الفقرات التالية .

يرى « والاس » أن اهمية مفهوم « تصور الفرد لذاته وللعالم » بالنسبة للفرد مثل أهمية مفهوم « الثقافة » للجماعة ، فكما أن كل تاريخ جماعة ما هو أمر فريد خاص بها ، كذلك الحال بالنسبة لهذا التصور الفردى ، فهو يتكون من مجموع الخبرات التى يكتسبها الفرد فى حياته ، وهو أمر خاص به وحده ويتضمن مفهوم الشخصية نفس المعنى السابق ، الا ان الشخصية تمثل مستوى أعلى فى التجريد .

يحتوى كل مخ انسانى ، فى زمن معين ، على صورة خاصة به وحده ، وهى صورة لنظام مركب من اشياء مترابطة ديناميا ، وتشتمل تلك الأشياء على الجسم الذى يوجد فيه المخ وكذلك على المخ ذاته ، وتنمو وتتكون تلك الصورة العقلية من خلال خبرات الشخص التى كتسبها طوال حياته ، تمثل هذه الصورة العقلية معنى مفهوم « تصور الفرد لذاته وللعالم » ، ويتكون مضمون هذا المفهوم من عدد هائل من التجمعـات أو الرواسب المعرفيـة للاحساس ، ويستخدم كل فرد هذه الصورة التى يحملها فى عقله على انهـا

---

(١) Wallace, A., Culture and Personality, pp. 14 & 15.

(٢) Mazeway.

أمر حقيقى وتمثيل كامل لدرجة ما للخواص العملية للعالم الواقعى . ويمكن تشبيه هذا المفهوم بخريطة لمتاهة هائلة فى الحجم ، ولتلك الخريطة مفتاح أو دليل تفسيرى تفصيلى وكثير من الدروب ، وفى تلك الخريطة توجــد ثلاثة تجمعات يشمل التجمع الأول الأهداف والشراك أى القيم أو الحالات المرغوبة والحالات غير المرغوبة ، ويتكون التجمع الثانى من الذات والأشياء الأخرى أى الناس والأشياء . أما التجمع الثالث والأخير فيتكون من الوسـائل التى تستخدمها الذات للوصول أو للابتعاد عن القيم ، ومن أمثلة ذلك الخــطط والعمليات والفنون ، ويشرح العلامة « والاس » تلك الفئات بالتفصيل (١).

يتضح لنا مما سبق تعدد وتنوع اصطلاحات الأنثروبولوجيا النفسية ولكن أكثر تلك الاصطلاحات أهمية بالنسبة لموضوعنا هى الثقافة والشخصية، ولذلك يخصص الكاتب الفصلين القادمين لدراستهما .

---

(١) Ibid. pp 16 & 17.

الفصل الثالث

الثقافـــة

- تمهيد
- قطاعات الثقافة
- خصائص الثقافة
- مستويات الثقافة

الفصل الثالث

الثقافــة

تمهيد :

يتفق كل علماء الانثروبولوجيا الثقافية على أن الثقافة هى موضــوع علمهم ، ولكنهم يختلفون فى تعريفها ، عرفها البعض بأنها « السلوك المكتسب» ، وعند البعض الآخر الثقافة ليست السلوك وانما هى « تجريدات مأخوذة من السلوك » ، وبينما يعتبر البعض الأشياء المادية مثل الأدوات والآلات والملابس والمنازل داخلة فى نطاق الثقافة ، يرفض ذلك البعض الآخر ، ويقررون أن الثقافة تقتصر على الأفكــار وأنماط السلوك . وفيما يتعلق بالعلماء الذين يعرفون الثقافة بأنها مجموعة من الأفكار نراهم يختلفون فى تحديد مركز أو مكان تلك الأفكار ، قال بعضهم ان مكانها هو عقول الأفراد موضوع الدراسة، وقال البعض الآخر ان مركزها هو عقول علمــــاء الأنثروبولوجيا ، ويرفض البعض الثالث ذلك التعريف من أساسه ويقررون أن الثقافة ليست الأفكار وانما الأشياء والأفعال الخارجية التى يمكن ملاحظتها حسيا .

ويجب ملاحظة ان تلك الاختلافات وغيرها لم تظهر الا فى العقود القليلة السابقة ، ففى نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين كان هناك شبه اتفاق عام بين العلماء على الأخذ بالتعريف الشهير الذى وضعه العلامة « تايلور » وافتتح به كتابه « الثقافة البدائية » وفيه يقول :

« الثقافة .. هى ذلك الكل المركب الذى يشتمل على المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعادات وغيرها من القدرات والعــادات التى يكتسبها الانسان بوصفه عضواً فى مجتمع »(١) .

ويعود « تايلور » فى موضع آخر من الكتاب ذاته الى تأكيــد أن الثقافة تشتمل على الأشياء مثل الفأس والقوس والرمح وما الى ذلك ، وكذلك على الفنون العملية مثل صيد السمك واشعال النار وصيــد الحيوانات البريــة وصناعة الحراب .. الخ(١) . سيطر هــذا التعريف على عقــول علمــاء الأنثروبولوجيا لعقود عدة ، ولم تظهر الاختلافات المتناقضة الا منذ ربع قرن من الزمان ، وأوضح تلك الاختلافات التعريف الذى توصــل اليه العــالمان

---

(١) Tylor, E., Primitive Culture, John Muray, London 1913 3.

الأمريكيان « كروبر » و « كلاكهون » وهو : « الثقافة تجريد » ، ووافقهم على هذا التعريف بعض علماء الانثروبولوجيا الثقافية فى أمريكا وأخص بالذكر قول العلامة بيلز والعلامة « هويجر » بأن الثقافة هى : تجريد مأخوذ من السلوك الانسانى الملاحظ حسيا ولكنها ليست هى ذلك السلوك(١) ، ويقــولان : « لا يستطيع الأنثروبولوجى أن يلاحظ الثقافة مباشرة»(٢) ويقول العلامة « كروبر » فى المعنى نفسه بأنه يمكن للعالم أن يرى الأشيــاء والأشخــاص وأفعالهم وتفاعلاتهم ، ولكن لا يمكن لأحد أن يرى الثقافة .

ويوافق على هــذا التعريف عالم الأنثروبولوجيا الاجتماعيــة الشهير رادكليف براون اذ يقول ما نصه : « لا تعبر الثقافـــــة عن أى شىء واقعى محسوس وانما عن تجريد ، وغالبا ما يستخدم كتجريد غامض » (٣) .واعتقد أن « براون » يقصد بذلك نقد علماء الأنثروبولوجيا الثقافيـــة من ناحيـــة أن موضوع علمهم هو مفهوم تجريدى غامض ، لأنه يحبذ الأخذ بمفهوم البناء الاجتماعى موضوع الأنثروبولوجيا الاجتماعية .

ويرى « هوايت »(٤) أن موضوع الأنثروبولوجيا الثقافية هو السلوك الانسانى ، كما هو الحال فى علم النفس ، ولكن ، يتمثل الاختلاف بين العلمين فى أن الأول يدرسه من خلال الاطار غير الشخصى فى حين يدرسه الثانى فى « الاطار الشخصى » ، أى من حيث علاقته بشخصية الفرد ، بما فيها مـــن عواطف واتجاهات وقيم .

قطاعات الثقافة :

الوحدة الأساسية فى الثقافة هى العنصر الثقافى وهو العنصر البسيط الذى لا يمكن تحليله الى عناصر ابسط منه أو الذى لا يوجد حاجة علميـــة لتحليله الى ما هو ابسط منه ، ولا يوجد اتفاق بين العلماء على طبيعة تلك الوحدة الأساسية ، فمثلا قد يعتبر البعض الحالة الأوربية عنصرا ثقافيا ويميل البعض الآخر الى تحليل الحلة الأوربية الى عناصر ابسط منها مثل عنصر

---

(١) BEALS, R. and HOIJER, H. : An Introduction to Anthropology, The Macmillan Co., New York, 1953, p. 219.

(٢) IBID, p. 220.

(٣) RADCLIFF - BROWN, A. : On Social Structure, Journal of the Royal Anthopological Institute; 1940, 70 : p. 2.

(٤) WHITE, L. : The Concept of Culture, The Bobbs Merril, N. 1959, A-238, pp. 229-247.

(البنطلون) وعنصر (الجاكيت) وما الى ذلك ، ولا شك أن تحديد العنصر الثقافى البسيط يرجع أساسا الى طبيعة الدراسة واهدافها . فمثلا حلل احد العلماء « رقصة الشبح » المنتشرة بين الهنود الحمر الى مائة عنصر وحللها آخر الى عدد اقل وهكذا . ويجب ملاحظة أن العنصر الثقافى وهو حقيقة واقعية يمكن ملاحظتها حسيا وقد يكون شيئا أو علاقة أو فكرة ، وتتموكز كل مجموعة من تلك العناصر المختلفة فى المضمون فى مركب يعرف باصطلاح المركب الثقافى ، والمركب الثقافى هو كل يتكون من عناصر ثقافية يرتبط بعضها ببعض وظيفيا ، بمعنى أن كل عنصر متد خل مع العنصر الآخر بحيث اذا حذفنا أحد تلك العناصر يختفى المركب الثقافى ، فمثلا اذا قلنا مركب « تعدد الزوجات » عند المسلمين ، نجد أن هذا المركب يتكون من عناصر ثقافية متداخلة ومترابطة ترابطا وظيفيا ، من تلك العناصر المبدأ الاسلامى الذى يبيح تعدد الزوجات ، والمبدأ الخاص بشروط وظروف هذا التعدد ، وبعنصر العدد الأقصى للزوجات التى يمكن للمسلم أن يجمع بينهن ، وكذلك عنصر المساواة فى المعاملة . وعنصر توفير السكن الملائم لهن ، وعنصرتوفير الغذاء والعنصر النفسى المتعلق باختلاف عواطف الزوج بالنسبة لزوجاته ، وعنصر العلاقات الاجتماعية بين الزوجات ، وعنصر العلاقات الاجتماعية بين الزوج وعائلات الزوجات ، وعنصر الصداق المقدم لكل زوجة ، وما الى ذلك من عناصر كثيرة اخرى . اذا حاولنا حذف أحد تلك العناصر وهو عنصر المبدأ الاسلامى الذى يبيح تعدد الزوجات ، يختفى هذا المركب الثقافى ويصبح هناك مركب ثقافى آخر وهو نظام « تعدد الزوجات » عند غير المسلمين ، وهكذا يتضح المقصود بالترابط الوظيفى بين عناصر المركب الثقافى الواحد .

وتتجمع المركبات الثقافية فى صورة نظم وفق موضوعاتها ، فمثلا نظام الزواج فى المجتمع العربى يتكون من عدد كبير من المركبات الثقافية ، فمن حيث عدد الزوجات يوجد مركب تعدد الزوجات ومركب وحدانية الزوجة ، ومن حيث نظام السكن بعد الزواج يوجد مركب السكن مع اهل الزوج ومركب السكن مع أهل الزوجة ومركب السكن بعيدا عن اهل الزوج والزوجة ، وكذلك من ناحية العلاقة القرابية مع الزوجة يوجد مركب الزواج من بنت العم ومركب الزواج من بنت العمة ومركب الزواج من بنت الخال أو الخالة ومركب الزواج من غير الأقارب ، ويجب ملاحظة أن استخدام تلك المصطلحات لا يتم بصورة واحدة عند العلماء ، فمثلا من النادر استخدام اصطلاح مركب ثقافى وانما يستخدم اصطلاح نظام أو عادة أو قاعدة . وتتجمع النظم الثقافية والاجتماعية المتشابهة فى الموضوع أو الوظيفة أو فيهما معا فى نسق واحد ، فيوجد النسق الاقتصادى وهو مجموعة كبيرة من النظم الثقافية والاجتماعية التى تتفق فى تحقيق وظيفة توفير الغذاء والكساء للأفراد ، ومن أمثلة

خلك الزراعة أو نظام التـجارة أو نظام الصناعة الاستراتيجيـة أونظـام الصناعة التحويلية أو نظام العمل فى مجال الخدمات مثل التدريس والمحاماة والطب وما الى ذلك ، وهكذا يتكون كل نظام من عدة مركبات ثقافية ويحتوى كل مركب ثقافى على عدد من العناصر الثقافية ، وبالاضافة الى النسـق الاقتصادى يوجد النسق العائلى والنسق الدينى ونسق بناء المساكن ونسق القيم ونسق اللغة وغيرها من الانساق ، ويمكن تجميع كل الأنساق الثقافية فى ثلاثة قطاعات كبرى تتكون منها الثقافة ، وهى القطاع المادى والقطـاع الاجتماعى والقطاع الفكرى والرمزى ، وكذلك يعتمد هذا التقسيم عـلى نظرية « هوايت » فى تحديد مواقع العناصر الثقافية ويطلق عليها اصطلاح مواقع الثقافة ، يحدد « هوايت » ثلاثة مواقع وهى :

١ ـ اشخاص الانسان ويقصد بذلك الأفكار والعقائد والاتجاهات الموجودة فى عقول الأشخاص .

٢ ـ الأشياء وهى كل شىء مادى محسوس يعطيه الانسان معنى محددا وفى معظم الحالات يكون من صنعه أو على الأقل يبذل الانسان بعض الجهد فى ايجاده بصورة جديدة تختلف عن صورة الشىء فى الطبيعة .

٣ ـ العلاقات وخطوط التفاعل والاتصال بين البشر بعضهم ببعض وبين البشر والاشياء .

ويجب ملاحظة أن تقسيم الثقافة الى قطاعات هو فى الحقيقة عمليـة تحليلية تهدف الى اخضاع هذا العدد الضخم من النظم والانساق الثقافية الى الدراسة العلمية ، ولذلك لا تعبر تلك العملية التنظيمية عن الواقـع الثقافى بدقة ، فاننا فى حياتنا اليومية لا نشعر بذلك التقسيم لعدم وجوده واقعيا ، ولكن توجد مركبات ثقافية ونظم ثقافية تتداخل فيها الأفكار والاشياء والعلاقات ، فمثلا اذا لاحظنا نظام عبادة الأجداد المنتشر فى افريقيا ، نجد نسيجا متداخلا من الأفكار والعقائد والأشياء والعلاقات ، يقوم هـذا النظام على مبدأ تماسك الجماعة القرابية الواحدة التى تتكون من الأحياء والأموات ، ويتكون هذا النظام من مجموعة عقائد منها أن الأقارب الأموات يتمتعون بقوى غيبية وسحرية يستطيعون بها الحاق الأذى بالأقارب الأحياء وبالتالى وجب على الأحياء عبادة اقاربهم الأموات ، ويتكون هذا النظام كذلك من مجموعة من العلاقات الاجتماعية ، فالجماعة القرابية الواحدة تربطها علاقات اجتماعية محددة اساسها التعاون وتقديم العون والأخذ بالثار وحماية الأقارب وضرورة الزواج من داخل الجماعة أو من خارجها وما الى ذلك ، ولا يخلو هذا النظام الثقافى من عناصر مادية تتمثل فى بناء الأضرحة للآباء والأجداد الموتى وتقدم القرابين فى أوقات معينة وقد يصاحب ذلـك

ملابس معينة أو تزيين اجسامهم بمواد خاصة ، وكذلك وضع أقنعة خاصة على رءوسهم ، واستخدام اسلحة معينة فى ذبح الحيوانات المقدمة كقرابين .

وهكذا يتضح لنا أن تقسيم الثقافة الى القطاعات المادية والاجتماعية والفكرية هو تقسيم تنظيمى من صنع الأنثروبولوجيين ولا يعبر بدقة عن الواقع الثقافى ، ويمكن تشبيه ذلك التقسيم ، بعملية التصنيف التى يقوم بها الانثروبولوجيون عند تجميعهم الحالات الفردية للمركبات والعناصر الثقافية فى انماط عامة بغرض دراستها .

خصائص الثقافة :

ينفرد الانسان عن جميع المخلوقات بقدرته على صنع الثقافة والحفاظ عليها ، ولكنه يشارك عددا كبيرا من الحيوانات فى المعيشة داخل مجتمع ، بدأ صغيرا واخذ ينمو ويتسع بمرور الزمن ، وكل مجتمع بشرى له ثقافة خاصة به تميزه عن باقى المجتمعات ، وقد يحدث أن يوجد تشابه قوى بين مجتمعين لقوة الاتصال بينهما وتشابه المراحل التاريخية والبيئة الجغرافية ، وبالرغم من وجود مثل هذا التشابه فانه لا يصل أبدا الى حد التطابق ، وذلك لأن كل مجتمع تتميز ثقافته بطابع خاص ، واذا صدق المبدأ القائل بعدم تطابق شخصيتين ، فبالأولى أن نقبل مبدأ عدم تطابق الثقافات، لأن الثقافة الواحدة يشترك فى صنعها عدد كبير من الشخصيات بالاضافة الى عناصر اخرى غير انسانية . واليوم اذا تنقلنا فى القرى الغربية أو حتى فى قرى دولة عربية واحدة مثل مصر نجد تميز ثقافة كل قرية بطابع خاص يميزها عن القرى الأخرى ، وقد تتمثل تلك الاختلافات فى اللهجة أو فى نظم الزواج او فى الرقصات الشعبية أو النظم الاقتصادية وما الى ذلك ، وبالرغم من تلك الاختلافات الفرعية فاننا ندخل جميع القرى العربية فى ثقافة كبرى نطلق عليها ثقافة القرية العربية ، ويرى البعض أن جميع القرى فى العالم تجمعها خصائص عامة بحيث يمكن أن نقول بوجود الثقافة القروية أو الزراعية ؛ وكذلك الحال بالنسبة للمجتمعات الحضرية وما الى ذلك ، وبرغم التباين الضخم بين ثقافات الانسان سواء كانت بدائية أو قروية أو تجارية أوصناعية فانه يمكن التحدث عن خصائص عامة للثقافة تشترك فيها جميع الثقافات. وفيما يلى عرض موجز لتلك الخصائص :

١ — الثقافة انسانية :

الانسان هو الحيوان الوحيد الذى منحه الخالق جهازا عصبيا خاصا وقدرات عقلية فريدة تتيح له امكانية ابتكار افكار واعمال جديدة ، ويتميز ذلك

الجهاز العصبى كذلك بقدرة فائقة على تغيير السلوك البشرى من وقت لآخر للتكيف مع الظروف البيئية والاجتماعية الجديدة دون الحاجة الى ضرورة حدوث تغيرات عضوية ، فمثلا انتقل الانسان العاقل من المناطق الدافئة الى مناطق باردة جدا وتكيف معها عن طريق اختراع الملابس المصنوعة من لصوف والفراء وكذلك عن طريق اختراع بناء المسكن فى داخل الثلوج واستخدام شحوم الحيوانات للتدفئة وما الى ذلك ، وانتقل الانسان كذلك من المناطق الدافئة الى المناطق الاستوائية وتكيف معها باختراع افكار واعمال جديدة مثل عدم استخدام الملابس واختراع مساكن تخفف من الحرارة والرطوبة وما الى ذلك . وانتقل الانسان من طور جمع القوت الى طور الصيد واخيرا الى طور الرعى والزراعة دون ظهور تغيرات عضوية تذكر ، وانما الذى تغير هو ثقافته اى مجموع افكاره واعماله .

قد يتساءل القارىء : لماذا يختص الانسان وحده دون سائر المخلوقات بالثقافة فى حين يشترك مع بعض الحيوانات فى المعيشة داخل مجتمع ؟

ان الحياة الاجتماعية التى تعيشها الفيلة وجماعات النحل والنمل وغيرها هى تصرفات فطرية ، ويرى الكثيرون أن الانسان كذلك لديه دافع فطرى يحتم عليه التجمع فى جماعات مختلفة الحجم ، ولذلك تمثل المعيشة فى جماعات سلوكا فطريا ، وبما أن بعض الحيوانات تشترك مع الانسان فى هذا الدافع وغيره من الدوافع الفطرية ، فان ظاهرة تكوين المجتمعات لا ينفرد بها الانسان وحده . أما فيما يتعلق بالثقافة فالأمر يختلف تماما ، وذلك لأن الثقافة هى افكار يخترعها العقل البشرى وينفذها الانسان بأعضائه وبغيرها من الأدوات والآلات التى يصنعها ، ولا خلاف على أن العقل — واقصد به هنا القدرة على التفكير وبالتالى على اختراع الأفكار التى من شأنها اشباع حاجات الانسان والتكيف من البيئة — قدرة خاصة بالانسان وحده. واذا تركنا التحليل العلمى ونظرنا ببساطة الى الحياة امامنا ، لا نجد حيوانا غير الانسان يصنع الأدوات والآلات والمساكن والأثاث والمدن والمصانع وما الى ذلك ، ولا نجد حيوانا غير الانسان له لغات متمايزة فى اصواتها وحروفها وقواعدها ، ولا نجد حيوانا غير الانسان له قيم تنير له الطريق بحيث تحدد له ما يجب أن يكون عليه سلوكه ، ويمكن تطبيق تلك المقارنة على باقى النظم الثقافية . والعقل ليس ملكة غيبية ولكنه يتمثل فى مجموعة من المراكز العصبية والحسية فى مخ الانسان ، ولا يوجد عند غير الانسان مثل تلك المجموعة ، بل ان الانسان يتميز بمراكز عصبية معينة لا توجد عند غيره ومن امثلة ذلك مركز التخيل ومركز التذكر ، وهكذا يتضح لنا مما سبق أن الثقافة خاصة بالانسان فقط .

٢ ــ الثقافة مكتسبة :

يكتسب الانسان الثقافة من مجتمعه منذ مولده عن طريق الخبـــرة الشخصية ، وبما ان كل مجتمع انسانى يتميز بثقافة معينة محددة بزمان ومكان معين ، فان الانسان يكتسب ثقافة المجتمع الذى يعيش فيـــه منذ الصغر ، ولا تؤثر العوامل الفسيولوجية والسلالية فى تلك العملية اى عملية التنشئة الثقافية (١) او الاجتماعية (٢) وهى عملية نقل ثقافة المجتمع ونظمه الاجتماعية الى الطفل الذى يعيش فيه ، والمقصود بذلك ان اى طفـــل بشرى ، مهما تكن السلالة التى يرجع اليها ، يستطيع ان يلتقط ثقافـــة اى مجتمع اذا عاش فيه فترة زمنية كافية ، فمثلا اذا اخذنا طفلا زنجيا من قبيلة الايبو فى نيجيريا ووضعناه فى اسرة مصرية منذ الصغر ، فانـــه يتكلم العربية ولن يتكلم لغة الايبو ، كذلك الحالة بالنسبة للنظم الثقافة الأخرى .

واذا قلنا ان الثقافة مكتسبة فاننا بالتالى لا ندخل فى نطاقها الدوافـــع الفطرية وكذلك السلوك الفطرى والأفعال المنعكسة والحركات الفسيولوجية فى داخل جسم الانسان وما الى ذلك (٣) ، ولا يتعارض هذا مـــع القـــول بأن معظم النظم الثقافيةقد اخترعها الانسانلاشباعحاجات فطرية ، فمثلانظام جمع الطعام او نظام الصيد او نظام الرعى او الزراعة ، كل تلك الأنظمة من شأنها اشباع الدافع الفطرى وهو الشعور بالجوع وجانبه النزوعى المتمثل فى البحث عن الطعام ، اخترع الانسان تلك الانظمة التى هى فى مجموعها افكار واعمال معينة بغرض اشباع حاجاته الفطرية ، وهكذا فان الانظمة الثقافية من اختراع الانسان وتنتقل من فرد الى آخر ومن جيل الـــى جيل عن طريق التعلم سواء كان مقصودا او غير مقصود ويطلق على مجموع النظم الثقافية التى تتراكم من جيل الىجيل اصطلاح التراث الثقافى والاجتماعى وتختلف المجتمعات الانسانية فى تراثها الثقافى سواء من حيث الكم او الكيف .

٣ ــ الثقافة افكار واعمال :

يقوم الانسان فى كل مجتمع بانشاء علاقات مع ثلاثة عوالم : العالم المادى والعالم الاجتماعى والعالم الفكرى والرمزى . ولم يقف الانسانمكتوف الأيدى امام البيئة الجغرافية وعناصرها ، وانما اخذ يشكل فيها ويحولها الى ادوات وآلات ومنازل ومدارس ومصانع ، وهذه العناصر المادية تحولت الى

---

(١) Enculturation.

(٢) Socialization.

(٣) دكتور احمد ابو زيد : البناء الاجتماعى ، الجزء الأول ، المفهومات ــ الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٦ ــ ص ٨٩ .

اعمال انسانية بعد ان اثر فيها الانسان ، ويجب ملاحظة ان كل عمل انسانى لايمكن ان يتم ما لم تسبقه فكرة وارادة التنفيذ ، وهكذا لاتخرج العناصر المادية للثقافة عن كونها افكارا مجسدة فى اعمال . اما العالم الاجتماعى فيشتمل على النظم الاجتماعية التي تحدد علاقة الانسان باخيه الانسان فتوجد النظم الاقتصادية من تعاون وملكية خاصة وملكية مشاعة وما الى ذلك ، وكذلك توجد النظم السياسية التى تحدد ظاهرة السلطة والقـــوة فى المجتمع وعلاقة الحاكم بالمحكومين ، وهناك النظم العائليـــة والعادات والتقاليد ، اذا حللنا تلك العلاقات الاجتماعية نجد انها ترجع فى النهاية الى تصرفات انسانية وافكار اى الى اعمال وافكار . وفى علاقة الانسان بعالم الافكار المجردة والرموز نجد نظما ثقافية تحدد تلك العلاقة بطابع معين فى كـــل مجتمع انسانى ، ومن امثلة النظم اللغة والدين والفن والقيم ، وهذه النظم ، وان كان يغلب جانب الافكار والعقائد والقيم الا انها لا تخلو من اعمال . يتضح مما سبق ان الثقافة اذا نظرنا اليها كعناصر او مركبات ونظم او حتى كقطاعات لا تخرج فى النهاية عن كونها افكارا واعمالا اخترعهاالانسان لسد حاجاته الأولية والثانوية .

٤ ـ الثقافة كل او نسيج متداخل :

لا تتكون الثقافة من مجموعة من الأعمال والأفكار المنعزلة عن بعضها وانما تتكون من كل متداخل العناصر والقطاعات (١) ، ولا يستطيع أصحاب الثقافة الكشف عن هذا التداخل والتساند بين أجزاء الثقافة ، وانما يكشف ذلك التداخل الأنثروبولوجيون بعد فترة من التدريب الميدانى تلى دراسته الجامعية ، ويفضل الأنثروبولوجيون دراسة ثقافة مجتمع لا ينتمون اليه ، وذلك لصعوبة تحقيق النظرة الكلية الموضوعية اللازمة لدراسة الثقافـــة اذا كان الأنثروبولوجى يدرس ثقافته . يقوم الأنثروبولوجى بدراسة وصفية للعناصر والنظم الثقافية الخاصة بالمجتمع موضوع الدراسة ، وبعد ذلك يحلل تلك النظم بغرض تحديد التداخل الوظيفى بينها والتوصل فى النهاية الى تحديد ثقافة ذلك المجتمع ككل أوكبناء متكامل الأجزاء . واذا رجعنا الـــى الدراسات الثقافية الخاصة بالقرى العربية نجد انها تجمع على وجود علاقة وثيقة بين الدين والنظم الثقافية الأخرى ، فالدين ينظم العلاقات العائلية ، وترجع المثل العليا العربية من تدين وشجاعة وفضيلة الى الاسلام . وكذلك يؤثر الدين فى حياة العـــرب الاقتصادية من عادات المأكل والملبس ونظـــام

---

(١) د. أحمد الخشاب : دراسات أنثروبولوجية ـ دار المعارف بمصر ـ القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٦٦ .

الميراث والوصية ، واذا تجولنا فى القرية العربية نسمع اسم الجلالة يتردد دائما سواء فى محادثات العرب اليومية او مآذن الجوامع عند دعوة المسلمين للصلاة .

٥ ــ الثقافة اجتماعية :

تدرس الثقافة فى الجامعات والمجتمعات ، وذلك لأنها عادات المجتمعات وليست عادات الأفراد ، واذا درس الانثروبولوجى سلوك الأفراد ليستنتج منها انماط الثقافة ، فانه يدرس هؤلاء الأفراد كاعضاء فى جماعة معينة وليس بصفتهم الفردية الشخصية ، ان دراسة الفرد كشخصية متميزة هو موضوع عالم النفس وليس موضوع الأنثروبولوجى . وتختلف النظم الثقافية فى مدى شمولها ، فهناك نظم تطبق على جميع افراد المجتمع الواحد ، وفى الغالب تتعلق تلك النظم بالمقومات الأساسية لوجود المجتمع واستمراره ، ومن امثلة ذلك نظم الضبط الاجتماعى من عرف وقوانين ، يتعرض المخالف لعقوبات متنوعة قد تصل الى حد الاعدام . ولكن لا تتمتع كل النظم الثقافية بذلك الشمول فى التطبيق ، بل ان عددا كبيرا من النظم (وخاصة فى الثقافات المتمدينة) يطبق على جماعة معينة داخل المجتمع الواحد ولا يطبق على الجماعات الأخرى ، ويمكن تقسيم النظم الثقافية على اساس مدى شمولها الى ثلاثة انواع :

(ا) العموميات (١) : وهى النظم الثقافية التى يتبعها كل افراد المجتمع ، ومن امثلة ذلك اللغة فى المجتمعات البدائية خاصة ، فانه يندر أن يعرف احد من افراد القبيلة لغة غير لغة قبيلته ، وتقدم مثالا آخر من الثقافات المتمدينة وهو قانون العقوبات الخاص بمنع القتل والسرقة والاغتصاب ومعاقبة المخالف ، ومن الأمثلة التى نجدها فى المجتمعات البدائية والمتمدينة نظام المحارم الذى يمنع الزواج من اقارب معينين وخاصة الأصول والفروع .

(ب) البدائل (٢) : وهى مجموعة من النظم والعناصر الثقافية التى تطبق فى موقف معين وللفرد الحرية فى اختيار احدها وترك الباقى ، ومن امثلة ذلك بعض نظم الزواج فى الثقافة الاسلامية فالمسلم يستطيع ان يتزوج بنت عمه او بنت عمته او بنت خاله او بنت خالته أو من غير قريباته وحتى يستطيع ان يتزوج فتاة لا تدين بالاسلام وانما بالمسيحية أو اليهودية . ويستطيع الصبى

---

(١) Universals.

(٢) Alternatives.

العربى أن يحترف النسيج أو الزراعة أو البرادة أو اصلاح السيارات أو التجارة وما الى ذلك . ويجب هنا الا يفهم أن هذه الحرية لا قيود لها ولا حدود عليها وانما هناك حدود تحددها الثقافة ذاتها ، فبالنسبة لحق المسلم فى الزواج لا يستطيع أن يتزوج من فتاة وثنية مثلا ، وفيما يتعلق بالحرف يعاقب الصبى اذا تعلم النشل أو السرقة من المنازل .

(ج) الخصوصيات (١) : يشتمل كل مجتمع على تقسيمات فرعية فى داخله ، وتزداد تلك التقسيمات كلما تقدمت ثقافته وزادت درجة التخصص بين أعضائه ، وتتميز كل جماعة بنظم وعناصر ثقافية خاصة بها ولا توجد فى كثير من الأحيان عند غيرها ، فمثلا تختلف الملابس على أساس النوع فى معظم المجتمعات ، اذ لا يمكن للفتى العربى ان يسير فى الطريق وهو يلبس (فستانا) أو حذاء عاليا . واذ نظرنا الى مجتمع مدينة القاهرة مثلا نجد بداخله المئات من التقسيمات الفرعية ، ويشمل كل قسم على جماعة متماسكة لها نظمها الثقافية الخاصة ، فهناك جماعات العمال والنجارين والتجار والطلبة والأطباء والمهندسين والصيادلة والمحاسبين والضباط والجنود وموظفى الشركات وموظفى الحكومة وما الى ذلك ، وتبين الدراسات الميدانية أن كل جماعة لها أنماط ثقافية تميزها عن غيرها ، فمثلا يميل الأطباء الى استخدام الألفاظ الأجنبية فى أحاديثهم اليومية وكذلك يتميزون بمستوى اجتماعى معين يختلف تماما عن مستوى معيشة العمال مثلا ، يطلق على تلك النظم الثقافية الخاصة بالجماعات الداخلة فى اطار المجتمع اصطلاح خصوصيات (٢) .

تمثل الخصوصيات جانبا كبيرا من ثقافات المجتمعات المتمدينة ، وهى فى الحقيقة عوامل مفرقة ، اذ عن طريقها تتميز كل جماعة بطابع خاص ،وعلى طرف النقيض ، نلاحظ أن العموميات البدائل تلعب دورا هاما فى تماسك المجتمع وترابطه ، وذلك لشمول تطبيقاتها ، وتتميز الثقافات البدائية بكثرة العموميات ولذلك لا يختلف سلوك أعضائها كثيرا من فرد الى آخر ، وكذلك تتميز القبائل البدائية بتماسكها وتضامن أعضائها ، ويمكن أن نصل الى صورة مشابهة اذا حللنا خصائص ثقافات القرى صغيرة الحجم ، أما المجتمعات المتمدينة كبيرة الحجم فتتميز بكثرة الجماعات الداخلة فيها ،وكثرة الخصوصيات بحيث يضعف التماسك والتضامن الاجتماعى ، وقد يحدث لسكان المنزل الواحد فى المدينة أن يعيشوا فى شقتين متقابلتين عدة

---

(١) Specialties.

(٢) HOEBEL, A. : The Nature of Culture in SHAPIRO, L. (ed) : Man, Culture and Society, Oxford University Press, New York 1960, pp. 172-173.

سنوات دون أن يعرف أحدهم أسم الآخر ودون أن يكون بينهما مودة أو صداقة ، وهكذا تضعف الرابطة الاجتماعية بين اعضاء تلك المجتمعات ، وترجع بعض اسباب تلك الحالة الى كثرة الخصوصيات .

٦ ـ الثقافة متنوعة المضمون :

تختلف الثقافات فى مضمونها بدرجة كبيرة فى معظم الأحيان ، وقد يصل هذا الاختلاف الى درجة التناقض فى بعض الأحيان ، بحيث نجد أن النظم التى يتبعها مجتمع ما ويعتقد انها الفضيلة بعينها تعتبر جريمة فى مجتمع آخر يعاقب عليها القانون ، ففى قبائل « موريا » بوسط الهند تباح العلاقات الجنسية قبل الزواج بحيث تختار الفتاة صديقها فى اثناء طقوس معينة منها الرقص ، وتبقى معه ثلاث ليال ثم تختار آخر وهكذا ، تعد تلك الحرية الجنسية جريمة فى معظم المجتمعات المتمدينة . واذا انتقلنا الى المجتمعات المتمدينة ذاتها نجد الكثير من الاختلاف فى مضمون النظم الاجتماعيةوالثقافية، فمثلا يستطيع العربى المسلم المقيم فى دولة عربية ان يتزوج امرأتين فىظروف معينة ، اما فى الولايات المتحدة الأمريكية فيعد ذلك جريمة تعرف باسم «جريمة تعدد الزوجات» ويعاقب عليها الفرد حتى اذا كان مسلما . وفى المجتمع العربى اذا لبس احد الأفراد جلبابا أو «بيجامة» فى الطريق لا يعتبر سلوكه شاذا ، أما فى المجتمع البريطانى فيعد ذلك السلوك شائنا ويلتف الناس حول من يرتدى الجلباب أو «البيجامة» وكأنه اضحوكة أو بهلوانا يثير السخرية . واذا حضر زائر الى أحد الأمريكيين وقت الغداء فانه لا يدعى لتناول الغداء حتى اذا كانت مائدة الطعام معدة وأفراد العائلة حولها يأكلون ، أما فى المجتمع العربى فيعد هذا التصرف شائنا لا يتفق مع تقاليد الكرم العربى . ونصل الى النتيجة ذاتها اذا حللنا التغير الثقافى الذى يحدث فى المجتمع الواحد على مر السنين ، فمثلا كان ملوك قدماء المصريين يتزوجون أخواتهم ، فى حين يعد هذا النظام جريمة نكراء فى المجتمع المصري الحديث .

قد يتساءل القارىء : لماذا يوجد مثل هذا التناقض والاختلاف فى الثقافات فى حين صانع تلك الثقافات هو الانسان المتشابه من الناحية البيولوجية ؟

اختلفت الاجابات عن هذا السؤال ، حاول بعض العلماء تفسير تنوع مضمون الثقافة على أساس السلالة التى ينتمى اليه أعضاء المجتمع الواحد، ففى رأيهم أن بعض السلالات أرقى من الأخرى وتمتلك بالفطرة قدرات ومعدل ذكاء مرتفع لا توجد فى السلالات الأخرى . أثبتت الدراسات النفسية والاجتماعية الحديثة خطأ تلك النظرية وتعصبها للسلالة البيضاء على حساب السلالات الأخرى ، وتبين الاحصاءات على أن زنوج أفريقيا والهنود الحمر

يحصلون على ارقى الشهادات ويتفوقون فى ادق المهن الفنية اذا اتيحت لهم فرص متكافئة . ولا توجد ثقافة واحدة متشابهة لكل سلالة ، بل ينقسم اعضاء السلالة الواحدة الى مئات المجتمعات ذات الثقافات المتباينة .

يرجع تباين مضمون الثقافات الى عدة عوامل منها ما يأتى :

(أ) للعقل البشرى قدرة خارقة على اختراع اعداد لا نهاية من الأفكار . ولا توجد حدود تقريبا على تخيلات الانسان وأفكاره التى يحولها بعد ذلك الى أعمال ، والانسان هو الحيوان الوحيد الذى منحه الخالق ميزة العقل والتفكير ، ومن هنا كان الحيوان الوحيد الذى صنع الثقافة ، وكانت ثقافته متنوعة بسبب العقل على اختراع أفكار مختلفة ومتنوعة فى حل المشكلة الواحدة .

(ب) تلعب الطاقة دورا كبيرا فى تحديد الصورة العامة للثقافة التى يمكن للانسان أن يصنعها ، فعندما اعتمد الانسان على الطاقة المخزونة فى جسمه فقط كانت ثقافاته بسيطة بدائية وخاصة فى قطاعها المادى ، وعندما اعتمد على الحيوانات الأخرى وعلى النبات كمورد جديد للطاقة — عن طريق الرعى والزراعة — فتحت أمامه مجالات جديدة لاستغلال هذه الطاقة الضخمة الجديدة التى لم يكن يعرفها عند اعتماده على طاقة جسمه المحدودة ، وكذلك الحال عندما اكتشف موارد اخرى جديدة للطاقة مثل الفحم والبخار والبترول وأخيرا الطاقة الذرية .

(ج) تلعب البيئة الجغرافية وتنوعها دورا كبيرا فى تنوع القطاع المادى للثقافات ، ولذلك نجد البيئة الجغرافية تقدم للانسان احتمالات عديدة يختار الانسان بينها ، ولكنه لا يستطيع أن يتجاوز الحدود التى تضعها البيئة الجغرافية ، فمثلا لا يمكن أن نتوقع أن تظهر الزراعة فى مناطق صحراوية قبل ظهورها على ضفاف الأنهار ، وكذلك لا يمكن أن تعتمد الصناعة فى بريطانيا على البترول قبل اعتمادها على الفحم المتوافر فى أرضها ، وهكذا كان لاختلاف البيئة الجغرافية دور كبير فى تنوع الثقافات ، ولكن القول بأنها السبب الوحيد لذلك التنوع ، اذ يميل العلماء اليوم الى رفض اسلوب تفسير اية ظاهرة بسبب واحد .

(د) حجم الجماعة الانسانية ، تطور هذا الحجم من المعشر الذى يتكون من عدة عائلات الى القرية وهى مجموعة من العشائر او عشيرة واحدة لا يتجاوز عدد أفرادها بضعة آلاف وخاصة فى العصور القديمة ، ثم نمت القرية بعد اكتشاف الزراعة واصبحت القرية الزراعية ذات الأعداد الضخمة ، ثم ظهر نظام المدن ، وفى المدن يعيش عدد ضخم جدا من السكان قد تصل الى عشرة ملايين نسمة ، يوجد ترابط موجب بين درجة النمو الثقافى وحجم الجماعة

الانسانية ، ولذلك تتصف ثقافة المعاشر بالبساطة الشديدة ، أما القرى فهى تمثل درجات متباينة من النمو الثقافى ولكنها فى جملتها أكثر نموا من ثقافة المعشر ، أما المدنيات وهى ثقافة المدن فتمثل ثورة فى النمو الثقافى اذ نقلت الثقافة من طور البدائية الى طور التمدين .

(هـ) مدى الإتصال والتعاون بين الجماعات الانسانية ، توجد علاقة بين معيشة الجماعات النسانية فى حالة انعزالية وتجمدثقافاتها فى المرحلة البدائية ، وبين اتصال وتعاون الجماعات الانسانية ونمو ثقافاتها وانتقالها الى مرحلة التمدين والتقدم .

(و) تلعب القيم التى يؤمن بها المجتمع الانسانى دورا كبيرا فى تنوع الثقافات ، وترجع بعض تلك القيم للاديان السماوية ، ولذلك نجد فرقا كبيرا بين مستوى ثقافة المجتمعات الوثنية وثقافات المجتمعات المنتمية للأديان السماوية ، ولا شك أن القيم الكبرى التى تنادى بها تلك الأديان — ومنها العمل والعلم والاخلاص والصدق والتعاون والكرامة وارتفاع مكانة المراة — تلعب دورا كبيرا فى النمو الثقافى وتنوع الثقافات .

هذه بعض الأسباب فقط اذ توجد أسباب أخرى غير مباشرة تلعب دورها فى تنوع الثقافات .

٧ — الثقافة متشابهة الشكل :

تبين الأمثلة السابقة أن الثقافات متنوعة ومختلفة فى مضمون وفحوى نظمها ، ولكن اذا نظرنا الى الاطار الخارجى أو الشكلى لتلك النظم نلاحظ تشابها واضحا فى جميع الثقافات مهما اختلفت فى سلم النمو والتقدم الثقافى ومهما اختلفت الأسس المستخدمة فى قياس تلك الثقافات وتصنيفها ، ففى كل ثقافة نجد القطاعات الثلاثة سابقة الذكر وهى القطاع المادى والقطاع الاجتماعى والقطاع الفكرى والرمزى ، وفى كل ثقافة نجد نظما ثقافية متشابهة ، وهنا لا نقارن بين مضمون تلك النظم من مركبات وعناصر ثقافية وانما نهتم بالاطار الخارجى ، فمثلا فى كل مجتمع يوجد نظام عائلى سواء كان ذلك نظام العائلة الصغيرة أم نظام العائلة الكبيرة أم نظام الأسرة المركبة . وكذلك الحال بالنسبة لنظام الملبس سواء كان من الفراء الذى يغطى كل أجزاء الجسم أم من أوراق الشجر التى تغطى عورة الانسان أم الحلة العسكرية المليئة بالأوسمة التى كان يلبسها الفارس فى أوربا فى العصور الوسطى . ويطلق البعض على تلك النظم المتشابهة فى جميع الثقافات اصطلاح الأنماط العالمية للثقافة . ولا توجد اختلافات واضحة بين الأنثروبولوجيين

فى تحديد تلك الانماط العالمية ، ففيما يتعلق بالعلامة « ويسلر » يحـددها كالآتى :

١ـ اللغـــة .
٢ ــ العناصر والمركبات المادية .
(أ) عادات الطعــام .
(ب) المأوى .
(ج) وسائل النقل والسفر .
(د) الملبـس .
(هـ) الأدوات والآلات .
(و) الأسـلحة
(ز) المهن والصناعات .
٣ ــ الفن : النحت والرسم والموسيقى وما الى ذلك .
٤ ــ الأساطير والمعارف العلمية .
٥ ــ التصرفات الدينية :
(أ) الأشكال الطقوسية .
(ب) طقوس المرض .
(ج) طقوس الموت .
٦ ــ الأسرة والنظم الاجتماعية :
(أ)اشكال الزواج .
(ب)نظم التسلسل القرابى .
(ج) الميراث .
(د) الضبط الاجتماعى .
(هـ) الألعاب .
٧ ــ الملكية :
(أ) الملكية العقارية وملكية الأشياء المنقولة .
(ب) مستويات قيمة الأشياء والتبادل .
(ج) التجارة .
٨ ــ الحكومـــة :
(أ) الأشكال السياسية .
(ب) الاجراءات القانونية والقضائية .
٩ ــ الحـــرب :

تعبر تلك الأنماط أو التصنيفات للعناصر والمركبات الثقافية عن الحـد

الأدنى الذى لابد من توافره فى كل ثقافة مهما انخفض مستواها الثقافى، وكذلك لابد أن توجد فى اكثر الثقافات تقدما ونموا ، ولكن فى حالة الثقافة المتمدينة نجد تشعب كل نمط من تلك الأنماط الى مئات التفرعات وذلك لأن مبدأ التخصص يطبق بدقة متناهية فى الثقافات المتقدمة .

٨ — الثقافة متغيرة ومتصلة :

تتغير ثقافات المجتمعات من وقت الى آخر ، ولكن تختلف درجة وأسلوب ومحوى التغير من ثقافة الى أخرى ، فقد يسير التغير ببطء شديد وذلك لعزلة المجتمع وصغره وجموده تقاليده ، ويتضح ذلك فى المجتمعات البدائية ، وهناك المجتمعات الصناعية التى تتغير بسرعة كبيرة وذلك لتوفر الحوافز للاختراع ولقوة التفاعل الاجتماعى ، وبالتالى يشتد الاحتكاك العقلى مما يساعد على ظهور افكار جديدة باستمرار ، ويصبح التغير الصفة الغالبة على الكثير من مضمون النظم الثقافية ، ويوجد نوع ثالث من الثقافات التى تتغير بمعدل معتدل ويتضح ذلك فى الثقافات الزراعية فى افريقيا وآسيا واوربا . والثقافة فى تغيرها لا تقفز فى حلقات منفصلة الأجزاء وانما يتم هذا التغير فى التراث الثقافى المتصل الأجزاء ، فالتراث الثقافى كل مترابط ومتصل على مر الزمان فى المجتمع الواحد وينقل من جيل الى جيل عن طريق التعلم المقصود وغير المقصود ، ويتراكم التراث بمرور الزمن ، ويحافظ كل جيل على التراث الثقافى المورث من الآباء ، فلا يحطمون المنازل ويهدمون المدن ويحرقون الكتب ويخربون الحقول والمصانع ، واذا حدث مثل ذلك لا يكون من فعل اعضاء المجتمع وانما أثناء حروب الأعداء من خارج المجتمع أو داخله ، ويشعر المواطن بالم شديد لما تحدثه تلك الحروب من تخريب للتراث الثقافى الذى بناه الآباء والأجداد بدمائهم وعرقهم .

وعادة تستمر الثقافات لمئات بل لآلاف السنين ، وتتغير عبر تلك السنوات ، وكذلك تتغير الأجيال التى تصنعها والتى تحملها ، ولا يفهم من ذلك أن الثقافة الواحدة خالدة ولا تموت ، قد تموت الثقافة اذا انقرض المجتمع الذى يحملها سواء عن طريق الفناء أو عن طريق الغزو بأن يغزوه مجتمع آخر ذو ثقافة جديدة ويفرض الثقافة الجديدة بالقوة ، وتموت الثقافة الواحدة كذلك عن طريق اندماج المجتمع فى مجتمع اكبر وظهور ثقافة جديدة نتيجة لانصهار الثقافات القديمة . وتختفى الثقافة عندما تتغير الى ثقافة مختلفة تماما ، فمثلا اختلفت فى مصر الثقافة المصرية القديمة وان كانت آثارها باقية ، وكذلك اختفت الثقافة المصرية الرومانية والقبطية ، ونعيش الآن فى عصر الثقافة العربية ، فبالرغم من استمرار المجتمع فى المكان نفسه فان الثقافات تتوالى فى المجتمع الواحد على مر السنين . ومن الثقافات التى اختفت بالقوة ثقافات الهنود الحمر فى الأمريكتين وثقافات السكان الأصليين

لاستراليا فقد جاء الغزاة والمستعمرون الأوربيون بثقافة متقدمة هى المدنية الغربية وفرضوها بالقوة على تلك الأماكن وقضوا بالقوة ايضا على المجتمعات الأصلية فى تلك الأماكن وبالتالى اختفت ثقافاتهم الأصلية .

مستويات الثقافة :

جاء جنس الانسان العاقل وهو الجنس الذى ينتمى اليه جميع البشر الحاليين الى العالم منذ حوالى ٤٥ الف سنة ، وبدأ يصنع ثقافته البسيطة رويدا رويدا على مر السنين ، وكان همه اول التكيف مع البيئة عن طريق توفير حاجاته الأساسية من مأكل ومشرب ومسكن وملبس ، وعاش فترة وهو يعتمد فى قوته على جمع والتقاط الطعام ، ثم عرف الصيد وعاش آلاف السنين معتمدا فى حياته على الصيد وجمع الثمار الى ان اكتشف الرعى والزراعة منذ ثمانية آلاف سنة فقط ، بمعنى ان اجدادنا المباشرين عاشوا ما يقرب من ٣٧ الف سنة بدون زراعة وبدون رعى ، وكانوا يعيشون فى كفاح مرير مع الطبيعة لتوفير قوتهم وصنع أسلحتهم وبناء مسكن يأويهم ويقيم البرد والحرارة الشديدة او العواصف والأمطار . تغير الحال بعد اكتشاف الزراعة بالذات اذ توافرت له الامكانيات لبناء المدن وهنا ظهر مستوى ثقافى جديد يعرف باسم المدنية ، والمدنية هى ثقافة المدن أو الحضر ، ولكى يتضح لنا الفرق الشاسع بين مستوى الثقافات المتمدينة وما سبقتها من ثقافات بدائية اقدم تلك الفروق فيما يلى :

اولا : الثقافات البدائية (١)	ثانيا : الثقافات المتمدينة
١ ــ الاعتماد فى المعيشة على جمع الطعام والصيد .	١ ــ الاعتماد فى المعيشة على الرعى والزراعة واحيانا الصناعة كذلك .
٢ ــ التكتل فى معاشر وقرى وعشائر	٢ ــ التكتل فى قرى زراعية ومدن .
٣ ــ صغر حجم الجماعات الانسانية	٣ ــ ضخامة حجم الجماعات الانسانية .
٤ ــ عدم معرفة القراءة والكتابة .	٤ ــ معرفة القراءة والكتابة .
٥ ــ يتكون المجتمع من أفراد متشابهين فى الخبرات .	٥ ــ يتكون المجتمع البدائى من افراد مختلفين فى الخبرات .
٦ ــ توافر شعور قوى بالتماسك الاجتماعى لصغر حجم المجتمع .	٦ ــ ضعف التماسك الاجتماعى لكبر حجم المجتمع .

(١) د. على اسلام الفار : الأنثروبولوجية الاجتماعية ــ الجزء الأول : دراسة المجتمعات البدائية ، الشركة القومية للتوزيع ــ القاهرة ١٩٦٨ .

٧ — العزلة عن بقية المجتمعات .	٧ — الاتصال بالمجتمعات الأخرى .
٨ — ضآلة المعرفة العلمية والخبرة الفنية المعتمدة عليها .	٨ — الاعتماد على المعرفة العلمية واعتماد الخبرة الفنية عليها .
٩ — نظام القرابة أساس التنظيم الاجتماعى .	٩ — التخصص فى الوظائف والأدوار أساس التنظيم الاجتماعى .
١٠ — تقسيم العمل على أساس النوع والعمر .	١٠ — تقسيم العمل على أساس الخبرة والتخصص .
١١ — قوة عادة الاخذ بالثأر .	١١ — ضعف أو اختفاء عادة الأخذ بالثأر .
١٢ — ضعف الحافز الاقتصادى أمام التقاليد والمعتقدات الدينية .	١٢ — قوة الحافز الاقتصادى فى تصرفات الناس .
١٣ — الاكتفاء الذاتى فى المجتمع البدائى الواحد .	١٣ — قوة الاتصال والتبادل بين المجتمعات بحيث يصعب تحقيق الاكتفاء الذاتى لاحداها .
١٤ — عمليات الضبط الاجتماعى غير رسمية واساسها العرف والتقاليد .	١٤ — اعتماد الضبط الاجتماعى على القوانين الرسمية المقننة فى مواد .
١٥ — بساطة النظام السياسى .	١٥ — تعقد النظام السياسى .
١٦ — النظام الأخلاقى والقرابى هو الأساس الذى يقوم عليه الترابط الاجتماعى فى المجتمع البدائى .	١٦ — النظام الاقتصادى والشعور القومى هو أساس ترابط المجتمع .
١٧ — الاعتقاد فى القوى الغيبية المقدسة .	١٧ — سيطرة الاتجاه المادى وما هو محسوس .
١٨ — بساطة تامة فى القطاع المادى للثقافة ولكن قد يوجد تعقيد فى القطاعات الأخرى .	١٨ — تعقد القطاع المادى ويتمثل ذلك فى كثرة الآلات والاختراعات .
١٩ — يقوم مركز الفرد على أساس العائلة أو القبيلة التى ينتمى اليها .	١٩ — يقوم مركز الفرد على أساس خبرة ومستوى تعليمه وممتلكاته الشخصية .

يعترض بعض الأنثروبولوجيين على استخدام اصلاح « بدائى » لأن الكثير من المجتمعات التى يطلق عليها هذا الاصطلاح لا تمثل الحالة الأولى للمجتمع الانسانى التى لا نعرف منها الا القليل كما تدل الآثار المكتشفة حتى

الآن ولذلك يفضلون استخدام اصطلاح « شبه بدائى » ، وبـرغم دقـة الاصطلاح الأخير فان الميل الى الاختصار جعل الاصطلاح الأول هو الأكثر انتشارا ، ويستخدم العلامة « ريدفيلد » اصطلاح « المجتمع الشعبى » للدلالة على المجتمع البدائى .

وهكذا يمكن تمييز مستويين أساسيين للثقافـة ، المستوى البدائى البسيط والمستوى المتمدين المعقد ، واليوم يعيش معظم الجنس البشرى فى المستوى الثقافى المتمدين ، ولا يزل يوجد عدد قليل من البشر يعيشـون فى مستوى ثقافى بدائى فى افريقيا وآسيا واستراليا ، ولا شـك انه توجـد اختلافات فرعية فى كل مستوى ، فمثلا توجد مجتمعات متقدمة واخرى نامية وثالثة متخلفة فى المستوى المتمدين .

الفصل الرابع

الشخصيـــة

- تمهيد
- تعريف الشخصية
- العوامل المحددة للشخصية
- سمات الشخصية وقياسها
- نظريات الشخصية

الفصل الرابع

الشخصيـــة

تمهيد :

وصف الكاتب المصرى ابو الوفاء مبشر بن فاتك القائد شخصية أرسطو فيما يلى :

« كان أرسطوطاليس ابيض أجلح قليلا ، حسن القامة ، عظيم العظام ، صغير العينين ، كث اللحية ، اشهل العينين ، اقنى الأنف ، صغير الفم ، عريض الصدر ، يسرع فى مشيته اذا خلا ويبطىء اذا كان معه اصحابه ، ناظرا فى الكتب دائما لا يهدأ ويقف عند كل كلمة ، ويطيل الاطراق عند السؤال ، قليل الجواب . ينتقل فى أوقات النهار فى الفيافى ونحو الأنهار ، محبا لاستماع الالحان والاجتماع بأهل الرياضيات واصحاب الجدل ، منصفا من نفسه اذا خصم ، معترفا بموضع الاصابة والخطأ معتدلا فى الملابس والمآكل والمشارب والمناكح والحركات ، بيده آلة النجوم والساعات . مات وله ثمان وستون سنة »(١) .

يمثل هذا الكلام الذى كتب منذ حوالى الف عام وصفا لشخصية أرسطو كما تبدو للملاحظة الخارجية . ويجمع هذا الوصف بين السمات الجسميـــة والعقلية والخلقية والاجتماعية كما يراها الملاحظ الخارجى . ولكن يمكن ايضا للشخص أن يصف شخصيته بنفسه أى أن يحدد صورة الشخصية كما تبدو فى مرآة الذات ، فمثلا عندما يتحدث شخص عن نفسه بأنه كريم شجاع لماح قوى البنية ، فانه يستخدم الاستبطان لتحديد شخصيته .

ويجب ملاحظة ان التمييز بين الصورتين السابقتين للشخصية، الصورة الذاتية والصورة الموضوعية ، هو تمييز تحليلى وليس واقعيا ، بمعنى ان الصورتين ليستا منفصلتين فى الواقع بل هما متضامنتان ومتكاملتان فيمـــا نسميه الشخصية بوجه عام ، اذ أن الشعور بالانية يتأثر بما يعتقده الغير فينا ، كما أن صفات الشخصية الموضوعية قد تتغير وتتحور بفعل الشعور الذاتى وتحت تأثير الشخصية المثالية التى نتصورها .

---

(١) د. يوسف مراد : مبادىء علم النفس العام ـ دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٥٤ ـ ص ٣٤٤ .

قد يقنع القارىء بهذه المقدمة التمهيدية عن الشخصية ويستنتج منهـا اننا امام مفهوم واضح المعالم ، فكل منا له شخصيته ، بعض جوانبها يعرفها عن طريق الاستبطان والبعض الآخر عن طريق الاخرين الذين يتعاملون معه، ويطلعونه من وقت الى آخر وفى مناسبات عدة عن صفاته كما يرونها . ولكن هل حقا موضوع الشخصية بهذه البساطة والوضوح ؟

لكى نستطيع الاجابة عن ذلك السؤال نستطلع أولا تعاريف العلماء حول مفهوم الشخصية .

اولا — تعريف الشخصية :

الشخصية من أكثر الظواهر النفسية تعقيدا ولذلك تعددت وتناقضت النظريات التى تحاول تفسيرها ، وبالتالى تعددت وتناقضت التعاريف حولها، ومما لا شك فيه أنه من المستحيل ان نعرف الشخصية دون الوصول الى اتفاق حول الاطار المرجعى النظرى الذى سينظر الى الشخصية من خلاله ، وهكذا فان تنوع وتعدد تعاريف الشخصية يرجع الى تنوع وتعدد نظرياتها .

ولا يقتصر الخلاف حول تعريف الشخصية على اطار المعرفة العلمية التخصصية وانما يتجاوزه الى المعانى الدراجة للشخصية .

ويمكن وضع معظم المعانى الدارجة للشخصية فى فئتين ، ترى الفئة الأولى أن الشخصية تعنى المهارة الاجتماعية والحذق ، فشخصية الفردتقدر بما له من فاعلية تمكنه من استثارة استجابات ايجابية من جانب عديد من الناس فى ظروف مختلفة .

أما الفئة الثانية فتعتبر ان شخصية الفرد تتمثل فى اقوى الانطباعات التى يخلفها فى الآخرين وابرزها ، وبذلك يمكن القول ان الشخص له « شخصية عدوانية » أو « شخصية مستكينة » أو « شخصية طيبة » . وهنـا يختار الملاحظ صفة او خاصية مميزة اشد التمييز للمفحوص ويفترض انهاجزء هام من الانطباع يخلفه فى الآخرين ، وتتحدد شخصيته بهذه الصفة او الخاصية .

وواضح أن الفئتين تتضمنان عنصرا تقويميا ، فالشخصيات توصف عادة اما انها سيئة او طيبة .

وفيما يتعلق بالتعاريف العلمية للشخصية ، فهى اكثر تنوعا وتعددا ، فقد استخلص العلامة « البورت »(١) فى مسح شامل للدراسات المتعلقـة

---

(١) Allport, G., Personality : A Psychological Interpretation, Holt, N.Y., 1937, P. 12.

بالشخصية قرابة خمسين تعريفا مختلفا صنفها الى عدد من الفئات الواسعة، واستخدم فى ذلك عدة أسس للتقسيم ، هذه الأسس هى : الايتمولوجيا أو أصل المصطلح والمعانى الفلسفية والمعانى الفقهية والمعانى الاجتماعيةوالمظهر الخارجى والمعانى النفسية .

ويرجع اختلاف وتعدد تعاريف الشخصية الى عدة عوامل ، منها ، كما ذكر سابقا ، تنوع وتعدد نظريات الشخصية وذلك لحداثة علم الشخصية ، ومن تلك العوامل تعقيد مفهوم الشخصية ، فالشخصيةتشمل جميع الصفات الجسمانية والعقلية والخلقية فى حالة تفاعلها مع بعضها من ناحية ، وتفاعلها مع البيئة الطبيعية والاجتماعيةمن ناحيةثانيةوتفاعلها مع المواقف اللانهائية العدد التى يختبرها الفرد منذ الولادة حتى المات من ناحية ثالثة ، ويختلف العلماء فى تأكيد أحد تلك العوامل على حساب العوامل الأخرى ، ومن الأسباب الأخرى لتعدد وتنوع تعاريف الشخصية أهمية موضوع الشخصية لكثير من التخصصات العلمية ، اذ يتفق علماء النفس وعلماء الوراثة وعلماء الحياة وعلماء الاجتماع والأنثروبولوجيون على أهميـــة موضـــوع الشخصيـــة فى دراساتهم ، فالأفراد هم المكونات الأساسية فى كل الأنســـاق الاجتماعيـــة والثقافية ، ومما لا شك فيه أن يتحيز كل فريق لمجال تخصصه عند تعريف الشخصية .

ويجدر بنا هنا أن نقدم أهم تعريفات الشخصية لكى نعطى فكرة واضحة عن الاتجاهات الفكرية المختلفة حول هذا الموضوع .

تعريف عالم النفس « برينس » :

« الشخصية هى المجموع الاجمالى لكل الأمزجة والدوافـــع والميول والشهوات والغرائز الفطرية والبيولوجية وكذلك الميول والاتجاهات المكتسبة من طريق التجربة »(١) .

تعريف عالم النفس « واطسن » :

« الشخصية هى مجموع الانشطة التى يمكن اكتشافها عن طريـــق الملاحظة الواقعية لفترة طويلة تسمح بتوفير مادة يمكن الاعتماد عليها »(٢) .

تعريف عالم النفس « أدرنو » وزمـــلائه مؤلفى كتاب « الشخصيـــة المسيطرة » الشهير :

---

(١) Prince, M. : The Unconcious, Macmillan Co., N.Y. 1929, P. 532.

(٢) Watson, J. : Behaviorism, W.W. Norton, N.Y. 1930.

« الشخصية هى تنظيم ثابت ـ بدرجات متفاوتة ـ للقوى الموجودة فى الفرد ، وتساعد تلك القوى الثابتة على تحديد استجابة الفرد فى المواقف المختلفة » (١) .

تعريف عالم النفس « يوسف مراد » :

« الشخصية هى الصورة المنظمة المتكاملة لسلوك فرد ما يشعر بتميزه عن الغير ، وليست هى مجرد مجموعة من الصفات ، وانما تشمل فى الآن نفسه ما يجمعها وهو الذات الشاعرة ، وكل صفة مهما كانت ثانوية تعبر الى حد ما عن الشخصية باكملها » .

تعريف عالمى الاجتماع « أوجبورن ونيمكوف » :

« تعنى الشخصية التكامل النفسى والاجتماعى للسلوك عند الانسان ، وتعبر عادات الفعل والشعور والاتجاهات والآراء عن هذا التكامل » (٢) .

تعريف الأنثروبولوجى « لينتون » :

« الشخصية هى الجمع المنظم للعمليات والحالات النفسية الخاصة بالفرد » (٣) .

تعريف العالمين « كلاكهوهن وموراى » :

« الشخصية هى استمرار الأشكال والقوى الوظيفية التى تظهر من خلال تتابع العمليات وصور السلوك الظاهرى المنظمة والسائدة منذ الولادة حتى الموت » (٤) .

تعريف الأنثروبولوجى النفسى « بارنو » :

« الشخصية هى تنظيم ثابت لدرجة ما للقوى الداخلية للفرد ، وترتبط تلك القوى بكل مركب من الاتجاهات والقيم والنماذج الثابتة بعض الشىء

---

(١) Aderno, T., Frankel - Brumswick, E., Levinson, D. and Sanford, R. : The Authoritarian, Personality, Harper, N.Y. 1950, P. 5.

(٢) Ogburn, W. and Nimkoff, M., A Handbook of Sociology, London, 1960, P. 191.

(٣) Linton, R., The Cultural Background of Personality, Appleton Century Crofts INC. N.Y. 1945, P. 84.

(٤) Kluckhohn, C. and Murray, H., Outline of A Conception of Personality, in : Personality in Nature, Society and Culture, Alfred. A. Knopf, N.Y. 1959, P. 49.

و لخاصة بالادراك الحسى ، والتى تفسر — لدرجة ما — ثبات السلوك للفرد » (١) .

ترجع معظم الاختلافات فى التعاريف السابقة الى تحيز كل فريق من العلماء الى نظريات فى مجالات تخصصاتهم سواء العريضة او الدقيقة . فبعض علماء النفس يهتمون بالجوانب الفردية فى الشخصية ، اى بما يميز شخصية فرد ما عن باقى الشخصيات ، ويهتم البعض الآخر منهم بالجوانب البيولوجية والوراثية فى الشخصية ، وهى الجوانب العامة فى كل شخصيات البشر ، ويمكن التعميم بشكل من التحفظ فنقول ان علماء النفس فى تعاريفهم للشخصية يهتمون بابراز اهمية لاستعدادات الفردية والجوانب البيولوجية والوراثية فى الشخصية ، ويتخصص بعضهم — علماء التحليل النفسى والأطباء النفسيين فى دراسة الشخصيات غير السوية . اما علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا فيهتمون بدراسة الشخصيات السوية فى المجتمع ، وهم وان كانوا يعترفون بأن كل انسان لديه تكوينه الموروث أو جهازه البيولوجى الا أن اهتمامهم يتركز حول التشابه بين شخصيات أعضاء الجماعة الواحدة سواء كانت جماعة كبيرة أم صغيرة ، ولذلك يهتمون بالأسلوب العام للافعال التى تصدر عن الشخصية ، ومن خلال ذلك الأسلوب العام يتصرف الشخص نحو الآخرين ونحو العالم ، ان الشخصية عندهم هى ذلك التنظيم الذى يجمع اتجاهات الفرد وافكاره وعاداته ورغباته وكذلك قيمه وتصوره لنفسه وخطته العامة فى الحياة .

يتفق علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا كذلك على أن الشخصية تتكون وتنمو من خلال تفاعل الفرد مع الآخرين ، وبدون ذلك التفاعل وقبله لا يكون للفرد شخصية .

ومن هنا كان تركيزهم فى دراسة الشخصية على الاتجاهات العامة اى التشابه فى تصرفات شخصيات الجماعة الواحدة ، فالاتجاه هو الوحدة الرئيسية فى التنظيم اى فى الشخصية ، ويقصد بالاتجاه — عندهم — ميل مكتسب يجعل الفرد يتصرف بصورة معينة نحو شخص معين او شىء او معرفة .

ولا يقتصر مفهوم الاتجاه على الافعال وانما يشمل أيضا الميول فى الشعور والتفكير نحو شىء معين . ان اهتمام علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا بتشابه شخصيات اعضاء الجماعة جعلهم يؤكدون اهمية التنظيم فى الشخصية ،

---

(١) Barnouw, v. Culture and Personality. The Dorsey Press, INC., Homewood., Illinois, 1963, P. 8.

فالشخصية هى تنظيم يجمع إتجاهات الفرد ، ويتكون هذا التنظيم من خلال تفاعل الفرد مع غيره فى الحياة الاجتماعية ، فنحن نعتمد على الآخرين كحوافز للسلوك وكمعلمين للسلوك .

وبرغم ما تتيحه التعريفات السابقة من اعطاء فكرة تمهيدية عـــن الموضوع قيد الدراسة ، الا انه من الصعب وصف ظـاهرة معقــدة مثل الشخصية فى كلمات قليلة اى عن طريق التعاريف وخاصة عندما تختلف عن بعضها البعض بصور واضحة ، لذلك فان توخى الدقة تحتم دراسة الشخصية كحقيقة تعاونت العلوم النفسية والاجتماعية فى الكشف عنها ، ولذلك ندرس العوامل والمحددة للشخصية وسمات الشخصية ونظريات الشخصية .

ثانيا — العوامل المحددة للشخصية :

تتفاعل عوامل كثيرة فى تكوين وتحديد الشخصية ، ويمكن تصنيف تلك العوامل فى عدة مجموعات متداخلة ومتفاعلة فيما بينها فى الواقع ، والتمييز بين تلك المجموعات من قبيل التوضيح والتحليل ولا يقوم على أساس تقرير الواقع . هذه المجموعات هى المحددات الجبلية ومحددات عضوية الجماعة ومحددات الدور ومحددات أساليب النظر الى الحياة والمحددات الموقفيـــة ومحددات مرحلة الطفولة .

١ — المحددات الجبلية(١) :

يقصد بها الخصائص الجسمية التكوينية التيولوجية لفرد ما ، وهذه الخصائص من نتاج التفاعل بين التأثيرات التابعـــة من الجينات (عوامـــل الوراثة) والتأثيرات النابعة من البيئة . ولذلك يفضل اصطلاح « جبلة » على « وراثة » لأن السمات الجسمية والبيولوجية فى فرد ما فى زمن محدد ليست سمات موروثة ، اذا استخدمنا المعنى الضيق لاصطلاح وراثة ، وانما تلك السمات هى نتاج سلسلة طويلة من التفاعلات المعقدة بين الامكانيات الموروثة بيرلوجيا وظروف البيئة . ان الفصل القاطع بين الوراثة والبيئة لم يعد أمرا مقبولا علميا فى الوقت الحاضر ، وذلك لأنه من النادر الفصل بين العوامـــل الوراثية والعوامل البيئية فى تكوين الشخصية ، لأن المجموعتين تعملان معا ومن تفاعلهما تظهر السمات الجسمية والبيولوجية للشخصية . فالوراثة تقدم امكانيات متعددة ولا تتحول تلك الامكانيات الى سمات واقعية الا اذا توافرت بيئة طبيعية وثقافية معينة . وفى حـــالات نادرة ترجـــع سمات معينــــة فى

---

(١) Constitutional Determinants.

الشخصية الى الوراثة فقط مثل الحال فى أمراض معينة لا يمكن الافـــلات منها .

توفر الوراثة البيولوجية المادة التى منها تتكون الشخصية ، وتحـــدد كذلك اتجاهات نمو الجسم ، مثل شكل الجسم فى زمن محدد ، وتضع العو مل الوراثية حدودا فى اطارها يتذبذب التنوع . وتوجد بعض الأدلة التى تشجع على الاستنتاج بأن العوامل المورثة (التركيبات الجينية) تنقل من الآباء للابناء سمات أخرى غير الصفات الجسمية الخارجية ، ومن أمثلة ذلك ما يأتى :

امكانيات التعلم المتنوعة ــ الفترة الزمنية التى يحدث فيها رد الفعل ــ الحركة الذاتية ــ التعبير الانفعالى ــ مستوى الطاقة ــ درجة التسامح ــ الاستعداد للاحباط ــ معدلات النمو ــ خصائص مرتبطة بالدورة الشهرية ــ معدل النشاط ــ الاستعداد للاكتئاب ــ الشعور بالنشاط الزائد . هذا بالاضافة الى الأمراض الموروثة مع ملاحظة امكانية حـــدوث تنوعـــات فى خصائص تلك الأمراض (١) .

ومن المحددات الجبلية الهامة فى تكوين الشخصية عامل النوع وعامل العمر ، فلا شك أن هناك تنوعا بين شخصية المرأة وشخصية الرجل فى كل المجتمعات ، وان كانت بعض تلك الاختلافات ليست مطلقة أو ثابتة وانمـــا تخضع للمحددات الثقافية ، وكذلك تختلف شخصية الفرد فى مراحل العمر (الطفولة ــ الشباب ــ والشيخوخة) فى كل المجتمعات وان اختلفت السمات باختلاف المكان والزمان .

ومن الواضح أن التكوين الجسمى عند الفرد يؤثر على شخصيته وذلك لأن هذا التكوين يؤثر على علاقاته الاجتماعية وسلوكه ، ومن أمثلة ذلك طول القامة أو قصرها والقوة أو الضعف ، ولون البشرة فى بعض المجتمعات ؛ ومدى توافر صفة الجمال عند المرأة وصفة الوسامة عند الرجل ، وتخضع تلك الخصائص الجسمية لمدى تلاؤمها مع الأنماط الثقافية .

ومن خلال ذلك التلاؤم أو عدمه تؤثر الخصائص الجسمية فى حاجات الانسان وتوقعاته . ان نوع العالم الذى يجده الانسان حوله يتحدد الى درجة كبيرة عن طريق ردود فعل الآخرين لمظهره الخارجى ولقدراته الجسمية . فمن النادر مثلا أن نرى شابا ضعيف البنية يحاول تحقيق انتصارات رياضية كنوع

---

(١) Kluckhohn, C. Murray, H., Personality Formation : The Detre-minants, in : Personality in Nature, Society and Culture, N.Y. 1959, PP. 55 - 57.

من التعويض ، ان الصورة العادية هى ان يتقبل ذلك الفرد — ولو على مضض — حقيقة ضعفه الجسمانى ويبتعد عن الاشتراك فى المباريات والنشاطات التى تتطلب قوة جسدية .

وقد اشار العلامة « وليمس » للتنوع الكبير فى وظائف اعضاء الجسم والنظم فمثلا بالرغم من ان عدد الغدد الجندرقية هو اربع غدد فى الانسان ، فان عددها قد يتراوح من ٢ الى ١٢ غدة فى الفرد الواحد(١) .

وقد بين العلامة « كينسى » وزملاؤه التنوع الكبير فى قوة الدافع الجنسى عند الذكور .

وهناك من العلماء من تحيز للعوامل البيولوجية والوراثية واعتقد أنها المحددات الوحيدة للشخصية . فمثلا يرى العلامة « بيرمان » ان الاختلاف فى وظائف الغدد الصماء هو الطريق الموصل لفهم الاختلافات بين الشخصيات ، وحدد انماط الشخصيات ووضع لها اسماء ترجع لزيادة او قلة افرازات الغدد الصماء ، فهناك نمط الشخصية فوق الكلية والشخصية النخامية والشخصية الدرقية وغيرها من اسماء الغدد الصماء(٢) .

ويرتبط بالمحددات البيولوجية العوامل البيوكيميائية ، فانه من الملاحظ ان بعض الأفراد لديهم استعداد للتأثير بصورة اقوى من غيرهم من نقص الفيتامينات مثلا ، وقد لوحظ ان نقص الحامض النيوكتينى قد يؤدى الى أمراض ذهانية ، وتختفى تلك الأمراض عندما يعالج ذلك النقص . وكذلك يترتب على نقص فيتامين ب١ ظهور امراض عصابية وذهانية ، وتجرى ابحاث لتحديد العوامل البيوكيميائية التى تسبب مرض الفصام . ولا يمكن اغفال اثر المخدرات والمشروبات الروحية وعقاقير الهلوسة على الشخصية ، وكذلك لايمكن التغاضى عن نجاح العقاقير المهدئة فى علاج الأمراض العصابية والذهانية . ويمكن الاشارة كذلك الى التغييرات التى تحدثها بعض الأدوية فى الشخص السوى وما يترتب على ذلك من تعرض الشخص بصورة مؤقتة لأمراض ذهانية مثل الفصام . وفى حالة الفصام يفقد الشخص الاستجابات العاطفية نحو الآخرين وتظهر اعراض الهزاءات والهلاوس .

هذا بالأضافة الى ما أظهرته الرسوم الكهربائية للمخ من وجود علاقة بين

---

(١) Williams, R., Biochemical Indivdually, The Basis For The Gerontotrophic Concept, John Wiley Sons, Inc. N.Y. 1956, P. 84.

(٢) Berman, L., The Glands Regulating Personality, Macmillan Co. N.Y. 1928.

فروق معينة فى الشخصية وفروق ناشئة عن النشاط الكهربائى الذى يحدث فى المخ .

ولاعطاء صورة لأثر العوامل الوراثية على تكوين الشخصيات غير السوية نشير الى الدراسة الأمريكية الخاصة ببحث حالة ٦٩١ من الاقارب الفصاميين ممن كان لهم اخوة واخوات توائم ، فقد تبين ان النسب المئوية لحالات الفصام كانت كما يأتى :

بين الاخوة والاخوات من احد الوالدين١ر٨٪ وبين من تربط بينهم صلة زواج ١ر٢ ٪ وبين الأخوة غير الأشقاء ٧ ٪ وبين الأبوين ٩ر٢ ٪ ، وبين الاشقاء ٣ر١٤ ٪ وبين التوائم غير المتطابقة (من بويضتين مختلفتين) ٧ر١٤٪ وبين التوائم المتماثلة (من بويضة واحدة منشطرة) ٨ر١٥٪ .

ويدل وجود الفصام بين التوائم المتماثلة بنسبة اكبر مما هى عليه بين التوائم غير المتماثلة (خمسة اضعاف تقريبا) على قوة اثر العامل الوراثى فى الاصابة بمرض الفصام(١) .

ويجب اعادة التاكيد بأن تاثير الوراثة فى الشخصية مرتبط بتفاعل العوامل الوراثية مع العوامل البيئية بصورة معينة ، ويجب ملاحظة ان الذى يورث ليس السلوك نفسه ، وانما الذى يورث هو بعض خصائص فى الجهاز المركزى او الثانوى ، فالانسان يرث استعدادات للتصرف بشكل معين ، فاذا ما توافرت البيئة وعوامل استثارة الاستعدادات كانت الاستجابة أو السلوك على نحو معين .

يشمل تاريخ مدارس علم النفس بعض النظريات التى تضفى على العوامل البيولوجية والوراثية ثقلا فيه لتحديد الشخصية ، وكأن هذه العوامل تعمل وحدها او تعمل فى فراغ . ويسمى فرع المعرفة الخاص بدراسة الصلة بين الصفات الجسمانية والسمات النفسية والاجتماعية باسم علم الفراسة(٢) عند العرب ، وقد كتب فيه ابقراط وجالينوس وافليمون اللاذقى ، كما انه نسب الى ارسطو كتاب خاص فى علم الفراسة ، وقد اهتم العرب بهذا العلم وصبغوه بصبغة عربية خاصة فضلا عما اقتبسوه من أقوال الفرس وسائر الشعوب الشرقية . ومن اهم كتب الفراسة العربية كتاب الفراسة للأمام فخر الدين الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ وكتاب السياسة فى علم الفراسة لمحمد بن ابى طالب الدمشقى المتوفى سنة ٧٢٧ هـ (٣) .

---

(١) د. عثمان فراج : الشخصية والصحة العقلية ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٥٤ .

(٢) Physiognomy.

(٣) د. يوسف مراد : مبادىء علم النفس العام ص ٢٥٦ .

ومن اشهر التصانيف لنماذج الشخصية التصنيف الرباعي الىصفراوي ودموى وسوداوى وليمفاوى الذى ظل قائما منــذ القدم حتى القـــرن التاسع عشر .

واستمر هذا الاتجاه حتى القرن العشرين حيث نجد الطبيبينالنفسيين «شيلدون» (١) و «كريتشمر» (٢) وقد وضعا تصنيفات للشخصية على اساس الصفات الجسيمة والتكوينية سواء بالنسبة للمرضى او للاسوياء .

فقد درس «كريتشمر» المقاسات الجسمية لـ ٢٦٠ مريضا ذهانيا (عقليا) مصابين بالفصام وذهان الهوس والاكتئاب ، وتتمثل اعراض الفصامفى فقدان المريض للاستجابات العاطفية نحو الآخرينويصاحبذلك الهزاءات والهلاوس، فى حين انه فى حالة ذهان الهوس والاكتئاب يتراوح المزاج بين حالات هوس ومرح عنيفة وحالات لامبالاة ونعاس اكتئابى . وتوصل « كريتشمر» فـــى دراساتهالى وجود ترابط بين مرض الفصام والتكوين الجسمى الذى يميل للطول مع الهزال واحيانا الجسم الرياضى ، فى حين انه يوجد ترابطبينمرض ذهان الهوس والاكتئاب والتكوين الجسمى المكتنز .

وفيما يتعلق بالأشخاص الاسوياء لاحظ أن الافراد النحاف الضعفاء تنتشر فيهم سمات الحساسية والبرد والكبت ، فى حين أنه لاحظ أن الافراد المكتنزين لهم أمزجة متغيرة (شخصيات دورية) ولكنهم اجتماعيونوواقعيون بصــــورة أكثر مما لاحظه فى شخصيات اصحاب الأجسام النحيفــــــة والضعيفة (٣) .

وقد أجرى الطبيب النفسى «شيلدون» دراسات حول قياس وفحص اجسام جماعات من طلبة جامعة هارفارد وجماعات اخرى فى أمريكا ، وانتهى الى تأييد الاتجاه العام فى تفكير « كريتشمر » ، ولكنه توصل الىطرق اخرى للقياس والتصنيف ووضع اصطلاحات جديدة وكان يستخدم اصطلاح «مزاج» للدلالة على الشخصية . وفيما يتعلق بالأنماط التى وضعها شيلدونللشخصية وارتباطها بالسمات التكوينية ، نجد انه توصل الى أن الافراد النحافيميلون الى الانطواء ويصابون بمتاعب جلدية وبالارهاق والأرق ، اما اصحابالأجسام الرياضية فانهم يميلون الى النشاط والمرح والمغامرة والتنزهفى الهــــواء

---

(١) Sheldon, W.

(٢) Kretschmer, E.

(٣) Kretschmer, E., Physique and Character, Harcourt, Brace and Co. N.Y. 1925, PP. 254 - 262.

الطلق ، ويمل اصحاب الأجسام البدنية الى الانبساط وحب الطعام والرفاهية وصحبة الآخرين (١) .

ولا تقتصر النظريات البيولوجية على التركيز على صفات الجسم ، وانما نادى بعضها بوجود ترابط بين مراحل النمو البيولوجي للطفل وسمات الشخصية، فقد استخدم عالم النفس «جيزل»(٢) آلات تصوير دقيقة وأجهزة فنية أخرى لتصوير ودراسة مراحل النمو عند الطفل من لحظة الولادة حتى سن العاشرة، ويعتقد العالم « جيزل » ان الطفل الوليد يأتي للعالم مزودا بخطة لا تتعلق فقط بالنمو الجسمي وانما تتعلق كذلك بسمات معينة في الشخصية .

ويرتبط بنظرية « شيلدون » رأى العلامة «سيلتزر» الخاص بتحديد أثر العوامل التكوينية في اتجاهات الرجولة عند الذكور (٣) ، وقام العلامة «ليفى» (٤) بدراسة أثر العوامل الفيزويولوجية في اتجاهات الأمومة عند النساء .

ودرس العلامة « كالمان » (٥) أثر العوامل الوراثية في مرض الفصام ، وأشار أيضا الى ان « الصبغات » تؤثر اتجاهات « الجنسية المثلية» .

وقد انتقل الاهتمام بتأثير العوامل البيولوجية في الشخصية الى ميدان السلوك الاجرامي ، حيث نادى العلامة « هوتون » بوجود ترابط بين الشكل التكويني للجسم والاتجاهات غير الاجتماعية عند بعض الأفراد . وفي مسح قام به لعدد من المجرمين الامريكيين ، لاحظ « هوتون » على سبيل المثال وليس الحصر ، أن جرائم الجنس والاعتداء على الآخرين يقترفها رجال من خصائصهم الجسمية قصر القامة والاكتناز . ولا يقترف تلك الجرائم الرجال النحفاء ذوو القامة الطويلة (٦) ، ولسنا في حاجة الى القول أن تلك النظريات قد تعرضت لكثير من النقد وأهم ما يوجه اليها من نقد أنها تتجاهل المحددات الأخرى للشخصية .

---

(١) Sheldon, W. Varieties of Temperament, Harper & Bros., N.Y. 1942.

(٢) Gesell, A.

(٣) Seltzer, C., The Relationships Between the Masculine Component and Personality, in Kluckohon and Murray, Personality in Nature, Society and Cuture, Alfed A. Knopf, N.Y. 1948, PP. 84 - 96.

(٤) Levy, D., Psychosomatic Studies of Some Aspects of Maternal Behavior, Columbia Univ. Press, N.Y. 1946, PP. 97 - 103.

(٥) Kallman.

(٦) Hooton, E., Crime and The Man, Harvard University Press, Cambridge 1939, P. 87.

٢ — محددات عضوية الجماعة :

يعيش الانسان دائما كعضو فى مجتمع أو جماعة واحدة على الأقل ، وتختلف الجماعات والمجتمعات الانسانية فى الحجم وفى مضمون وشكل الأنماط الثقافية السائدة فيها . واهم الأشكال الاجتماعية التى ينتمى اليها الانسان من حيث درجة تأثير ذلك الانتماء فى تكوين شخصيته هى الجماعات الصغيرة وهى التى أطلق عليها عالم الاجتماع « كولى » اصطلاح الجماعات الأولية تأكيدا لدورها الرئيسى فى تشكيل الشخصية ، وهى الأسرة وجماعة اللعب الجيرة والمجتمع المحلى ، ويتفق الرأى على أن الأسرة واهمها جميعا فى تكون الشخصية .

ولا يقتصر ذلك التأثير للعضوية فى الجماعة على الجماعات الصغيرة وانما يمتد كذلك الى الجماعات الكبيرة مثل الطبقات الاجتماعية والنقابات والنوادى والجمعيات ، والمجتمعات الكبيرة الحجم التى تعرف باسم الدول والأمم ، فكثيرا ما يتصف الأمريكيون — على اختلاف طبقاتهم ومهنهم واعمارهم وسلالاتهم — بالنزعة العملية التجريبية ودقة المواعيد واستخدام الآلات فى كل شئون حياتهم ، لدرجة ان البعض قد أطلق عليهم عبارة « شعب الضغط على الأزرار » . ويتصف العرب بشدة التدين وكثرة القسم باسم الجلالة وبالانبياء وبالتكرم وبقوة العلاقات القرابية ، ويتميز الأسكتلنديون بالبخل والانجليز بالتمسك بالتقاليد والبرود وما الى ذلك من التعميمات التى تشمل مواطن الأمة الواحدة (١).

ومن الجلى أن ترجع بعض سمات الشخصية المنتشرة بين اعضاء جماعة ما الى عوامل وراثية بيولوجية ، اذ أن الأشخاص الذين يعيشون معا ويتزوجون من داخل مجتمعهم يشتركون فى جينات متشابهة ، فاذا كانت الحيوية الجسمية منخفضة فى جماعة ما بمقارنتها بجماعات اخرى ، او اذا انتشرت حالات عدم التوازن فى افرازات الغدد فى جماعة أخرى ، فان شخصيات أعضاء الجماعتين ستتميز بسمات خاصة .

غير ان معظم الحالات تبين ان اكثر العوامل فاعلية فى تشابه شخصيات اعضاء جماعة ما هو انتماؤهم الى ثقافة مشتركة ، فان هؤلاء الذين ينشئون فى مرحلة الطفولة وفق تقاليد معينة ، وحتى هؤلاء الذين يتثقفون بثقافة جديدة بعد مرحلة الحلم ، يميلون الى التصرف فى أشكال محددة يمكن التنبؤ بها فى مواقف كثيرة ، ويرجع هذا الى الميل السائد نحو التوافق مع معايير

---

(١) Groupmembership Determinants.

الجماعة . وعندما نقول تحدد الثقافة بعض سمات شخصيات اعضائها ، نكون قد قطعنا شوطا طويلا فى التجريد ، لاننا لا نرى الثقافة ، ولا يمكن ملاحظتها ككل ، وانما نلاحظ تفاعل الناس وما ينتج من ذلك التفاعل من تكرارات منظمة فى الأفعال تميز أعضاء جماعة ما عن غيرهم .

ولا يقتصر تأثير ثقافة الجماعة فى شخصيات اعضائها على انماط الفعل وانما يشمل كذلك النظم الدفعية ، ويتمثل ذلك فى الحاجات الثانوية المكتسبة، مثل العمل للحصول على مذياع أو سيارة أو التفوق ، فهذه الحاجيات ليست أمورا متوارثة فى الجينات ، وكثيرا ما تتمتع الدوافع المكتسبة ثقافيا بأولوية الاشباع عن الحاجيات البيولوجية ، فمثلا يؤجل الشاب اشباع الدافع الجنسى — الزواج — الى ان يكمل تعليمه او يدخر بعض النقود أو ينتهى من تجربة فى التصوف الدينى . كما تحدد العادات الثقافية الأساليب والظروف الخاصة باشباع الحاجات البيولوجية ، فان معظم المصريين يفضلون الجوع على أكل لحم الثعبان ، فى حين يستطيب اعضاء قبيلة البوسمن أكله .

ويتسع نطاق تأثير ثقافة جماعة ما على شخصيات أعضاء تلك الجماعة الى انه يشمل كل سمات الشخصية المكتسبة ، وان تنوعت درجات ذلك التأثير . فالثقافة تحدد بصورة كبيرة المهارات التى تكتسب والمعارف التى تحصل والقيم والأذواق والافتراضات الرئيسية ، وتحدد الثقافة كذلك الظروف التى تصاحب عملية النظم .

ومما هو جدير بالذكر أن تأثير ثقافة الجماعة فى شخصيات أعضائها لا يتسم بالجمود والصرامة والتطابق ، وانما بالتنوع والمرونة والاختلاف ، اذ أن الثقافة تحدد فقط ما يتعلمه الفرد كعضو فى مجتمع معين ، وليس ما يتعلمه كفرد خاص — له سمات بيولوجية وجسيمة معينة — أو كعضو فى أسرة معينة ، ولا تؤدى الثقافة دورها فى تحديد بعض سمات الشخصية بصفتها العامل الوحيد المقرر وانما كأحد العوامل المقررة للشخصية .

وليس من شك فى أن الفرد عندما يختبر الثقافة ويستجيب لها ، يصبغ تلك المواقف بمسحة فردية خاصة به . فان تأثير الأنماط الثقافية فى الأفراد لا يتم بصورة متطابقة تماما الا عن طريق الصدفة ، ومن هنا كان الانحراف عن المقاييس — الثقافية امرا لا مفر منه ويحدث دائما وبصورة لا نهائية . فالأفراد الذين تعلموا ثقافة مجتمعهم منذ الصغر ، سيصحبون هم أنفسهم المعلمين الذين ينقلون التراث الثقافى للأجيال التالية ، وهؤلاء مهما حاولوا التمسك بالمحافظة على التقاليد ، سوف يطبعون الأنماط الثقافية بمسحة شخصية تتفق مع صفاتهم الجبلية وتجاربهم الخاصة بالحياة .

وغنى عن البيان أن المجتمعات المتمدينة تجمع بين حدودها الكثير

من الثقافات الفرعية الى جانب الثقافة العامة ، وفى الغالب تحتوى الثقافات الفرعية على درجة كبيرة من التنوع والاختلافات ، وهذا واضح فى الثقافة العربية ، اذ نجد أن الثقافة الفرعية لكل شعب عربى تتميز بخصائص مميزة ، وفى داخل الشعب العربى الواحد نجد اختلافات ثقافية فرعية بين المجتمعات الريفية والحضرية والبدوية ، وفى داخل المدينة العربية الواحدة . نجد اختلافات ثقافية فرعية على أساس اختلاف الطبقة الاجتماعية والمهنة ومستوى التعليم ، يصاحب تلك الاختلافات الثقافات الفرعية فى المجتمع الواحد اختلافات فى سمات شخصيات أعضاء ذلك المجتمع ، وعند التحدث عن أهمية الثقافة فى محددات عضوية الجماعة للشخصية ، يجب أن نميز القيم بصفتها من أهم الأنماط الثقافية دلالة فى هذا الموضوع : القيمة هى تصور للمعانى الكلية — ينسب لفرد أو لجماعة ما — خاص بالأمور المرغوبة ، والقيمة هى المسئولة عن الأحكام التى يصدرها الفرد على أى موضوع أو موقف ويرى فيها الفرد شيئا من الحق أو الخير ، أو حكما على قضية معيارية ينبع أساسا من القيم التى يؤمن بها (١) ، واذا حاولنا البحث عن المصادر التى يكتسب منها الفرد قيمة لوجدنا أن الفرد يكتسب قيمة من عضويته فى الجماعة التى يعيش فيها ، فمن خلال تفاعله فى جماعته يمتص القيم السائدة فى تلك الجماعة . ويجب ملاحظة أن القيمة ليست مجرد رغبة أو تفضيل وانما هى مركب يجمع الأمور المرغوبة لدى الفرد ومقاييس ما يجب أن يكون كما تحددها الثقافة . واذا تساءلنا لماذا توجد قيم ؟ نجيب لأن الحياة الاجتماعية ستصبح مستحيلة بدونها ، فبدون قيم لا يستطيع النسق الاجتماعى تأدية وظائفه فى تحقيق أهداف الجماعة ، ولا يمكن أن تستمر الحياة الاجتماعية بدون معايير فى داخل الفرد ومعايير يوافق عليها بصورة ما الأفراد الذين يعيشون معا ويعملون معا فى داخل الجماعة . وبدون تلك المعايير أى القيم لن يكون هناك أمان شخصى بالنسبة للفرد ولا تنظيم اجتماعى بالنسبة للجماعة ، وانما ستعم الفوضى والاهمال وعدم تقدير المسئولية ويسود السلوك الفطرى الخالص ، وبعبارة أخرى سينهار الفرد وتتفكك شخصيته وينهار التنظيم الاجتماعى للجماعة ، بدون قيم لا يستطيع الأفراد الحصول على ما يريدون وما يحتاجون اليه من الأفراد الآخرين فيما يتعلق بالأمور الشخصية والعاطفية ، وبالتالى لن يشعروا فى داخل ذاتهم بأى قدر من النظام ، ويختفى الشعور بوجود أهداف موحدة ، وزيادة على ذلك ، تضيف القيم القدرة على التنبؤ عن طريق توقع استجابات معينة فى المواقف المعينة ، وهكذا بدون القيم يعيش الناس فى عالم « مشوه متقلب الأوضاع يختفى منه النظام فى داخل

---

(١) د. عماد الدين سلطان وآخرون : صراع القيم بين الآباء والأبناء . المجلة الاجتماعية القومية — القاهرة يناير ١٩٧٢ .

الجماعة وفى داخل الفرد . وقد لا نبالغ اذا استنتجنا من ذلك انه بدون لقيم لا يمكن أن تتكامل شخصية أو تنظم جماعة .

وان كانت الثقافة من أهم العوامل التى تؤثر فى شخصيات اعضاء جماعة ما ، الا انها ليست العامل المقرر الوحيد ، فقد ذكرنا سابقا أثر العامل البيولوجى الوراثى المترتب على نظام الزواج من الداخل المتبع فى الجماعة الواحدة وما يتبع ذلك من انتشار سمات جسيمة وبيولوجية متشابهة بين اعضاء الجماعة الواحدة لتكوينهم ما يعرف بـ « بركة الجينات »(١) ، وكذلك يوجد بعد اجتماعى فى محددات العضوية فى الجماعات لا يحدد ثقافيا ، ويتمثل ذلك فى عدد اعضاء الجماعة واعمارهم ونوعهم ، فلا شك أن كثافة الجماعة تؤثر فى عدد علاقات الوجه للوجه المتاحة للفرد العضو فى تلك الجماعة ، وتؤثر هذه الأمور بدورها فى صور ودرجة تكيف الفرد مع جماعته ، وبالتالى تؤثر فى تكوين شخصية الفرد .

خلاصة القول ان عضوية الفرد فى جماعات معينة تتيح له التفاعل مع باقى الأعضاء ، ومن خلال ذلك التفاعل يمتص الأنماط الثقافية السائدة وتطبع تلك الأنماط شخصيته بسمات مشتركة بين أفراد الجماعة الآخرين . وجدير بالذكر أن مفهوم الثقافة مفهوم واسع للغاية ، وهو تجريد غير مفيد لتوضيح اثر عضوية الجماعة فى تكوين شخصية الفرد ، بل ان عضوية الجماعة هى أيضا مفهوم تجريدى غير مفيد للتحليل ، وذلك لأن الفرد لا يتأثر بالجماعة التى ينتمى اليها « ككل » وانما يتأثر بها عن طريق تعامله وتفاعله مع اعضاء معينين فى الجماعة ، وهم هؤلاء الذين يرتبط معهم فى اتصال مباشر ، هذا بالاضافة الى التصور الذى يكونه عن الجماعة ككل ، وهو تصور شخصى ، قد يختلف عن الخصائص الموضوعية للجماعة ، ولذلك لا يمكن اعتبار أى فرد ممثلا بصورة كاملة لكل خصائص الجماعة ككل .

وهكذا من الناحية الواقعية ، ليست الجماعة ككل هى التى تؤثر فى تكوين شخصية الفرد وانما وكلاء الجماعة ، وهم أفراد ليهم سمات خاصة بهم بجانب السمات المشتركة بينهم وبين باقى أفراد الجماعة . ويتضح من الفصول القادمة أن من أهم وكلاء الجماعة تأثيرا فى تكوين شخصية الفرد الآباء وباقى اعضاء الأسرة من الاخوة والأخوات وكذلك الاقارب ، ويؤدى هؤلاء الممثلون للجماعة هذا الدور كاعضاء للجماعة لكبيرة ذات الثقافة العامة

---

(١) Genes Pool.

وكممثلين لجماعات أصغر ذات ثقافات فرعية ، وكذلك كممثلين لسمات فردية فى شخصياتهم (١) .

واذا كان هناك بعض العلماء الذين تحيزوا لتأثير العوامل البيولوجية والوراثية على الشخصية ، فانه يوجد أيضا من تحيز لتأثير العوامل الثقافية والاجتماعية ، وبعض هؤلاء من علماء النفس السلوكيين ، فمثلا يرى عالم النفس «واطسن» (٢) أن طبيعة الطفل مرنة وطيعة ويمكنه تشكيلها وصياغتها فى اية صورة يختارها أفراد الجماعة ، بل لقد صرح بأنه يستطيع اذا توافرت له الوسائل الفنية لتوجيه السلوك والتعليم أن يربى اى طفل صحيح الجسم ليجعل منه طبيبا أو محاميا أو فنانا أو زعيما أو حتى متسولا أو لصا — دون الأخذ فى الاعتبار بالعوامل البيولوجية أو الوراثيـة مثل قـدرات الطفـل واستعداداته ومواهبه .

٣ — محددات الدور (٣) :

يتفرع من محددات العضوية فى الجماعات للشخصية مجموعة مـن المحددات المتعلقة بالأدوار المرتبطة بالمراكز الاجتماعية التى يشغلها الأفراد فى الحياة الاجتماعية ، والمقصود بالمركز (٤) الوضع الاجتماعى لفرد ما بالنسبة لغيره من أفراد الجماعة ، ويصبح النسق الاجتماعى بهذا الفهم سلسلة من المراكز الاجتماعية التى تربط جميع اعضاء المجتمع ، ويصاحب كل مركز مركب أو مجموعة من انماط السلوك المحددة ثقافيا تسمى الدور (٥) .

يحتل الفرد عددا من المراكز فى داخل الجماعة . فقد يكون أبا وزوجا ومدرسا بالتعليم الثانوى وعضوا فى النادى الأهلى وهاويا لجمع طوابع البريد فى الوقت نفسه ، وهو يقوم بالأدوار المصاحبة لتلك المراكز على التوالى ، اى عندما يستدعى الموقف ذلك ، ففى حالة القيام بالأدوار المصاحبة لمركز الأب تكون ادوار اخرى فى حالة كمون ، ولذلك تقسم الأدوار الى ادوار نشطة وهى الأدوار التى يقوم بها الشخص صاحب مركز معين فى لحظة معينة وأدواركامنة وهى تلك الأدوار التى لا يؤديها الفرد فى لحظة معينة لأن الوقت المناسب لها

(١) Kluckhohn, C : & Murray, : Personality Formulation : The Determinants, in : Personality in Nature, Society and Culture, N.Y. 1959, PP. 58 - 64.

(٢) Watson, J., Behaviorism, W.W. Norton, Co. N.Y. 1925, P. 82.

(٣) Role Determinants.

(٤) Status.

(٥) Role.

لم يأت بعد ، ويؤثر استمرار الفرد فى تأدية دور معين لفترات طويلة فى تكوين الشخصية ويجعلها تتميز بسمات معينة . ومما هو جدير بالذكر أن اللفظ الانجليزى للشخصية مأخوذ من لفظ يعنى (١) القناع أو الوجه المستعار الذى يلبسه الممثل فى المسرحيات ، والغرض من استخدام هذا القناع تشخيص شخصية او دور الممثل فى المسرحية ، فالقناع هنا بمثابة العنوان عن طباع الشخص ومزاجه الخلقى كالبشاشة والضجر مثلا والشح والكرم والظلم او التسامح والصدق أو النفاق وما الى ذلك .

وهكذا من الناحية اللغوية ، اصطلاح شخصية مأخوذ من « الدور » الذى يمثله الفرد علنا ، ولا شك أن الشخصية العلنية تخفى الشخصية الذاتية ، وما تحتويه من دوافع دقيقة .

تحدد الثقافة المراكز والأدوار ، ولذلك تختلف تلك المحددات من مجتمع الى آخر تبعا لذلك ، وتؤثر المراكز والأدوار بصورة مباشرة فى تكوين الشخصية ، ويحتل الفرد فى اى مجتمع مراكز اجتماعية منوعة تقوم على اساس النوع والسن الأسرة والطبقة الاجتماعية والمهنة والدين والقومية ، ويحتوى كل مركز على مجموعة من الادوار المحددة له والتى تمثل أنماط الثقافة الفرعية ، ويمثل الدور الاجتماعى الجانب الدينامى للمركز الاجتماعى ، وما يرتبط به من واجبات وحقوق ، ويتحدد سلوك الفرد على ضوء توقعاته من الأفراد الذين يحتكون به بحكم مركزه وبحسب توقعات هؤلاء الأفراد منه ، وتنبثق هذه التوقعات من فهم الفرد والأفراد الذين يتعاملون معه للادوار المرتبطة بمركزه الاجتماعى ، ويرجع الكثير من سمات الشخصية الى المراكز الاجتماعية التى يحتلها الفرد فى المجتمع والى الأدوار المصاحبة لتلك المراكز التى يؤديها بصفة مستمرة نسبيا .

تختلف نظريات الشخصية فى مدى اهتمامها بالظروف المباشرة والأدوار الآنية التى يؤديها الفرد كمحددات أساسية للشخصية ، فبينما تهتم مدارس التحليل النفسى بمرحلة الطفلة وبالواقع الماضية فى تفسير سمات الشخصية ، فان المدرسة الفرويدية الجديدة (٢) والمدرسة الميدانية (٣) والكثير من علماء الاجتماع والأنثروبولوجيين يركزون اهتمامهم على الظروف الحاضرة والادوار التى يؤديها الفرد فى تفسير سمات لشخصية ، ويرى هؤلاء ، أنه بالرغم من أن الفرد قد يتأثر بصورة قوية بالحوادث الماضية ، الا أنه يتمتع بقدر كبير من

---

(١) Persona.

(٢) The Neo-Freudians.

(٣) The Field Theory.

« الاستقلال الوظيفى » ، ولذلك يكون للموقف الحاضر وما يصاحبه من ادوار آنية الأثر الفعال والأقوى فى تحديد سمات الشخصية . وهناك الكثير من الدراسات والأبحاث التى تؤيد هذه النظريات ، فقد درس الأنثروبولوجى « لويس » ما سماه بثقافة الفقر ، وبين اهمية الفقر كعامل مؤثر فى الشخصية (١) . ودرس العلامة « بوتر » تأثير الرخاء الاقتصادى على الشخصية القومية الأمريكية (٢) ، وتبين مؤلفات العلامة « ريسمان » وزملائه عن الشخصية الأمريكية المتغيرة تأثير الظروف الاجتماعية والأدوار الآنية على الشخصية (٣) ، وبين العلامة « جيمس » فى دراسته لشخصية اعضاء قبيلة « أوجيبوا » تأثير حالة العزلة التى يعيشون فيها على شخصياتهم (٤) .

كما درس بعض العلماء تأثير المهنة على الشخصية ، فمثلا درس العلامة « وولر » تأثير مهنة التعليم على شخصية المعلم ، وكيف أن المعلمين القدامى يختلفون عن زملائهم الجدد (٥) ، وبين العلامة « ميرتون » تأثير الوظائف البيروقراطية على الشخصية (٦) .

وفيما يتعلق بالسلوك الاجرامى . تبين أن نشأة اللص فى حى اجرامى ومشاركة افراد العصابات فى حياتهم وتعرضه للثقافة الفرعية الاجرامية ، يؤدى فى النهاية الى انحرافه ، شأنه فى ذلك شأن الطفل الذىيولد فى قبيلة الاسكيمو فانه ينمو ويصبح حاملا لثقافة الاسكيمو ، ويرفض هذا الاتجاه القول بالنزعات الاجرامية الفطرية او بأن المجرمين مجرمون بالطبع .

وقد طبق الاتجاه السابق فى مجال الأمراض العقلية ، ومن أمثلة تلك الدراسات التطبيقية دراسة العالمين « فارس » و « دانهام » للمرضى العقليين بمدينة شيكاغو : فقد لاحظا أن مرضى الفصام ينتمون الى الأحياء الفقيرة فى

---

(١) Lewis, Oscar, The Children of Sanches, Autobiography of a Mexican Family, Random House, N.Y. 1961.

(٢) Potter, D., People of Plenty, Economic Abundance and the American Character, University of Chicago Press, Chicago 1954.

(٣) Riesman, D., Glazer and Denny, The lonely Crowd, Doubleday, N.Y. 1953.

(٤) James, B., Social-Psychological Dimensions of Ojibwa Accultration, American Anthropologist, 62, 1961, PP. 721-746.

(٥) Waller, W., The Sociology of Teaching, John, Wiley, N.Y. 1932, PP. 381-436.

(٦) Merton, R., Bureaucratic Structure and Personality, Social Forces, 18, 1940, PP. 560-568.

وسط المدينة ، فى حين يقطن مرضى الهوس والاكتئاب فى الضواحى والمناطق الراقية ، وقد فسرا انتشار مرض الفصام فى شيكاغو الوسطى عن طريق الظروف الاجتماعية التى يعيشها سكان تلك المنطقة ، اذ يمثل هؤلاء السكان مجموعة سكانية مهاجرة غير منظمة وينقصها العلاقات الاجتماعية المتماسكة والمجزية ، وقد قررا كذلك أن العزل الاجتماعى يؤدى الى انهيار عقلى(١) . كذلك درست بعض الأبحاث العلاقة بين الطبقة الاجتماعية والأمراض العقلية، وقد بين احد تلك الأبحاث انه كلما اتجهنا من أعلى الى أدنى فى الطبقـــات الاجتماعية زاد معدل الأمراض العقلية (٢) ، كذلك بينت أبحاث اخرى تأثير الهجرة على الصحة العقلية اذ يرتفع معدل الامراض العقلية عند المهاجرين، وفى بعض الدراســــات تبين أن التغير الثقافـــى يؤدى الى بعض الأمراض العقلية ، وتحاول دراسات أخرى تتبع النتائج النفسية التى تترتب وتصاحب تعرض الفرد لخبرات عنيفة أو ظروف اجتماعية قاسية مثل الرق أو معسكرات الاعتقـــال (٣) .

وتمثل الأدوار التى يقوم بها الأفراد فى حياتهم شاشة أو قناعا للدلالة على بعض سمات شخصياتهم ، ويميل معظم الناس الى قبول سلوك شـــخص ما فى موقف معين أو فى حالة أدائه لدور خاص كصورة لشخصيته كلها . وكلما نجح الأفراد فى أداء الأدوار المطلوبة منهم وفق الانماط الثقافية السائدة فى مجتمعهم تكيفوا فىحياتهم الاجتماعية ، وخاصة كلما قل التعارض بين تلـــك الأدوار ورغباتهم الشخصية . ويجب ملاحظة أن المحددات الثقافية ، سواء عضوية الجماعة أو اداء الأدوار الاجتماعية ، لا تفسر سوى بعض سمات الشخصية وخاصة السمات الظاهرية أو ما يســـمى احيانـــا بالشخصيـــة الموضوعية وفى حالة الأشخاص الأسوياء يصل علماء النفس الى اكتشاف السمات الأخرى للشخصية وهى ما يعرف بالشخصية الذاتية أو الانية عن طريق اجراءات طويلة ومعقدة ومكثفة خاصة بالتحليل النفسى ، وذلك لأن اداء الأدوار يقدم لنا الشاشة التى من خلالها نرى شخصيات الناس مـــن الخارج .

---

(١) Faris, R., and Dunham, H., Mental Disorders in Urban Areas. Uni. of Chicago Press, Chicago 1939, P. 128.

(٢) Hollingshead, A. and Redlich, F., Social Class and Mental Illness, John Wiley & Sons, Inc. N.Y. 1958.

(٣) Barnouw, V., Culture and Personality, The Dorsey Press, INC., Homewood, Illinois, 1963, P. 23.

اما اختراق تلك الشاشة للتوصل الى السمات الذاتية فهو امر خاص بعلماء النفس التحليليين . وفى حالة الأمراض النفسية والعصابية يكون الأمر اكثر سهولة ، وذلك لأن هؤلاء المرضى لا يؤدون الأدوار المنمطة ثقافيا ، وانما يعبرون عما يعتمل فى نفوسهم تلقائيا ، وذلك لضعف « الأنا » وعدم قدرته على التوفيق بين مطالب « الهو » من جهة ومطالب الأدوار اى الأنماط الثقافية فى المجتمع .

كما لاحظنا ان بعض العلماء قد تحيز للمحددات البيولوجية الوراثية للشخصية ، ودرسها على انها المحددات الوحيدة التى تشكل الشخصية ، فان البعض الآخر من العلماء ، فقد تحيز للمحددات الثقافية ، وكأنها المحددات الوحيدة فى تكوين الشخصية ، ولذلك عرف البعض الشخصية بأنها الجانب الذاتى للثقافة ، ويميل بعض علماء الانثروبولوجيا بالأخذ بذلك المفهوم الثقافى للشخصية ، وقد اراد هؤلاء العلماء بهذا المفهوم تأكيد اهمية الظروف الاجتماعية والثقافية فى تكوين ونمو الشخصية .

ويتفق معهم بعض علماء النفس الذين تخصصوا فى دراسة الاستجابات وردود الأفعال ، لأنهم يرون الشخصية موجهة اساسا بالمثيرات والحوافز الخارجية والضغوط البيئية وبصورة الأب . ويعارض « البورت »(١) هذا التحيز المطلق للعوامل الثقافية فى تكوين الشخصية ويرى أنها ترجع الى نظرة « لوك » الى الطبيعة الانسانية ، وهو لا ينكر اهمية العوامل الثقافية الاجتماعية فى تكوين الشخصية ، وذلك لأن الثقافة شرط هام فى نمو الشخصية ، الا أنها ليست العامل الوحيد المقرر للشخصية ، فبينما نقبل قيما ثقافية معينة على انها موحدة وممتدة وعلى انها هامة فى عملية نمونا ، الا انه من الصحيح أيضا بالدرجة نفسها ، القول بأننا جميعا متمردون وفرديون، لأننا نرفض بعض العناصر فى ثقافتنا رفضا تاما ، ونعتنق الكثير منها على أنها عادات انتهازية ، ونغير العناصر التى لا تلائمنا حتى تناسب أسلوب حياتنا الشخصى ، فالثقافة شرط ضرورى للنمو ولكنها ليست فى حد ذاتها الصيغة النهائية (١) .

٤ — محددات أساليب النظر الى الحياة (٢) :

يركز هذا المؤلف حول دراسة تأثير الثقافة على الشخصية ، ولذلك تعرض المحددات الثقافية بشىء من التفصيل لا يتوافر للمحددات الأخرى

---

(١) جوردن البورت . نمو الشخصية — ترجمة د. جابر عبد الحميد جابر ومحمد مصطفى الشبينى — دار النهضة العربية — القاهرة ١٩٦٣ ص ١٣٧ .

(٢) World View.

للشخصية ، وقد تبين لنا فيما سبق أن قسما من المحددات الثقافية درس تحت عنوان عضوية الجماعة وقسما ثانيا شرح بصورة مستقلة وهو محـــددات الأدوار الاجتماعية ، ونسير فى الاتجاه نفسه الخاص بالشرح التفصـــيلى للمحددات الثقافية ، فنعرض قسما ثالثا من تلك المحددات ، وهو محددات أساليب النظر الى الحياة ، يقصد بمفهوم أسلوب النظر الى الحياة مجموعة القيم الثقافية والاتجاهات والتصورات الخاصة بالعالم ، فمن خلال عمليـــة التنشئة الاجتماعية والتثقيف يكتسب الفرد تدريجيا ثقافة مجتمعة وما تحتويه من مفاهيم دينية ومبادىء أخلاقية وتصورات ميتافيزيقية ، وهى تلك المركبات الثقافية التى تميز ثقافة ما عن غيرها من الثقافات . ووضـــع بعضـــ(١) الأنثروبولوجيين اصطلاح « أسلوب النظر الى الحياة » للتعبير عن المركبات الثقافية سابقة الذكر ، واستخدم البعض الآخر (٢) مفهوم سجية (٣) ويقصدبه الروح المميزة والصفة السائدة فى عواطف مجتمع محلى ، وكذلـــك الروح المميزة لأى نسق أو نظام ثقافى . ويتضح من التعريف السابق أن مفهـــوم « سجية » يعبر عن جانب واحد من جوانب مفههـــوم « أسلوب النظـــر الى الحياة » الذى يشمل كذلك قيم ومفاهيم الثقافة عن طبيعة الأشياء .

ويدرس علماء الأنثروبولوجيا مفهوم « أسلوب النظر الى الحياة »ومفهوم « تماسك المجتمع المحلى » كمحددين للشخصية ، وهمـــا محـــددان ينتميان للمحددات الثقافية التى تشمل كذلك محددات عضوية الجماعة ومحددات الأدوار الاجتماعية ، فقد درس العلامة « شبنجلر »(٤) ما سماه « بالأسلوب الفاوستاوى »(٥) فى الثقافة الغربية ، ودرست العـــلامة « بينيديكت »(٦) « الأسلوب الأبوللونى » وما ترتب عليه من تأثير فى شخصيات أعضاء قبيلة « البيبلو »(٧) عرف باسم الشخصية « الأبوللونية »(٨) ، وحلل العـــلامة « هالويل »(٩) البيئة السلوكية لقبائل « أوجيبيو »(١٠) ، ودرس العلامـــة

---

(١) Benedict, R.-Mead, M.-Hallowell-Redfield, R.
(٢) Batson, G., Honigmann, j.
(٣) Ethos.
(٤) Spengler.
(٥) Faustian View.
(٦) Benedict.
(٧) Peublo.
(٨) Apollonian.
(٩) Hallowell.
(١٠) Ojibwa.

« ريدفيلد » (١) « اسلوب النظر الى الحياة » فى المجتمعات الزراعية وتاثير ذلك على شخصيات المزارعين .

ولكن كيف يستطيع الانثروبولوجى تحديد « اسلوب النظر الى الحياة » فى ثقافة ما ؟ نستطيع ذلك باستخدام منهج الدراسة الميدانية او الملاحظة بالمشاركة ، وقد استطاع العلامة « هورف » (٢) تحديد بعض خصائص هذا الأسلوب وخاصة فيما يتعلق بمفهومى الزمان والمكان عن طريق تحليل اللغة التى يتكلمها اعضاء المجتمع قيد البحث .

ويجب ملاحظة أن « اسلوب النظر الى الحياة » يفسر فقط بعض سمات الشخصية وليس كل تلك السمات ، وكذلك يفسر بعض شخصيات افراد المجتمع وليس كل شخصياتهم ، فقد لاحظت العالمتان « ميد » و « بينيديكت » ان المنحرفين الموجودين فى مجتمع ما ، هم أفراد لم يتقبلوا « اسلوب النظر الى الحياة » الموجود فى ثقافتهم ، وهنا نعود للنتيجة التى انتهت اليها مناقشة محددات الدور للشخصية ، وهى انه بالرغم من أن المحددات الثقافية تلعب دورا هاما فى تكوين الشخصية الا أنها ليست المحددات الوحيدة وانما هى تعمل بجانب المحددات الأخرى للشخصية وهذا هو الراى السائد فى هذا الكتاب .

٥ ــ المحددات الموقفية (٣) :

يمر الانسان فى حياته اليومية بالعديد من المواقف العابرة والأحداث والمصادفات التى قد تحدث لمرات كثيرة واحيانا تحدث مرة واحدة ، ولكن قد يحدث أن تؤثر تلك المواقف فى تشكيل شخصيته ، ولا يتم هذا التاثير بصورة مباشرة فورية وانما تدريجيا وعلى مراحل ، فان تعرض الفرد لموقف ما قد يحرك سلسلة من الأحداث التى تضعه فى مواقف عدة يكون لها ابلغ الأثر فى تشكيل شخصيته بسمات معينة . فمثلا قد يحدث أن يقابل فرد ما احد الصحفيين المتحمسين لمهنتهم عن طريق الصدفة ، ويترتب على تلك المقابلة أن يعجب هذا الفرد بمهنة الصحافة ويعمل ما فى وسعه لتعلمها والتخصص فيها ويصبح فى النهاية صحفيا لامعا ، هذا بالرغم من عدم اهتمامه بتلك المهنة قبل مقابلته مع هذا الصحفى . وفى الحياة اليومية يطلق الناس على المحددات الموقفية الفاظا عدة مثل الصدفة والحظ والقدر والمكتوب ، ويقصدون بذلك

---

(١) Redfield.

(٢) Whorf, B.

(٣) Situational Determinants.

التعبير عن كيفية ان موقفا عابرا يتعرض له الفرد يلعب دورا كبيرا فى حياته وفى تشكيل شخصيته ، وهم يرددون من وقت لآخر كيف أن حادثا عابرا قد غير مجرى حياتهم .

ويمكن دراسة أثر المواقف فى تحديد بعض سمات الشخصية من زاوية اخرى ، فمن الواضح أن يتفق العلماء على أن الأسرة التى ينشأ فيها الشخص من اهم المحددات للشخصية ، وان تاثير الأسرة فى تشكيل شخصية الطفل مشروط بتحديدات ثقافية للأدوار الخاصة بالآباء والأطفال ، ولكن قد تحدث مواقف عابرة للاسرة ، اى احداث عارضة لم تكن متوقعة ، تجرى تغييرات فى الأسرة وتنعكس تلك التغيرات فى شخصية الأطفال ، فان الثقافة تحدد بصور عامة أدوار الآباء والأمهات والأبناء والاخوة فى الظروف العادية ،ولكن قد تحدث مو قف تغير الصورة العادية للاسرة ، فمثلا قد يحدث موقف خلاف فى الأسرة وينفصل الاب عن الأم ، ويعيش مع الام فقط او مع الاب فقط او مع الأم واسرتها ، وفى بعض المواقف الأخرى يحدث أن يكون هناك فارق كبير فى السن بين الأم الاب مما يغير الأدوار المحددة ثقافيا لها ، أو قد يضطر الاب الى التغيب عن المنزل معظم الوقت أو الى العمل ليلا والنوم نهارا ، وفى مواقف اخرى يحدث ان يكون الطفل هو الطفل الاول أو الطفل الأخير فى الأسرة ، يصاحب تلك المواقف الكثير من الخبرات التى تؤثر فى شخصية الفرد .

وقد يتضمن اتصال الفرد بجماعة ما على خضوعه لعوامل تحدد بعض سمات شخصيته ، ويمكن تصنيف تلك العوامل كمحددات العضوية فى لجماعة او كمحددات موقفية على أساس توافر او عدم توافر شعور الفرد بالانتماء بتلك الجماعة ، فعندما يتصل طبيب ما بزملائه فى نقابة الأطباء ، أو يتصل احد التلاميذ بزملاء فصله الدراسى أو بجماعة أصدقائه ، تتأثر شخصية كل منهما بمحددات العضوية فى الجماعة . ولكن عندما يتصل احدالاطفال بجماعة من الأطفال المنحرفين عن طريق المصادفة أو بتدبير احد منهم ، أو عندما يحضر احد الأشخاص المعتادى الاجرام اجتماعا دينيا ويتاثر بما يدور فيه من احاديث حول الصلاح والتقوى وامكانية التوبة ، تتأثر شخصية كل منهما بالعوامل الموقفية . ولا شك أن هناك تداخلا بين محددات العضوية فى الجماعة ومحددات أسلوب النظر الى الحياة والدور ومحددات الموقف ، اذ لا يوجد فواصل قاطعة بين تلك المحددات .

٦ ــ محددات مرحلة الطفولة :

يعطى فرويد وعدد كبير من أتباعه أهمية كبرى لمرحلة الطفولة فى السلوك ويعتبرونها المحدد الحاسم فى تحديد شخصية الفرد ، فالشخصية تحدد أو تثبت عند سن الخامسة أو السادسة ، وتلعب الخبرات التى يمر

فيها الطفل فى تلك السنوات دورا اساسيا فى تكوين شخصيته كانسان بالغ .
وهناك وقائع وحالات معينة يخبرها الطفل فى تلك المرحلة من عمره تمثل المحددات الأساسية لتكوين الشخصية .

كذلك يرى فرويد ان الطفل يمر عبر سلسلة من المراحل المتفاعلة ديناميا خلال السنوات الخمس الأولى ، ويليها لمدة تستمر خمس او ست سنوات فترة الكمون فيتحقق قدر من الثبات والاستقرار الدينامى ، وعند بداية المراهقة تنبعث القوى الدينامية مرة اخرى ثم تستقر بعد ذلك بالتدريج مع الانتقال من المراهقة الى الرشد . ويؤكد فرويد على أن السنوات القليلة الأولى من الحياة تكون حاسمة فى تكوين الشخصية ، وذلك لأنه يرى أن كل مرحلة من النمو تتحدد خلال السنوات الخمس الأولى من حيث اساليب الاستجابة من جانب منطقة محددة من الجسم ، ففى خلال المرحلة الأولى التى تستمر قرابة العام يكون الفم هو المنطقة الرئيسية للنشاط الدينامى ، يلى المرحلة الفمية نمو الشحنات والشحنات المضادة حول وظائف الاخراج ويطلق على ذلك اصطلاح المرحلة الشرجية ، ويستمر ذلك خلال العام الثانى ثم يتبعه المرحلة القضيبية حيث تصبح الأعضاء الجنسية المناطق الشهوية الأساسية ، ويطلق على هذه المراحل الثلاث الفمية والشرجية والقضيبية المراحل قبل التناسل . ان الخبرات التى يمر فيها الطفل خلال تلك المراحل تحدد المعالم الرئيسية لشخصيته عند البلوغ . ويعين فرويد بعض تلك الخبرات ويعطيها أهمية كبرى فى تكوين شخصية الفرد ، من هذه الخبرات الأساسية « عقدة أوديب » ، وهى من أكبر اكتشافات فرويد ، تستمد عقدة أوديب اسمها من قصة ملك طيبة الذى قتل اباه وتزوج بامه .

وعقدة اوديب فى ايجاز هى شحنة جنسية تستهدف الوالد من الجنس المقابل وشحنة عدوانية تستهدف الوالد من نفس الجنس . فالصبى يرغب فى امتلاك امه واستبعاد ابيه على حين ترغب الفتاة فى امتلاك ابيها وابعاد امها .

وتعرف هذه المشاعر عن نفسها فى تخيلات الطفل اثناء الاستمناء وفى التذبذب بين الأفعال الدالة على الحب والأفعال المعبرة عن التمرد والثورة ازاء والديه ، ويتميز سلوك الطفل فيما بين الثالثة والخامسة من عمره الى حد كبير بفاعلية عقدة اوديب ، وهى بالرغم من تعديلها وما تلقاه من كبت بعد الخامسة من العمر ، تظل قوة فعالة فى الشخصية طوال الحياة ، مثال ذلك أن ــ الاتجاهات نحو الجنس المقابل ، ونحو ذوى السلطة من الأفراد تكون بدرجة كبيرة رهن عقدة أوديب ، وترتبط عقدة أوديب بعقدة الخصاء لدى البنت ، وذلك لاختلاف تاريخ عقدة اوديب ومصيرها لدى الذكر عنه لدى الأنثى . فالطفل من كل من الجنسين يحب الأم فى البداية ، لأنها تشبع رغباته وينقم على الأب لاعتباره غريما له فى حب الأم ، وتبقى هذه المشاعر لدى

الصبى وتتغير لدى الفتاة ، فهى تغير موضوع حبها الأصلى وهو الأم بموضوع جديد هو الأب ، أما سبب حدوث ذلك فيتوقف على استجابة البنت بالشعور بخيبة الأمل عندما تكتشف أن الصبى يمتلك عضوا جنسيا ممتدا على حين تمتلك لبنت تجويفا . ويترتب على هذا الاكتشاف الصادم عدة عواقب هامة، اهمها اعتبار الأم مسئولة عن حالة الخصاء هذه ، مما يضعف شحنتها الخاصة بأمها ، وتتحول بحبها لأبيها لامتلاكه العضو الممتد ، غير أن حبها لأبيها ولغيره من الرجال يمتزج بمشاعر الحسد لامتلاكهم شيئا تفتقر اليه .

ان حسد القضيب هو المقابل الانثوى لحصر الخصاء لدى الصبى ويطلق عليهما معا اسم عقدة الخصاء . ويقصد بحصر الخصاء لدى الصبى أن الصبى الذى يحب أمه ويكره منافسه المستبد وهو الأب يتخيل أن أباه سيوقع بـه الأذى ، ويتركز خوفه مما قد يوقعه به الأب من اذى حول اعضائه التناسلية اذ انها مصدر مشاعره الجياشة بالشهوة ، وهو يخشى أن يستأصل والده الغيور هذه الأعضاء البيئية . ويؤدى الخوف من الخصاء أو كما يسميه فرويد حصر الخصاء الى كبت الرغبة الجنسية فى الأم والعدوان نحو الأب . انظهور عقدتى أوديب والخصاء وتطورهما هما الواقعتان الرئيسيتان فى الفترة القضيبية ، وهما واقعتان يتركان العديد من المخلفات فى الشخصية(١) .

بالاضافة الى عقدة أوديب وعقدة الخصاء توجد وقائع أخرى تؤثر فى الشخصية منها نظم الفطام ونظم التدريب على الذهاب للمرحاض وعلاقة الطفل بوالديه فى مرحلة الطفولة ، « والمنظر الأولى » (٢) .

يرى فرويد واتباعه ان وقائع مرحلة الطفولة هى المحددات الرئيسية للشخصية . اما العوامل التى تؤثر بعد ذلك مثل المركز والمهنة والتعليم فيعتبرونها عوامل ثانوية فى تكوين الشخصية . ويرى فرويد كذلك ان اتجاهات الشخصية تمثل تجمعات تحتوى على الدوافع الغريزية والقوى الضابطة للانا، ولم يحاول فرويد اعداد قائمة كاملة للغرائز وانما صنفها الى فئتين عامتين غرائز الحياة وغرائز الموت . وتخدم غرائز الحياة غرض الحفاظ على حياة الفرد وتكاثر الجنس ويندرج تحت هذه الفئه الجوع والعطش والجنس ، ويطلق على صورة الطاقة التى تستخدمها غرائز الحياة فى اداء عملها اسم « الليبيدو » (٣) .

---

(١) هول ولندزى : نظريات الشخصية ـ الترجمة العربية ـ الهيئة المصرية العامة للتاليف والنشر ـ القاهرة ١٩٧١ ، من ص ٧٥ الى ص ٧٩ .

(٢) Primal Scene.

(٣) Libido.

اما غرائز الموت ، أو كما يسميها فرويد أحيانا بغرائز التدمير ، فتقوم بعملها بصورة اقل وضوحا بالمقارنة بغرائز الحياة ولكنها تنجح فى النهاية فى القيام بدورها ، ولذلك افترض فرويد أن لدى الشخص رغبة شعورية فى أن يموت .

وفيما يتعلق بالقوى الضابطة للأنا ، فهى العمليات السيكولوجية الضابطة مثل الادراك والتذكر والحكم والتمييز والتجريد والتعميم والاستدلال المنطقى ، كما يستخدم الأنا قدرا من الطاقة لكبحجماح«الهو» (١) كى لايتصرف باندفاع ، ويطلق هذه القوى المقيدة اصطلاح « الشحنات المضادة » ، على عكس القوى المحركة أو الشحنات ، واذا ما أصبح « الهو » مصدر تهديد بالغ ــ فان (الأنا) ينشىء الدفاعات حياله ، والدفاعات الرئيسية هى الكبت والاسقاط وتكوين رد الفعل والتثبيت والنكوص . وتتميز جميع عملياتالدفاع بسمتين مشتركتين : انها تفكر وتزور وتحرف الواقع وانها تعمل لاشعوريا بحيث لا يفطن الشخص الى ما يحدث . ويستخدم الأنا ، بوصفه الجهاز الادارى لتنظيم الشخصية ، الطاقة لاقامة التكامل بين نظمها الثلاث : الهو والأنا والأنا الأعلى ، انهدفهذه الوظيفة التكاملية للأنا هو ايجاد تآلفداخلى داخل الشخصية حتى يستطيع الأنا اقامة صلاته بالبيئة بكفاءة (٢) .

وهكذا يحدد فرويد سمات الشخصية بقوله :

« تتمثل السمات الدائمة للشخصية اما فى الاستمرارات الثابتة للدوافع الأصلية أو فى أمور اعلائية ترجع اليها أو فى تكوينات استجابية ضد تلك الدوافع الأصلية (٣) .

وخلاصة القول أن فرويد وأتباعه يفسرون سمات الشخصية بارجاعها للوقائع التى خبرها الفرد فى مرحلة الطفولة ، فمثلا ، ميل الفرد « س » للحياة الاجتماعية ، لا يفسر هذا الاتجاه لكون الجسم مكتنزا كما ترىالمدرسة التكوينية ، وانما يفسر هذا الاتجاه الانبساطى عن طريق وقائع وظروف خاصة بالمرحلة الأولى من طفولته مثل توافر فترة رضاعة كافية ، أو توافر عناية كبيرة من الأم . وعلى العكس تفسر مدرسة التحليل النفسى سلوك الأفراد الباردين (٤) على انهم تعرضوا لنظم صارمة لتدريبهم على الذهاب

---

(١) Id.

(٢) المرجع السابق ــ ص ٦٢ ، ص ٦٤ .

(٣) Freud, S. : Character and Anal Erotism, Collected Papers, II, The Hogarth Press, London 1950, P. 50.

(٤) Cold Individuals.

للمرحاض . ويجب ملاحظة ان مراحل نمو وتكوين الشخصية تمر فى المراحل السابقة الذكر فى حالة الاشخاص الأسوياء ، ولكن اذا تعرض الفرد لاحباط قوى فى احدى مراحل النمو ، فانه يمكن حدوث نكوص للمرحلة السابقة ؛ وهنا يصبح الشخص غير سوى أى مريض نفسى (عصابى) أو ذهانى ؛ وتحديد نوع العصاب أو الذهان ليس بشكل تكوين الجسم ، وانما بدرجة وقوة ونوع الاحباط الذى يتعرض له الفرد ودرجة الشعور بالأمان الذى كان يتمتع بها (١) ، ويستمر اهتمام مدرسة التحليل النفسى بمرحلة الطفولة حتى فى تفسير السلوك الاجرامى ، فانها تفسر السلوك الاجرامى، ان لم يكن كله ، فى اطار النظرية الفرويدية .

وقد اثرت مدرسة التحليل النفسى فى مؤلفات ودراسات الكثيرين من الانثروبولوجيين وعلماء الاجتماع ، فمثلا اهتم الأنثروبولوجيان « جورير »(٢) و «لابار» (٣) بمرحلة الطفولة فى دراستهما عن الشخصية القومية ، وتوجد دراسات تبين النتائج المدمرة التى تترتب على الفصل المبكر بين الطفل وأمه ، والآثار الضارة التى يحدثها هذا الفصل فى شخصية البالغ (٤) ،ولكن توجد دراسات أخرى تحذر من المبالغة فى الآثار الضارة المترتبة على الفصل المبكر بين الطفل وأمه .

فمثلا ترفض « هيلدا ديفيز » القول بأن الأطفال الذين يعزلون عن امهاتهم فى مرحلة مبكرة وهؤلاء الذين يتعرضون لنظم تربية صارمة يصابون بأمراض ذهانية عند الكبر ، وخاصة تلك التى من اعراضها اللامبالاة والاكتئاب (٥) ، وهناك دراسات اخرى تؤكد النتائج المدمرة للشخصية المترتبة على الافراط والمبالغة فى رعاية الأمهات لأطفالهن ، واهم هذه النتائج الخطيرة انتشار الأمراض العصابية والذهانية (٦) .

يتضح مما سبق أن هناك مدارس نفسية واجتماعية وانثروبولوجية

---

(١) Fenichel O. : The Psychoanalytic Theory of Neurosis, W.W. Norton, N.Y., 1945, 0P. 470.

(٢) Geoffrey Gorer.

(٣) Weston La Barre.

(٤) Bowlby, Y., Child Care and The Growth of Love, Abridged and Edited by Fry, M., Penguin Books, London, 1953.

(٥) Devis, Hilda, Deprivied Children, The Mesham Experiment. Oxford University Press, London 1954.

(٦) Levy, D., Mental Overprotection, Columbia University Press, N.Y. 1943.

تؤيد اهمية مرحلة الطفولة كعامل محدد للشخصية ولذلك لا يمكن دراسة محددات الشخصية بدون الاشارة الى مرحلة الطفولة ويجب الأخذ فى الاعتبار اختلاف الاطار المرجعى النظرى لكل مدرسة فكرية ، رغم الاتفاق على اهمية مرحلة الطفولة فى تكوين الشخصية .

ترابط وتواقف محددات الشخصية (١) :

لا تعمل المحددات سابقة الذكر فى حالة استقلال او تباعد وانما تعمل معا ويتوقف بعضها على البعض الآخر ، ولا يمكن فصل تلك العوامل عن بعضها الا عن طريق التجريد وبهدف الدراسة والتحليل . فسمات شخصية فرد ما هى نتاج التفاعل المستمر لتكوين الفرد البيولوجى والنفسى مع العوامل المادية والاجتماعية والثقافية التى تحيط به فى حياته ، بل انه يندر ارجاع سلوك معين او اتجاه او قيمة معينة الى عامل واحد من العوامل المحددة للشخصية ، وانما الى عدة عوامل متشابكة . ويتضح ذلك من الأمثلة التالية :

يخضع الطفل لعملية اجتماعية معينة على اساس نوعه ، ولذلك فان الطفل الذكر يعامل بأسلوب مختلف عن معاملة الطفل الأنثى ، وكلما مر الطفل بمراحل الطفولة وانتقل الى مرحلة الحلم ثم مرحلة المراهقة وسار كشخص بالغ باقى مراحل العمر ، تنوعت انواع السلوك المتوقعة منه ، ولا شك أن ثقافة المجتمع تحدد الخطوط العامة والتنوعات السلوكية المتوقعة من الشخصيات فى مراحل العمر المختلفة ووفق نوع الفرد ان كان ذكرا أو انثى ، هنا نلاحظ تواقف وتداخل بين المحددات البيولوجية المتمثلة فى النوع والعمر والمحددات الثقافية المتمثل فى الأدوار المحددة ثقافيا للشخصيات التى تنوعت على اساس النوع والعمر .

واحيانا تصنف بعض العوامل المحددة للشخصية ببساطة كعوامل بيولوجية ، ولكن الفحص الدقيقيين أنها ليست كذلك ، وانما هى نتاج عوامل متعددة معقدة ، فمثلا المرض وما يحتويه من آثار على تكوين الشخصية هو ظاهرة بيولوجية من حيث تعرض الجسم لجرثومة معينة ، وما يصاحب ذلك من أعراض جسمية مرضية ، وما يترتب على ذلك المرض من آثار فى تكوين شخصية المريض ، ولكن عندما يحدث مرض معين لشخص بالذات ، نجد أن هناك عددا من العوامل المتشابكة التى تؤثر فى هذا الموقف ، منها العوامل البيولوجية باستعداد الجسم بمقاومة ذلك المرض أو ان التأثر به

---

(١) Interdependence of The Determinants.

مباشرة ، هذا بالاضافة الى عوامل ثقافية تتمثل فى المستوى الصحى والعلمى الذى وصل اليه المجتمع الذى ينتمى اليه الفرد ، وما يترتبعلى ذلك من عوامل تؤثر فى شفاء المريض او عدم شفائه ، وفى تحديد مدة الشفاءوتحديد مدى معاناة المريض لأعراض المرض ، ولا يمكن اغفال عوامل العضوية فى الجماعة والمستوى الاجتماعى والاقتصادى لأسرة المريض ، وما يترتب على ذلك من تاثير فى شفاء المريض ومدة الشفاء وكذلك لا يمكن اغفال الانماط الثقافية المحددة لدور المريض فى ذلك المجتمع ، والأدوار التى يؤديها المقربون له فى ذلك الموقف ، وما يستخدمونه من وصفات بلدية او اساليب علمية فى ذلك الموقف ، وما يصاحب ذلك من تأثيرات فى حالة المريض وفى امكانية شفائه السريع أو حدوث الوفاة أو حدوث مضاعفات قد تؤثر فى شخصيته مدى الحياه . ويمكن اضافة مثال ثان فى المجال ، وهو سمة البدانة سواء أكانت منتشرة بين اعضاء جماعة ما أو خاصة بشخص معين فى جماعة ما ، ان النظرة السريعة ترجع تلكالسمة فى الشخصية الى عوامل بيولوجية خالصة ، ولكن النظرة المدققة تبين وجود عدةعواملمتداخلة، فمثلا لا يمكن اغفال العامل الثقافى المتمثل فى التكنولوجيا المستخدمة فى انتاج المحاصيل الزراعية وفى تحديد أنواعها وعادات الطعام ومعايير الصحه والجمال المنتشرة فى الجماعة ، ولهذه العوامل الثقافية اثر كبير فى تحديد درجة البدانة وطول القامة ، فالأمر لا يرجع ببساطة الى العوامل البيولوجية وحدها كما توحى النظرة السطحية السريعة .

وعند دراسة التوافق بين العوامل البيئية الطبيعية والثقافية فى تقرير سمات الشخصية ، تجدر الاشارةالى ما تقوم به الثقافة من تأثير فى توجيه ، واحيانا فى تشويه الادراك الحسى بالعالم الخارجى ، فقد اثبتت التجارب ان الايحاء الاجتماعى يلعب دورا هاما فى تكوين الاطاراتالمرجعية للاحساس ، اذ يمكن اعتبار الثقافة كغمامة أو مجموعة عدسات من خلالها يرى الانسان بيئته الخارجية .

واخيرا نشير الى بعض الأبحاث التى بينت التداخل بين محددات الشخصية ، فقد قام العالم «سبيتز» والعالمة «وولف» بدراسة أظهرت بعض الاختلافات فى السلوك الجنسى (١) بين الأطفال الخاضعين لتربية صارمة والأطفال المتمتعين بعناية كبيرة من الأمهات ، فقد بينت الدراسة كثرة حالات الاثارة الذاتية للأعضاء التناسلية فى المجموعة الأولى من الأطفال، فى حين تقل تلك الحالات نسبيا فى المجموعة الثانية (٢) .

---

(١) auto-erotic.

(٢) Spitz, R., Wolf, K., Autoerotism, Some Empirical Findings and Hypotheses, The Psycho analytic Study of the child, International Universities Press, N.Y. 1949, Vol. 3 . 4, PP. 85-120.

ويظهر ترابط العوامل الفسيولوجية والثقافية للشخصية فى الأمراض الهستيرية والأمراض النفسية الجسمية وفى نمو مفهوم «الذات» ، فتتكون صورة الذات عند الفرد ، بصورة جزئية ، عن طريق مجموعة من العوامل الفسيولوجية والثقافية وهى شعور الفرد بجسمه وادراكه لمظهره والخبرات التى يكتسبها الفرد فى اثناء علاقاته مع الآخرين وميول الفرد واتجاهاته نحـــو ذاته .

واخيرا نشير الى مثال يبين التوافق بين المحددات الجبلية ومحددات العضوية فى الجماعة والمحددات الموقفية : يعيش الأخوان سعيد وابراهيم فى عائلة متوسطة الحال وهما توأمان ومتشابهان كثيرا من الناحية البيولوجية ، ويخضعان لأنماط ثقافية متشابهة ، اذ أنهما يعيشان مع والديهما ومجموعة من الاخوة والأخوات ، وتسير بهما الحياة على المنوال المتشابه لفتـــرة من الزمان ، ولكن يتدخل عامل موقفى مفاجىء يغير الظروف المحيطة بهما راسا على عقب ، فان التوام سعيد يصاب فى حادث سيارة مما يترتب عليه بتر ساقه ويعيش باقى عمره بساق واحدة .

ان هذا الموقف العارض ادى الى اختلاف رئيسى فى شخصية كـــل من التوامين ، هذا بالرغم من تشابه العوامل البيولوجية وعوامل العضوية فى الجماعة نفسها . يتضح مما سبق أن العوامل المحددة للشخصيـــة يتوقف بعضها على البعض الآخر ، اذ أنها لا تعمل فى فراغ وانما تعمـــل بجانب بعضها البعض ، ويحدث تفاعل بين تلك العوامل ومن خلال ذلـــك التفاعل ، وتفاعل تلك العوامل مع عوامل البيئة الطبيعية تنبثق شخصية الفـــرد .

يرجـــع اهتمام المؤلف بالعوامل الثقافية المحددة الى تركيز الأنثروبولوجيا النفسية على دراسة أثر الثقافة فى الشخصية ، ويجب الا يقلل ذلك من أهمية الحقيقة القائلة بأن الشخصية هى نتاج ترابط العوامـــل الفسيولوجيـــة والثقافية والموقفية ، وأن العوامل الثقافية لا تفسر سوى بعض سمـــات الشخصية وليس جميع تلك السمات .

ثالثا ـ سمات الشخصية وقياسها :

يتضح لنا مما سبق ان الشخصية هى تصور نستنتجه من ملاحظتنا لسلوك الفرد وتصرفاته فى المواقف المختلفة ، وتهدف تلك الملاحظة الى تحديـــد التصرفات التى تتمتع بأكبر قدر من الثبات او الاستمرار ، وهكذا تـــدل تلك التصرفات الثابتة نسبيا على الشخصية ، ولا تعد الشخصية تجسيدا لتلك التصرفات ، وانما هى مصدر تلك التصرفات ، فى حين تمثل تلك التصرفات المظاهر الدالة على الشخصية .

ويطلق العلماء اصطلاح « سمات » للتعبير عن تلك التصرفات الثابتة نسبيا ، وقد اهتم علماء النفس بوضع قوائم للسمات التى يستخدمونها فى وصف شخصية الفرد . ويستخدم اصطلاح « سمة » هنا بمعناه العام فالسمة هى اى صفة فطرية أو مكتسبة تميز الفرد عن غيره من الناس .

ولكن لا يجب ان ننظر الى السمة سواء هى السمة المتغلبة أو احدى سمات الشخص الأخرى كأنها صفة ثابتة بل كأنها استعداد عام دينامى من شأنه ان يعين كيفية الاستجابة ، وبناء على ذلك تكون السمة فى حكم الاستعداد الذى لا يبرز ولا ينشط الا اذا كانت ظروف ابرازه وتنشيطه محققة ، وبما ان أهم الظروف التى تؤثر فى الاستجابات السلوكية هى المواقف الاجتماعية ، وبما ان المواقف الاجتماعية تتنوع وتتغير فلا بد اذن من تجنب السرعة والتعميم فى تحديد سمات الشخصية ، ويجب الا ننظر الى السمة كأنها احد امرين لا ثالث لهما . وتختلف السمات فى درجة عموميتها فى مدى تأثيرها سلوك الفرد ، بل كأنها احدى المتغيرات ذات الدرجات والمستويات المختلفة .

ويميز العلامة « البورت » بين ثلاث فئات من السمات على أساس درجة عموميتها ، وهى السمات الأصلية والسمات المركزية والسمات الثانوية ، ويعرف السمة الأصلية « بأنها تبلغ من السيادة قدرا لا تستطيع حياله سوى نشاطات قليلة الا تخضع لتأثيرها اما بشكل مباشر أو غير مباشر ، ولا يمكن لمثل تلك السمة أن تظل مختفية طويلا . فالفرد يعرف بها بل انه قد يصبح مشهورا بها . ويطلق أحيانا على مثل تلك الصفة السائدة اسم السمة البارزة أو العاطفة السائدة » (١) وهذا النوع من السمات ليس شائعا ولا يمكن — الى حد ما — ملاحظته لدى كل شخص .

اما السمات المركزية فاكثر شيوعا وهى تمثل الميول التى تميز الفرد تماما والتى كثيرا ما تظهر ويكون استنتاجها سهلا تماما وعددها لا يتجاوز خمس أو عشر سمات .

وفيما يتعلق بالفئة الثالثة ، وهى السمات الثانوية فهى اقل حدوثا واقل أهمية فى وصف الشخصية ، واكثر تركزا من حيث الاستجابات التى تؤدى اليها وأيضا من حيث المنبهات التى تناسبها .

وبالاضافة الى الفئات الثلاث السابقة للسمات ، يشير «البورت»،

---

(١) د. فرج فرج وآخرون : نظريات الشخصية (الترجمة العربية لكتاب هول ولندزى) — الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر — القاهرة ١٩٧١ — ص ٣٥٠ .

الى ما سماه بالسمات التعبيرية ، وتؤثر تلك النزعات على شكل السلوك او تلونه ولكنها لا تكون واقعية لدى اغلب الأفراد (كما هو الحال بالنسبة للميول والقيم والغايات البعيدة) ومن امثلة السمات التعبيرية السيطرة والمثابرة .

ويجب ملاحظة ان السمة فى حقيقتها صفة فردية ، وذلك لأن السمات توجد دائما فى الافراد وليس فى المجموع بشكل عام ولانها تتطور وتعمم الى استعدادات دينامية بطرق فريدة وفقا لخبرات كل فرد . ويجب ملاحظة انه نظرا لمجموعة التاثيرات الشائعة التى تتضمنها الثقافة المشتركة وتشابه السلالات فان الأفراد يبدون بالفعل ما يمكن اعتباره سمات مشتركة جمعية (١) ، ولكن يجب ملاحظة أن هذا التشابه بين سمات شخصيات الأفراد لا يلغى حقيقة أن السمة هى فردية ، كما ان الشخصية هى حقيقة فردية لكل شخص ، وهنا فى دراسة موضوع تأثير الثقافة الشخصية والاهتمام بالسمات المشتركة الجمعية يجب علينا دائما تذكر ان السمة وكذلك الشخصية كل منهما حقيقة فريدة فردية ؛ والسمات لا تكون فى حالة استقلال عن بعضها البعض وانما ترتبط وتتداخل .

وتستخدم عدة طرق احصائية لدراسة نوع ومدى الارتباط بين سمات الشخصية وأهم تلك الطرق طريقة التحليل العاملى التى تحدد أقل عدد من السمات البسيطة او العوامل المستقلة (نسبيا) التى تتألف منها شخصية الفرد ، وهى ما اطلق عليها العلامة «البورت» اصطلاح السمات المركزية ، وهنا يقوم الباحث النفسى بتحليل السمات المتعددة الى عواملها الأصلية اى الى السمات الغالبة فى توجيه السلوك عامة ويستخدم فى ذلك اولا الاختبارات السيكلوجية وقوائم قياس الشخصية ثم يستخدم طريقة استقلالها .

وبرغم ان السمة هى احدى المتغيرات الهامة فى السلوك لأنها تعمل على اتساقه وانتظامه فى الطريقة التى يسلك بها الفرد وعلى ثباته نسبيا فى المواقف المتشابهة فانه يجب ملاحظة أن ذلك الاتساق والثبات هى أمور متغيرة وليست جامدة ، نتيجة عوامل وظروف معينة ، منها الحالة المزاجية والعقلية للفرد ودرجة قوة الدافع ومدى وضوح المثيرات والصيغ الكلية للمواقف المختلفة ، هذا بالاضافة الى تاثير عوامل السن والنوع والمستوى التعليمى .

---

(١) المرجع السابق — ص ٣٤٩ .

ولا يمكن اغفال عامل طبيعية السمة ذاتها ، فالسمات التى تحددها قيم ثقافية مثل الأمانة والصدق يظهر فيها التغير بصورة أوضح مما يحدث فى السمات التى تحددها العوامل الوراثية مثـل النضج الانفعالى .

وتعد مقاييس التقدير المتدرجة من أفضل الوسائل لتقدير السمات ووصفها كميا ، فبدلا من وصف شخص ما بالاعتدال فى تصرفاته ، أو بالمرح أو بالثقة بالنفس ، فان المقاييس المتدرجة تبين مدى ما لدى الفـــرد من هذه السمات بنسبة مئوية أو برسم بيانى . وهكذا تقع السمات العامة أو المركزية على محور ذى قطبين ، يمثل كل قطب اقصى حدود التطرف ، ونقطة الاعتدال فى هذا المحور تقع فى الوسط حيث لا يسيطر فيها اى من القطبين على الآخر . فمثلا فيما يتعلق بسمة المرح والاكتئاب تمثل درجـــة ١٠٠ اكثر الناس مرحا ، فى حين أن اشدهم اكتئابا تكون درجته صفرا ، أما الشخص المتوسط تكون درجته ٥٠ ، والسمات مثل باقى الظواهـــر النفسية الأخرى توزع على الأفراد اعتداليا ، وهناك اشكال عدة للمقاييس المتدرجة لسمات الشخصية ، من اكثرها شيوعا ما يكون على صورة قوائم من السمات يشير فيها بعلامة الى السمات التى يتسم فيهـــا الشخص المفحوص ، وهى موازين يستطيع أن يطبقها الآباء والمدرسون على اطفالهم وتلاميذهم ، كما يستطيع الكبار تطبيقها على أنفسهم فتسمى فى هذه الحال المقاييس الذاتية . وفى مقاييس السمات يجب أن تعرف السمات تعريفا واضحا لكى تفهم بوضوح وعلى النحو نفسه وذلك بشرح الألفاظ وتوضيحها بالمرادفات والأمثلة السلوكية ، ويجب ان تعرف درجات السمات بوضـــوح وان تقدر كل سمة على مقياس متدرج خاص .

مثال :

ضع علامة + على درجة السمة التى ترى انها تتفق وما لديك من مثابرة :

مثابر جـــدا

يندر ان يستسلم

لا يترك عملا دون انجاز

يعزف عن الأعمال الصعبة .

متخاذل جدا

وكثيرا ما يشترك عدد من الحكام تقارن تقديراتهم ويؤخذ المتوسط ، ثم ان اتصال عدد من الحكام بالمفحوص فى مواقف مختلفة تعطيهم انطباعات عنه يمكن الموازنة بينها فى التقدير النهائى لسمة معينة ، ومن المفيد أن

يناقش الحكام تقديراتهم وان يحاولوا التوفيق بينها ، فذلك افضل من قيام كل منهم بتقديره مستقلا عن غيره (١) .

حاول علماء النفس تحديد الأقسام الأساسية لسمات الشخصية ويرى بعضهم أن تلك الأقسام هى :

١ — المميزات الجسمانية : القامة — القوة — الصحة — الجمال

٢ — المميزات الحركية : سرعة الحركة أو بطئها — الاندفاع أو القدرة على الكف — الجلد والمثابرة — المهارة والحذق — أسلوب الحركة .

٣ — المميزات العقلية : القدرة على حل المسائل — على التعلم والتذكر — على التخيل الابداعى — حصافة الراى وسلامة الحكم — المقدرة على التكيف .

٤ — المميزات المزاجية : تواتر الحالات الانفعالية ودرجة تغيرها — مدى الانفعال وشدته — الحالة المزاجية المتغلبة — الاتجاه الانعالى العام .

٥ — أساليب التعبير عن الذات : النزعات المتغلبة — التعويض — الانبساط أو الانطواء — السيطرة او الخضوع — البسط او القبض — الرجولة الخلقية او الأنوثة .

٦ — المميزات الاجتماعية : القابلية للتأثر بالعوامل الاجتماعية — القابلية للاندماج الاجتماعى — التعدى على الغير — الاشتراك الفعال فى النشاط الاجتماعى — الاتجاه العام فى تقدير القيم — الصفات الخلقية كالصدق والكذب والأمانة الخداع (٢) .

ان هذا التصنيف لسمات الشخصية كسائر التصانيف لا يخلو من عيوب كاغفال بعض السمات او عدم التمييز التام بين السمات التى قد تبدو متداخلة أو مكررة ، ولكن من العسير تلافى مثل هذه العيوب ، لأن الموضوع معقد

---

(١) د. عثمان فراج : الشخصية والصحة العقلية — ص ٨٢ .

(٢) د. يوسف مراد : مبادىء علم النفس العام — ص ٣٦١ ، ص ٣٦٢ .

لاقصى حد وبخاصة اذا نظرنا الى الشخص وهو يسلك سلوكه فى ظروف اجتماعية متنوعة ومتغيرة . ويجب دائما أن نعقب على النظرة التحليلية بالنظرة التاليفية التى تحاول ان تحدد الصورة التكاملية التى تربط بين مختلف السمات مع بيان صلة كل سمة .

يتضح لنا مما سبق وضع مقياس عام لتحديد جميع سمات الشخصية ، ولهذا اهتم علماء النفس بوضع اختبارات لقياس بعض سمات الشخصية ، أو بالأصح بعض مظاهر الشخصية .

ومن الطبيعى أن يتركز اهتمام علماء النفس حول السمات الأولية ، وهى تلك السمات التى تتميز بالاستقلال النسبى عن غيرها من السمات الأخرى ، كما ان عددها محدود ونصل اليها عن طريق منهج التحليل العاملى الذى يصنف السمات المتشابهة فى وحدات اعم واشمل ترتبط فيما بينها ارتباطا يميزها عن غيرها من السمات .

وقد اهتم علماء النفس اول الأمر باختبار السمات العقلية وقياسها وأهم هذه الاختبارات هى المعروفة باختبارات الذكاء ، اما اختبارات الشخصية لتقدير السمات الخلقية من انفعالية واجتماعية فهى حديثة العهد ومن امثلتها :

١ — اختبار «ألبورت» (١) : لدراسة سمة السيطرة أو الخضوع . وتطبيق ذلك الاختبار أوضح ان سمة السيطرة أو الخضوع لا تكون ثابتة على الدوام . فالشخص الذى يبدى النزعة الى السيطرة فى بيئة اجتماعية ما كالبيئة القروية قد يظهر فى صورة الخاضع المسالم اذا وضع فى وسط مدينة كبيرة ، فالسمة تكون دائما مرهونة بالعوامل الاجتماعية المختلفة .

٢ — اختبارات « هارتشون ومای» (٢) : لتقدير الأمانة أو الخداع .

٣ — اختبارات « ترمان وميلز» (٣) لتقدير الرجولة الخلقية او الأنوثة سواء فى الذكور أو الاناث .

---

(١) Allport.

(٢) Harttshorne & May.

(٣) Terman & Miles.

٤ — اختبار «ويللوفبى» (١) : لتقدير درجة النضج الانفعالى .

اختبار «ثرستون» (٢) : لتقدير درجة توافق الشخصية ، وهو مكون من ٢٢٢ سؤالا تتناول بصفة خاصة الجانب الانفعالى وذكريات الطفولة وموقف الشخص من والديه ومن سائر المجتمع .

اختبار « نيمان وكوهلستت» (٣) : لقياس سمتى الانطواء والانبساط .

ـ اختبار « برنروتر » (٤) : وهو شبيه باختبار ثرستون غير أنه يصلح فى الوقت نفسه لتقدير أربع سمات مختلفة هى النزعة الى الانحراف النفسانى والاعتماد على النفس والانبساط والانطواء واخيرا السيطرة والخضوع .

٨ — اختبار « دونى » (٥) : وهو اختبار تأليفى لتقدير مجموعة من السمات الحركية والارادية والخلقية مثل : سرعة الحركة والمرونة وسرعة التصميم ومقاومة المعارضة وثبات الراى والاهتمام بالتفاصيل والمثابرة الارادية .

٩ — الاختبارات الاسقاطية : وهى أكثر اختبارات الشخصية استخداما وان كانت أصعبها تقديرا لنتائجها ، وهى تلك التى تقوم على عملية الاسقاط التى بها ينسب الشخص بطريقة لاشعورية انفعالاته المكبوتة الى غيره من الناس او الى الأشياء التى يراها او الأصوات التى يسمعها ومن أشهرها اختبار بقع الحبر لعالم رورشاخ (٦) ، ويتكون من عشر بقع من الحبر منها خمس ملونة

---

(١) Willoughby.

(٢) Thurstone.

(٣) Neymann - Kohlstedt.

(٤) Bernreuter.

(٥) Douney.

(٦) Rorschach.

والأخرى غير ملونة ، تعرض الواحدة بعد الأخرى على من يراد فحصه ويطلب اليه ان يذكر ما يراه فيها ، وأن يعلق عليها تعليقا حرا فيصف ما تذكره بـه وما يتوارد على ذهنه من خواطر بعددها .

ويوجد اختبار تفهم الموضوع (١) وقد وضعه العالم الأمريكي موراى (٢) ، وتهدف هذه الاختبارات اصلا الى اظهار الدوافع الرئيسية ، والانفعالات والعواطف والعقد والصراعات السائدة فى الشخصية . ويتكون هذا الاختبار من عشرين صورة تصور مواقف معينة ، بعضها للذكور وبعضها للاناث وبعضها للاطفال ، ويكون كل موقف فى هذه الصور مثيرا يدورحول شخص يماثل المختبر فهو من جنسه وفى نفس سنة قدر الامكان ، ثم يطلب الى الشخص المختبر أن يروى قصة توحى بها الصورة وتصف احوال من فيها من الأشخاص . وقد اتضح بعد اجراء هذا الاختبار على كثير من الاشخاص ان المختبر فى قصته غالبا ما يتكلم عن حياته وعن متاعبه دون أن يشعر بذلك اى يسقط مشاعره فى روايته عن الشخص الذى يمثل شخصيته فى الاختبار .

١٠ ــ وهناك اختبار تداعى المعانى وهو يسمح أيضا بالكشف عن العقد المكبوتة أو عن رغبات الشخص او مخاوفه ، واول من استخدمه العالم السويسرى يونج (٣) ويشتمل على مائة كلمة تذكر للمفحوص واحدة بعد الأخرى ، ويطلب اليه ان يرد على كل كلمة تطرأ على ذهنه وبأسرع ما يستطيع ، ويقاس زمن الرجع الذى يمضى بين سماعه الكلمة واجابته ثم يدرس طول زمن الرجع للكلمات المختلفة ، وطبيعة الاستجابة والتغيرات التى تطرأ عليها حين يعاد الاختبار مرة أخرى ، مع مراعاة ما يبدو على الشخص من تردد أو حرج أو انفعال عند الاجابة ، ومن ثم يمكن معرفة المعانى التى لها صلة بعقده أو مخاوفه ولو من بعيد ، وقد ثبت أن لهذا الاختبار قيمة بالغة فى التحقيق الجنائى .

رابعا ــ نظريات الشخصية :

يتخصص اليوم فرع من علم النفس فى دراسة الشخصية وهو علم نفس الشخصية ، وهو فرع غنى بتعدد النظريات التى تحاول تفسير

---

(١) TAT : Thematic Apperception Test.

(٢) Murray, H.

(٣) Yung.

الشخصية عن طريق تحديد بنائها ودينامياتها وارتقائها ، ويعكس تنوع نظريات الشخصية ثراء وتعقد ظاهرة الشخصية من ناحية وحداثة علم الشخصية من ناحية ثانية ، فهو علم حديث لم تكتمل معالمه لا قبل القرن العشرين بقليل وذلك بالرغم من ان الفلاسفة قد درسوا بعض جوانب الشخصية منذ آلاف السنين . وبرغم تنوع نظريات الشخصية وتشابه بعضها ببعض فقد صمدت فى الوجود يومنا هذا لأن كلا منها يساهم بشىء فى فهم تلك الظاهرة المعقدة وهى الشخصية .

وترتب على تنوع وتعدد نظريات الشخصية ان كثرت تعاريف الشخصية بصورة لانجدها فى اى ظاهرة نفسية أخرى ، وتنوع وتعدد نظريات الشخصية لا يرجعان فقط الى تعقد قيد البحث والى حداثة علم الشخصية ، وانما يرجعان كذلك الى اهتمام علوم اخرى كثيرة بالشخصية ، فالى جانب علم النفس نلاحظ ان كلا من علم الاجتماع وعلم وظائف الاعضاء وعلم الحياة وعلم الوراثة والأنثروبولوجيا والفلسفة تهتم ايضا بدراسة الشخصية ، ويخرج عن مجال هذا الكتاب عرض نظريات الشخصية لأن موضوعه علاقة الثقافة بالشخصية ، وهو موضوع الأنثروبولوجيا النفسية ، الذى يشتمل على مجموعة من نظريات معينة ، وترتبط تلك النظريات بصورة ما بنظريات علم نفس الشخصية كما يتضح ذلك من الفصول السابقة والقادمة .

ويجب أن تتكون النظرية بصورة عامة من مجموعة من الفروض المرتبطة والمتعلقة بالظاهرات التجريبية قيد الملاحظة ، ومن التعريفات التجريبية التى تسمح لمستخدمها بالانتقال من النظرية المحددة الى الملاحظة التجريبية؛ وبالتالى يجب أن تتكون نظرية الشخصية من مجموعة من الفروض تتصل بالسلوك الانسانى بالاضافة الى التعريفات التجريبية الضرورية ، ويجب كذلك ان تكون نظرية الشخصية شاملة نسبيا ، وان تكون مستعدة لمواجهة او لاصدار التنبؤات بخصوص نطاق واسع من السلوك الانسانى .

لاينطبق هذا التصور المثالى لنظريات الشخصية على نظريات الشخصية المتاحة حتى الآن ، وهذه النتيجة التى توصل اليها العالمان النفسيان «هول» و «لندزى» فى مؤلفهما الشهير عن نظريات الشخصية ، فبعد مسح وتحليل دقيق لأهم نظريات الشخصية ، تبين لهما معظم النظريات بأقصها الوضوح ، اذ أن نظريات الشخصية كثيرا ما تغلف فى كتلة ضخمة من الصور اللفظية الحية التى تهتم باقناع القارىء المتردد ولكنها لا تعرض بوضوح الافتراضات النوعية التى تكمن وراء النظرية (١) .

---

(١) د. فرج فرج وآخرون : نظريات الشخصية (الترجمة العربية) القاهرة ١٩٧١ — ص ٢٩ ، ٣٠ .

ويرتبط بهذا الافتقار الى الوضوح والتحديد تكرار الخلط ماهومعطى او مفترض وبين ماهو مقرر على أساس تجريبى وقابل للاختبار ، وذلك لأن المشتقات أو التنبؤات التى تولدها النظرية هى وحدها القابلة للاختبار التجريبى ، اما بقية النظرية فانه يفترض او يعطى ولا يجب الحكم عليه على اساس من الاثبات او النفى ، بل يحكم عليه طبقا لنجاحه فى توليدفروض أو قضايا محققة ، وهكذافان معظم نظريات الشخصية ينقصها التفرقة الواضحة بين نظرية الشخصية ذاتها وبين متضمناتها او مشتقاتها .

ويترتب على ذلك حدوث خلط خطير فى عملية اشتقاق التقريرات التجريبية من النظرية ، وذلك فانه من المحتمل ان يصل أفراد مختلفون يستخدمون النظرية نفسها الى مشتقات متعارضة ، ويعكس هذا التناقض حقيقة أن معظم أصحاب نظريات الشخصية قد اتجهوا نحو التفسيرات التالية على الحقائق بدلا من الاتجاه نحو توليد العنبؤات الجديدة المتعلقة بالسلوك .

وبالرغم مما قد تكون عليه نظريات الشخصية من جدب بالموازنة الى المثل الأعلى لما يجب ان تكون عليه ، فانها لا تزال تمثل خطوة كبيرة الى الأمام بالموازنة الى التفكير الواقعى الساذج ، هذا بالاضافة الى أن وجود تلك النظريات للشخصية يجعل من الممكن العمل من اجل تحقيق المثل الأعلى لما يجب أن تكون عليه نظرية الشخصية ، ومن الواضح ان الحالة الراهنة لنظرية الشخصية تمثل تحسنا كبيراً بالقياس الى مكانتها الشكلية منذ عشرين سنة ، وتعمل نظريات الشخصية الحالية على استثارة انواع عامة معينة من البحث وتزودنا بمقاييس او ابعاد معينة تعتبر ذات اهمية فى الكشف عن مشاكل جديدة ، وقد ينتج عن قدرة نظريات الشخصية على توليد الأفكار واستثارة حب الاستطلاع ، وتحريك الشكوك أو على توليد الاقناع ، ينتج عن ذلك ازدهار صحى للبحوث ، بالرغم من افتقارها الى الدقة الشكلية (١) .

وفيما يتعلق بنظريات الشخصية ذات الأهمية ، فقد حددها العالمان «هول» و «لندزى» بالنظريات التالية : نظرية التحليل النفسى عند فرويد ــ نظرية يونج التحليلية ــ النظريات النفسية الاجتماعية : آدلر وفروم وهورنى وسوليفان ــ علم الشخصية لدى موراى ــ نظرية المجال عند ليفين ــ سيكلوجية الفرد عند البورت ــ النظرية العضوية ــ علم النفس الجبلى

---

(١) المرجع السابق ص ٣٢ .

عند شيلدون ــ نظريات العامل ــ نظرية المثير والاستجابة ــ نظرية الذات عند روجرز ــ نظرية مورفى الاجتماعية والحيوى .

يتيح العرض السابق للمتخصصين فى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا التعرف بصورة عامة على مفهوم الشخصية ، كما يتيح الفصل الثالث والخاص بالثقافة للمتخصصين فى علم النفس التعرف بصورة على مفهوم الثقافة والشخصية ، وهى موضوع الفصل القادم .

الفصل الخامس

نظريات الثقافة والشخصية

- تمهيد
- نظريات الصيغة الكلية
- نظريات البناء الأساسى للشخصية
- نظرية الشخصية المنوالية
- نظرية الشخصية القومية

الفصل الخامس

نظريات الثقافة والشخصية

تمهيد :

سبق أن بينا ان موضوع الانثروبولوجيا النفسية هو دراسة العلاقة بين الثقافة والشخصية ، وأن الاختلاف بين الثقافة والشخصية هو اختلاف فى النوع وليس فى الدرجة ، وقد حاول بعض الأنثروبولوجيين وعلماء النفس تفسير العلاقة بين الثقافة والشخصية عن طريق وضع النظريات .

والنظرية فرض لم يتأيد بعد ، او تأمل حول الواقع لم يتأكد بعد بصورة تقطع بصحته ، ولا يمكن ان تكون النظرية صادقة أو خاطئة ، وان كانت مشتقاتها أو متضمناتها يمكن أن تكون كذلك ، ويمكن تعريف النظرية فى صورتها المثالية بأنها مجموعة من الفروض ذات الصلة بالوقائع التجريبية التى تهتم بها النظرية ويجب أن تكون تلك الفروض مفيدة أو تنبئية فيما يتعلق بتلك الوقائع التجريبية ، ويتوقف على طبيعة النظرية احتمال أن تكون هذه الفروض عامة للغاية او نوعية الى حد ما . ويجب ان تضم النظرية كذلك مجموعة من التعريفات التجريبية ، وكثيرا ما تسمى هذه التعريفات بالتعريفات الاجرائية اذ انها تحاول ان تحدد العمليات التى يمكن بها قياس المتغيرات أو المفهومات العامة .

ان جوهر اى علم يكمن فى اكتشاف علاقات تجريبية ثابتة بين المتغيرات اى القوانين ، ووظيفة النظرية أن تقود هذه العملية بأسلوب منظم وان تدفعها للامام ، ويتحقق ذلك عن طريق توفير الفروض أو القضايا التى يمكن قبولها او رفضها على ضوء المادة التجريبية المحكمة الضبط ، ان المشتقات أو الفروض هى وحدها التى يمكن اختبارها تجريبيا ، أما النظرية نفسها فهى تفترض ، ويتحدد قبولها أو رفضها بمقدار فائدتها ، وليس طبقا لصدقها أو خطئها .

ومن الواضح أن تلك الصورة المثالية غير متوافرة تماما فى معظم النظريات ، كما هى غير متوافرة فى نظريات الثقافة والشخصية ، ويهمنا هنا تاكيد خاصية عدم خضوع النظرية ذاتها لاختبار الصدق والخطأ ، لأن هذه الخاصية تفسر تعدد بل وتناقص تلك النظريات ويتضح ذلك فى الفقرات التالية .

وبرغم تعدد وتناقص نظريات الثقافة والشخصية فانه يمكن تمييز

اتجاهين عامين تنتظم فيها تلك النظريات وهما الاتجاه التكرارى والاتجاه التنظيمى .

يتمثل الاتجاه التكرارى فى القول بأن كل عضو فى مجتمع ما هو حامل ثقافة ذلك المجتمع ، وفى رأسه توجد صورة مصغرة(١) ومكررة(٢) لتلك الثقافة ، تتكون تلك الصورة المكررة تدريجيا وتندمج فى ذات الشخص من خلال التنشئة الاجتماعية وتتلاءم مع جهازه العصبى ، وترى الصياغة المتطرفة لهذا الاتجاه أن هذه الصورة المكررة والمصغرة للثقافة هى شخصية الفرد ، أما الصياغة المعتدلة فترى انها تمثل فقط جزءا من شخصيته .

وقد ركزت الدراسات التى اتبعت ذلك الاتجاه على اساليب التنشئة الاجتماعية وهى الأساليب التى عن طريقها تتحد ثقافة المجتمع فى شخصيات أعضائه ، وكذلك على اساليب تكيف المهاجرين مع الثقافة الجديدة .

وفيها يتعلق بهؤلاء الأفراد الذين لا ينطبعون بثقافة مجتمعهم ، فانهم يمثلون الفئة المنحرفة أو الشاذة التى لا يخلو منها مجتمع ، ولا يلغون الفرض المشتق القائل بوجود شكل واحد للشخصية عند جميع الأفراد الحاملين لثقافة واحدة ، وهكذا يتضمن الاتجاه التكرارى وجود ترابط قوى بين الثقافة والشخصية ، وعلى ضوء هذا الفهم فان العلاقة بين الثقافة والشخصية تصبح علاقة تطابق ، وبالتالى يمكن استنتاج الثقافة من الشخصية واستنتاج الشخصية من الثقافة (٣) .

وافضل من تمثل الاتجاه الكرارى العلامة « ميد » التى تقول : « ان اى عضو فى جماعة معينة ، فى حالة تحديد مركزة بدقة فى الجماعة ، هو عينة كاملة لثقافة خاصة بجماعة كبيرة ، ويمثل هذا العضو تلك الجماعة ، ولذلك ينظر اليه كاخبارى يمدنا بالمعلومات اللازمة لمعرفة تلك الجماعة . وهكذا فان شابا عمره ٢١ سنة مولود من والدين امريكيين من اصل صينى فى مقاطعة صغيرة بالقرب من نيويورك ومتخرج حديثا من جامعة هارفارد ، وآخر اصم وابكم من الجيل العاشر من أصل بريطانى مولود فى مدينة بوسطن ، يتساويان فى كونهما ممثلان كاملان للشخصية القومية الأمريكية ،

---

(١) Microcosmic metaphor.

(٢) Replica.

(٣) Wallace, A., Gulture and Personality, Random House, N.Y. 1961, PP. 85 & 86.

هذا فى حالة الأخذ فى الاعتبار بصورة كاملة وضـــعهم الفردى وصـــفاتهم الفردية » (١) .

وتستخدم النظريـــات التى تتبع الاتجـــاه التكرارى المنهج الثقـــافى والاستدلالى فى فحص الفروض المشتقة ، ويميل هذا المنهج الى اخضاع الوصف الأثنوجرافى للتحليل النفسى ، وهنا يقوم الباحث بتحليل التقـــارير الوصفية عن الأنماط الثقافية وخاصة المتعلقة بالتنشئة الاجتماعية ومرحلة الطفولة المبكرة ويفسرها على ضوء احدى نظريات التحليل النفسى ، وهكذا فان هؤلاء المحللين النفسيين يستنتجون من المادة الثقافية معنى تلك المادة عند الفرد كعضو فى المجتمع . تسير فى الاتجـــاه التكرارى — بدرجـــات متفاوتة — مجموعة من النظريات ، وندرس منها فى هذا الفصل نظرية روح الثقافة ونظرية البناء الرئيسى للشخصية ونظرية أسلوب النظر الى الحياة ونظرية الشخصية القومية .

تعرض الاتجاه التكرارى لكثير من النقد ، وتتمثل الصور المتطرفة فى رفض هذا الاتجاه تماما ، ووصفه بالتعسف والبعد عن الواقع ، أما الصور المعتدلة والمعقولـــة ، فترى أنه لا يمكن وجود علاقة تطابق أو تكافؤ بين الشخصية والثقافة لاختلاف مستويات التجريد ، فالقول بأن الشخصية هى تجسيد للثقافة يشبه القول بأن الطفل هو تجسيد لمعدل المواليد ، وترى كذلك ان شخصيات أفراد المجتمع الواحد تتنوع بدرجة عظيمة يستحيل فيها تطبيق صيغة واحدة عليها جميعا .

هذا بالإضافة الى انه لا يوجـــد تبرير منطقى للافتراض بأن التنظيم الاجتماعى يتطلب درجـــة عالية من مطـــابقة الســـلوك الفردى للادوار الاجتماعية .

لم يقف أصحاب نظريـــات الاتجـــاه التكرارى مكتوفى الأيـــدى أمام الاعتراضات السابقة ، وانما سارع معظمهم بالاعتراف بأن أفراد المجتمع الواحد ، حتى فى المجتمعات البسيطة المتجانسة ، يظهرون الكثير من التنوع والاختلاف فى تصرفاتهم نتيجة للتفاعل بين العوامل البيولوجية والبيئية ، ولكنهم يعودون فيقررون ان هذا التنوع لا ينفى وجود خصائص نفسيـــة مشتركة ، وهكذا بالرغم من وجود اختلافات فردية بين اعضاء المجتمـــع الواحد فانه توجد ايضا تصرفـــات تتمتع بالانتشـــار والشمـــول ، وهى الموضوعات التى يجب التركيز عليها فى أبحاث الثقافة والشخصية (٢) .

---

(١) Mead M. and Metraux, R. (eds), The Study of Culture at a Distance, Univ. Of Chicago Press, Chicago, 1953, P. 648.

(٢) Ibid. PP. 87 - 90.

وكبديل للاتجاه التكرارى ظهر الاتجاه التنظيمى ، ويجمع هذا الاتجاه مجموعة من النظريات التى تعارض مبدأ تشابه أعضاء المجتمع الواحد لخضوعهم منذ صغرهم لثقافة واحدة ، فمثلا لا يمكن أن نفترض أن الذكور والاناث فى مجتمع ما يشتركون فى قيم واحدة أو فى الأدوار نفسها والبناء العاطفى نفسه .

تقرر الدراسة الميدانية وجود تنوع وتوزيع للخصائص النفسية والاجتماعية للافراد فى كل لحظة ، ولذلك تعارض نظريات الاتجاه التنظيمى الافتراض بأن الشخصية ما هى الا صورة مصغرة من الثقافة أو هى عملية ادماج الثقافة فى الذات ، وانما تقرر أن كلا من خصائص الشخصية وخصائص الثقافة هى تجريدات شكلية يستنتجها الباحث من ملاحظة وقائع مختلفة تماما ، ففى حالة الشخصية يدرس الباحث فردا واحدا معينا للوصول الى تعميمات مستنتجة من ملاحظة سلوك هذا الفرد لفترة كافية ، أما فيما يتعلق بالثقافة فهى تعميمات مستنتجة من ملاحظة السلوك عند أكبر عدد ممكن من الأفراد الذين يعيشون فى مجتمع واحد . وتطبيقا للاتجاه التنظيمى ، افترضت بعض النظريات وجود الشخصية المنوالية وشخصيات المركز وهى تعميمات من مادة خاصة بالشخصية ومادة خاصة بالثقافة ، اذ لا توجد قائمة محددة لفئات السلوك التى تحدد الشخصية ، ولا يوجد أى عدد محدد أو نسبة معينة للافراد الذين يجب أن يشتركوا فى سلوك معين ليصبح نمطا ثقافيا ، كذلك تشمل خصائص الثقافة عبارات عن علاقات بين أنماط السلوك ، وهى علاقات لم يدل بها أى اخبارى ، ولا يستطيع ان يدلى بها . ان الخصائص الثقافية لا تتطلب أن تكون واقعا سيكلوجيا بالنسبة للاخبارى .

ويعرض هذا الفصل بعض نظريات الاتجاه التنظيمى وهى نظرية ثنائيا سجية الثقافة ونظرية شخصيات المركز ونظرية الثيمات والشخصية المنوالية ، ولنتناول الآن عرض نظريات الأنثروبولوجيا النفسية ، سواء ما يرجع منها للاتجاه التكرارى أو للاتجاه التنظيمى .

أولا — نظريات « الصيغة الكلية » :

يتفق عدد كبير من الأنثروبولوجيين على الاعتقاد بأن ثقافة أى مجتمع تتميز بالتكامل والترابط وبوجود صيغة كلية(١) تجمعها ، وتتمثل تلك الصيغة الكلية فى مجموعة من القيم والاتجاهات التى تضفى عليها الثقافة قيمة كبرى ، وتؤثر تلك القيم والاتجاهات فى سلوك الأفراد وشخصياتهم .

---

(١) Configuration.

ويتضح مفهوم « الصيغة الكلية » فى مؤلف العلامـــة « بينيديكت » نماذج من الثقافة ، فقد أوضحت كيف أن كل نموذج ثقافى قد درسته يحتوى على صيغة كلية أو على محور أو مركز يؤثر فى سلوك الأفراد وشخصياتهم، وان الذى يخرج فى سلوكه على تلك الصيغة الكلية يعد شخصيا منحرفا . ونبين دراسة العلامة « بينيديكت » ، أن تلك الصيغ الكلية ليست واحدة فى كل الثقافات وانما هى مختلفة ، وقد تكون متناقضة كما أوضحت تحليلاتها للاسلوب الأبللونى فى قبائل البيبلو والأسلـــوب الديونيزيانى فى قبائـــل كيوكيوتل . وهكذا فان النظرة النسبية هى الأساس التحليلى المستخدم عند مقارنة الصيغ الكلية فى الثقافات المختلفة . وقد تابع العلماء هذه النظرية باجراء المزيد من الأبحاث الميدانية التى اظهرت جوانب جديدة ، فقد تبين أن الثقافة الواحدة قد تجمع أكثر من صيغة كلية واحدة ، وقد وضع العلماء اصطلاحات أخرى للتعبير عن مفهوم « الصيغة الكلية » ، وفيما يلى أهم مجهودات العلماء ونظرياتهم الخاصة بمفهوم الصيغة الكلية .

١ — نظرية « روح الثقافة » :

ترى تلك النظرية أن كل ثقافة تتميز « بروح » (١) معينة ، وهى مجموعة من الخصائص النفسية المجردة التى تستنتج من تحليل المادة الثقافيـــة ؛ وتسيطر تلك الروح على شخصيات حاملى الثقافـــة . ويشبه العـــلامة « ولاس » روح لثقافة بالهندسة ، فكما أن الهندسة يعبر عنها عن طريق بديهياتها الفطرية أو عن طريق النمو التاريخى لنظرياتها ، فالحال كذلـــك بالنسبة لروح الثقافة التى تتمثل فى جانبين هما ، الجانب الاستمرارى والجانب التطورى ، ويتمثل الجانب الاستمرارى فى التواجد الدائم لاطار مرجعى أو منظور محدد يتكون من مجموعة من القواعد والمقاييس العامة التى تحكم العمليات العقلية ، ويشبه هذا المنظور البديهيات التى تقوم عليها الهندسة ، أما الجانب التطورى فهو خطة الثقافة التى تنكشف تدريجيا من خلال تاريخ ثقافة معينة يمكن الوصول الى تحديد روحها ، كما هو الحال بالنسبة لدراسة الهندسة من خلال العملية التاريخية لنمو نظرياتها (٢) .

اهتم فلاسفة التاريخ بالجانب التطورى من روح الثقافات وصبغوه بصبغات قدرية واسطورية ، وحددوا الخطط العامة لتطور الثقافة عبـــر القرون ، وقد اختلفوا فى تحديد مراحل التطور الثقافى ، ومن أشهر هؤلاء

---

(١) Genius.

(٢) Wallace, A., Culture and Personality, Random House, N.Y. 1961, P. 95.

« فيكو » و «سبنسر » و «شبنجلر » . يحتاج التعريف السابق لروح الثقافة الى امثلة توضح تلك النظرية ، وافضل مثال للجانب الاستمرارى لروح الثقافة يقدمه المتخصصان فى علم اللغة النفسى « سابير » و « هورف » ، ويرجع لهما الفضل فى نمو تلك النظرية ، وقد نادى بامكانية التعرف على روح الثقافة من خلال التحليل الدقيق للغة المجتمع ، وعرف هذا الاتجاه فى كتب الثقافة والشخصية بفرض « سابير وهورف » (١) . وتجدر الاشارة فى هذا المجال الى دور العلامة « سابير » فى تطوير دراسات الثقافة والشخصية ، فقد نظم مع العلامة « دولارد » حلقات للمناقشة حول الثقافة والشخصية فى جامعة ييل فى الثلاثينات ، وكان يصر دائما على اهمية موضوع الشخصية عند دراسة وتحليل ثقافة مجتمع ما ، ولم يكن مقتنعا بالنظريات الثقافية البحتة التى تنظر الى الفرد على انه مجرد حامل سلبى لثقافة ما ، وانما كان يرى أن الثقافة يجب أن تدرس على انها « صيغ كلية » تجريدية من الافكار وانماط الفعل ، ويرى أن لتلك الصيغ الكلية معان مختلفة بصورة لا نهائية عند الأفراد الحاملين لتلك الثقافة . ويعطى « سابير » وكذلك « هورف » اهمية كبرى للغة ولدورها فى تكيف الأفراد مع مجتمعهم ، ويرى ان كل لغة تبنى العالم الواقعى فى صورة معينة بالنسبة للمتحدثين بها ، ويتم ذلك فى صورة لا شعورية عن طريق العادات اللغوية للجماعة (٢) . تابع العلامة « هورف » نظرية سابير واهتم بدراسة مفهومى « الزمان » و « المكان » فى النظم اللغوية المتضمنة فى بعض الثقافات المختلفة ، فقد جمع اللغات الأوربية الحديثة فى مجموعة لغوية اطلق عليها اسم « اللغات الأوربية المتوسطة القياسية » (٣) واختصرها الى .S.A.E وقارن بين تلك اللغات ولغة قبيلة من الهنود الحمر تدعى « هوبى » ، ولاحظ وجود اختلافات جوهرية بين تلك اللغات ، مما ترتب عليه اختلافات جوهرية فى ارواح تلك الثقافات ، اذ لاحظ أن لغة قبيلة « هوبى » لا تحتوى على كلمات او تركيبات أو تغييرات لغوية تدل مباشرة على مفهوم الزمان وتفرعاته الماضى والحاضر والمستقبل والبقاء والاستمرار والحركة وما الى ذلك .

---

(١) The Sapir - Whorf Hypothesis.

(٢) Mandelboum, D. (ed), Selected Writings of Edward Sapir, in Language, Culture and Personality, University of California Press, Berkeley and los. Angleles, 1949, P. 593.

(٣) Standard Average European-Languages.

ويختلف الأمر تماما فى اللغات الأوربية S.A.E. اذ توجـــد كلمات وتعبيرات وقواعد لغوية تدل مباشرة على مفهوم الزمان وتفرعاته(١) .

ولاحظ « هورف » كذلك أن اللغات الأوربية تتضمن طريقتين تستخدم فيهما اعداد الجمع (٢) والأعداد الأصلية (٣) ، تختص الطريقة الأولى بالامور الواقعية المحسوبة فتقول عشرة رجال أو أربعة قروش أما الطريقة الثانية فهى التعبير عن الأمور الخيالية فنقول عشرة أيام وثلاث سنوات . وقد استنتج العلامة « هورف » أن ادراكنا لمفهومى الزمان والمكان يتم عــن طريق خبرتنا الشخصية أو الذاتية ، ويترتب على ذلك ادراكنا لتلك المفاهيم بصورة موضوعية . فمثلا مفهوم المكان يتكون عن طريق ادراكنا لمسافــة ما على أنها مجزاة الى وحدات مثل البوصة أو المتر ، وكذلك فى تصورنا لمفهوم الزمان ، على أنه فترة مجزاة الى وحدات زمنية منفصلة مثل الدقيقة والساعة واليوم والأسبوع ، ويتصور الفرد الزمان على أنه مكون من وحدات متراصفة مثل ادراكنا لصف من الزجاجات(٤) ، ولاحظ « هورف » أن اهتمام اللغات الأوربية بمفهومى الزمان والمكان قد أثر فى روح الثقافة الغربية ، فمثلا تهتم تلك الثقافة باليوميات والتسجيلات والمحاسبة والرياضيات القائمة على المحاسبة ، وكذلك تهتم بالتتابع الزمنى الدقيق للحوادث والتاريخ والاهتمام بدقة المواعيد ، وتقديم السلع على أساس ساعات العمل ، هذا بالاضافة الى الحوليات والحوادث التاريخية والاتجاه التاريخى الذى يتمثل فى تفسير وقائع الحاضر عن طريق الرجوع لأحداث الماضى ، وعلم الآثار ، واعطاء أسماء للفترات الماضية مثل الكلاسيكية والرومانتيكية .

وهكذا استطاع العلامة « هورف » أن يحدد تأثير النظم اللغوية على الثقافة الغربية ، ولاحظ « هورف » أن اهتمام اللغات الأوربية بمفهومى الزمان والمكان لا وجود له فى لغة « هوبى » وانما يوجد تصورات اخرى للزمان والمكان ، فبينما يفهم الزمان فى الثقافة الغربية على أنه حركة على المكان ويعد التكرار المتشابه فى السلوك مضيعة للجهد والوقت وعبثا لا فائدة منه ، فان الأمر يختلف عند قبيلة « هوبى » ففى تلك القبيلة لا يعد الزمان حركة وانما « الحدوث المتأخر »(٥) لكل سلوك حدث من قبل ، ولذلك لا يعد

---

(١) Corroll, J. (ed), Language, Thought, and Reality : Selected Writings of Benjamin Lee Whorf, Technology Press of Massachusetts Institute of Tecnology, Boston, 1956, P. 57.

(٢) مثل ١٢ ، ٢١ ، ٣٥ .

(٣) ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، . . . . . الى ١٠ .

(٤) Ibid, PP. 139 & 140.

(٥) Getting later.

التكرار المتشابه للسلوك جهدا ضائعا أو عبثا لا طائل منه ، وانما هو مجهود متراكم ، أو تخزين كمية غير مرئية من الأحداث من السلوك يمكن استخدامها فى المستقبل ، ويتضح هذا التصور لمفهوم الزمان من اشكال معينة السلوك عند قبيلة « هوبى » ، فمثلا تكرار الصلاة فى فترة معينة ، يتيح للفرد ان يستخدم هذا التكرار فى أوقات الصلاة فى المستقبل ، وبالتالى لا يؤدى الصلاة فى الأيام التالية ، على أساس انه اداها دفعة واحدة فى الماضى ، فمثلا عندما يكرر فرد ما من قبيلة « هوبى » مراسيم الصلاة اليومية عشر مرات ، فانه لا يصلى الأيام العشرة التاليه على أساس انه يستطيع استخدام او استرجاع الصلوات المكررة التى اداها دفعة واحدة فى الماضى ، وهو فى ذلك يتساوى مع اى فرد آخر من القبيلة يؤدى الصلاة بصفة يومية ، ويظهر هذا الفهم الخاص للزمان فى الخطوات المكررة فى الاحتفالات الراقصة ، فان تلك الخطوات المكررة يمكن ان يختزنها الفرد ، ويتصور انه يستطيع أن يستخدمها فى احتفالات اخرى تحدث فى المستقبل ، وبالتالى عندما يقام احتفال راقص جديد ، فانه لا يشترك فيه فعلا ، ولكنه يتصور أنه مشترك فيه لأنه كرر الرقصات فى احتفال سابق ، وان هذا التكرار يتيح له حق استخدام الرقصات المكررة فى الاحتفال الجديد ، وبالتالى فانه يتصور أنه مشترك فى الاحتفال ، وأنه يسهم فيه بالرقص ، برغم أنه لا يكون من الناحية الواقعية حاضرا ذلك الاحتفال أو يكون حاضرا كمشاهد وليس كراقص .

ولنتناول الآن فى ايجاز الجانب التطورى لمفهوم روح الثقافة ، يقصد بروح الثقافة فى معناها التطورى برنامج نمو وتتابع الاطار المرجعى للثقافة قيد البحث ، وقد بين العلامة « كروبر »(١) أن تاريخ ثقافة ما يعبر عن تتابع مميز لحالات تطور تلك الثقافة وعن وصولها الى مرحلة الازدهار والتحقيق الكامل لروح تلك الثقافة ، وفى النهاية عن الوصول الى مرحلة الاجهاد والضعف ، ويقترح أن هذا التابع هو بمثابة برنامج لعمل « الامكانيات المنطقية » لأساليب وانماط تلك الثقافة ، وبعد تحقيق تلك الامكانيات المنطقية تكون الثقافة قد وصلت الى أعلى درجة ، يمكن أن تصل اليها من خلال الامكانيات المتوافرة لها والمتمثلة فى روحها ، ويقدم لنا « كروبر » نموذجا توضيحيا للجانب التطورى لروح الثقافة من خلال تحليلاته لنمو الرياضة الاغريقية(٢) .

---

(١) Kroeber, A., Configurations of Culture, University of California Press, L.A. 1944.

(٢) Kroeber, A., Anthropology, Harcourt, Brace, N.Y. 1948, PP. 330 - 331..

لاحظ « كروبر » ان علم ورياضة الاغريق قد وصلا فى القرن الرابع قبل الميلاد الى الذروة ثم توقفا تماما عن التقدم بعد ذلك ، ولاحظ كذلك أن الاغريق لم يحققوا الكثير فى علم الحساب البسيط ، ويرجع ذلك بصورة جزئية الى اسلوبهم فى كتابة الكميات عن طريق رموز من الحروف تشير الى اعداد خاصة محددة ، بدلا من استخدام الاعداد ، مما جعل العمليات الحسابية امرا صعبا (١) .

وكذلك لم يحقق الاغريق اى تقدم فى الجبر ، ان فرع الرياضة الوحيد الذى اخترعه الاغريق وطوروه هو الهندسة ، وقد وصلت الهندسة عند الاغريق الى الذروة ، وذلك لأن الاغريق قد استفدوا روح ثقافتهم وحققوا كل امكانيات الهندسة ولم يتركوا شيئا منه للآخرين . وانما اكتشفوا كل ما يمكن ان يكتشف فيه من حقائق وقوانين ، ويقرر « كروبر » ان الهندسة هى تجسيد للخصائص والعلاقات ويمكن ان ترسم لها الصور ، هذا بالرغم من ان الهندسة هى مفهوم تجريدى ، ولا تتوافر تلك الخاصية التجسيدية فى الجبر والحساب .

وايضا لاحظ « كروبر » ان هذا الاتجاه الهندسى التجسيدى كان اسلوب الاغريق السائد فى جميع فروع الرياضة . ويتمثل احد جوانب ذلك الأسلوب فى الاهتمام « بالنسب » ، ويمكن التعبير عن ذلك الاهتمام برسم اشكال معينة ، ولذلك كان الاغريق يتجنبون بقدر الامكان كل الأرقام ، فيما عدا الأرقام التكاملية التى يمكن التعامل معها على أنها قوالب محسوسة ومرئية ، وللسبب نفسه كانوا يتجنبون الأرقام السالبة والكسور العشرية ، وذلك لعدم امكانية التعامل معها على أنها قوالب محسوسة ، وفى الجانب الايجابى ، اهتموا بالهندسة وتعمقوا فيها وتوصلوا الى الأشكال المخروطية التى تمثل التعامل مع السطح المستوى للاشياء عن طريق الاتجاه المخروطى .

يتضح قصور الأسلوب الاغريقى فى فشل هذا الأسلوب فى مجال اللوغاريتمات والهندسة التحليلية وحساب التفاضل والتكامل ومفهوم الوظيفة ، يرى « كروبر » أن هذه الامكانيات الرياضية قد تركت لكى تتحقق عن طريق ثقافات اخرى ، وعلى وجه الخصوص الثقافة الغربية التى تتمتع بروح تسمح بتحقيق تلك الاكتشافات .

خلاصة القول ، يمكن تعريف « روح » ثقافة ما على أنها مجموعة عامة جدا من المفاهيم الاولية التى تستخدم كاطار مرجعى لمعظم افراد ذلك المجتمع .

---

(١) قارن بين العدد ١٨ والرمز XVIII .

ويجب ملاحظة أن هذه المفاهيم الأولية قد لا تكون معروفة شعوريا عند أصحابها ، وأن المنهج المتبع لتحديدها هو تحليل المادة الثقافية أو النفسية للمجتمع قيد البحث ، وتتضمن تلك المفاهيم برنامج التطور الثقافى الممكن ، وبالتالى تضع روح الثقافة الحدود على النمو الثقافى الممكن تحقيقه عن طريق الشعب الذى يحمل تلك الثقافة .

٢ ــ نظرية « أسلوب النظر الى الحياة »(١) :

صاحب هذا المفهوم هو الأنثروبولوجى « ريدفيلد » ، ويشير هذا المفهوم أساسا لمضمون معرفى ، ويعرفه « ريدفيلد » بأنه النظرة الخارجية على الوجود ، وهى نظرة عامة تميز شعبا ما ، وهو الطريقة التى بها يرى عضو فى مجتمع ما نفسه بالنسبة لكل شىء آخر ، وهو الصورة التى يكونها أعضاء مجتمع ما عن الأشخاص والأشياء التى تلعب أدوارا هامة فى حياتهم.

ويشمل « أسلوب النظر الى الحياة » الأفكار التى تتضمن الاجابة عن الأسئلة التالية : أين أعيش ؟ بين ماذا أتحرك ؟ ما هى علاقاتى بهذه الأشياء (٢) ؟

يرى « ريد فيلد » أن هذا المفهوم يشمل مجموعة واسعة من المعتقدات التى تمثل الاجابات عن الأسئلة السابقة ، وهكذا يشير « أسلوب النظر الى الحياة » الى الافتراضات الرئيسية عن الطبيعة الوجودية للعالم التى يعتنقها شعب ما ، ويرى « ريد فيلد » أن بعض عقائد أسلوب « النظر الى الحياة » هى عموميات نفسية ، وهى الاعتقاد فى تقسيم الأشياء الى الأمور المتعلقة بالنفس والأمور الخارجة عن النفس ، والاعتقاد فى تقسيم الأمور الخارجة عن النفس الى أمور انسانية وأمور مادية وأمور فوق الطبيعية ؛ وأخيرا الاعتقاد فى التمييز بين الأرض والسماء وبين النهار والليل وبين الولادة والوفاة ، وما الى ذلك .

اهتم « ريد فيلد » بدراسة « أسلوب النظر الى الحياة » فى المجتمعات البدائية ، ولاحظ أنه يتميز بثلاث خواص أساسية هى :

١ ــ عدم وضوح التمييز بين النفس واللانفس ، ولذلك يميل البدائى الى أن يرى نفسه متحدا مع الطبيعة وليس خارجا عنها .

---

(١) World view.

(٢) Redfield, R., The Primitive World View, Proceedings of the Amercian Philosophical Society, N.Y. 1952, 96, : 30-36, P. 30.

٢ ــ مشاركة الانسان البدائى فى المحافظة على ذلك النظام الموحد ، الانسان فى الطبيعة ، بدلا من محاولة السيطرة عليه أو تغييره ،

٣ ــ الدلالة الأخلاقية للعالم ، على اساس أن كل شىء فى الطبيعة حى ، ولذلك يجب أن تكون علاقة الانسان بالطبيعة علاقة اخلاقية ، مثل العلاقات الاجتماعية التى تربط الفرد بأفراد عشيرته أو قبيلته .

ويمكن تتبع هذا المفهوم فى الكثير من الدراسات ، فالى جانب دراسة « ريد فيلد » للمجتمعات البدائية والزراعية والمدن ، توجد دراسات المجتمع المحلى والمجتمع الكبير ، ودراسة « كاسيرر » عن الشخصية الخالقة للاساطير للانسان البدائى ، ودراسة العلامة « هالويل » عن الزمان والمكان فى قبيلة أوجيبوا ، ودراسة « فيبر » للاخلاق البروتستانتية ، ودراسة « مانهيم »للايديولوجيات واليوتوبيات (١) .

٣ ــ نظرية سجية الثقافة :

يقصد باصطلاح سجية (٢) فى هذه النظرية اسلوبا لخبرة عاطفية ما يضفى عليه اعضاء مجتمع ما قيمة مشتركة ، وكذلك يعرفه العلامة « هونيجمان » بانه الصيغة العاطفية للسلوك المنمط اجتماعيا (٣) ، ويعرفه العلامة « باتسون » بانه مجموعة من المشاعر والعواطف نحو العالم وتؤثر تلك المجموعة فى معظم سلوك حاملى الثقافة الواحدة .

ومن اهم الدراسات التى توضح هذا المفهوم دراسة العلامة « بيندريكت » « نماذج من الثقافة » ، فقد لاحظت وجود صورتين لسجية الثقافة تسيطران على شخصيات اعضاء مجموعة من قبائل الهنود الحمر ، وهما الأسلوب الديونيزيانى والأسلوب الأبوللونيانى ، وهما مختلفان تماما كما جاء فى الفصل الأول عند دراستهما بالتفصيل ، وتقرر « بينيديكت » أن الثقافة الواحدة تسودها سجية واحدة ، وهى عامل واقعى محدد لسلوك معظم افراد المجتمع الواحد ، وينظر للخارجين عليه كمنحرفين أو كأشخاص غير اسوياء من غالبية افراد هذا المجتمع . ولكن نادى الأنثروبولوجى الانجليزى « باتسون » (٤) برأى آخر بعد دراساته الميدانية بغينيا الجديدة ، فقد لاحظ وجود ثنائية فى سجية الواحد ، اى وجود مجموعتين من العواطف السائدة ، مجموعة خاصة بالذكور والثانية خاصة بالاناث .

---

(١) Wallace, A., Culture and Personality, P. 100.

(٢) Ethos.

(٣) Honigmann, J., Culture and Personality, Harper, N.Y. 1954, P. 84.

(٤) Batson, G., Naven, Stanford University Press, London 1958, P. 258.

وتجب ملاحظة أن العلامة « باتسون » هــو الذى استخدم اصطلاح « سجية » (١) بالمعنى المحدد هنا ، وقد توصل الى هذا المفهوم اثناء دراسته الميدانية لقبيلة « ياتمول » (٢) فى غينيا الجديدة فى عام ١٩٢٣ ، واهتم فــى دراسته بالطقوس والاحتفالات وخاصة بالاحتفالات الخاص « بتبادل الادوار بين الرجل والمراة » (٣) : وفيه يلبس الفرد ملابس النوع الآخر ويمثل الأدوار الخاصة بذلك النوع . ولاحظ « باتسون » وجود اختلاف كبير فى تصرفات الادوار الوقعية للرجال والنساء ، وبرغم توقع مثل هذا الاختلاف لاختلاف مركز الرجل عن مركز المراة ، فان الجديد الذى اضافه « باتسون » هــو تقسيم مفهوم سجية الثقافة الى سجية للذكور وسجية للاناث ، بعد أن كان سجية للذكور يفهم على انه صيغة كلية عامة تشمل سلوك الذكور والاناث معا . فقد لاحظ ان رجال ياتمول يشتركون دائما فى مناقشات حامية يتخللها حركات عنيفة ، ويجتمعون لهذا الغرض فى « بيت الاحتفالات » ، وفى تلك الاجتماعات يسود سلوك الرجال الخيلاء الشديدة اذ يمشــون بطريقــة استعراضية وقد ملأهم التيه والفخر والعزة ، وتمثل تلك الاتجاهات طابــع الرجولة عندهم ؛ ولا يهتم هؤلاء الرجال بالعمل لتوفير الطعام لاسرهم ، لان ذلك من عمل النساء ، ان كل عملهم هو الاجتماع مع قرنائهم الذين يكرهرنهم والاشتراك معهم فى مناقشات حامية والمشى الاستعراضى المليء بالزهــو والخيلاء وهم يلبسون افخر الملابس ، ويشعر لرجال بالعظمة ويتصرفون فى تكبر شديد . أما الطابع الأنثوى فى السلوك فهو مختلف تماما ، اذ يسود التواضع الشديد واللطف والدعة تصرفات النساء ، ويتركز نشاطهن فى توفير الطعام واعداده وترتيب البيت وتربية الأطفال ، وتتصف علاقات النسـاء بعضهن ببعض بالتعاون والود ويشتركن معا فى احاديث لطيفة ومرحة .

وهن فى ذلك يختلفن عن الرجال تماما ، اذ يتسم الرجال بحساسيــة بالغة ويجدون صعوبة فى التعاون مــع بعضهم البعض ، وتســود بينهم المشاحنات والمناقشات الحامية والاختلافات المستمرة .

ولكن يحدث تبادل فى المراكز بصورة مؤقتة فى بعض الاحتفالات الخاصة بمناسبات معينة ، وهنا تلبس بعض النساء ملابس الرجال الفاخرة ، وتقمن بتمثيل وتقليد سجية الرجال ، فتمشى النساء فى خيلاء وتيه ، ويقابل هــذا العرض التمثيلى بالترحاب والقبول من الرجال والنساء معا ، وفى مناسبات اخرى يتم تبادل الأدوار بصورة عكسية ، فيلبس بعض الرجــال ملابس

---

(١) Ethos.

(٢) Iatmul.

(٣) Transvestism.

النســـاء ويشمون فى تواضـــع تام ، ولكن يقابـــل هـــذا العرض بالسخريـــة من المشاهدين ، ويستنتج « باتسون » من هـــذا الاختـــلاف فى الموقفين ان سجية الرجال اكثر سموا وأعلى قدرا من سجية النساء . ويفسر « باتسون » تلك الثنائية فى سجية ثقافية ياتمول عن طريق مفهوم جديد اطلق عليه اصطلاح « سكيسموجينين »(١) ويعرفه بأنه عملية لتنوع فى انماط السلوك الفردى ، وينتج هذا التنوع من تكرار وتراكم التفاعل بين الافراد ، وفيمـــا يتعلق بتطبيق هذا المفهـــوم على قبيلة ياتمـــول ، يرى « باتسون » أن وجود النساء كجمهور متفرج فى حالة قيام الرجال بالمشى الاستعراضى الملىء بالخيلاء ، يؤدى الى استمرار الرجال فى اتجـــاهاتهم الاستعراضية والمبالغة فيها ، وهذا يؤدى بدوره من جهة اخرى الى تأكيد اتجاهات الاذعان والخضوع عند النساء اللاتى يعبرن عن اعجابهن بتلك الاستعراضات عن طريق التجمهر لمشاهدتها وتكرار عبارات الاعجـــاب والسرور ، وهكذا نجد نوعا من التكامل بين سجية الرجال وسجية النســاء ، اد ينشط كل منهما الآخر ، ويدعمه ، وهذا هو التفسير الدينـــامى الذى وضعه « باتسون » لثنائية سجية ثقافة قبيلة ياتمول .

ومن الواضح أن نظرية « باتســـون » تضعف نظريـــة « الصيغـــة الكلية »(٢) ، فبينما يتضمن مفهوم الصيغة الكلية مبدأ تكامل الثقافة حول محور واحد يتمثل فى مجموعة من القيم والاتجاهات والعواطف السائدة ، نجد أن مفهوم ثنائية سجية الثقافة يضعف هذا التكامل ، ولكنه يقر بوجود تكامل بين سجية الذكور و سجية الاناث .

ولكن ، أدى مبدأ ثنائية « سجية الثقافة » الى كثير من التساؤلات حول الدراسات التى قامت على اساس مبدأ وحدة روح الثقافة ، فمثلا ، هل كان وصف « بينيديكت » للاتجاه الديونيزيانى بقبيلة كيوكيوتل معبرا عن سجية الرجال فقط أو عن سجية الرجال والنساء معا ؟

لم توضح العلامة « بينيديكت » هذا لأمر فى دراستها .

هذا بالاضافة الى ان مبدأ ثنائية السجية القائم على اســـاس النوع يجعلنا نتابع تطبيق هذا المبدأ فى المراكز الاخرى فى المجتمع ، مثل مركز الطفل ومركز الزوج ومركز الأم ومركز الأب ومركز الجد ومركز المحارب ومركـــز التاجر وما الى ذلك من المراكز الأخرى .

---

(١) Schismogenesis.

(٢) Configuration.

وقد قدم العلامة « لينتون »(١) اقتراحا بهذا الاتجاه ، ويتمثل فى تقديم مفهوم « شخصية المركز » ويشرحه بأن شغل الأفراد للمراكز المختلفة والأدوار المرتبطة بها يطبع شخصيات تلك الأفراد بطابع معين اطلق عليها اصطلاح شخصية المركز ، ويرى العلامة « لينتون » أن شخصيات المركز لا تتناقض مع البناء الرئيسى للشخصية فى المجتمع وانما تتكامل معه ، وهكذا يعود « لينتون » لتأكيد مبدأ التكامل الثقافى الذى هو اساس نظرية الصيغة الكلية ، وقد سار العلامة « باتسون » فى الطريق ذاته ، فبعد أن قرر وجود اتجاهين عامين مختلفين فى ثقافة ياتمول ، عاد يؤكد وجود التكامل بينهما ، بل انه يرى عدم امكانية استمرار احدهما بدون الآخر .

هناك كتاب آخرون درسوا مفهوم سجية الثقافة ولكنهم استخدموا اصطلاحات أخرى ، فبالاضافة الى الأنثروبولوجية بينيديكت التى استخدمت اصطلاح نموذج ، نجد الأنثروبولوجية « بيلو » التى استخدمت اصطلاح مزاج(٢) والعلامة كلينبرج الذى استخدم اصطلاح التعبير العاطفى(٣) .

٤ ــ نظرية الثيمات(٤) :

عارض العلامة « أوبلر » بعض اصحاب نظريات الصيغة الكلية الذين يتصورون أن الثقافة الواحدة يسودها مبدأ تكاملى واحد ، فهو يرى من النادر وجود مثل تلك الثقافة ، اذ تبين الدراسات الميدانية أن الثقافة الواحدة يسودها عدد محدود من الثيمات أو القيم أو الاتجاهات ، ولذلك نادى بوجود « ثيمات »تميز كل ثقافة ، ويعرفها بأنها توكيدات دينامية(٥) تشكل طبيعة الواقع عند أعضاء الثقافة قيد الدراسة ، ففى كل ثقافة توجد مجموعة من القوى التى يؤكد أفراد الجماعة على أهميتها وتسيطر تلك الموضوعات على تفاعل الأفراد وسلوكهم أى على الكثير من الأنماط الثقافية ، فقد لاحظ العلامة «أوبلر» عند دراسته لثقافة احدى قبائل الهنود الحمر المسماة «اباش» (٦) وجود مجموعة من الثيمات التى تعمل كقوى فعالة دينامية فى

---

(١) Linton, R. The Cultural Background of Personality, Appleton Century, N.Y. 1945, PP. 129-131.

(٢) Belo, J., The Balinese Temper, Character and Personality, 1935, 4; 120 - 146.

(٣) Klineberg, O., Emotional Expresion in Chinese Literature, Journal of Abnormal and Social Psychology, 1938, 33 : 517 - 520.

(٤) Themes.

(٥) Dynamic Affirmations.

(٦) Chiricahua Apach.

ثقافتهم ، منها ثيمة الاحترام الشديد لكبار السن . الـى جانب هذه الثيمة توجد ثيمة اثبات الصلاحية عن طريق المشاركة . ويتفاعل المبدآن معا . بمعنى ان كبار السن يحوذون على احترام واعجاب الآخرين طالما يعملون فى نشاط ويثبتون صلاحيتهم عن طريق المشاركة فى العمل ، ولكن عندما يضعف الفرد منهم فأن كبر السن لن يشفع له ، ولذلك يعزل عن العمل ولا يعامل بالاحترام الذى كان يعامل به وهونشيط . وهكذا يرى «اوبلر» ان الثقافة الواحدة تسيطر عليها اكثر من ثيمة واحدة ، وتتفاعل الثيمات كقوى دينامية، وتتوازن مع بعضها ، وبالتالى يعارض الأتجاه التكامل الذى ينظر للثقافة كمجموعة من الأنشطة التى تدور حول محور واحد (١)

وقد حدث تطور لمفهوم «الثيمات» (٢) ، وأصبح يدل على مجموعة من القضايا او المبادىء العامة المتعلقة بموضوعات الحياة الطيبة والأهداف الصحيحة والدائمة للوجود الانسانى كما تحددها ثقافة ما .

واليوم يستخدم اصطلاح «الثيمات» فى دراسة الأنتاج الأدبىللمجتمعات المتمدينـــة ، ومن امثلـــة ذلك القصص والمسرحيات والأفلام والأساطير ، واستخدم هذا الأسلوب فى دراسة الثقافات عن بعد (٣) .

ثانيا ــ نظرية البناء الأساسى للشخصية (٤) :

صاحب هذه النظرية عالم النفس «كاردينر» (٥) ، وهو من مدرســـة فرويد المجددة (٦) وقد عارض المدرسة الفرويدية وخاصـــة ما تنادى بهفيما يتعلق بنظرية الليبيدو (٧) ونظريـــة النمو الجنسى النفسى ونظرية الكبـــت اللاشعورى ، وتأثر بتفسيرات الأنثروبولوجيين للثقافـــة وخصائصهـــا ، واستخدام تلك التفسيرات فى صياغة نظرية البناء الأساسى للشخصيـــة التى تمثل التعاون الوثيق بين الأنثروبولوجيا وعلم النفس ، ولا ادل على ذلك من كتاب «الحدود النفسية للمجتمع» الذى اشترك فى تاليفه عالم النفس «كاردينر»

---

(١) Opler, M., Themes as Dynamic Forces in Culture, American Journal of Sociology, Vol. 51 1945, PP. 206.

(٢) Themes.

(٣) Mead, M. & Metraux, R. (eds), The Study of Culture at a Distance, University of Chicago Press, Chicago, 1953.

(٤) Basic Personality Structure.

(٥) Kardiner, I.

(٦) Neo-Freudians.

(٧)

لأنثروبولوجى الشهير « لينتون » والأنثروبولوجيـة « كورادديبوا » والأنثروبولوجى ويست » (١) .

يرى كاردينر ان أفراد المجتمع الحاملين لثقافـة واحدة يشتركون فى سمات معينة للشخصية ، واطلق على تلك السمات المشتركة «البناء الأساسى للشخصية» وعرفها بأنهاالأدو ر الفعالة المتكيفة عند الفرد ، وهى عامة عند جميع أفراد المجتمع الواحد ، ويعطى كاردينو اهمية كبرى لمرحلة الطفولة المبكرة وما يتضمنها من أنماط ثقافية فى تشكيل البناء الأساسى للشخصيـة ففى كل مجتمع توجد من النظم التربوية يطبقها الآباء فى تربية أطفالهم فـى مرحلة الطفولة ، وبرغم وجود اختلافات فردية فى تطبيق تلك النظم . فانـه توجد انماط عامة تمثل اكثر حالات السلوك تكرارا ، فمثلا فى كل مجتمع تميل النساء الى ارضاع اطفالهن لفترات زمنية متقاربة ، بحيث تستنتج ان سن الفطام فى مجتمع (ا) هو سنـه وفى مجتمع (ب) سنتان وفى مجتمع (ج) ثلاث سنو ت ، كذلك الحال بالنسبة لباقى النظم التربوية الخاصة بمرحلة الطفولة مثل نظام التدريب على المرحاض ونظام الثواب والعقـاب ، وعدد مـرات الرضاعة فى اليوم الواحـد ، وأسلوب وضع الملابس على جسم الطفل ، والتنظيمات الجنسية ، ونظام حمل الطفل ، ونظام تشجيع الطفل على النوم ونظام تعليم الطفل النطق لأول مرة وما الىذلك من النظم الأجتماعية والثقافية الخاصة بمرحلة الطفولة .

يرى « كاردنير » — ويتفق معه عـدد كبير من علماء النفس وكـل الأنثروبولوجيين — ان تلك النظم هى عوامل حاسمة فى تكوين شخصية الفرد، ولذلك تؤثر بقوة فى مرحلة الطفولة ، ويستمر هذا التاثير بدرجات اقل فى مراحل النمو التالية .

ان الجديد الذى أضافه « كاردينر » ، هو مفهوم « البناء الأساسى للشخصية » وتحليله للنظم الاجتماعية والثقافية بأسلوب اصيل يبين العلاقة بين الثقافة والشخصية ، فهو يرى أن خضوع الأطفال فى المجتمع الواحـد لخبرات ذات طابع واحد ، واستجابتهم المتشابهة لتلك الخبرات من اهـم العوامل التى تؤدى الى طبع شخصياتهم بسمات مشتركة ، ويتكون مـن مجموع وتفاعل تلك السمات المشتركة البناء الأسـاسى لشخصيـة هؤلاء

---

(١) Ibido.

Kardiner, A., With the collaboration of Ralph Linton, Cora Du Bois, and James West : The Psychological Frontiers of Society, Columbia University Press., N.Y. 1945.

الأفراد ، ان هذا البناء الأساسى للشخصية هو الصيغة الكلية للشخصية العامة التى يشترك فيها معظم اعضاء المجتمع الواحد نتيجة للخبرات المبكرة المتشابهة لتى يشتركون فيها . وكما تختلف اساليب تربية الأطفال من المجتمع الى آخر ، تختلف كذلك اشكال الاسرة ، وتختلف النظم الاقتصادية التى تؤثر بدورها فى العلاقات الأسرية ، وتتفاعل كل تلك العوامل فى تشكيل البناء الأساسى للشخصية .

يستخدم « كاردينر » مفهومى النظم الأولية والنظم الثانوية بطريقة خاصة تختلف عن التعريف التقليدى ؛ يعنى اصطلاح « نظام » عند « كاردينر » أى شكل محدد للتفكير او للسلوك تاخذ به جماعة من الأفراد ، ويمكن ان ينتقل من فرد الى فرد ، ويتميز بأن معظم افراد الجماعة يقبلونه ، ويترتب على الخروج عليه حدوث بعض الاضطراب عند الفرد أو عند الجماعة(١) . أما النظم الأولية فهى النظم الاجتماعية والثقافية التى تتمتع نسبيا بالقدم والثبات والتاثر الضعيف بالتغييرات المناخية والاقتصادية ، وينظر افراد المجتمع الى النظم الأولية على أنها امور طبيعية شأنها فى ذلك شأن عملية التنفس(١) .

ويحدد « كاردينر » موضوعات النظم الأولية بأنها نظام الاسرة والنظم التربوية فى مرحلة الطفولة مثل نظام الفطام ونظام التدريب على المرحاض والمحرمات الجنسية ، هذا بالاضافة الى نظام التكوين الداخلى للجماعة وفنون توفير الطعام .

تلعب النظم الأولية دورا جوهريا فى تشكيل البناء الأساسى للشخصية ؛ وتمثل تلك النظم الوسائل التى تستخدمها الثقافة فىالتأثير على الشخصية ، وبعد أن يتكون البناء الأساسى للشخصية ، يقوم هذا البناء بدور فعال فى التأثير على الثقافة عن طريق النظم الثانوية ، ويحدد « كاردينر » النظم الثانوية بأنها الآداب الشعبية والمعتقدات والطقوس الدينية ، وقد لاحظ « كاردينر » أن فى بعض الاديان الوثنية تتشكل المعتقدات الدينية عن طريق عملية اسقاط لبعض خصائص البناء الاساسى للشخصية ، فمثلا قد ترجع مفاهيم المجتمع عن الآلهة وعلاقتهم بالآلهة للنظم الأولية التى تحدد علاقات الطفل بأبويه .

---

(١) Kardiner, A., The Individual and His Society, (with a Forward and two Ethnological Reports by Ralph Linton), Columbia University Press, N.Y. 1939, P. 7.

Ibd, P. 471.

وهكذا تتلخص نظرية « كاردينر » فى أن كل مجتمع يتميز افراده ببناء أساسى للشخصية ، ويتشكل هذا البناء عن طريق النظم الأولية السائدة فى هذا المجتمع ، وعن طريق عمليات اسقاطية بشكل البناء الأساسى للشخصية النظم الثانوية السائدة فى هذا المجتمع .

أهتم العلامة « كاردينر » باخضاع نظريته للفحص عن طريــق المادة الثقافية ، وبالتالى حقق التعاون المنشود فى ميدان الثقافة والشخصية ، وهو التعاون بين علماء النفس والأنثروبولوجيين ، وقد كشف هذا التطبيق والفحص الأنثروبولوجى للنظرية عن بعض أوجه القصر والضعف فيها ، ويحذرنـــا العلامة « كاردينر » فى مقدمة كتاب « الفرد والمجتمع » أن أوجه القصـــور لا تضعف من اهمية المنهج الذى اتبعه ، والذى يتمثل فى الاهتمـــام باجراء التطبيقات الأنثروبولوجية على نظريته ، أما النتائج السالبة فهى امور مؤقتة ممكن أن تغيرها تطبيقات وابحاث اخرى تؤدى الى نتائج موجبة .

يتضمن كتاب « الفرد والمجتمع » مناقشة قصيرة لخمس ثقافات لقبائل تروبرياند وكيوكيوتل وزونى وتشوكش والاسكيمو ، كما يحتوى كذلك على دراسة طويلة نسبيا تدمها العلامة « لينتون» لشرح ثقافة قبيلة ماركيزاس(١) وثقافة قبيلة تانالا بجزيرة مدغشقر .

وفيما يتعلق بكتاب « الحدود النفسية للمجتمع » توجد مناقشــــات لثلاث ثقافات أخرى ودراسة العلاقة « لينتون » لثقافة قبيلة كومانش (٢) ومناقشة العلامة « ويست » لقبيلة الور (٣) وقبيلة بلا نفيل (٤) . ومن الواضح أن هذين الكتابين لهما أهمية كبرى فى الأنثروبولوجيا النفسية ، لأنهما يؤكدان اهمية تعاون علماء النفس والأنثروبولوجيين لنجاح الدراســـات فى ميدان الثقافة والشخصية .

ثالثا ــ نظرية الشخصية المنوالية (٥) :

قدم العلامة « كاردينر » مفهوم البناء الرئيسى للشخصية ، وهو مفهوم غير أخصائى يركز على البناء الجوهرى للشخصية ويفترض وجود هذا البناء عند كل افراد الجماعة قيد البحث ، وهـــو فى تركيزه على ابراز هـــذا البناء الجوهرى اهمل السمات الهامشية والانحرافات . ويتلف الوضع فى مفهوم الشخصية المنوالية الذى يمثل التركيب الاحصائى المتناظر ، ويقصد بصفة « المنوالية » أن متغيرا ما يتمتع بأعلى تكرار فى توزيع ما .

---

(١) Marquesas.
(٢) Comanch.
(٣) Alor.
(٤) Plainville.
(٥) Modal Personality.

ولذلك يطبق مفهوم الشخصية المنوالية على اى منهج يحدد الشخصية المميزة لأى جماعة ثقافية عن طريق الميل المركزى لأى توزيع تكرارى معين ، وبما انه لا يمكن استنتاج التوزيعات الاحصائية لسمات الشخصية من المادة الثقافية المتمثلة فى التقارير الأنثوجرافية ، اتجه البحث عن مادة أخرى لاستنتاج الشخصية المنوالية ، وتتمثل تلك المادة فى نتائج الاختبارات النفسية لعينة من الجماعة الثقافية قيد الدراسة .

ويضاف الى نتائج الاختبارات النفسية ما يجمعه الباحث من مادة عن الاحلام وسير الحياة ، ولقد ارتبط مفهوم الشخصية المنوالية بالاختبارات الاسقاطية مثل اختبار « رورشاخ » (١) واختبار « سيتوارث » للاستجابة العاطفية (٢) واختبار تفهم الموضوع (٣) . ويستخدم الباحث نتائج تلك الاختبارات الاسقاطية ويستنتج منها السمات النفسية الأكثر تكرارا ،ويتكون من مجموعها الشخصية المنوالية ، وهكذا فى حين يهتم مفهوم الشخصية المنوالية بالتكرار للسمات ، يهتم مفهم البناء الرئيسى للشخصية بالنمط والبناء .

ويوجد اختلاف آخر يتمثل فى المادة المستخدمة لاستنتاج كل من المفهومين ، فبينما يعتمد مفهوم البناء الرئيسى للشخصية على المادة الثقافية ، يعتمد مفهوم الشخصية المنوالية على مادة الاختبارات النفسية . ان واحدا من اوجه القصور لمفهوم الشخصية المنوالية هو ان مادة الاختبارات النفسية لا يمكن أن تمدنا الا بقدر قليل من سمات الشخصية ، وهو القدر الذى يتمثل فى الميل المركزى للتوزيعات التكرارية ، وفى أفضل الظروف ممكن تحديد تكرار ترابطات معينة لعدد قليل من السمات ، فمثلا درس العلامة « ولاس » الشخصية المنوالية فى احدى قبائل الهنود الحمر وهى قبيلة « توسكارورا »، واستخدم اختبار « رورشاخ » فى تلك الدراسة ، وتبين لك أن الترابط بين ٢١ بعد أوسمة للشخصية قد وجد فى عدد قليل من افراد العينة الملاحظ (فقط ٣٧٪) (٤) ويرى المعارضون أن تلك الترابطات سواء تحققت عن طريق الوسائل البسيطة للترابط والتجمع أو عن طريق عامل تحليلى ، لا تكون فى ذاتها بناء

(١) The Rorschach Test.

(٢) Stewart Emotional Response Test.

(٣) The Thematic Apperception Test.

(٤) Wallace, A., The modal Personlity Structure of the Tuscarora Indians, as Revealed by the Rarschach Test. Washungton 1952, Bulletin 150, Bureau of American Ethnology.

ديناميا وانما هى أساسا ابنية تصنيفية ، ويرون كذلك ان الخبرة الانسانية لا يمكن التعرف عليها بدقة عن طريق الاتجاه الاحصائى ، وذلك لأن استخدام اى أداة احصائية يعنى عادة تسجيل عدد قليل من ابعاد او عناصر السلوك والجمع بين تلك الأبعاد فى أشكال مجردة يفرض عليها التكامل بصورة تعسفية (١) .

ولكن ، بالرغم من أوجه القصور السابقة ، فانه لا يمكن الاقلال من اهمية الدور الذى لعبه الاتجاه الاحصائى ، فقد ابرز وجود الاختلاف والتنوع فى شخصيات أفراد الجماعة الثقافية الواحدة ، ومهد لقيام النظريات التى تشرح كيفية انتظام الشخصيات المختلفة فى بناء واحد .

ومن أهم الدراسات المطبقة لمفهوم الشخصية المنوالية دراسة العالمة « ديبوا » لقبيلة الور ، وتجمع العلامة « ديبوا » بين التخصص فى الأنثروبولوجيا والطب النفسى . قضت العلامة « ديبوا » حوالى ١٨ شهرا فى عامى ١٩٣٨ و ١٩٣٩ فى قرية « اتيمالنج » (٢) فى جزيرة الوى باندونيسيا لاجراء دراستها الميدانية لجماعة الور التى تقيم فى تلك القرية . استخدمت « ديبوا » عدة طرق بحث للحصول على المادة ، هذا بالاضافة الى تعلمها ثلاث لغات وهى اللغة الهولندية ولغة « الملاى » ولغة جماعة الور التى اطلقت عليها اسم لغة « الوى » (٣) وفيما يتعلق بطرق البحث التى استخدمتها العلامة « ديبوا » فهى الملاحظة بالمشاركة والحصول على ثمانية « تواريخ حياة » مطولة ، وتطبيق اختبار «رورشاخ » على ٣٧ شخصا وتطبيق اختبار « تداعى الكلمات » (٤) على ٣٦ شخصا ، واجراء اختبار متاهة « بوتيوس» على ٥٥ شخصا وجمع لوحات رسم من ٥٥ طفلا (٣٣ ولدا و ٢٢ فتاة) ، ولكى توطد علاقتها بالأهالى وكسب ثقتهم افتتحت العلامة « ديبوا » عيادة طبية يومية لعلاج الجروح والحميات .

والجديد الذى اتبعته العلامة « ديبوا » فى دراستها هوتوخى الدقة التامة فى تحليل المادة التى جمعتها ، ولتحقيق تلك الدقة المنشودة قامت بتوزيع المادة على المتخصصين لتفسيرها ، فقدمت « تواريخ الحياة » للعلامة « كاردينر » الذى قام بتحليلها ، وأرسلت لوحات اختبار « رورشاخ » للعلامة « أوبرهولزر » (٥) الخبير فى تحليل هذا الاختبار فقدم ، تقريرا وافيا عنها ،

---

(١) Wallace, A., Culture and Personality, P. 110.

(٢) Atimelang.

(٣) Alui.

(٤) Word Association Test.

(٥) Oberholzer, E.

وفيما يتعلق برسوم الأطفال فقد أعطتها للعلامة « شميدل واهنر » (١) الخبير المختص فى تحليل مثل تلك الرسوم ، والجدير بالذكر هنا أن كل خبير أدى عمله بصورة مستقلة عن زميليه ، وجاءت المفاجأة الكبرى عندما اتفقت نتائج التحليلات ، مما أضفى على تلك الدراسة قدرا كبير من الدقة والموضوعية قد لا يتوافران فى أى دراسة أخرى فى هذا الميدان ؛ ولذلك تعد تلك الدراسة علامة مميزة وقدوة تحتزى فى أبحاث « الثقافة والشخصية » .

ولنتناول الآن فى ايجاز بعض خصائص ثقافة « ألور » (٢) ، يقومتقسيم العمل على أساس النوع ويقع توفير الطعام واعالة الأسرة على عاتق النساء، فتعمل المرأة فى الزراعة وجمع الخضراوات ، أما الرجال فمهنتهم التجارة القائمة على المقايضة ، يؤثر تقسيم العمل بهذه الصـورة فى نظم التربيـة الخاصة بمرحلة الطفولة وتؤثر تلك النظم بقوة فى الشخصية وتطبعها بسمات خاصة .

ترتب على قيام المرأة باعالة الأسرة ، أن شغلت مهنة الزراعة معظم وقتها واهتماماتها ، وفى حالة الوضع ، تعود المرأة لمهنة الزراعة بعد عشرة أيام أو اسبوعين فقط ، ولا تأخذ رضيعها معها الى الحقل ، وانما تتركه فى رعاية والده أو أخيه أو أخته أو جده أو جدته ؛ وترتب على ذلك حرمـان الطفل من الرضاعة لفترات طويلة لندرة وجود نساء أخريات يقمن بالرضاعة، لأن جميع النساء يشتغلن بالزراعة ، وترضع الأمهات أطفالهن فى الصباح قبل الذهاب الى الحقل وبعد الظهر فور عودتهن من الحقل ، ويعنين بأطفالهن باقى ساعات النهار وفى الليل ، الا أن تلك الفترات من الرعاية والرضاعة ليست كافية ، ولذلك يسود الأطفال الشعور بالجوع والحرمان معظم سـاعات النهار .

وقد أطلقت « ديبوا » على هذا الموقف اصطلاح « مشاعر الاحبـاط الفمى » اذ لا يحاط الأطفال بالرعاية اللازمة من الأقارب فى فترات غياب الأم، وعندما تعود الأم للمنزل تكون مرهقة من عمل الحقل وأمامهـا الكثير مـن الواجبات المنزلية مثل اعداد الطعام واحضار الماء والنسيج والخياطة ونظافة الكوخ ، هكذا فان الاهمال والجوع هما مصير أطفال « ألور » ، ولا توجد جهود منظمة لتعليم الأطفال الكلام أو المشى أو التدريب على المرحـاض أو الفطام ، وانما تتم تلك العمليات بمجهودات غير منظمة ، ويسودها الاهمال

---

(١) Schmidl - Waehner, T.

(٢) Du. Bois, Cora, The People of Alor, University of Mnnesota Press, Minneapolis, 1944.

وعدم الاهتمام ، ويقاسى الأطفال الجوع فترة عمل الأمهات فى الحقول وهى فترة تمتد من الساعة الثامنة صباحا حتى الخامسة بعد الظهــر ، ولا يهتم الأقارب بالأطفال فى غيبة الأمهات ، وفى حالة صراخ الأطفال من الجــوع يخففون عنهم بتدليك الاعضاء التناسلية ، ويتم الفطام والتدريب على التحكم فى التبرز عند سن الثالثة ، ويبدأ المشى فى الفترة بين سنة وسنة ونصف سنة من عمر الطفل ، ويستمر الاحباط النمى حتى بلوغ الطفل سن الخامسة أو السادسة ، وهنا يكون لديه القدرة على البحث عن الطعام واطعام نفسه ، ويسود تلك الثقافة بعض نظم اباحية ، اذ يمارس الأطفال العادة السريــة بصورة علنية ، ويهدىء الكبار الأطفال عند بكائهم عن طريق تدليك الأعضاء التناسلية لهم ، ويعرف الأطفال معنى العلاقات الجنسية فى سن الخامسة ، ويشترك الأطفال فى العاب جنسية أمام الكبار .

ويستخدم الكبار التهديد كوسيلة للتربية ولدفع الأطفال للتوافق مع نظم الجماعة ، هذا بالاضافة الى استخدام وسيلة المكافأة عن طريق تقديم الطعام والهدايا ، ويستخدم الكبار أحيانا كثيرة سكينا لتهديد الأطفال بقطع آذانهم او ايديهم ، ويأخذ الأطفال تلك التهديدات على محمل الجد ، برغم ان الكبــار لا ينفذون هذا التهديد مطلقا ، وانما يستخدمونه كنوع من المزاح .

ومن الظواهر المنتشرة فى مرحلة الطفل نوبــــات الغضب والصراخ ، والسبب الرئيسى لتلك النوبات رحيل الأم فى الصباح للذهاب الى الحقل ، وتبدأ النوبة بأن يقذف الطفل بنفسه على الأرض ويتمرغ فى التراب ، ويدق رأسه فى الأرض بعنف ، ويصرخ ويتقلب على الأرض ، تستمر تلك النوبات عند الأطفال حتى سن الخامسة او السادسة ، وهنا ينتقل الأطفال الى مرحلة جديدة وهى الاعداد لمرحلة البلوغ ، وتبدأ بارتداء ملابس من جلد الأسد ، وفيها يصاحب الذكور الشبان فى تحركاتهم ، أو يذهبون للعمل فى الحقل مع النساء ، أما الاناث فيــلازمن أمهــاتهن ويتعلمن حرف الزراعــة والنسيج والخياطة والتفصيل ، وكذلك يقوم الذكور والاناث برعاية اخوتهم الصغار .

وتتمثل علامة بلوغ الفتيان لمركز الكبار فى ظهور شعر الذقن ، وبالنسبة للفتيات ، تتمثل تلك العلامة فى الوشم الذى يمارس على اجسامهن عندما يبلغن العاشرة ، ويستمر حتى الرابعة عشرة . وتسود مرحلة المراهقة اباحية جنسية ، ومن خصائص الغزل عندهم أن الفتاة أو المراة هى البادئة .

وتتضمن طقوس الزواج على عمليات مالية كثيرة ، وكان من المتوقع ان يترتب على ذلك استقرار الزواج ، ولكن الواقع غير ذلك ، اذ ينتشر التوتر والطلاق بين الأزواج والزوجات لدرجة أن نصف الزيجات تنتهى بالطلاق . ويتفق المحللون على أن هذا التفكك الأسرى يرجع الى ان الزوج يبحث عــن

الأم فى المراة التى يتزوجها . وكذلك الحال بالنسبة للزوجة التى تبحث عن حنان الأم فى الزوج . ولا تستطيع المراة العادية اشباع هذه الحاجة عند الزوج ، وكذلك الحالة بالنسبة للرجال ، من هنا ينشأ التوتر الذى ينتهى بالطلاق فى معظم الأحيان .

وفيما يتعلق بالسمات العامة المشتركة فى شخصيات جماعة الور ، تقدم لنا العلامة « ديبوا » مفهوما جديدا وهو « الشخصية المنوالية » وهو مفهوم احصائى يختلف عن مفهوم « البناء الأساسى للشخصية » كما ذكر سابقا ، فقد لاحظت « ديبوا » وجود درجة كبيرة من التنوع فى شخصيات جماعة « الور » ، ولكن برغم تلك الاختلافات توجد بعض سمات فى الشخصية اكثر تكرارا من غيرها ، وتكون تلك السمات الأكثر تكرارا الشخصية المنوالية عند « الور » وعند غيرهم من الجماعات ، ويستخدم الباحث الدراسة الوصفية وتحليل نتائج اختبارات اسقاط الشخصية لتحديد السمات الأكثر تكرارا ، وهى عناصر الشخصية المنوالية ، ويفضل الكثير من العلماء مفهوم « الشخصية المنوالية » على مفهوم « البناء الرئيسى للشخصية » ، لأنه يعترف بوجود الاختلافات الفردية فى الشخصية ويضع أسلوبا احصائيا موضوعيا لتحديد الشخصية المنوالية فى المجتمع قيد الدراسة .

ان واحدا من اهم أوجه القوة فى دراسة العلامة « ديبوا » هو اتفاق العلماء الثلاثة الذين اشتركوا ، بصورة مستقلة ، فى تحليل نتائج الاختبارات النفسية ، على تحديد سمات الشخصية المنوالية لجماعة آلور . وأهم تلك السمات هى : الشعور بعدم الثقة فى النفس ، ولا ينظر الأطفال للآباء على أنهم مثل عليا ولذلك يتسم الأنا الأعلى بالضعف ، وعدم وجود ابداع فنى ، وعدم وجود اهتمام بالعالم الخارجى ، والارتياب وعدم الثقة فى الآخرين ، وعدم الشعور بالراحة والأمان ، والشعور بالخوف والقلق ، وعدم المبالاة ، ولذلك يتركون الأمور تسير على هواها ، وضعف العلاقات الشخصية ولذلك لا توجد صداقات عميقة .

وبالاضافة الى اتفاق العلماء الأربعة على تحديد معالم الشخصية المنوالية فى جماعة آلور ، فانهم يتفقون ايضا على تحديد اثر ثقافة آلور فى تلك الشخصية ، فانهم يرجعون السمات السابقة الى اهمال الأم لأطفالها فى مرحلة الطفولة ، وهو الاهمال الذى درس بالتفصيل عند عرض ثقافة آلور. ترجع « ديبوا » عدم وجود « الطموح » فى تلك الشخصيات لاصابة الأطفال منذ الصغر بأمراض الملاريا والديزونتاريا .

وفى تعليق على تلك الدراسة ، يحذر العلامة « باودرميكر »(١) من تعميم نتائج تلك الدراسة على الجماعات التى تعمل فيها النساء بالزراعة ويغبن لفترات طويلة عن بيوتهن ، فقد أجرى دراسة ميدانية فى « نيوايرلاند »(٢) ، حيث يوجد نظام لاطعام الأطفال يشبه الى حد ما النظام المتبع مع أطفال الور ، ولم يجد مشاعر الاحباط الفمى فى القرية التى درسها.

ترجع الأهمية الكبرى لدراسة العلامة « ديبوا » لجماعة « الور » للمنهج الدقيق الذى استخدمته فى دراستها والذى يقوم على ضرورة تعاون الأنثروبولوجيين وعلماء النفس فى مجال الثقافة والشخصية ، هذا بالاضافة الى توصلها لنظرية « الشخصية المنوالية » من خلال دراستها لشخصيات اعضاء تلك الجماعة .

رابعا ــ نظرية الشخصية القومية(٣) :

من الواضح أن النظرية السابقة خاصة بالميدان التقليدى للأنثروبولوجيا الثقافية ، وهى الثقافات البسيطة الخاصة بالمجتمعات البدائية ، ويختلف الوضع فى نظرية الشخصية القومية أو الطابع القومى ، لأنها تهتم بدراسة الثقافات المتمدينة ، ولذلك استخدمت لشرح الخصائص النفسية للمجتمعات الكبيرة مثل الأمم والدول .

ويجمع مفهوم الشخصية القومية بين بعض المفاهيم والنظريات السابقة، وهى روح (٤) الثقافة واسلوب « النظر الى الحياة » (٥) والقيم .

وتتميز نظرية الشخصية القومية عن النظريات السابقة بأنها خاصة بالدول السياسية فتختص بتحديد شخصية الأمريكيين أو الصينيين أو الروس، وكذلك بأنها تتضمن ترابط وانتظام عدد كبير من العناصر فى بناء واحد ، ويجمع بين تلك العناصر علاقات دينامية متداخلة .

ويرى العلامة « والاس » أن مفهوم الشخصية القومى يشبه مفهوم الشخصية الرئيسية ، وهو يفضل استخدام مفهوم الشخصية الرئيسية لأنه يطبق على جميع الثقافات والمجتمعات ، فى حين يطبق مفهوم الشخصية

---

(١) Powdermaker, H., Review of the People of Alor, American Anthropologist, Vol. 47, 1945, P. 160.

(٢) New Ireland.

(٣) National Character.

(٤) Genius.

(٥) World View.

القومية على المجتمعات المتمدينة مثل الدول والأمم ، ولا يمكن استخدامه فى دراسة القبائل البدائية أو المناطق الثقافية ، ويرجع هذا التصور الى لفظ « قومية » ، ولذلك يفضل العلامة « والاس » استخدام اصطلاح الشخصية الرئيسية لأنه اكثر عمومية (١) .

وفيما يتعلق بالمنهج الخاص بالشخصية القومية ، فهو منهج الاستنتاج الثقافى ، ويتمثل فى اعداد الوصف الاثنوجرافى للثقافة قيد البحث ، ثم يقوم الباحث بتحليل تلك المادة الثقافية بغرض استنتاج الأبنية النفسية الداخلية لأعضاء المجتمع الملاحظ ، وفى كثير من الأحيان يكون الباحث مزودا بنظرية فى التحليل النفسى توجه تحليلاته للمادة الثقافية ، ويجب على الباحث فى دراسته للشخصية القومية أن يميز بين الدوافع المركزية والدوافع الهامشية ، ويقصد بالدوافع المركزية العناصر الرئيسية فى البناء النفسى الدينامى ، وتتسم تلك العناصر بالعمومية فى المجتمع ، ويكتسب اعضاء المجتمع الدوافع المركزية فى مرحلة الطفولة المبكرة .

وهكذا تعنى دراسة الشخصية القومية دراسة أكثر سمات الشخصية شيوعا فى اى مجتمع للوصول الى تقديم صورة تجمع هذه السمات ، وقد يكفى الباحث بهذا الوصف أو يتبعه بمحاولة لتفسير نشوء هذه السمات أو بدراسة مقارنة بين الشخصيات القومية فى عدد من المجتمعات (٢) . ويقتصر استخدام مفهوم الشخصية القومية على مجتمعات الأمم والدول بالذات .

ويكاد يجمع الباحثون على أن الحرب العالمية الثانية كانت نقطة انطلاق ضخمة لبحوث الشخصية القومية . فقط كون عدد من الأنثروبولوجيين خلال فترة مؤداها ان فهم المحددات الثقافية للاختلافات بين الشخصيات القومية له اهمية قصوى فى فهم المجتمعات الغربية ذاتها ، وآمن هؤلاء أيضا بأن التفهم الواعى للسمات العامة للدول المشتركة فى الحرب يمكن ان يؤدى الى فهم وتحليل التطورات الأجتماعية والسياسية التى تأخذ مجراها فى الأمم ، واعتقدوا من ناحية أخرى أن التحليل المنهجى للشخصية القومية داخل المجتمعات الغربية ، يمكن ان يؤدى الى اكتساب استبصارات خاصة بضروب الأزمات الدورية وسوء الفهم الذى كثيرا ماكان بين الأفراد الذى ينتمون الى الجماعات القومية المتعددة الداخلة فى حدود الدول المتحالفة وتتذاك (٣) .

---

(١) wallace, A., Culture ane Personality, P. 106.

(٢) د. مصطفى سويف ، مقدمة لعلم النفس الاجتماعى ، مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ١٩٦٥ .

(٣) السيد ياسين ، الشخصية العربية بين المفهوم الاسرائيلى والمفهوم العربى ـ مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، مؤسسة الأهرام ـ القاهرة ١٩٧٣ ـ ص ٤٤ .

قادت الولايات المتحدة الأمريكية ابحاث الشخصية القوميـــة فى فترة الحرب العالمية الثانية ، اذ طلبت من الأنثروبولوجيين المتخصصين فى ميدان الثقافة والشخصية العمل فى المؤسسات العسكرية ، فعمل العلامة «باتسون» فى مكتب الخدمات العسكرية وعمل كل من « جورير » و «لايون» و «كلاكهوهن» و «بينيديكت» فى مكتب المعلومات الحربية الأمريكية ، وقام فريق من هؤلاء العلماء باشراف العلامة «بينيديكت» بدراسات لتحديد الشخصية القومية لدول مختلفة مثل رومانيا وتايلاند واليابان ، وكانت أهم عقبة منهجية قابلت هؤلاء العلماء هى ضرورة دراسة الشعب اليابانى «عن بعد» (١) وذلك لأن الملاحظة المباشرة كانت مستحيلة فى ظروف الحرب ، ولذلك أجروا مقابلات مع مئات اليابانيين من المهاجرين وأسرى الحرب وطبقت عليهم اختبارات نفسيـــة ، كما طلبوا منهم كتابة تواريخ حاتهم ، وحللوا الأفلام السنمائية اليابانية والكتب التاريخية والأدبية والمجلات الشعبية والكتب الدراسية ، والكتيبات السياسية الصادرة فى اليابان .

ونشر بعض هؤلاء العلماء عدة دراسات مستقلة عن الشخصية القومية اليابانية ، وهناك شبه اتفاق على المحدودات الثقافية التى شكلت بعـــض سمات تلك الشخصية . وتعد تلك الدراسات من أهم ما نشر فى ميـــــدان الشخصية القومية ، وفيما يلى عرض موجز لتلك الدراسات :

نشر العلامة «جورير» نتائج دراسته للشخصية القومية اليابانية فى مقالة بعنوان « الثيمات الرئيسية فى الثقافة اليابانية » فى عام ١٩٤٣ ، وحدد فى تلك المقالة بعض خصائص الثقافة اليابانية وهى الاهتمام الزائد بالطقوس وبالدقة وبالنظام ، وبتطبيق نظام حازم وقاس فى التدريب على المرحاض والتحكم فى عملية التبرز ، اذ يجبر الطفل على الاتيان بأفعال لا يستطيع أن يفهمها ، وقبل أن تقوى العضلات المختصة لدرجة تسمح بالقيام بوظائف معينة ، وترتب على صرامة نظم التربية فى مرحلة الطفولة ، شعور الطفل بامتعاض شديد ، ويستمر هذا الشعور فى المراحل التالية لنمو الشخصية ، ولا تسمح الثقافة اليابانية ، التى تعطى أهمية كبرى للنظام ودقة تنفيذ الطقوس ، بأى فرصـة ، قد توجد فى المجتمعات الأخرى ، للتنفيس عن هذا الشعور القوى بالامتعاض وبالعداء بصورة مقبولة اجتماعية ، ولذلك تنفجر تلك المشاعـــر المعادية بقوة فى ظروف مناسبة مثل الحرب أو المشاجرات ، وهكذا يثـ « جورير » التناقض الواضح فى شخصية اليابانيين ، ويتمثل هذا التناقض فى الجمع بين اللطف المتزايد والرقة الشديدة السائدين فى الحياة الاجتماعية

(١) At A Distance or In Absentia.

اليابانية والوحشية المتطرفة والسادية السائدتين فى سلوك اليابانيين اثناء الحرب .

وفيما يتعلق بالنظم القاسية جدا التى يتعرض لها الأطفال اليابانيون للتدريب على التحكم فى التبرز ، فهى تتمثل فى أن تمسك الأم بطفلها بعد الشهر الرقع من عمره وتكشف عن عورته فى الشارع أو على حاجز الشرفـــة ، وتهزه بعنف بغرض أن يتبول أو يتبرز ، وتكرر التدريب نفسه عدة مراة فى اليوم الواحد عندما يصرخ الطفل أو عندما تتصور أن الوقت قد حان لقضاء حاجته ، وفى حالة تهرب الطفل من النظافة يعاقب بقسوة اذ تصرخ الأم فى وجه الطفل فى صوت يثير الرعب ، وكثيرا ما تمسك بالطفل وتهزه بعنف أو تضربـــه .

ويتبع «جورير» النظرية الفرويدية التى ترى أن التدريبات القاسية جدا على النظافة فى مرحلة الطفولة تساعد على نمو الاتجاهات العدائية وغيرها من أعراض الأمراض العصابية (١) .

وقدم العلامة «لابار» تحليلا مشابها للشخصية اليابانية فى الفترة نفسها بعد أن درس عددا كبيرا من اليابانيين المعتقلين فى معتقل مدنى بمدينة «توباز» بولاية «يوتا» الأمريكية ، وحدد الشخصية اليابانية بانها شخصية الفرد المجبر أو المكره ، بل ان اليابانيين — فى رأيه — هم اكثر شعوب العالم تعرضا للجبر والاكراه والالزام ، ويحدد سمات الشخصية القومية اليابانية التابعة لصفة الالزام والجبر بما يأتى :

الميل نحو السرية ، وعدم اظهار العواطف والاتجاهات الذاتية ، والمواظبة ، والمثابرة ، والضمير الحى ، والميل الذاتى للاستقامة ، والميل لاسقـــاط الاتجاهات ، والتعصب ، والتكبر والعجرفة ، وسرعة الغضب والدقة والميل نحو الكمال ، والأناقة والنظافة الطقوسية ، والميل للاشتراك فى الاحتفالات والتطبيق للنظم ، ووسواس المرض ، والارتياب ، والحقد والغيرة ، والحزلقة ، والمبالغة فى اظهار العواطف ، وتفضيل الموضوعات الداعـــرة فى الأدب ، والفحش ، والمثلية الجنسية عند الذكور . ويفسر تلك الخصائص فى الشخصية

---

(١) Gorer, G., Themes in Japanese Culture, in Haring, D. (ed), Personal Character and Cultural Milieu, A Collection of Readings. Syracuse University Press, Syracuse 1949, PP. 273 - 290.

القومية اليابانية بالرجوع للمحددات الثقافية الخاصة بالنظم القاسيةالخاصة بالتدريب على المرحاض (١) .

وهنا يتفق و «لابار» مع النتائج التى توصل اليها العلامة «جورير» .

وفى عام ١٩٤٦ نشرت العلامة «بينيديكت» كتابها الشهير عن الثقافة والشخصية القومية اليابانية (٢) ، وفيه تتفق مع الكاتبين السابقين على أهمية نظام التدريب على المرحاض فى تشكيل الشخصية اليابانية فتقول :

« يوافق الجميع على أن الطفل فى اليابان ، وكذلك فى الصين ، درب على نظام التدريب على المرحاض فى وقت مبكر جدا ، ويخضع الطفل فيه لروتين صارم فيه اصرار لا يمكن التهرب منه ، اذ تمسك الأم بالطفل بعيدا عن جسمها ، وتكون قبضتها قوية على جسم الطفل ، وتهزه بعنف . ان ما يتعلمه الطفل من هذا التدريب العنيد (الذى لا يعرف التسامح) ، يجعله مستعدا عند الوصول لمرحلة البلوغ ، لأن يرضخ للامور الملزمة فى الثقافة اليابانيــة » (٣) .

وفى عام ١٩٤٧ نشر العلامة «سبيتزر» مقالا بعنوان «اتجاهاتالتحليل النفسى فى الشخصية اليابانية » ، وفيه يؤيد نتائج الدراسات السابقة ، ويضيف بأن الثقافة اليابانية تشكل الشخصية اليابانية فى صورة تتفق مع نمط العصاب الالزامى (٤) .

تتفق جميع الدراسات السابقة فى نتائجها وفى استخدام نظام الدراسة « عن بعد » لعدم توافر امكانية تطبيق الملاحظة المباشرة للشعب اليابانى فى فترة الحرب .

بعد الحرب العالمية الثانية استمر العلماء السابقون وغيرهم فى دراسة الشخصية القومية مستخدمين فى ذلك الدراسة « عن بعد » ، فقد أسست العلامة «بينيديكت» مشروعا يسمى : أبحاث جامعة كولومبيا فى الثقافة

---

(١) La Barre, W. Some Observations on Character Structure in the Orient : The Japanese Psychiatry, Vol. 8, 1945, P. 326.

(٢) Bendedict, R., The Chrysanthemum and The Sword. Patterns of Japanese Culture, Houghton Mifflin, Co., Boston 1949.

(٣) Ibid, PP. 258 & 259.

(٤) Spitzer, H., Approaches of the Psychoanalysis of the Japanese Personality, in Roheim, G. (ed), Psychoanalysis and The Social Sciences, International Universities Press, N.Y. 1947, Vol. I, PP. 131 - 156.

المعاصرة ، ودرست خلاله ثقافة كل من الصين وتشيكوسلوفاكيا ويهود أوربا الشرقية وفرنسا وبولندا وروسيا وسوريا والمانيا .

واستمرت بعض تلك الدراسات فى مشروعين لاحقين هما « دراسات عن االثقافة السوفينية »« دراسات فى الثقافة المعاصرة » (١) .

ومن الدراسات الهامة التى قام بها فريق جامعة كولومبيا الدراسة الخاصة بالشخصية القومية الروسية والتى قام بها العلامة « جورير » واهتم «جورير» باستخدام منهج الملاحظة المباشرة بالاضافة الى لدراسة «عن بعد»، فقد قام برحلتين الى روسيا فى عام ١٩٣٢ وعام ١٩٣٦ .

والواقع أن دراسة الثقافات والشخصيات القومية « عن بعد » قد تعرضت لكثير من النقد ، وخاصة بعد ان وصلت الدراسات الميدانية الى نتائج مختلفة تماما عن النتائج الخاصة بالشخصية القومية اليابانية ، فبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، استطاع بعض الأنثروبولوجيين أمريكيين اجراء دراسات ميدانية للثقافة اليانية ، فمثلا قضى الباحث « نوربك» وزوجته «مرجريت» (٢) ثمانية أشهر فى عامى ١٩٥٠ ، ١٩٥١ فى مجتمع محلى يابانى لصيد السمك ، ودرسا التدريبات المحلية على المرحاض ، وانكرا وجود صفات القسوة أو العنف فى تلك التدريبات التى لا تمارس فى مرحلة مبكرة جدا ، كما ذكرت الدراسات السابقة ، ولاحظا ان الطفل لا يهز أو يعامل بخشونة فى حالة التبول أو التبرز على نفسه ، وانما بعد ان يتعلم الطفل الكلام ، تحذر الأم طفلها من تكرار التبرز أو التبول على نفسه فى كل مرة يحدث فيها ذلك ، وعندما يصل الأطفال الى السنة الثانية من اعمارهم يكونون قد تعلموا كيفية التحكم فى قضاء حاجاتهم فى أوقات النهار أما فى أثناء فترة الليل ، فان مثل التحكم لا يحدث الا فى سن الثالثة (٣) .

واجرت الباحثة « لانهام » (٤) دراسة سوسيولوجية على عينة تتكون من ٤٤٩ شخصا فى مدينة «كاينان» (٥) وطلبت فى استمارة بحث من كل عائلة درستها أن تكمل ثلاث صيغ ، صيغة خاصة بأطفال المنزل والثانية

---

(١) Mad, M. & Metraux, R. (eds), The Study of Culture at A Distance, University of Chicago Press, Chicago 1953, PP. V & 6.

(٢) Edward & Marget Norbeck.

(٣) Roheim, G. (ed), Psychoanalysis and the Social Sciences, N.Y. 1947, Vol. I PP. 657 & 658.

(٤) Lanham, Betty, Aspects of Child Care in Japan; Preliminary Report in Haring, op. Cit, P. 581.

(٥) Kainan.

خاصة بالأب والثالثة خاصة بالأم التى لديها أطفال فى مرحلة الطفولة ، وقد انكرت وجود صفة القسوة فى التدريب على المرحاض ، ولاحظت ان هذا التدريبات لا تمارس فى سن مبكرة ، وترى أنها لا تختلف كثيرا عما هى عليه فى الولايات المتحدة الأمريكية .

وكذلك قام الباحثان «هوايتنج» و «تشايلد» ببحث مقارن فى الثقافات المختلفة عن نظم التدريب على المرحاض ، وقد لاحظا أن متوسط العمر الذى تبدأ فيه التدريبات الجادة هو سن الثانية ، وفى حوالى نصف المجتمعات التى درست (١٤ من ٢٥ مجتمعا) تبدأ تلك التدريبات فى وقت ما بين السنة والنصف والسنتين والنصف ، وفيما يتعلق بحالات الافراط يوجد مجتمع واحد فى أفريقيا (قبيلة بانا) ، وفيه تبدأ التدريبات عندما يبلغ الطفل الخامسة، أما حالات التفريط ، فيوجد مجتمعان تبدأ فيهما التدريبات على المرحاض اثناء السنة الأولى من عمر الطفل ، وعند مقارنة تلك المعلومات الخاصة بالمجتمعات البدائية بالثقافة الأمريكية ، قرر الباحثان أن الطبقة المتوسطة فى أمريكا تقع بالقرب من حالة التفريط اذ تبدأ تلك التدريبات بعد أن يصل الطفل الشهر السادس بقليل ويعد هذا العمر أصغر من اى عمر آخر فى الثقافات البدائية المبحوثة ، مع وجود استثناء واحد وهو قبيلة «تانالا» (١).

وقد استمر النقاش العلمى حول هذا التناقض بين نتائج الدراسة «عن بعد» ونتائج الدراسة الميدانية للثقافة القومية اليابانية ، وتولد عن هذا النقاش نظرية هامة عرفت باسم « الشخصية الشرجية » (٢) أو « الاتجاهات الاجبارية الشرجية » ، وملخصها أن النظم القاسية التى يتعرض لها الطفل فى سن مبكرة والخاصة بالتدريب على المرحاض والتحكم فى عملية التبرز تطبع شخصية الفرد عند البلوغ بطابع الخضوع والشعور بالجبر والالزام، وغيرها من السمات التى سبق ذكرها عن الشخصية القومية اليابانية . ويؤيد اتباع فرويد تلك النظرية ، وكذلك تؤيدها دراسات الأنثروبولوجيين عن الشخصية القومية اليابانية التى استخدمت منهج الدراسة « عن بعد »، وفى الوقت نفسه ترفضها الدراسات المدانية التى أجريت بعد انتهاء الحرب على الثقافة اليابانية . وقام الباحث «أو رلاتسكى» بدراسة هذا الموضوع ، ورجع الى كثير من الدراسات الميدانية الخاصة بتأثير التدريبات المبكرة للمرحاض على الشخصية ، وتوصل فى الخاتمة الى رفض تلك النظرية لعدم وجود أدلة كافية عليها ، ويقترح تفسير «الشخصية الشرجية» بالرجوع للعوامل الثقافية الأخرى التى تنمى سمات تلك الشخصية بدلا من الرجوع

(١) Whiting J. & Child, I, Child Training and Personality : A Cross - Cultural Survey, Yale University Press, New Haven, 1953, p. 74.

(٢) Anal Character.

الى التدريبات على المرحاض فقط (١) ، وفى مقال قصير اكد الباحث «دای» وجود الأعراض العصابية الاجبارية الاستحوازية والسمات التى عرفت باسم «الشخصية الشرجية» فى الصين ، برغم أن الأمهات الصينيات لا يفرضن تدريبات المرحاض والنظافة على أطفالهن فى سن مبكرة (٢) .

نعود الآن الى الشخصية القومية اليابانية ، شجعت كثرة الاعتراضات على نظرية « الشخصية الشرجية » الأنثروبولوجى «هارينج» على البحث عن محددات ثقافية اخرى لتفسير الشخصية القومية اليابانية ، اذ يرى انه من الأفضل تفسير سمات الاجبار والالزام والاكراه فى الشخصية ليابانية بالرجوع الى حقيقة هامة وهى استمرار وجود حكومة بوليسية لمدة ثلاثة قرون وما تمارسه تلك الحكومة البوليسية من رقابة قوية على الفرد ، ويرى ان خضوع اليابانيين لحكم مطلق لا يمكن التهرب منه قد ادى الى خلق توترات نفسية عند الآباء ، ويفرض التحكم البوليسى قيودا على الأفراد وتزداد تلك القيود عنفا عندما يصل الفرد لمرحلة البلوغ (٣) . ويرى « هارينج » أن هذه العوامل أكثر اهمية فى تفسير الشخصية اليابانية من نظم التدريب على المرحاض ، ولكى يتأكد « هارينج » من صحة تفسيره ، يضع الفرضين التاليين، ثم يفحص صحتهما ، هذان الفرضان هما :

١ — فى حالة ضعف قبضة وتحكم السلطة البوليسية يصاحب ذلك تغيير فى شخصية اليابانيين .

٢ — فى الأماكن التى لم يصل اليها الحكم البوليسى وهو نظام « توكوجاوا » (٤) توجد العادات التى كانت موجودة قبل هذا النظام البوليسى .

درس «هارينج» جماعة من اليابانيين تعيش فى جزيرة تسمى «أمامى»(٥) تقع بين « كيوشو » (٦) و « أوكيناوا» (٧) ، ولم تصل السلطة البوليسية

---

(١) Orlansky, H., Infant Care and Persolality, Psycnological Bulletin, Vol. 46. No. 1. (January, 1949), PP. 19 - 23.

(٢) Dai, B., Obsessive - Compulsive Diorders in Chinese Culture, in Social Problems, April, 1957.

(٣) Haring, D., Japanese National Character; Cultural anthropology, Psychoanalysis, and History, in Haring, op. ct., P. 432.

(٤) Tokugawa.

(٥) Amami.

(٦) Kyushu.

(٧) Okinawa.

لشعب تلك الجزيرة ، ولذلك تمثل ثقافة هذا الشعب الثقافية اليابانية قبل خضوع اليابان للنظام البوليسى سابق الذكر ، وفى دراسته الميدانية لشعب جزيرة «أمامى» لاحظ «هارينج» عدم وجود الشخصية المجبرة العصابية ، وقرر الأطباء المحليون ندرة الأمراض العصابية ، لاحظ كذلك عدم وجود حالات الكبت المنتشرة عند اليابانيين الاخرين ، ويصف شعب جزيره « امامى » بالخصائص التالية : قلة أسرارهم ، وعدم اخفاء عواطفهم ، التساهل وعدم العند ، والاعتدال ، وعدم المبالغة فى تانيب الضمير ، وعدم وجود الاستقامة الذاتية .

اثبتت هذه الدراسة الميدانية صحة الفرضين السابقين ، ويصل «هارينج» الى نتيجة هامة وهى أن الاكراه والتحكم البوليسى هو عامل هام فى تشكيل الشخصية القومية اليابانية ، ويراه اكثر اهمية من عامل التدريبات على المرحاض ، وعندما زار اليابان حديثا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بفترة طويلة ، دهش للتغير الواضح فى الشخصية اليابانية وفى اسلوب حياتهم ، اذ أصبح الناس يذهبون للمكان الذى يرغبونه ،ويختارون أصدقاءهم بأنفسهم ويكتبون الخطابات كما يرغبون ، ويعبرون عن مشاعرهم وآرائهم بحرية واضحة (١) .

ويتفق باحث آخر مع « هارينج » فى أهمية مرحلة الحكم البوليسى « توكوجاوا » فى تشكيل الشخصية القومية اليابانية ، وانتشرت فى تلك المرحلة قيم الطبقة المحاربة الارستقراطية فى بعض الطبقات الزراعية والتجارية عن طريق عدة حركات شعبية ودينية ، وترتب على ذلك انتشار أخلاقيات تشبه الأخلاق البروتستانتية التى تنادى بالعمل الشاق وانكار الذات (٢) .

ومن أهم ابحاث « الشخصية القومية » دراسة العلامة « جورير » للشخصية القومية الروسية (٣) ، وفيها طبق النظرية التى اتبعها فى دراسته للشخصية اليابانية ، وهى نظرية مرحلة الطفولة كمحدد اساسى للشخصية ، وتمتاز تلك الدراسة بدقة المنهج المتبع وبمعاونة زميل

---

(١) Ibid., PP. 433 - 437.

(٢) Bellah, R., Tokugawa Religion, The Values of Pre - Industrial Japan, The Free Press, Glencoe, 1957.

(٣) Gorer, G. and Rikman, J., The People of Great Russia, Cresset

له وهو العلامة « ريكمان » مما جعل تلك الدارسة تمثل خطوة الـــى الأمام فى ميدان الثقافة والشخصية .

قام « جورير » برحلتين قصيرتين الى روسيا فى عام ١٩٣٢ وعــاد ١٩٣٦ ، وأجرى الكثير من المقابلات مع المهاجرين الروس فى مدينة نيويورك، ويبلغ عدد الذين قابلهم بما بين ٣٠٠ و ٤٠٠ فرد ويمكن القول أن ١٠٪ منهم يمثلون اخباريين مؤهلين للادلاء بمعلومات دقيقة عن الثقافة الروسية،وكذلك درلس « جورير » القصص والأفلام والمعلومات الثقافية الروسية وركــز اهتمامه فى جمع المعلومات على عادات تربية الطفل ، وتتلخص النتيجة التى وصل اليها فى أن نظام التقميط هو مفتاح الشخصية الروسية .

لا يعانى الأطفال الروس من مشاعر الجوع أو من قسوة نظام التدريب على المرحاض . وانما يعانون فقط من الطريقة التى تستخدم فى تقميطهم ، فمنذ الولادة والأيام التالية ، تقمط الأم الطفل فى شرائط طويلة من القماش ، بعد مد الساقين فى خط مستقيم ووضع الذراعين على الجنبين ، ويفسر الروس استخدامهم لهذا الأسلوب من التقميط ، بأن الطفل لديه من القوة والنشاط ما يمكنه من تدمير نفسه أى ايذائها أن لم يقمط بتلك الصورة ، هذا بالاضافة الى سهولة حملة فى حالة تقميطه ، ومن التشبيهات الطريقة التى أطلقهـــا الروس على أطفالهم وهم فى القماط العصى والطرود و (السجق) .ولا ينزع القماط الا فى حالة الرضاعة أو النظافة فقط،ويستمر تطبيق هذا النظام الصارم للتقميط حتى الشهر التاسع من عمر الطفل (١) .

ويؤثر هذا النظام فى تكوين الشخصية الروسية ، ويؤثر كذلك فى صورة تكوين الجسم ، ويقرر «جورير» أنه بعد قضاء ثلاثة أشهر فى اجـــــراء مقابلات مع عدد من الروس ، أصبح فى استطاعته من نظرة واحدة أن يعرف ما اذا كان الشخص الروسى الذى أمامه قد قمط وهو طفل أم لا ، ويستدل على ذلك عن طريق الشكل العام للجسم وهيئة الكتفين والذراعين ، ويرى أن تطبيق نظام التقميط الروسى يؤدى الى شل حركة الأطفال ، وهو أمـــر مؤلم للغاية للأطفال ، ويسبب الاحباط ، وما يصاحبه من مشاعر غضب مكثفة ومدمرة ، ولكن تكبت تلك المشاعر ولا يمكن التعبير عنها بحركـــات جسمية (٢) ، وتؤثر حالة الاحباط هذه فى شخصية الروس عند الكبر ،ويتمثل هذا التأثير فى تأرجح المزاج من اللوح الى الاكتئاب ، ويرجع الاكتئاب لشعور اليأس الناتج عن استحالة التخلص من لفائف القماط ، أما المرح فيرجـــــع

---

(١) Ibid, Op. cit., PP. 97 - 99.

(٢) Ibid:, P. 123.

الى فترات فك القماط وما يصاحبها من عمليات الاطعام واظهار الـــحب للاطفال وانطلاق الأطفال فى تحريك اعضائهم . ومن مظاهر المرح عند الكبار ميل الروس للاشتراك فى الاحتفالات الطقسيعربيدية (١) وفى مباريات الشراب، ومن مظاهر الاكتئاب الشعور العام بالذنب والميل للاعتراف حتى عن الخطايا التى لم ترتكب ، ويشير « جورير » الى ولع الروس بالاعترافات كما هو واضح فى قصص « دوتستويفسكى » وفى محاكمات موسكو .

ويعلم « جورير » أن القماط يستخدم فى كثير من الشعوب التى تختلف شخصياتها القومية عن الشخصية الروسية ، فمثلا ، البولنديون والفرنسيون والايطاليون ومعظم الهنود الحمر فى أمريكا الشمالية يقمطون أطفالهم . ويرجع « جورير » هذا الاختلاف فى الشخصية الى اختلاف نظام التقميط فى تلك الشعوب عن النظام الروسى ، ومن مظاهر اختلاف نظم التقميط الاختلاف فى تحديد أجزاء الجسم التى تقمط ، والاختلاف فى طول وقصر فترة استخدام القماط ، وكذلك الاختلاف فى طول وقصر وعدد فترات فك القماط (٢) .

وقد درست العلامة «بينيديكت» اختلاف نظم القماط فى بعض الدول الأوربية وقررت وجود الكثير من الاختلاف فى تلك النظم (٣) .

تعرض تحليل « جورير » للشخصية القومية الروسية لكثير من النقد، فمثلا يرى الباحث « وولف» أن حالات الاعتراف بجرائم لم ترتكب المنتشرة فى روسيا ، ترجع الى النظام البوليسى للدولة ، ووسائل القمع والتعذيب، والى ظروف ومواقف شخصية ، وليس الى نظام التقميط ، ويبرهن على ذلك بأن كل المعترفين بجرائم لم يرتكبوها ، والذين حوكموا أمام المحاكم الشعبية التى تلت الثورة البلشفية ، كانوا من المثقفين الذين لم يتعرضوا لنظـــام التقميط فى طفولتهم ، هذا بالاضافة الى أن الكثيرين من الفلاحين الذين رفضوا الاعتراف بجرائم لم يرتكبوها تعرضوا لذلك النظام فى طفولتهم .

ويشير « وولف » الى تجاهل «جورير» الآثار العميقة التى يمكن ان تخلفها الظروف القاسية على الشخصية ، ومن أمثلة ذلك وضع الأبرياء فى المعتقلات والمعسكرات ، واستخدام وسائل التعذيب ومذهب تقديس الحاكم

---

(١) Orgiastic.

(٢) Ibid., pp. 221 - 222.

(٣) Benedict, R., Child Rearing in Certain European Countries, American Journal of Orthopsychiatry, Vol. x 1 x, No. 2, 1949, PP. 341 - 348.

واسلوب تبرير الدكتاتورية الجماعية عن طريق «تطويق العداء» وتنظيم حملات الحقد وما الى ذلك من النظم التى لازمت الحكم النازى وحكم ستالين لروسيا (١) .

وقد حاولت العالمة « ميد » أن تدافع عن « جورير » وأن تجيب عن الاعتراضات التى وجهت اليه فى مقالة لها ، وذكرت فيها أن أفكار « جورير» قد أسيء فهمها ، وان اعتراضات «وولف» والروس كانت موجهة بدافع سياسى (٢) .

كذلك قدم العلامة « جورير » تحليلا عن الشخصية القومية الأمريكية كما فعل بالنسبة لليابان والروس ، وقد اتاحت له فرصة اقامته الطويلة بالولايات المتحدة الأمريكية واتقانه اللغة الانجليزية وصلتـه الوثيقـة بالأنثروبولوجيين الأمريكيين أن يقدم تحليلا قيما للشخصية القومية الأمريكية.

فقد لاحظ أن الأمريكيين يطبقون نظاما صارما بالنسبة لمواعيد اطعام أطفالهم ، وقبل أن يتكيف الأطفال مع مواعيد الطعام يمرون بفترة يشعرون فيها بالجوع والغضب ، ويعبرون عن تلك المشاعر بالصراخ ، ويلازمهم شعور الخوف من الجوع عند الكبر ، ويبدو ذلك فى المخاوف تنتشر عند الكثيرين من الأمريكيين من قلة المحاصيل فى المستقبل ، وتعرض أمريكا لمجاعة اذا استمرت فى تصدير طعامها ومواردها خارج البلاد تحت اسم «المعونة الأمريكية» (٣) .

ولاحظ «جورير» أن الأمريكيين يضفون قيمة عظيمة على صدر المرأة . ويصفها بأنها شبقيـة وعمياء ، ويرجعها الى شعور الأطفال الأمريكيين بالجوع لحرمانهم من الرضاعـة فى فترات معينـة لتطبق النظام الأمريكى الصارم الخاص بأرضاعهم وفق جدول زمنى محدد (٤) .

من الواضح ان نظرية الشخصية القومية عند «جورير» تقوم على أساس ان مرحلة الطفولة هو المحدد الرئيسى للشخصيـة ، وتعرضت تلك النظرية لكثير من النقد كما سبق ان ذكرنا ، وتبلور بعد هذا النقد فى صورة تعارض مبـدأ مرحلـة الطفولـة كمحدد للشخصيـة ، فقد لاحظ بعض الأنثروبولوجيين وجود تعارض بين شخصية الطفل وشخصية البالغ فى بعض

---

(١) Wolfe, B., The Swaddled Soul of the Great Russians, The New Leader, January 29, 1951, P. 16.

(٢) Mead, M. The Swaddling Hypothesis : Its Reception. American Anthropologist, Vol. 56, 1954, PP. 395 - 409.

(٣) Gorer, G, The American People, A Study in National Character, W.W. Norton, N.Y. 1948.

(٤) Ibid, P. 7.

المجتمعات ، وأنه ليس دائما تنتقل سمات الشخصية من مرحلة الطفولة الى مرحلة البلوغ ، فبينما يعامل الأطفال بحنان واعتدال فى قبيلتى هوبى ونافاهو ويتمتعون بحياة سعيدة سهلة ، نلاحظ أنهم يتغيرون تماما عند الكبر ، اذ يسود القلق والتوتر شخصياتهم ، ولاحظت كذلك الباحثة «ولفنشتين» وجود تعارض واضح بين شخصية الطفل وشخصية البالغ فى الثقافة الفرنسية ، وهنا تنعكس الصورة التى توجد فى قبيلتى هوبى ونافاهو ،فبينما تمتلىء مرحلة الطفولة بالقيود والتدريبات الشاقة للاعداد لحياة الكبار ، يتمتع الفرنسيون عند الكبر بشخصية متفتحة للتمتع بالحياة ، وهكذا فان القيود المفروضة فى مرحلة الطفولة ذات تأثير مؤقت ويختفى ذلك التأثير عند نمو الطفل وانتقاله الىمرحلة المراهقةوالبلوغ ، أىيوجد نوع من «الاستقلال الوظيفى » بين مراحل نمو الشخصية (١) .

لقد أثارت نظريات هؤلاء العلماء الكثير من الفروض التى أثرت ، ولا شك ، ميدان الثقافة والشخصية ولا تزال تجرى الأبحاث حول تلك الفروض الهامة .

---

(١) Walfenstein, M., French Parents Take Their Children to the Park, in Mead, M. & Wolfenstein, M. (eds), Childhood in Contemporary Cultures, University of Chicago Press, Chicago, 1955, PP. 114 & 115.

الفصل السادس

منهج وأبحاث الأنثروبولوجيا النفسية

- تمهيـــد
- طرق البحث
- نماذج من الأبحاث

الفصـــل السادس

منهج وابحاث الأنثروبولوجيا النفسية

تمهيـــد :

يدرس الكتاب موضوع الثقافة والشخصية كأحد فروع الأنثروبولوجيا الثقافية ، ويتبع هذا الفرع المنهج العام للعلوم الاجتماعية والذى يتمثـــل فيما عرف باصلاح المنهج العلمى أو الطريقة العلمية ، وهو المنهج لذى يضفى خاصية العلم على فرع المعرفة الذى يتبعه ، ويتميز المنهج العلمى بخصائص عامه توجد فى العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية ، واهم تلك الخصائص الموضوعية والدقة وامكانية التنبؤ .

ولكن برغم وجود تلك الخصائص العامة للمنهج العلمى الذى تستخدمه العلوم عامة ، فان العلوم الاجتماعية تتميز بخصائص منهجية تفصيلية تجعلها تختلف عن العلوم الطبيعية ، وكذلك تختلف العلوم الاجتماعية بعضها عن بعض عن طريق نوع وطبيعة طرق البحث التى تستخدمها كل منها فى ابحاثها . وفيما يتعلق بالأنثروبولوجيا النفسية فانها تجمع بين طرق بحث الأنثروبولوجيـــا الثقافية وطرق بحث علم نفس الشخصية . وتتلخص اهم تلك الطرق فـــى ملاحظة السلوك ودراسة سير الحياة وتفسير الأحلام والرؤى والاختبارات الاسقاطية ودراسة الأدب الشعبى ودراسة الفن وأخيرا الدراسات الترابطية . وفيما يلى عرض موجز لهذه الطرق مع بيان اهم الأبحـــاث التى اعتمـــدت عليها .

من الواضح ان الفصول السابقة تزخر بمعلومات عن الكثير من ابحاث الثقافة والشخصية ، ولكن قد يشعر القارىء بحاجته للتعرف عن كثب على مجموعة من الأبحاث الخاصة بمجتمع معين بالذات ، حتى يتسنى له معرفة المشكلات التى تواجه الباحث فى جمع المعلومات وفى تحليل المادة الثقافية والنفسية لاستنتاج العلاقة بين الثقافة والشخصيه . ومن اشهر ابحـــاث الثقافة والشخصية الأبحاث التى طبقت على جماعات تشيبوا من قبائل الهنود الحمر ، ويعرض هذا الفصل لاهم تلك الأبحاث كنماذج من أبحاث الثقافة والشخصية .

طرق البحث

أولاً ـ ملاحظة السلوك :

يعتمد الأنثروبولوجيون الثقافيون فى جمع المادة الثقافية على ملاحظة ما يفعله الناس والتحدث معهم . ولا يقتصر عمل الأنثروبولوجيين النفسيين على جمع وتحليل المادة الثقافية وانما يهتمون كذلك بالمادة النفسية ، ولذلك

يركزون انتباههم على ملاحظة سمات الشخصية ، ويضيف هذا الجهد المزدوج عبئا كبيرا على المتخصصين فى الثقافة الشخصية ، ولتخفيف هذا العبء ينتظم هؤلاء المتخصصون فى جماعات او فرق بحث لتوزيع هذا العبء على اكثر من باحث ، وللسبب نفسه يميل بعضهم الى اجراء أبحاثهم فى الجماعات التى سبق دراستها اثنوجرافيا ، وخاصة عندما يستخدمون فى ابحاثهم الاختبارات الاسقاطية وطريقة سير الحياة .

ويمكن تقسيم الملاحظة الى عدة اقسام ، فمن حيث نوع فئات السلوك الملاحظة ، تنقسم الملاحظة الى ملاحظة عامة وملاحظة موجهة (١) . وتتمثل الملاحظة فى ملاحظة كل أنواع السلوك المتاحة أمام الباحث ، ويطبق هذا النوع الأنثروبولوجيون بصفة عامة ، أما فى الملاحظة الموجهة فان الباحث يلاحظ فئات معينة من السلوك ، ولذلك يعد الباحث قبل اجراء الملاحظة قائمة بأنواع السلوك التى يرغب فى ملاحظتها ، وبالتالى لا يلاحظ الباحث كل ما يجرى أمامه من سلوك وانما يلاحظ الفئات المحددة ـ سابقا ويهمل الفئات الأخرى . يهتم علماء النفس بالملاحظة الموجهة ، ووضع بعضهم قوائم لفئات السلوك التى يجب ملاحظتها ، يطبق الأنثروبولوجيون النفسيون أسلوب الملاحظة الموجهة لانه يتفق مع طبيعة أبحاثهم التى ترتبط فى الغالب بفئات معينة من السلوك وليس بصفة عامة .

كذلك يمكن تقسيم الملاحظة على أساس تدخل أو عدم تدخل الملاحظة فى بناء الموقف الذى يلاحظه الى قسمين آخرين وهما الملاحظة العادية والملاحظة التركيبية (٢) ، الملاحظة العادية هى ملاحظة الأفراد فى أثناء الحياة اليومية العادية ولا يتدخل الباحث هنا فى بناء أو صياغة المواقف التى يلاحظها . أما الملاحظة التركيبية فتشمل ملاحظة الباحث للافراد وهم فى مواقف غير عادية من صياغة الباحث نفسه ، ومن الواضح ان الملاحظة التركيبية لها أهمية منهجية فى أبحاث الثقافة والشخصية تزيد على أهمية الملاحظة العادية ، لأنها تتيح للباحث فرصة ملاحظة سلوك الأفراد فى المواقف التى ترتبط مباشرة بموضوع البحث بدلا من انتظار حدوث تلك المواقف بصورة عادية ، مما قد يضيع الكثير من وقته وجهده ، ولكن لا تسمح ظروف الدراسة الحقيقية باستخدام الملاحظة التركيبية فى جميع الحالات ، ومن اكثر صور الملاحظة التركيبية انتشارا فى أبحاث الأنثروبولوجيا النفسية دراسات « لعبة العرائس » (٣) . وفيها يلاحظ الباحث الأطفال وهم يلعبون بعرائس

---

(١) Directed Observation.

(٢) Structured Observation.

(٣) Doll Play.

من صنعه تمثل اعضاء الأسرة ، يستطيع الباحث بفضل تلك الطريقة تحديد بعض اشكال الاتجاهات والعواطف داخل الاسرة مثل المنافسة والغيرة بين الاخوة والأخوات وعقدة أوديب والدلالة التضيبية للثعبان وما الى ذلك من الموضوعات الخاصة بالمدرسة الفرويدية ، فمثلا ، قام العلامة « هنرى » وزوجته باستخدام لعبة العرائس عند دراسة شخصيات أعضاء قبيلة بلاجا ، وهى احدى قبائل الهنود الحمر بأمريكا الجنوبية ، وقد استخدما فى دراستهما عرائس من الصلصال ممثلة لأعضاء الاسرة وكذلك للأنا ، وكانا يطلبان من الطفل اللعب بتلك العرائس ، وقد استطاعا تحديد بعض الاتجاهات الجنسية عند هؤلاء الأطفال ، وقد لاحظا أن الاتجاهات الجنسية ترتبط باتجاهات عدائية من ناحية وترتبط بعقدة أوديب من ناحية اخرى (١) .

كذلك يستخدم الانثروبولوجيون النفسيون طريقة الملاحظة العادية فيلاحظون الناس أثناء حياتهم اليومية ؛ ويمكن تقسيم ملاحظاتهم الى فئات مختلفة منها الأحاديث اللفظية ومعدلات التفاعل وشكل وقفة الجسم أوشكل الجلسة وحركات الأعضاء وتعابير الوجه ، ويعتمد الباحث فى الملاحظة العادية على حواسهم وعلى الأجهزة الحديثة مثل النظارة المكبرة وآلة التصوير وآلة التسجيل وآلة السينما . وفى بعض الأحيان يستخدمون الأفلام الصوتية اذا سمحت الموارد المالية بذلك ، واستطاع العلامة «شابل» اختراع آلة لقياس معدلات التفاعل الاجتماعى ، فمثلا عندما يشترك شخصان فى حديث مايقوم الملاحظ بتشغيل الجهاز الذى يسجل ويقيس فترات حديث كل منهما وفترات السكوت ، ولا تسجل الآلة المضمون اللفظى للحديث وانما معدلات التفاعل والطاقة المستخدمة فى الحديث وايقاع الحديث ، ولا يقتصر الجهاز على قياس السلوك اللفظى وانما يستخدم أيضا فى دراسة الابتسامات وايماءات الرأس وتقطيب الجبين وحركات الأعضاء (٢) .

يهتم بعض علماء النفس بملاحظة تعابير الوجه وشكل وقفة وجلسة الجسم وحركات الأعضاء ، ويرون فى تلك الظواهر مفاتيح اتجاهات وانماط الشخصية ، ولذلك يعتمد بعض البحاث على تلك الظواهر فى أبحاث الثقافة والشخصية . ومن أشهر الصور المعبرة عن مظاهر العظمة والفخر التى تميز شخصية الرجال فى قبيلة ياتمول الصور التى اخذها العلامة « باتسون » لرجال تلك القبيلة فى أثناء المشى الاستعراضى وفى اثناء الجلوس .

---

(١) Henry, J. and Henry, Z., Doll Play of Pilaga Indian Children, in Kluckhohn, C. and Murray, H. (eds), Personality in Nature, Society and culture, N.Y. 1959, PP. 292 - 307.

(٢) Chapple, E. Quantitative Analysis of Complex Organizational Systems, Human Organization, 1962, PP. 67, 68.

اثبتت الدراسات الحقلية ان الثقافة تؤثر فى وضع الجسم عند الوقوف والمشى والجلوس والنوم ، وقدم لنا العلامة «هيوس» توزيعا جغرافيا عالميا لعادات وضع الجسم (١) . ودرست الأنثروبولوجية « فلورابالى » العادات الحركية فى قبيلة ناناهو من الهنود الحمر ، ولاحظ اختلافات واضحة بين تلك العادات والعادات الحركية عند الأمريكيين . فبينما تتميز العادات الحركية عند الناناهو بالنعومة والسيولة ، تتسم العادات الحركية الأمريكية بالخشونة والتقطع وعدم الترابط . يتناول اعضاء الناناهو طعامهم ببطء شديد وبرشاقة ويمشون فى خطوات رشيقة طويلة . ويؤرجحون اذرعهم وسيقانهم وكأنها غير مثبتة فى اجسامهم وعندما يتقابلون يصافحون بعضهم برقة متناهية فلا يضغطون على اليد ولا يحركون اليد الى اسفل واعلى (٢) . ودرس الانثرويولوجى « بروير » العادات الحركية لعرب الهلال الخصيب ، ولاحظ تشابها بين تلك العادات الحركية عند سكان البحر الأبيض المتوسط ، فهى تتميز بالوضوح والسيولة وقد وضع قائمة للحركة الرمزية ، وقرر أن بعض تلك الحركات ترمز للاهانة والايذاء ، والبعض الآخر يرمز لعدم الرغبة فى تحمل المسئولية ، وترمز بعض الاشارات الأخرى الى الرغبة فى عدم الانضمام لجماعة ما (٣) .

اهتم عدد كبير من الانثروبولوجيين بدراسة جماعة « بالى » لتحديد العلاقة بين العادات الحركية وسمات الشخصية ، ومن هؤلاء «مارجريت ميد» و «جين بيلو » و «باتسون » و «ماكريجور» ، وتتفق لك الدراسات على ان حركات اعضاء «بالى» تتصف بالبطء الشديد ، ويربط البعض بين هذا البطء الحركى الشديد وانخفاض توتر العضلة السوى عند الأطفال ، ولاحظ هؤلاء البحاث ان الأطفال فى تلك الجماعة لا يمرون بمرحلة الزحف (الحبو) وانما يتعلمون المشى مباشرة، وترتب على ذلك طول فترة حمل الطفل على الذراعين ، وتصل تلك الفترة الى ثمانية اشهر فى بعض الاحالات ، ويحملون الطفل على الذراعين الى أن يتعلم المشى مباشرة ، وتحرم ثقافة «بالى» (حبو) الأطفال . وترتب على ذلك تقييد حركة الأطفال لفترة طويلة ، وقد يفسر ذلك البطء الشديد فى عاداتهم الحركية ، كذلك تتميز حركاتهم بالاقتصاد فى الجهد ،

---

(١) Hewes, G., World Distribution of Postural Habits, American Anthropologist, Vol. 57. 1955, PP. 231 - 244.

(٢) Bailey, F. Navaho Motor Habits, American Anthropologist, Vol. 44, 1942, pp. 210 - 216.

(٣) Brewer, W., Patterns of Gestures Among the Levantine Arabs, American Anthropologist, Vol. 53, 1951, P. 237.

ولذلك يقومون بأقل عدد ممكن من الحركات اللازمة لأداء عمل معين ،ولاحظ البحاث ان وضع الجسم فى حالة الراحة والجلوس على الأرض يتسم بالانطواء والانسحاب ، اذ يجنس الفرد على الأرض ثم ينحنى واضعا رأسه بين ركبتيه ، ويستنتجون من هذا الأسلوب فى الراحة والجلوس أن شخصياتهم تتسم بالانسحاب الانطوائى . ويرجع الانثروبولوجيان «ميد» و «باتسون» هذا الميل الى احباطات يتعرض لها الأطفال فى مرحلة الطفولة المبكرة ،وذلك لتعود الأمهات على مضايقة أطفالهن واثارة الغيرة بينهم ؛ فمثلا تدلل الأم طفلا غريبا أمام طفلها ، وأحيانا تقرب الطفل الغريب من ثديها أمام طفلها مما يثير طفلها ويجعله يتألم كثيرا ، ويحدث ان ترفع الأم الطفل الغريب فوق رأس طفلها مما يثيره ، لأن تلك الحركة ترمز للإهانة والتحقير فى ثقافة جماعة بالى ، وأمام تلك الأساليب يضطر الطفل الى الانطواء على نفسه والابتعاد عن الناس فى الفترة ما بين سن الثالثة وسن السادسة . ولكن على نقيض سمات الهدوء والسلبية وبطء الحركة التى تتميز بها شخصيات تلك الجماعة فى حياتهم اليومية العادية تظهر سمات عدوانية وعنيفة خلال نوبات الهياج التى تميز بعض احتفالاتهم .ومن أمثلة ذلك الحركات العنيفة وخدش صدورهم بالخناجر (١) .

ويتصل موضوع ملاحظة السلوك بموضوع تسجيل السلوك الملاحظ، وعادة يعتمد البحاث على كتابة المذكرات . وفى بعض الأحيان يستخدمون الآلات سابقة الذكر ، ويفضل البحاث كتابة المذكرات فى أثناء الملاحظة وذلك حتى لا يتعرض الباحث لخطر نسيان بعض الملاحظات ، وفى حالة قيام فريق بحث بالدراسة يمكن توزيع الاختصاصات المختلفة للملاحظة على أعضاء الفريق ، فمثلا عند ملاحظة سلوك الأفراد فى أثناء الاحتفال بعيد ما يمكن أن يتخصص باحث فى ملاحظة الأصوات والأغانى ويتخصص باحث ثان فى ملاحظة الملابس ويتخصص باحث ثالث فى ملاحظة حركات الرقص وما الى ذلك .

وهناك طرق بحث هامة تعتمد على الملاحظة . ومن أمثلة ذلك الملاحظة بالمشاركة والمقابلات المفتوحة والمقابلات الموجهة وتوطيد الصلة بعدد من الاخباريين .

وقبل الانتهاء من هذا الموضوع نتناول فى ايجاز الصعاب الأساسية التى تقابل استنتاج سمات الشخصية من ملاحظة السلوك ، فمن تلك

---

(١) Barnouw, V., Culture and Personality, N.Y. 1963, PP. 185 - 187.

الصعاب مشكلة تأثير وجود الباحث الملاحظة على سلوك الأفراد الملاحظين، ولكن توجد هذه المشكلة فى كل دراسة قائمة على الملاحظة ، وليست متصورة على أبحاث الثقافة والشخصية . ولا يمكن التخلص من تلك المشكلة الا فى حالة استخدام الشاشة ذات الاتجاه الواحد (١) . ولا تستخدم تلك الشاشة فى أبحاث الثقافة والشخصية . ولكنها تستخدم فى ابحاث علم النفس والتربية ، وهناك مشكلة ثانية وهى أن الملاحظ قد يسقط بعض أفكاره على ما يلاحظه ، هذا بالاضافة الى مشكلة التحيز فى الاختيار (٢) . وتتمثل فى أن الباحث قد يلاحظ بعض صور السلوك فى حين يهمل صورا أخرى ، ويتأثر الباحث فى ملاحظته بمزاجه واتجاهاته وقيمه وحالته الجسمية من مرض وصحة ، ولا شك أن معرفة الباحث بتلك المشاكل تدفعه الى اتخاذ الاحتياطات التى تقلل من الآثار السلبية لتلك المشكلات بما يحقق الموضوعية المطلوبة .

ثانيا — دراسة سير الحياة (٣) :

يقصد بطريقة سير الحياة اعتماد الباحث فى دراسته للثقافة والشخصية على أقوال بعض أفراد المجتمع الخاصة بسير حياتهم ، فيقصون على الباحث أهم الأحداث التى مرت بهم منذ طفولتهم حتى ذلك الوقت . وقد استخدم بعض البحاث هذه الطريقة واعتمدوا عليها فى تحديد سمات شخصيات الأفراد قيد البحث ، ولكن فى الغالب أجمع الباحث بين هذه الطريقة بحث أخرى أوعدة طرق فى دراسته . ومن أمثلة الدراسات التى اعتمدت كلية على طريقة سيرة الحياة دراسة العلامة «سيمونز» عن سيرة الحياة لأحد هنود قبيلة هوبى ، ودراسة العلامة «ديك» عن سيرة حياة أحد هنود نوفاهو ، ودراسة العلامة « فورد » عن حياة أحد زعماء قبيلة كيوكيوتل ، ودراسات العلماء كاردينز واوفيرس ودولارد وداقيز الخاصة بسير حياة بعض الزنوج الأمريكيين، ودراسة العلامة «وينتر» لسير حياة أربعة افراد من قبيلة ايمابافريقيا (٤) وتستخدم تلك الطريقة لتوفير مادة تفضيلية عن حياة الفرد ، ويستنتج الباحث من تلك المادة سمات الشخصية وتأثير الثقافة فى الشخصية ، ويشك بعض الأنتروبولوجيين فى صحة وسلامة المعلومات التى تمدنا بها هذه الطريقة ، وذلك لامكانية كذب الاخبارى فى سرد بعض الأحداث أو خلط الخيال بالواقع لارضاء الباحث ، وفى أحسن الأحوال تكون تلك المعلومات صادقة ودقيقة .

(١) One - way screen.

(٢) Bias of Selection.

(٣) Life History.

(٤) Ibid. PP. 197 - 198.

وهنا نتساءل : كيف يتعامل الباحث مع معلومات سير الحياة ؟ فى بعض الأحيان يقدم الباحث تلك المعلومات كمادة خام ويترك عملية تفسير تلـك المعلومات للقارىء ، ولكن فى معظم الأحيان يقوم العلماء وخاصة فى أبحاث الثقافة والشخصية ، بتحليل تلك المعلوماتويجب عند استخدام تلك الطريقة ملاحظة مشكلة مدى تمثيل العينة المختارة للجماعة قيد الدراسة والاجراءات المستخدمة فى تسجيل المادة . فقد حدث أن اعتمد بعض العلماء على أفراد فاشلين أو مصلابين بأمراض نفسية أو انتهازيين يبحثون عن المكافات المادية التى تقدم لهم فى مثل تلك الظروف .

ويرتبط بموضوع سير الحياة استخدام طريقة سيرة حياة الأسرة ، وقد طبقها العلامة « لويس » فى دراسة قصة أسرة من الطبقة السفـلى فى مدينة مكسيكو (١) ، اذ طلب من كل فرد فى الأسرة أن يقص بصـورة مستقلة عن الآخرين قصة حياته . وقد قام الباحث بتسجيل أحاديث أفـراد الأسرة ثم ترجمها الى اللغة الانجليزية وقام بتفسيرها .

ولكى يحصل الباحث على صورة واقعية للثقافة أو الشخصية قيـد الدراسة يجب عليه أن يحصل على معلومات سير الحياة من مجموعة من الاشخاص وليس من شخص واحد ، وان يجمع المعلومات من الأشخاص الناجحين والأغبياء الفاشلين والفقراء ، من الرجال والنساء ومن الصغار والكبار . ويجب ملاحظة أن سيرة الحياة التى يدلى بها الشخص أمام الباحث وعلى حسب طلبه لا تكون فى أمانة ودقة سيرة الحياة التى يحكيها الشخص تلقائيا ، ومن المشكلات الأخرى التى تصاحب استخدام تلك الطريقة صعوبة نشر كل ما يجىء على لسان الاخبارى . فان ما ينشر عادة لا يتعدى جزءا صغيرا مما يجمعه الباحث من معلومات وذلك لكثرة المعلومات التى توفرها تلك الطريقة . ويجب ملاحظة أن امكانية سرد الأكاذيب والخيالات خلالسرد الاخبارى لقصة حياته لاتؤدى الى الاقلال من أهمية تلك المعلومات كوثائق نفسية ، اذ يعتمد البحاث فى ميدان الثقافة والشخصية على معلومـات سير الحياة لتحديد قيم واتجاهات الفرد وللوصول الى العوامل التى أدت الى تشكيله فى تلك الصورة ، ويجب ملاحظة أن سيرة الحياة لا يمكن أن تكون كاملة وانما هى تعطينا فقط معلومات عن بعض جوانب حياة الفرد ، وذلك لأن الاخبارى لا يستطيع أن يتذكر كل شىء حدث فى حياته وانما يختار ــ شعوريا أو لا شعوريا ــ بعض الأحداث التى يراها ذات أهمية أو تستحق الذكر .

---

(١) Lewis, O., The Children of Senchez. Autobiography of a Mixican Family, Random House, N.Y. 1961.

ثالثا ـ تفسير الأحلام والرؤى :

الحلم ظاهرة نفسية فردية خاصة بفرد معين بالذات وهو الحالم ، ولا يشاركه احد فى حلمه ، ولكن ظاهرة اهتمام الأفراد بالاحلام ومحاولة تفسيرها هى ظاهرة ثقافية عالمية . بمعنى أن جميع الثقافات تهتم بظاهرة الاحلام وتضع مبادىء يتبعها افراد المجتمع فى تفسيراتها لتلك الظاهرة،ولكن تختلف الثقافات فى درجة الاهتمام بالأحلام ، ففى بعض الثقافات ، مثل ثقافات قبائل الهنود الحمر ، يضفى على الاحلام اهتماما زائدا وتصبحالوسيلة الوحيدة للحصول على قوى غيبية ومراكز راقية ، وفى ثقافات اخرى . مثل ثقافة جماعة تروبرياند يقل الاهتمام بالأحلام ، لدرجة يندر فيها أن يتحدث الفرد عن أحلامه بصورة تلقائية ، وتختفى فيها مبادىء التفسير الرمزى . يشترك علماء النفس مع الأنثروبولوجيين فى دراسة الأحلام ، وان اختلفت طرق البحث ، فبينما يهتم علماء النفس وخاصة المحللون النفسيون بدراسة الأحلام على أنها رموز تعبر عن سمات الشخصية فى حالة الأمراض العصابية والذهانية ، يهتم الأنثروبولوجيون بدراسة الأحلام على أنها ترمز لثقافة الحالم من ناحية ولأنها ذات وظائف اجتماعية وثقافية فى المجتمع قيد الدراسة ، ويجمع الأنثروبولوجيون النفسيون بين الاتجاهات السابقة فى دراسة الأحلام ، ولكن يتفق الرأى على أن تفسير الأحلام من اختصاص المحللين النفسيين . ولذلك يطلب الأنثروبولوجى معاونة المحلل النفسى فى هذا المجال ، ولا يحاول القيام بهذا العمل التخصصى ، ولكنه يستطيع دراسة الوظائف الاجتماعية والثقافية للأحلام فى المجتمع قيد الدراسة .

ومن الواضح أن الأحلام تعكس ثقافة المجتمع التى يعيش فيهاالحالمون . ويؤيد هذا الفهم شيخ المحللين النفسيين العلامة «فرويد» الذى درس بعض الأحلام النموذجية (١) . أى الأحلام التى يحلم بها كل فرد تقريبا فى مجتمع معين . ومن أمثلة ذلك حلم الارتباك المصاحب للعرى ، وينتشر ذلك الحلم فى الثقافة الغربية ولا يوجد فى المجتمعات البدائية التى يسير فيها الناس عراة . وحلم دخول الامتحان المدرسى ، وينتشر هذا الحلم كذلك فى الثقافة الغربية والثقافات التى تطبق نظام الامتحانات ويختفى فى المجتمعات البدائية التى لا تاخذ بنظام المدارس والامتحانات (٢) ، وحلم العثورعلى نقود معدنية الذى يوجد فقط فى المجتمعات التى تطبق هذا النوع من النقود . وحلممطاردة الأبقار للحالم الذى ينتشر فى غانا الغربية وخاصة عند الأفراد المطاردين

---

(١) Typical dreams.

(٢) Freud, S., The Interpretation of Dreams, Modern Library, N.Y. 1938, P. 292.

ولا يوجد فى باقى المجتمعات التى لا توجد بها ظاهرة مطـاردة الأبقـار للأفـراد .

يمكن تمييز اتجاهين فى دراسات الثقافة والشخصية التىتقوم علىأساس دراسات الأحلام ، وهما الاتجاه الجمعى والاتجاه الفردى . ويتمثل الاتجاه الجمعى فى أن يقوم الباحث بجمع أكبر عدد ممكن من احلام الأفراد فى المجتمع قيد الدراسة ، ويدرس تلك المجموعة من الأحلام على انها عينة لأحلامجميع افراد ذلك المجتمع . ويحلل تلك الأحلام بهدف تحديد الخصائص العامـة للمضمون الظاهرى لها . ومن امثلة تلك الدراسات دراسة الأنثروبولوجية «دوروثى ايجان» التى اعتمدت على عدد كبير من الأحلام الخاصة ببعض اعضاء قبيلة هوبى من قبائل الهنود الحمر ، وبعد قيامها بتحليل المضمون الظاهرى لتلك الأحلام تبين لها أن الأحلام تعكس وتصور قوة الاتجاهات القبلية نحو الالتزامات التعاونية نحو القبيلة . وتصور كذلك تمسكهمبالمعتقدات الدينية الوثنية برغم اعتناقهم للمسيحية (١) . وقد طبق الاتجاه السابق على دراسة الأحلام فى المجتمعات المتمدينة ، ومن اهم تلك الدراساتبحثالعلامة « هول » ، وفيه جمع «هول» عشرة آلاف حلم ودرسها كعينة للأحلام المنتشرة فى المجتمع الأمريكى ، واستطاع «هول» أن يصل الى تعميمات خاصة بالثقافة الأمريكية فقط ، فقد لاحظ أن المواطن الأمريكى يحلم فى معظم الأحيانبشئون حياته الخاصة ، ومن النادر أن يحلم بالأحداث الاجتماعية والسياسيـة والاقتصادية فى المجتمع . وعادة لا يحلم الشخص بأمور متعلقة بعمله ، ولاحظ كذلك أن ١٠٪ من تلك الأحلام تصور الفرد وهو يمشى فى الطريق، وأن ١٥٪ منها تصور الفرد وهو فى احدى المركبات ، وأن ٣٣٪ من الأحلام تصـور حوادث تحدث فى منزل غريب ، أى ليس منزل الحالم ، وأن الفرد يحلـم عادة بأعضاء أسرته وأصدقائه ولكنه يحلم ايضا بأشخاص اغراب ، ويمكن القول أن نسبة الأغراب للأشخاص المشتركين فى الأحلام هى حوالى ٤٠٪ ، وفيما يتعلق بالأنشطة التى يحلم بها الأمريكيون ، لاحظ هول أن السباحة والرقص والألعاب من الأنشطة المنتشرة فى الأحلام الامريكية ، فى حين يندر فى تلك الأحلام المأكل والمشرب . ولاحظ كذلك أن الأحلام غير السارة أكثر انتشارا من الأحلام السارة فى المجتمع الأمريكى ، وتزداد الأحلام غير السارة مع زيادة عمر الفرد ، ولاحظ كذلك أن حوالى ٣٣٪ من الأحلام ذات الوان ، وتظهر الحيوانات الأليفة فى احلام امريكيين بصورة أكثر تكرارا من ظهور الحيوانات المتوحشة ، وأكثر تلك الحيوانات الأليفة هى الجياد ويتلوهـا

---

(١) Eggan, D., The Manifest Content of Dreams : A Challenge to Social Science, American Anthropologist, Vol. 54, 1952, P. 479.

الكلاب ثم القطط ، وعند مقارنة أحلام النساء بأحلام الرجال لاحظ «هول» أن عدد احلام النساء التى تتضمن الجياد يصل الى ضعف عدد احلام الرجال المتضمنة للجياد (١) .

أما الاتجاه الفردى فى دراسة الأحلام فيتمثل فى تسجيل أحلام فرد معين بالذات ، ويستخدم علماء النفس هذا الاتجاه مع طريقتى سيرة الحياة والاختبارات النفسية فى دراستهم لشخصية فرد معين . وفى تلك الحالة يفسرون الأحلام لتحديد المضمون الكامن (٢) ، وخاصة عندما يستطيعون الحصول من الفرد على أحلامه وعلى خواطره المرتبطة بتلك الأحلام ، ان ارتباط تطبيق الاتجاه الفردى فى دراسة الأحلام باستخدام طريقة سيرةالحياة يعد أمرا ضروريا ، وذلك لحصول الباحث على معلومات يمكن استخدامها فى تفسير أحلام الفرد المراد دراسته .

ومن أمثلة الدراسات التى اعتمدت على الاتجاه الفردى فى دراسة الأحلام بحث العالمة « ديبوا » الخاص بقبيلة الور ، فقد كانت تسأل كلصباح الاخباريين الأساسيين عن أحلامهم فى الليلة السابقة ، وقد اعترفت بأن محاولاتها الخاصة بتطبيق طريقة تداعى المعانى أو الخواطر على الموضوعات الرئيسية فى الأحلام لم تحقق النجاح المنشود (٣) ؛ ولكن لا يمنع ذلك من أن هناك محاولات أخرى ناجحة قام بها علماء آخرون . ومن أهم المشكلاتالتى تقابل استخدام الاتجاه الفردى فى دراسة الأحلام مشكلة التفسير ، وذلك لتعدد وتناقض مبادىء تفسير الأحلام ، فمثلا ترجع بعض المبادىء لنظرية فرويد ، والبعض الآخر يرجع للعالمين « أدلر » و « يونج » . وقد وضع العلامة « هول » طريقة لحل تلك المشكلة ، وتتمثل تلك الطريقة فى عدة خطوات يمكن اتخاذها فى حالة وجود تعارض بين الآراء فى تفسير حلم معين أو عدة أحلام ، وتتمثل أول خطوة فى عرض الحلم على أكثر من متخصص ثم مقارنة تلك التفسيرات بعضها ببعض ، فاذا كان هناك اتفاق تنتهى المشكلة ، وفى حالة عدم الاتفاق يمكن دراسة مضمون الحلم واختيار التفسير الذى يكون اكثر ملاءمة لذلك المضمون ، ويمكن كذلك مقارنة التفسيرات المتعارضة بتفسيرات الاختبارات الاسقاطية ان وجدت ، واختيار التفسير الذى يتفق مع نتائج تلك الاختبارات (٤) .

---

(١) Hall, C., The Meaning of Dreams, Dell, N.Y. 1959, PP. 19 - 41.

(٢) The Latent content.

(٣) Du Bois, C., The People of Alor, Univ. of Minnesota Press, Minneapolis 1944, PP. 191 - 192.

(٤) Hall, C., Diagnosing Personality by the Analysis of Dreams, Journal of Abnormal and Social Psychology, Vol. 42, 1947, PP. 73 - 79.

ولنتناول الآن فى ايجاز موضوع اختلاف نظريات الأحلام ، يرجع هذا الاختلاف الى ارتباط مشكلة الرمزية بتفسير الأحلام ، فالأحلام تتضمن موضوعات متنوعة ، وهناك اختلاف فى الراى حول الاتجاهات والعواطف التى ترمز لها تلك الموضوعات ، فمثلا يرى العلامة فرويد أن أحلام البالغين ترمز لرغبات جنسية ممنوعة ، وان هذه الرغبات تتخفى فى شكل رمزى ، فترمز أشياء مثل الثعابين والسيوف والعصى للقضيب فى حين ترمز اشياء مثل الصناديق والشنط والمغارات للمهبل ، ويقدم « فرويد » مثلا ثانيا للرمزية فى الأحلام ، وهو أن الأحلام تنقل المعلومات فى هيئة حكاية مصورة ، ومن طبيعة تلك الحكايات ان تكون رمزية . ويرفض العلامة « هول » الآخذ براى « فرويد » الخاص بارجاع الرمزية الى مبدأ اخفاء الرغبات الجنسية ، وذلك لأنه لاحظ أن الكثير من الاحلام تحتوى على رغبات جنسية مكشوفة ، فتلك الرغبات لا تحتاج الى التخفى فى الأحلام وان كانت قد تحتاج الى ذلك فى حالة اليقظة . ويجب ملاحظة أن رموز الأحلام تختلف معانيها باختلاف الثقافات ، فمثلا بالرغم من كثرة الثقافات التى يرمز فيها الثعبان لعضو الذكر ، نجد ثقافات أخرى يرمز فيها الثعبان الى الشفاء أو الخلود أو الحكمة أو العالم الآخر أو الفصل الممطر أو قوس قزح . ولذلك يجب على الباحث أن يدرس المفاهيم الثقافية المحلية حول المعنى الرمزى للاشياء التى ترد فى الأحلام . هذا بالاضافة الى دراسة تداعى خواطر الحالم نفسه . ويتفق الأنثروبولوجيون على مبدأ النسبية الثقافية لموضوع الرمزية فى الأحلام ، ولا يوافقون «فرويد» واتباعه من المحللين النفسيين الذين يضعون تفسيرات ثابتة ودائمة للاحلام يمكن تطبيقها فى كل زمان ومكان . وهكذا يقرر العلامة « بواز » أن الرموز مثل المركبات الثقافية الأخرى ، لها خلفية تاريخية ، وقد ينتشر شكل رمزا ما من مجتمع الى آخر ، ولكن المعنى المرتبط بهذا الرمز قد لا ينتشر مع الشكل(١) ، وتشير العلامة « روث بانزل » الى المعانى المختلفة التى يرمز لها الصليب فى بعض قبائل الهنود الحمر ، فبينما يرمز الصليب الى جهات الدنيا الأربع عند قبيلة « قرون » فانه يرمز لنجمة الصباح عند قبيلة « اراباهو » ويرمز الى القمح أو نوع من الصبار أو شرارة فى قبيلة « هيوسول » ، وقد تحدث اختلافات فى تفسير الرمز فى داخل المجتمع الواحد وكذلك فى داخل الجماعة الواحدة ، بل انه أحيانا يختلف الفرد الواحد فى تحديد معنى رمز شىء معين فى أوقات مختلفة(٢) .

---

(١) Boas, F., Primitive Art, Dover N.Y. 1955, P. 120.

(٢) Bunzel, R., Art, in Boas (ed). General Anthropology, Heath, N.Y. 1938, P. 584.

ولكن ما هى اهمية جمع الأحلام وتفسيرها بالنسبة لأبحاث الثقافة والشخصية .

حقا اعتمدت بعض الأبحاث على تلك الطريقة فى البحث ، الا انه يمكن القول بصفة عامة أن هذه الطريقة ليست ملائمة لتحديد سمات الشخصية ، ولا يمكن الاعتماد عليها وحدها فى تحديد تلك السمات ، ولا شك من فشل تلك الطريقة فى تحديد ثقافة المجتمع قيد الدراسة . وتمتاز طريقة دراسة سير الحياة وطريقة الاختبارات الاسقاطية على طريقة دراسة الأحلام من ناحية توفير المعلومات الدقيقة عن سمات الشخصية وعدم الدخول فى مشكلة الرمزية وتعدد نظريات تفسير الأحلام ، هذا بالاضافة الى ارتفاع احتمال الكذب والتخيل والنسيان فى سرد الأحلام ، ولكن لا يمنع ذلك من أهمية الأحلام فى ميدان التحليل النفسى والطب النفسى .

رابعا ــ الاختبارات الاسقاطية :

تتالف الاختبارات الاسقاطية من صورة مبهمة او موقف غامض أو سلوك ناقص يعرض على الشخص فى صورة تشكيلية أو لفظية ، ويعرض بمنبهات بصرية أو منبهات سمعية ، ثم يطلب من المختبر تأويله على حسب ما يدركه منه ، فيسقط المختبر فى هذا التأويل محتويات حياته النفسية الشعورية واللا شعورية من مخاوف وصراع وقلق ، ولذلك سميت هذه الاختبارات بالاسقاطية ، وتستخدم لقياس الشخصية ، ومن أكثر الاختبارات الاسقاطية استخداما فى أبحاث الثقافة والشخصية اختبار رورشاخ ، وقد لعب هذا الاختبار دورا هاما فى بعض الأبحاث الهامة مثل دراسة العلامة « ديبوا » لجماعة الور ودراسة العالمين « جلادوين » و « سيرسون » لجماعة « تروك » ، ودراسة « هالوويل » لجماعة « سولتوكس » ، ولكن لا يمنع ذلك من تعرض استخدام اختبار رورشاخ فى أبحاث الثقافة والشخصية لبعض النقد .

اخترع اختبار رورشاخ الطبيب النفسى السويسرى« هيرمان رورشاخ » ونشر الاختراع فى عام ١٩٢٢ ويتألف هذا الاختبار من عشر بقع من الحبر ، خمس منها ملونة وخمس غير ملونة ، ولقد اختار تلك البقع من آلاف البقع التى اجرى عليها الكثير من التجارب ، وتعرض الواحدة بعد الأخرى على الشخص المختبر ويطلب منه أن يذكر ما يراه فيها ، وأن يعلق عليها بوصف ما تذكره به وما يتوارد على ذهنه من خواطر بصددها ، ثم تسجل اجابته بكل تفاصيلها وتدرس دراسة فاحصة من حيث محتوياتها ونوعها ، فيدرس مثلا هل رأى الشخص المختبر فى الصورة اناسا أو حيوانات أو مناظر طبيعية، وهل رى البقعة فى جملتها أو تفاصيلها ؟ وهل تأثر بشكل البقعة أو بلونها ؟

وهل راى الناس فى حالة حركة او سكون ؟ ولكل طريقة من طرق الاستجابة السابقة دلالة . فمثلا رؤية البقعة فى جملتها لا فى تفاصيلها تشـير الى أن الشخص يتسم بالقدرة على التأليف والتجريب ، وتفسير هذا الاختبار يتطلب اعدادا فنيا كبيرا بعد التخصص فى علم النفس الاكلينيكى(١) ، ولقد تدرب الكثيرون من الأنثروبولوجيين على تطبيق ذلك الاختبار ، ولكن يندر أن نجد أنثروبولوجيا واحدا قادرا على تحليله . ولذلـك يقـدم الأنثروبولوجيون استجابات الأشخاص المختبرين للمحللين النفسيين المتخصصين فى هذا الاختبار لتحليل الاستجابات ، وتحديد سمات شخصيات أصحابها .

يهمنا هنا تطبيق هذا الاختبار فى الثقافات المختلفة ، لقـد استخـدم الأنثروبولوجيون هذا الاختبار فى ابحاثهم عن الثقافة والشخصية لأنه يمتاز عن غيره بعدة مميزات ، منها أنه لا يحتاج فى تطبيقه الى معرفة الشخص بالقراءة والكتابة ، وبالتالى يمكن استخدامه فى المجتمعات الأمية ، وجميع المجتمعات البدائية مجتمعات أمية ، هذا بالاضافة الى أنه مرتبط بثقافة معينة، وذلك لأن البقع فى ذاتها لا تعبر عن اى عناصر ثقافية معينة ، ويمتاز كذلك بامكانية تطبيقه على أفراد فى أعمار مختلفة ، ولكن هناك صعوبات تقابل استخدام هذا الاختبار فى ابحاث الانثروبولوجيا النفسية ، التى تجرى عادة فى مجتمعات غريبة على الباحث ، اهمها مشكلة اللغة ، وذلك لان تطبيق هـذا الاختبار يتطلب دراية تامة بلغة الأشخاص المختبرين ، ولا يتوافر ذلك المطلب فى معظم الأبحاث الأنثروبولوجية التى يعتمد فيها الأنثروبولوجى على المترجمين او على معرفة سطحية للغة المجتمع قيد البحث . وقد استطاع أستاذى العلامـة « ماينر » (٢) التغلب على تلك المشكلة فى اثناء تطبيقه لاختبار رورشاخ على عدد من الجزائريين وذلك عن طريق تسجيل الاستجابات باللغة الأصلية أى اللغة العربية ، ثم تسجيل الترجمة الفرنسية لتلك الاستجابات ، واستخدم فى هذا التسجيل المسجل الكهربائى مما أتاح له سماع تلك الاستجابات لعدة مرات ومقارنتها بلغتها الأصلية وباللغة المترجمة اليها . ولكى نحصل عـلى استجابات كافية لنجاح هذا الاختبار ، يجب على الشخص المختبر أن يشعر بالراحة وان يكون هادئا اثناء استخدام الاختبار ، ولا شك أن مثل هـذه الراحة والهدوء من الصعب توفيرها فى حقل الدراسة ، وان كان يمكن توفيرها فى العيادات النفسية فى المجتمعات الغربية ، وذلك لأن الأنثروبولوجى هـو

---

(١) د. عثمان فرج : الشخصية والصحة العقلية ، مكتبة النهضة العربية – القاهرة ١٩٧٠ – ص ٩ .

(٢) Miner. H. and De Vos, G., Oasis and Casbah : Algerian Culture and Personality in Change, Anthropological Papers, Univ. of Michigan, No. 15. 1960, P. 13.

شخص غريب بالنسبة للشخص المختبر . وكذلك قد تبدو بقع رورشاخ أمورا غريبة عند بعض البدائيين . ثم ان مطالبة الشخص المختبر بالتعبير عما يتصوره عند رؤية تلك البقع قد يبدو أمرا لا معنى له أو غير مفهوم ، وقد قرر بعض الأنثروبولوجيين أن المواطنين قيد الدراسة كانوا يرفضون بشدة تطبيق اختبار رورشاخ عليهم ، وتصور بعضهم أنه لون من السحر قد يضرهم. ولكن لا تمنع تلك المواقف السلبية من نجاح تطبيق هذا الاختبار فى الكثير من أبحاث الثقافة والشخصية ، ومن نجاح هذا الاختبار فى الكشف عن الكثير من سمات الشخصية ، وتتفق نتائج هذا الاختبار مع نتائج الاختبارات الأخرى الخاصة بتحديد سمات الشخصية مما يدل على دقة هذا الاختبار . وبالاضافة الى اختبار رورشاخ يوجد اختبار اسقاطى آخر لتحديد سمات الشخصية وهو اختبار تفهم الموضوع (١) ، الذى يختصر الى (TAT) ، ويتكون الاختبار من مجموعة من الصور تقدم الى الشخص المختبر ، الواحدة بعد الأخرى ، ويطلب الباحث منه ان ينظر الى كل صورة جيدا ، ثم يطلب منه أن يضع قصة تعبر عن تلك الصورة ، ويسأله عن الظروف التى ادت الى المنظر الموجود فى الصورة ، ويطلب منه كذلك وصف افكار ومشاعر الأفراد المشتركين فى الصورة ، وعليه كذلك أن يتنبأ بالأحداث التالية لهذا المنظر . صمم هذا الاختبار العالمان «مورجان» و «موراى» (٢) ونشراه عام ١٩٣٥ ، وتقسم الصور الى مجموعات متخصصة ، المجموعة الأولى خاصة بالأشخاص المختبرين من الرجال فقط والمجموعة الثانية خاصة باناث فقط والمجموعة الثالثة خاصة بالأطفال فقط ، أما المجموعة الرابعة فهى عامة اى تقدم لجميع الأشخاص ، ويوجد تتابع معين يجب احترامه عند تقديم الصور للشخص المختبر ، ولكن حدث أن غير بعض البحاث هذا التتابع فى بعض دراساتهم ، وفيما يتعلق بنوع تلك الصور ، فان بعضها يمثل صورا مرسومة والبعض الآخر يشبه صور المجلات ، ويوجد كارت واحد أبيض تماما اى خال من اى صورة ، ويتمثل الأسلوب التقليدى لهذا الاختبار فى عرض عشرين صورة على الشخص المختبر ، الواحد بعد الأخرى ، ثم يطلب الباحث منه أن يضع قصة تعبر عن كل صورة . وفى بعض الأحيان لا يقدم الباحث كل الصور وانما يختار بعضها فقط . وفى تلك الحالات يختار الباحث الصور التى تلائم موضوع بحثه ويهمل الصور الأخرى ، وفيما يتعلق بمضمون تلك الصور فانها متنوعة ، وتشمل العديد من العلاقات الاجتماعية والشخصية ، فمثلا توجد صور تنبه الى وضع قصص خاصة بعلاقة الفرد بأمه أو بأبيه أو بصديقه ، وهناك صور أخرى تدفع الفرد الى وضع قصص عن الطموح وما الى ذلك . وتسجل تلك

---

(١) The Thematic Apperception Test.

(٢) Morgan, C. and Murray, H.

القصص بعناية ، ثم يقوم المتخصصون بتفسيرها ، ويستنتجون منها بعض اتجاهات وسمات شخصية الفرد المختبر . ويهمنا هنا تطبيق هذا الاختبار فى ابحاث الثقافة والشخصية ، ومن الواضح أن تطبيق هذا الاختبار فى الثقافات البدائية يقابله الكثير من الصعوبات ، وذلك لأن الكثير من تلك الصور تمثل عناصر ثقافية خاصة بالثقافة الغربية ، مثل الملابس الغربيـــة والأدوات الموسيقية الغربية ، وهى أمور لا تكون مفهومة فى الثقافات البدائية التى لم تتأثر بقوة بالثقافة الغربية . هذا بالاضافة الى أن الأشخاص المتضمنين فى تلك الصور يمثلون السلالة القوقازية فقط . فى حين كثيرا ما تعرض تلك الصور على أفراد من السلالة الزنجية أو السلالة المغولية ، ولتذليل تلك الصعوبات اضطر بعض البحاث الى ادخال تعديلات فى صور الاختبار السابق، بحيث تتفق موضوعات تلك الصور مع الثقافة المراد دراستها . وهنـــــا يطلب الباحث من أحد الفنانين تعديل مضمون تلك الصور وتصميم صـــور جديدة شبيهة بالصور الأصلية . وقد استخدمت الصور المعدلةبنجاحكبيرفى دراسة أطفال قبيلة هوبى وقبيلة نافاهو وفى دراسة العالمين « جلادوين » و « ساراسون » عن جماعة تروك ، وفى كثير من الأبحاث الخاصة ببعض القبائل الأفريقية ، وكذلك طبقت بعض صور معدلة للاختبار على بعض النساء الريفيات فى اليابان(١) ، ويرى العلماء المتخصصون أن تلك الصور المعدلـــة يجب أن تحتوى على منظر خاص بعلاقة الطفل بأمه ، ومنظر خاص بعلاقة الطفل بأبيه ، ومنظر ثالث يتكون من شخص واحد ، ومنظر رابع يمثل رجلا وامرأة ، ومنظر خاص بمجموعة الناس ، ومنظر آخر يمثل السلطة ومنظر يمثل البيئة المحيطة ، ومناظر خاصة بالأنشطة الاقتصادية المختلفة . ويجب كذلك أن تشمل الصور المعدلة منظرا واحدا أو اثنين يتضمنان ترتيبا غيـــر منطقى للأشياء الواقعية ، ومنظرا واحدا أو اثنين يتضمنان أحداثا غير واقعية، ومنظرا أو أكثر يعبر عن المشاكل المحلية (٢) . ولا شك أن تلك الصور المعدلة تختلف كثيرا عن الصور الأصلية للاختبار ، وتختلف كذلك عن بعضها البعض، مما يجعل من تلك الصور المعدلة اختبارات محلية اى لا تصلح الا فى الثقافة التى صممت من أجلها . وهكذا يتضح لنا أن النماذج المعدلة من اختبار تفهم الموضوع لا تصلح لتطبيقها فى الثقافات المختلفة . وهنا يمتاز اختبار رورشاخ على اختبار تفهم الموضوع سواء فى النموذج الأصلى أو النماذج المعدلة ، وذلك لأن اختبار رورشاخ يتمتع بامكانية التطبيق فى جميع الثقافات . ولا يعنى

---

(١) Deves, G. and wagatsuma, H., Value Attitudee Toward Role Behavior of Women in Two Japanese Villages, American Anthropologist, Vol. 63, 1961, PP. 1204 - 1230.

(٢) Barnouw, V., Culture and Personality, PP. 261 - 262.

ذلك أن اختبار تفهم الموضوع ليس مفيدا فى تحديد سمات الشخصية ، وانما يعنى أنه لا يمكن تطبيق هذا الاختبار بصورة عالمية ولذلك ادخلت عليه التعديلات حتى يمكن تطبيقه فى الثقافات المختلفة ، وقد صاحب تطبيق هذا الاختبار صعوبات جمة فى المجتمعات البدائية التى لم يتعود أفرادها على الصور لعدم وجودها فى مجتمعاتهم .

وبالاضافة الى اختبار رورشاخ واختبار تفهم الموضوع يوجد من الاختبارات الاسقاطية دراسة رسوم الأفراد المختبرين ، ولكن لا تعطى أبحاث الثقافة والشخصية لدراسة الرسوم الأهمية التى اعطتها للاختبارين السابقين ، هذا بالرغم من أن الرسوم لا تتطلب الا القليل من الكلمات والوقت والأدوات البسيطة مثل الورقة والقلم ، وهى أمور ذات اهمية فى ابحاث الثقافة والشخصية الخاصة بالثقافات البدائية أو المتخلفة ، ولا تؤثر كثيرا عقبة عدم اتقان لغة الأشخاص المختبرين عند استخدام هذا الاختبار الاسقاطى ، هذا بالاضافة الى أن تلك الرسوم تبقى كوثيقة دائمة لتعبير الفرد عن شخصيته ويمكن الرجوع اليها فى أى وقت .

لقد جمع بعض الأنثروبولوجيين العديد من الرسوم من الاخباريين أثناء دراساتهم الحقلية ، ولكن القليل منهم حلل تلك الرسوم واعمتدعليهافىتحديد سمات الشخصية قيد البحث ، ولكن أخذ الاهتمام بتحليل الرسوم يتزايد تدريجيا فى أبحاث الثقافة والشخصية فى الفترة الاخيرة . ولا يعنى قلة استخدام هذا الاختبار فى أبحاث الأنثروبولوجيا النفسية ضعفه أو عدم فائدته فى اكتشاف سمات الشخصية ، فعلى العكس ، يستخدم هذا الاختبار بجانب الاختبارين السابقين بنجاح تام فى العيادات النفسية .

حقق اختبار الرسم نجاحا كبيرا عند دراسة الأطفال والأشخاص الخجولين والأشخاص الذين لا يستطيعون ، لسبب ما ، الكلام . ويرى أحد علماء النفس أن اختبار الرسم يتميز على اختبار رورشاخ واختبار تفهم الموضوع من ناحية أنه أقل تأثرا بالباحث الذى يجرى الاختبار وأكثر صراحة ووضوحا فى التعبير عن الشخصية(١) .

ومن أهم أبحاث الثقافة والشخصية التى اعتمدت على طريقة تحليل رسوم الأطفال بحث الأنثروبولوجية « ديبوا » عن جماعة ألور(٢) ، اعطت

---

(١) Hammer, E., The Clinical Application of Projective Drawings, Charles C. Thomas, Springfield, III. 1958, PP. 600 & 601.

(٢) Dubois, C., The People of Alor, Univ. of Minnesota Press. Minneapolis, 1944.

« ديبوا » بعض أطفال تلك الجماعة ورقا وأقلام رصاص وطلبت منهم أن يرسموا اى شىء يريدونه ، وجمعت « ديبوا » رسوما من ٣٢ ولدا و ٢٢ فتاة ، وعند فحصها لاحظت « ديبوا » وجود بعض الفروق بين رسوم الأولاد ورسوم الفتيات ، فقد اظهر الأولاد اهتماما أكبر بالأشياء الغريبة وبالاحتفالات، فى حين ركزت الفتيات اهتماماتهن على رسم أشكال الوشم ، وقد لوحظ كذلك ان النبات يمثل اكثر الاشياء تكرارا فى رسوم الأولاد والبنات على السواء . ويتلو النبات الحيوانات عند الأولاد والأدوات عند الفتيات ، وتأتى المبانى فى المرتبة الثالثة بالنسبة للنوعين ، اما البشر فقد ندر وجودهم فى تلك الرسوم فقط فى ٧٪ من رسوم الأولاد وفى ١٪ من رسوم الفتيات . وتعد تلك النتائج مناقضة للنتائج التى توصلت اليها بعض الأبحاث التى أجريت على أطفال المجتمعات الغربية ، ففى دراسة خاصة برسوم الأطفال الانجليز تبين أن الموضوع الرئيسى فى تلك الرسوم هو الانسان ، ويتلو ذلك المنازل ثم الأشجار ثم الأزهار . ولنتناول الآن فى ايجاز تحليل المتخصصين لرسوم أطفال جماعة الور ، فقد حلل المحلل النفسى « شميدل واهنر »(١) الرسوم السابقة دون ان يعلم شيئا عن ثقافة وشخصية جماعة الور ، ووصل الى نتائج تتفق مع النتائج التى توصل اليها علماء آخرون عن طريق استخدام اختبار رورشاخ وطريقة سير الحياة ، ويقرر هذا المحلل النفسى أن هؤلاء الأطفال يشعرون بالوحدة ، ويستدل على ذلك من عدم الضغط على القلم فى الخطوط ومن الاتقان فى رسوم الخط ذاته . ويتمتع هؤلاء الأطفال بقدرات جيدة ولكنهم متفرقون عن بعضهم ، وتوجد فى رسومهم عناصر جيدة ولكن تنقصها الوحدة دائما ، ويدل عدم وجود منحنيات او اقواس فى تلك الرسوم على عدم قدرتهم على الترابط العاطفى فيما بينهم ، وينقصهم كذلك الاتجاه الخلاق ، ويتضح هذا النقص من صغر الأشكال ومن عدم وجود تنوع فى الضغط على القلم ، وبالتالى لا توجد خطوط غامقة وفاتحة ، وكذلك من عدم وجود القوس المتنوع والايقاع المتنوع (٢) ، وهذه من المؤشرات الدالة على الخلق والابداع . ويعرف هؤلاء الأطفال بصورة واقعية الحدود التى يجب أن يقفوا عندها ؛ ويستنتج ذلك من عدم الرسم على أطراف الورق ، وفى رسومهم النادرة المتعلقة بالأشخاص ، لوحظ انهم يخفون الأعضاء التناسلية من تلك الرسوم ، هذا بالرغم من وجود بعض الاباحة الجنسية قبل الزواج فى قبيلة الور ، وترى العلامة « ديبوا » أن تلك الظاهرة تدل اما على خوف شديد من الخصاء أو على عدم اهتمام بالأمور الجنسية ، وهى تفضل التفسير الأخير ، فى حين

---

(١) Schmidl, Waehner.

(٢) Differentinted curve and differentiated rythm.

يؤكد المحلل النفسى « روهيم » التفسير الأول على أساس أن الخوف من الخصاء من أهم الخصائص النفسية لجماعة الور (١) .

ومن أهم الاختبارات الاسقاطية بالرسوم اختبار رسم شخص (٢)ويختصر باللغة الانجليزية الى (DAP) وهو من اختراع العلامة « ماشوفر »(٣) واختبار المنزل والشجرة والشخص ويختصر باللغة الانجليزية الى (H-T-P) وهو من اختراع العلامة « باك » (٤) .

وقد طبق اختبار رسم شخص فى عدة ابحاث للثقافة والشخصية وان كانت نتائج تطبيقه لم تصل الى نجاح اختبار الرسم فى جماعة الور ، بل يمكن القول أن استخدامه قد منى بالفشل ، ولم يطبق بعد اختبار المنزل والشجرة والشخص فى أبحاث الأنثروبولوجيا النفسية (٥) .

خامسا ــ دراسة الأدب الشعبى :

يمكن تمييز ثلاثة اتجاهات واضحة فى استخدام دراسة الأدب الشعبى فى ابحاث الثقافة والشخصية ، يتمثل الاتجاه الأول فى الدراسات الرائدة التى قام بها كبار المحللين النفسيين مثل فرويد ويونج وابراهام ورايك وروهايم . وتشتمل تلك الدراسات على مسوح تجمع اكبر عدد من الأساطير والحكايات الشعبية من جميع أنحاء العالم . وتهدف تلك الدراسات الى اثبات وجود مفاهيم نظريات فرويد فى المجتمعات المختلفة مما يؤيد فرض عالمية وعمومية تلك الخصائص النفسية . أما الاتجاه الثانى فهو القيام بمسوح للأساطير والحكايات الشعبية فى الثقافات المختلفة لتحديد أوجه الاختلاف والاتفاق فى الموضوعات التى تتضمنها تلك الأساطير والحكايات . ولتحديد مدى انتشار الترابطات بين بعض الموضوعات وأنماط ثقافية معينة مثل نظم تربية الأطفال، وتعتمد تلك الدراسات على سجلات مناطق العلاقات الانسانية (٦) ، فقدقامت خمس عشرة جامعة أمريكية بمشروع علمى مفيد يتمثل فى جمع وتصنيف المعلومات الوصفية الخاصة بعدد كبير من ثقافات المجتمعات ونظمها

---

(١) Roheim, G., Psychoanalysis and Anthropology, International Univ. Press, N.Y. 1950, P. 264.

(٢) The Draw - A - Person Test.

(٣) Machover.

(٤) Buck.

(٥) Honigmann, J, and Correra, R., Cross - Cultural Use of Machover Figure Drawing - Test, American Anthropolist, Vol. 59, 1957, PP. 650 - 654.

(٦) Human Relations Area Files.

الاجتماعية ، وطبعها فى سجلات يسهل تداولها . وتوضع مجموعة كاملة من تلك السجلات فى الجامعات التى قامت بتنفيذ المشروع ، وبفضل هذا المشروع أصبح فى الامكان الحصول على الكثير من المادة الأنثروبولوجية عن المجتمعات المختلفة ، وبالتالى يمكن اجراء المقارنات والوصول الى نتائج عامة . ويتخصص الاتجاه الثالث فى الدراسة التفصيلية للأدب الشعبى فى مجتمع معين وتحليلها بهدف معرفة القيم والاتجاهات الأساسية فى شخصية وثقافة هذا المجتمع .

ان اكثر تلك الاتجاهات انتشارا فى ابحاث الثقافة والشخصية هو الاتجاه الثالث . ويقوم اتجاه التحليل التفصيلى للأدب الشعبى فى مجتمع ما على افتراضين ، افتراض وجود شخصية رئيسية او منوالية فى المجتمع قيد البحث . وافتراض ان التكامل الثقافى يميل الى تأكيد نوع من الثبات والتماسك فى الادب الشعبى ، وبالتالى يمكن استنتاج بعض خصائص الشخصية الرئيسية فى المجتمع قيد البحث عن طريق تحليل أدبه الشعبى ، برغم وجود شبه اتفاق على أن دراسة الأدب الشعبى فى مجتمع معين تؤدى لمعرفة اتجاهات الشخصية فى هذا المجتمع ، فانه أثيرت حول هذا الموضوعثلاثة اعتراضات؛ يقول البعض ان الادب الشعبى قد يعكس انماطا ثقافية وسمات للشخصية قديمة لم يعد لها وجود فى الوقت الحاضر ، ولكن يمكن الرد على ذلك الاعتراض من زاوية ان الأدب الشعبى ينقرض فى حالة عدم تعبيره عن الثقافة الموجودة . ويتمثل الاعتراض الثانى فى القول بأن الحكايات الشعبية من شأنها الانتشار من مجتمع الى آخر ، وبالتالى لا تعبر بدقة عن قيم المجتمع قيد البحث ، لأنها قد تكون مستعارة من مجتمع آخر . ويمكن الرد على هذا الاعتراض من ناحية أن الاستعارات الثقافية تتعرض دائما للتعديلات التى تجعلها فى النهاية متفقة مع ومعبرة عن قيم المجتمع المنقولة اليه ، ونصل الآن للاعتراضالأخير وهو القول بأنه من الصعب معرفة ما اذا كانت القيم والاتجاهات المتضمنة فى الأدب الشعبى تعبر عن اتجاهات وقيم موجودة فعلا فى ثقافة المجتمع قيد البحث ؛ أو هى مجرد أمنيات وتمنيات أو صور من ردود الفعل لأحداث مؤقتة، ويمكن الرد على هذا الاعتراض أيضا بالقول أن معرفتنا الوثيقة بثقافة المجتمع قيد الدراسة تمكننا من التأكيد ما اذا كانت تلك الاتجاهات والقيم امورا حقيقية أم مجرد تمنيات . ومن الواضح أن المناقشة السابقة تؤكد أن الأدب الشعبى يعبر عن قيم وشخصية الثقافة قيد البحث ، وهى حقيقة عرفها منذ زمن ليس بقريب الأنثروبولوجى الكبير « بواز » وله كتاب بعنوان « ثقافة كيوكيوتل ممثلة فى الأساطير »(١) .

---

(١) Boas, F., Kwakiutl Culture as Reflected in The Mythology, Memoirs of The American Folklore Society, Vol. xx VIII. N.Y. 1835.

ولكن يجب ملاحظة أن الأدب الشعبى فى مجتمع ما لا يعكس جميع جوانب حياة الناس فى هذا المجتمع ، وتقوم الدراسات الميدانية بتحديد الموضوعات التى تهتم بها الحكايات الشعبية فى مجتمع ما والموضوعات التى تتجاهلها تلك الحكايات ، فمثلا قد يتوقع الدارس أن الحكايات الشعبية فى قبائل الاسكيمو تهتم بالجو البارد وبالثلوج ولكن الدراسات الميدانية تقرر عكس ذلك ، فالجو لا يعد من الموضوعات الرئيسية فى الأدب الشعبى لدى الاسكيمو . وانما يتركز الاهتمام على العلاقات الشخصية ، وبينما يمثل الرعى عنصرا هاما فى حياة قبائل « زونى » من الهنود الحمر ، لا تذكر الحكايات الشعبية فى تلك القبائل عنه شيئا .

وتبين دراسة « ميلفيل جاكوب » لجماعات « كلا كاماس تشينوك » من الهنود الحمر ، شدة اهتمام ثقافتهم بالطقوس الموسمية واحتفالات بلوغ البنات ومفاوضات وطقوس الزواج والخوف من السحر والوصفات العلاجية الشامانية ، ولكن برغم ذلك تكاد تخلو الحكايات الشعبية من ذكر تلك الموضوعات الرئيسية ، ويستنتج من دراسته أن الحكايات الشعبية فى مجتمع ما تمثل شاشة لاسقاط المشاعر والاتجاهات التى تكبت أو تعارض عن طريق ثقافة ذلك المجتمع ، وهى المشاعر والاتجاهات التى لا تهتم بها الانماط الثقافية ولذلك يوجد اختلاف واضح بين الموضوعات التى تهتم بها الثقافة بصورة ظاهرة والموضوعات التى يركز عليها الادب الشعبى فى تلك الثقافة . ويتفق هذا الرأى مع راى المحللين النفسيين فى الوظيفة النفسية للأدب الشعبى . وقد يساعد هذا الرأى على تفسير وجود أو غياب بعض جوانب ثقافة مجتمع ما فى أدبه الشعبى(١) .

ومن اهم دراسات الثقافة والشخصية التى اعتمدت على تحليل الادب الشعبى دراسة العالمة « مارجريت لانتيس » لبعض جماعات الاسكيمو التى تقطن جزيرة « نونيفاك » فى الاسكا ، والى جانب دراسة الأدب الشعبى ، اجرت اختبار رورشاخ على اثنين وثلاثين شخصا مختبرا من هؤلاء الاسكيمو، وقد قدمت نتائج هذا الاختبار لعالمتين متخصصتين هما ايوجينا هانفان واليس جوزيف لتحليلها بصورة مستقلة ، وكانت اكثر الموضوعات انتشارا فى تلك الحكايات الشعبية موضوع بطل يستطيع التغلب على الصعاب ، ويمكن القول بأن ثلث الحكايات الشعبية عند تلك الجماعات تعالج هذا الموضوع ، وتحكى نصف تلك الحكايات الشعبية قصة ولد يتيم استطاع فى النهاية

(١) Jacobs, M., The content and Style of an Oral Literature. Clackamas Chinook Myths and Tales, Viking Fund Publications in Anthropology, No. 26, N.Y. 1959, P. 130.

الانتصار على أعدائه ، وعادة يعيش مع احدى قريباته ، اخت أو جدة . وتؤكد تلك الحكايات اهمية الانجازات الفردية بصورة اقوى من تأكيدهــا للتعاون الجماعى ، ولكن تهتم الحكايات الحربية بموضوع التعاون الجماعى ، ولا توجد حكايات خاصة بموضوع الآباء والأبناء ، وتهتم بعض الحكايــات بموضوع فتــاة متغطرســة ترفض المتقدمين للزواج منهــا ، وفــى النهاية تهجــر زوجها وتعيش وحـــدها . ويندر وجـــود حكـــاية تصور زوجا هاجرا لزوجته ، ودائما تصور تلك الحكايات الأم والجدة فى شخصيات طيبة ومثيرة ، ولكنها تصور الزوجات كشخصيــات عدائيــة ومتكبرة . وتفسر العلامة « لانتيس » ذلك التصور العدائى للزوجة عن طريق ارجاعه الى حرمان الأطفال من رعاية الأم عند بلوغهم سن الخامسة . وذلك لأن الأطفال عند بلوغهم الخامسة يتركون منازل آبائهم ويعيشون معاً فى بيت الاحتفالات ، ويتزوج الفتيات فى سن صغيرة تتراوح بين الحاديــة عشرة والثالثة عشرة ، ولذلك يرفضن بشدة الزواج ولا يقبلنه الا مرغمات فى هذه السن المبكرة . وتصل العلامة « لانتيس » الى نتائج عامة خاصة بشخصية تلك الجماعة من الاسكيمو ، منها أن تلك الجماعة لديها صورة واضحــة لأهدافهم ، ويعملون على تحقيقها بصورة واقعية ، وتكثر حوادث الاعتداء والعنف وسفك الدماء فى تلك الحكايات ، وقد وضعت العلامة « لانتيس » جدولا للأخطار البدنية المذكورة فى تلك الأساطير ، ومن أكثر تلك الأخطار انتشارا عض وأكل لبعض أجزاء جسم الانسان ، ومن الموضوعات النادرة الذكر فى تلك الحكايات قصص الاحتيال (١) ، ولكن تنتشر تلك الموضوعات فى الحكايات الشعبية عند هنود السهول ، ويتضح ذلك من الدراسة القيمة التى قام بها العلامة « بارنو » لجماعة تشيبوا من الهنود الحمر ، فقد تبين له ندرة الحكايات الشعبية الخاصة بالانجازات الفردية أى عكس الاتجاه السائد فى جماعة الاسكيمو سابقة الذكر ، تدور معظم حكايات تشيبوا حول الخداع والاحتيال ، وأشهر أبطال هذه القصص بطل مخادع يدعى وينيوجو (٢) . كذلك من اهم عناصر الأدب الشعبى الامثلة الشعبية والنكت وخاصــة فى المجتمعات التى تنتشر فيها الأمية ، وتدرس الأمثلة الشعبية للتعرف عـــلى خصائص الشخصية القومية ويمثل المثل الشعبى خبرة اجتماعية يتناقلهــا

---

(١) Lantis, M., Nunivak Eskimo Personality as Revealed in Mythology. Anthropological Papers of the Univ. of Alaska Vol. 2, No. 1, 1953, PP. 109 - 174.

(٢) Barnouw, V., A-psychological Interpretation of a Chippewa Origin Legend, Journal of American Folkore, Vol. 68, No. 267, 1955, PP. 73-85.

الناس جيلا بعد جيل . وقد اعتمد الكثير من البحث العرب (١) على تحليل الأمثلة الشعبية المصرية والعربية لاستنتاج خصائص الشخصية المصرية والعربية .

سادسا ــ دراسة الفن :

يرى بعض الأنثروبولوجيين ان دراسة وتحليل فن مجتمع ما يؤدى الى معرفة بعض سمات الشخصية المنوالية فى هذا المجتمع . وقد سبق بعض مؤرخي الثقافة ومؤرخي الفن الانثروبولوجيين فى اتباع هذا المنهج ، فقد حلل المؤرخون هايزينجا وفرويدل وبيفسنير وسيفر (٢) الفنون أوربية فى العصور الوسطى وعصر النهضة بهدف التوصل الى الاتجاهات الرئيسية ، وقيم وتصور العالم عند حاملى هذه الثقافات ، ويقوم هذا المنهج على افتراض ان الأفراد يسقطون اتجاهاتهم الرئيسية وقيمهم فى فنون الرسم والموسيقى والنحت والعمارة والآداب ، وهكذا يتمثل هذا المنهج فى تفسير تلك الفنون بهدف الوصول الى القيم والاتجاهات الرئيسية التى ترمز اليها .

وفى دراسة مقارنة بين الثقافة الأمريكية والثقافة الصينية حلل الانثروبولوجى « فرانسيس هسو » اللوحات الفنية الامريكية والصينية ، وركز اهتمامه على المضمون دون الأسلوب ، ولاحظ « هسو » كثرة الأشخاص فى الرسوم الأمريكية وقلتهم فى الرسوم الصينية ، وفى حالة وجودهم فى الرسوم الصينية ، لا يمثلون الموضوع الرئيسى فى اللوحة وانما موضوعات فرعية ، وتغلب على اللوحة المناظر الطبيعية ، هذا بالاضافة الى انهم لا يعبرون عن أية حركة وتكون وجوههم خالية من التعبير او الانفعال . وكذلك تخلو لوحات الصينيين من الايحاءات الجنسية ، ولكن توجد تلك الايحاءات فى صورهم الاباحية . ويختلف الوضع تماما فى اللوحات الامريكية حيث يركز الاهتمام على رسم الاشخاص ، وتوضح التعابير والعواطف على الوجوه ، وتوجد ايحاءات جنسية فى تلك الرسوم . ويستنتج « هسو » من تلك المقارنة

---

(١) د. حسن الساعاتى : حكمة لبنان ــ من منشورات جامعة بيروت العربية ــ بيروت ١٩٧١ .

د. حسن حنفى : المتفسير الدينى وازدواجية الشخصية ــ مجلة الفكر المعاصر العدد ٥٠ ــ القاهرة ١٩٦٩ .

د. عزت حجازى : الشخصية المصرية بين السلبية والايجابية ــ مجلة الفكر المعاصر ــ العدد ٥٠ ــ القاهرة ١٩٦٩ .

د. سيد عويس : من ملامح المجتمع المصرى المعاصر ــ دار مطابع الشعب ــ القاهرة ١٩٦٥ .

د. شوقى عبد الحكيم : أساطير وفولكلور العالم العربى ــ روزاليوسف ــ القاهرة ١٩٧٤ .

(٢) Huiziuga - Friedel - Pevsner - Sypher.

أن الثقافة الغربية عامة والثقافة الأمريكية خاصة هى ثقافة متمركزة حول الفرد ، وتضفى اهمية كبرى على ميول الفرد ورغباته . أما الثقافة الصينية فهى ثقافة متمركزة حول الموقف ، وتؤكد اهمية ادراك الفرد لمكانه الصحيح بالنسبة للآخرين ، وهكذا فان مركز الفن الأمريكى هو الرجل أو المراة كفرد اما فى الفن الصينى فان الموضوع الهام هو مكان الفرد فى الشكل الخارجى للاشياء . وبينما يعكس الفن الأمريكى الاضطراب الداخلى عند الفرد ، لايعبر الفن الصينى عن انفعالات الفرد . وكذلك لاحظ « هسو » وجود هذين النمطين المتعارضين فى آداب الثقافتين ، فبينما تصف القصص الصينية السلوك الخارجى ، تهتم القصص الأمريكية بأفكار وعواطف الشخصيات . وهكذا فان الآداب الغربية يغلب عليها الصفة الاسقاطية بصورة أقوى من الآداب الصينية ، وتتميز القصص الأمريكية بأن التقاء البطل بالبطلة والفوز بها هو قمة ونهاية قصة الحب ، وفى سبيل تحقيق هذا الالتقاء تظهر الكثير من الصعاب ، وتتولد الكثير من العواطف فى عملية التغلب على تلك الصعاب . أما فى القصص الصينية ، فان موضوع التقاء البطل بالبطلة والفوز بها يعتبر أمرا عرضيا ويحدث غالبا فى أول القصة ، ولا يمثل نهايتها او قمتها (١) .

ومن اهم دراسات الثقافة والشخصية التى اعتمدت على دراسة الفن دراسة العلامة « والاس » لفن جماعات « مايا » من الهنود الحمر ، وقد استطاع التوصل عن طريق دراسة الفن فى تلك الجماعات الى تحديد القيم الأساسية وسمات الشخصية المنوالية(٢) .

اهتم بعض الأنثروبولوجيين بدراسة العلاقة بين الفن والشخصية عن طريق دراسة الثقافات التى تتشابه فيها الأساليب المطبقة فى الفن والبحث عن وجود سمات متشابهة فى شخصيات حاملى تلك الثقافات ، فمثلا تتميز فنون جماعات « مايا » وجماعات « بالى » بخاصية مشتركة وهى الافراط فى الزخرفة أو الاسلوب الباروكى ، وفى الوقت نفسه نجد تشابها فى خصائص الشخصية المنوالية فى تلك الجماعات ويتمثل هذا التشابه فى الحرمان من الرعاية الكافية من الام عند الصغر ، وعدم توافر الروابط العاطفية مع الآخرين وانتشار سمة الانطواء فى شخصيات الافراد .

وجدير بالذكر فى هذا المجال الاشارة الى المسح الثقافى المقارن الذى

---

(١) Hsu, F., Americans and Chinese : Two Ways of Life, Henry Schuman, N.Y. 1953, P. 21.

(٢) Wallace, A., A Possible Technique for Recognizing Psychological Characteristics of the Ancient Man from an Analysis of Their Art, American Imago, Vol. 7, 1950, P. 255.

قام به العلامة «هيربرت باری» ودرس فيه الفن التصويري لثلاثين مجتمعا بدائيا ، وكان العالمان «هوايتينج» و «تشايلد» قد جمعا مادة عن التنشئة الاجتماعية من هذه المجتمعات ، فحص العلامة «باری» ٥٤٩ لوحة من رسوم تلك المجتمعات ، ولاحظ وجود ترابط بين خاصية الاسلوب المعقد فى الفن وظاهرة صرامة نظم التنشئة الاجتماعية ، ويفسر هذا الترابط على اساس أن صرامة نظم التنشئة الاجتماعية تضغط على الأفراد وتدفعهم الى الاعتماد على النفس واستقلال السلوك ، وليس الى الخضوع وتبعية السلوك ، ففى تلك المجتمعات يتعلم الفرد منذ الصغر كيف يعتمد على نفسه ، ويعاقب فى حالة اعتماده على الآخرين (١) .

وبرغم وجود مثل تلك الدراسات التى تعتمد فى دراستها للسمات النفسية للجماعة قيد البحث على تحليل الجماعة ، فان هذه الطريقة فى البحث ليست منتشرة ، ان كان بدأ مؤرخو الفنون والفنانون تطبيقها فى دراساتهم .

سابعا ــ الدراسات الترابطية (٢) :

اعتمدت بعض دراسات الثقافة والشخصية على سجلات ومناطق العلاقات الانسانية (٣) فمثلا استعانت العلامة «ديبوا» بتلك السجلات فى دراستها المكثفة لثقافة جماعة الور ، واعتمدت العلامة «بينيدبكت» على تلك السجلات فى دراستها المقارنة الشهيرة « نماذج من الثقافة » ؛ وكذلك استعانت بتلك السجلات العلامة «مير» فى دراستها المقارنة المعروفة « النوع والمزاج » ، ويتلخص هدف تلك المسوح فى الوصول الى تعميمات عن طريق دراسة ظاهرة معينة فى عدد من الثقافات المختارة من مناطق ثقافية فى العالم ، وعادة تبدأ تلك المسوح بوضع فرض معين ثم يستعان بتلك السجلات فى الحصول على المادة الثقافية التى تؤيد أو ترفض هذا الفرض ، ولا يحتاج هؤلاء البحاث الى القيام بالأبحاث الميدانية ، وان كان قام بعضهم بتلك الأبحاث ، وانما يعتمدون فى الحصول على المادة اللازمة على سجلات مناطق العلاقات الانسانية (تختصر باللغة الانجليزية الى (HRAF) ، وقد قام بجمع تلك السجلات الهامة جامعة ييل الأمريكية بمعاونة عدة جامعات أمريكية أخرى ، ويعرف هذا المشروع العلمى المفيد باسم ييل الثقافى المقارن (٤) ، ويتكون من مجموعة هائلة من

---

(١) Barry III, H., Relationships between Child Training and the Fictorial Arts, Journal of Abnormal and Social Psychology, Vol. 54, P. 1957, P. 382.

(٢) Correlational Studies.

(٣) Human Relations Area Files.

(٤) Yale Cross - Cultural Survey.

السجلات التى تضمن مادة اثنولوجية لعدد كبير من ثقافات العالم يبلغ عددها عدة مئات مختارة من مناطق ثقافية مختلفة ، ولقد نظمت وصنفت تلك المادة الهائلة بأسلوب علمى دقيق يجعل استخدامها والانتفاع بها أمرا سهلا وميسورا للعلماء ، فيمكن جمع المادة الخاصة بوسائل الصيد البحرى المطبقة فى عدد كبير من الثقافات فى لحظات وبجهد قليل ، وهكذا يوفر هذا المشروع جهد الأنثروبولوجيين الذى يبذل فى الحصول على المادة الثقافية اللازمة لمسوحهم المقارنة ، ويساعد كذلك على انتشار الدراسات الترابطية التى تعالج العلاقات الترابطية بين الأنماط الثقافية فى المجتمعات المختلفة .

ومن أمثلة دراسات الترابط بين الأنماط الثقافية فى عدة ثقافات دراسة الأنثروبولوجية «بياتريس هوايتنج» الخاصة بوجود ترابط بين انتشار ظاهرة الخوف من السحر وصرامة الضبط الاجتماعى فى كثير من ثقافات الهنود ، وخاصة فى المجتمعات « المبعثرة الأجزاء» (١) ففى تلك المجتمعات يهتم الآباء فى العائلات الممتدة بتربية أطفالهم تربية صارمة تتمثل فى منع السلوك العدوانى خوفا من تعرض الفرد لسحر الآخرين أو من اتهامه بممارسة أعمال سحرية ضد الآخرين . ولذلك يمنع الكبار الصغار من الضحك بصوت عال ومن السخرية من الآخرين ويطلبون أن يكونوا دائما مؤدبين وأن يتحدثوا مع الآخرين برقة بالغة . ولكن لا يمنع ذلك الضبط الاجتماعى الصارم من وجود اتجاهات عدوانية داخل الأسرة ذاتها ، ومن أمثلة ذلك ضرب الأزواج لزوجاتهم وانتشار الانتحار (٢) .

ودرس العلامة «هورتون» وظائف الخمر فى المجتمعات البدائية واعتمد فى تلك الدراسة على مادة ثقافية مأخوذة من سجلات مناطق العلاقات بالانسانية ، ويؤكد «هورتون» أن الوظيفة الرئيسية لتعاطى الخمور فى المجتمعات البدائية هى تهدئة القلق ، هذا بالرغم من أن القلق العكسى قد ينتج من السكر ، وذلك لتعرض السكارى للعقاب لما يقترفونه من مخالفات وجرائم أثناء السكر . وضع «هورتون» ثلاثة فروض ، وفحص مدى صحتها بالرجوع الى سجلات مناطق العلاقات الثقافية ، يقرر الفرض الأول ان شرب الخمر يصاحبه عادة انطلاق للدوافع النفسية والعدوانية ، ويحدد الفرض الثانى أن مدى قوة الميل للشراب تتأثر مباشرة وبصورة قوية بمستوى القلق فى المجتمع قيد البحث ، أما الفرض الثالث فيقرر أن مدى قوة الميل للشراب تتأثر بصورة عكسية بقوة القلق العكسى الذى ينتج من الخبرات الأليمة التى

---

(١) Atomistic Societies.

(٢) Whiting, B, Paiute Sorcery, Viking Fund Publications in Anthropology, No. 15, N.Y. 1959, P. 13.

يتعرض لها المدمن اثناء وبعد الشراب . ويرجع «هورتون» للمعلومات الخاصة بتعاطى الخمور فى ٥٦ مجتمعا مختلفين ثقافيا ، وتبين له تنوع مصادر القلق فى تلك المجتمعات ، ولاحظ أن أهم تلك المصادر هى الحرمان الاقتصادى(١) وحالات الامتزاج الثقافى (٢) ، وصف تلك المجتمعات الى ثلاث مجموعات على اساس ضعف أو شدة الحرمان الاقتصادى ، مجموعة (أ) ، وفيها المجتمعات التى تعانى من حرمان اقتصادى مرتفع ، ومجموعة (ب) ذات الحرمان الاقتصادى المتوسط ، ومجموعة (جـ) تقل فيها درجة الحرمان الاقتصادى ، ثم قام بتصنيف تلك المجتمعات الى ثلاث مجموعات اخرى على اساس شدة أو ضعف الميل للشراب عند الرجال ، فتمثل المجموعة (د) المجتمعات ذات الميل القوى للشراب ، والمجموعة (هـ) المجتمعات ذات الميل المتوسط للشراب ، أما المجموعة (و) فتشمل المجتمعات ذات الميل البسيط للشراب ، وقد اكتشف وجود ترابطات بين المجموعة (أ) والمجموعة (د) وبين المجموعة (ب) والمجموعة (هـ) وبين المجموعة (جـ) والمجموعة (و) وبالتالى يقرر صحة الفرض الثانى .

وكذلك لاحظ «هورتون» أن المادة الثقافية الخاصة بالمجتمعات السابقة تبين تتابعا معينا فى صور السلوك التى تحدث فى أثناء وبعد الشراب عند الرجال ، ففى المراحل الأولى من الشراب يسود الجماعة الود والجو المرح ولكن فى المراحل المتأخرة يتعارك السكارى ويتشاجرون ، ولاحظ كذلك عدم انتشار عادة تعاطى الشراب عند النساء ، وفى كثير من المجتمعات تخفى النساء الأسلحة لكى لا يستخدمهاالرجال عندما يتشاجرون فى حالة السكر ، ويبين «هورتون» أن معظم الجماعات البدائية التى ينتشر فيها عادة الشراب يسودها التتابع السابق لصور السلوك فى اثناء وبعد الشراب ما يؤكد صحة الفرض الأول الخاص بأن الاتجاهات العدوانية التى تكبت فى الحالات العادية تطلق فى حالة السكر (٣) .

ولكن فى مسح ثقافى آخر أكثر حداثة من دراسة هورتون قرر العلامة «فيلد» عدم اقتناعه بصحة نظرية ترابط القلق وتعاطى الشراب سابقةالذكر ، وذلك لأنها لا تشرح لماذا يختار مدمن الشراب هذه الوسيلة لانقاص القلق ، ويهمل ميكانيزمات أخرى تحقق الوظيفة نفسها ، وكذلك يعارض «هورتون»

---

(١) Subsistence insecurity.

(٢) Acculturation.

(٣) Horton, D., The Functions of Alcohol in Primitive Societies : A Cross - Cultural Study, Quarterly Journal of Studies on Alcohol, Vol. 4, 1943, PP. 230 - 279.

فى قوله بأن حالات الامتزاج الثقافى من أهم مصادر القلق ، وذلك لأنه لاحظ انها تؤدى — على العكس — الى انقاص القلق ، وذلك عن طريق توفير حلول جديد لمشاكل قديمة أو عن طريق اقلال مشاعر الخوف من قـــوى غيبية وتوصل «فيلد» فى نهاية مسحه الى ارجاع شدة الميل لتعاطى الشراب الى وجود تنظيم اجتماعى غير رسمى يتميز بحرية الأفراد واستقلالهـم وضعف الضبط الاجتماعى ، ولذلك تنتشر حالات السكر فى المجتمعات المتنقلة التى تعتمد على الصيد والجمع وتقل فى المجتمعات المستقرة الثابتة التـى تقوى فيها سلطات الجماعات القرابية والتى تمتلك الأرض مصدر الرزق ، ولاحظ كذلك ان المجتمعات التى من خصائصها نظام السكنى مع والد الزوج ومهر العروس تتميز بعدم انتشار عادة السكر ، وهكذا يؤكد «فيلد» أن مثل تلك العوامل الاجتماعية هى أكثر دلالة فى تفسير ظاهرة تعاطـى الشراب من عامل القلق (١) .

وفى مسح ثقافى مقارن آخر يقرر ثلاثة علماء أن المجتمعات الزراعيـة تتميز بالخضوع التام للروتين ولذلك يخشون التجديد وتؤكد نظم تربيـة الأطفال فيها أهمية الخضوع للكبار ، فى حين تتميز مجتمعات الصيد البرى والبحرى بأهمية المبادرة الفردية ، ولا يخاف الأفراد من التجديد بنفس الدرجة السابقة نفسها ، وتؤكد نظم تربية الأطفال فيها على أهمية الاعتماد عـلى النفس والمبادرات الفردية (٢) . وقد تابع العلامة «داندراد» الدراسة السابقة بمسح ثقافى مقارن لظاهرة الأحلام ، وافترض أن المجتمعات التى تعتمـد على الصيد البحرى والصيد البرى تميل بصورة اقوى من المجتمعات الزراعية الى استخدام الأحلام لاكتساب قوى غيبية ، ويفسر هذا الفرض من ناحية أن مشقة الحصول على الطعام فى مجتمعات الصيد والقلق الناتج من عدم توافره دائما ومن المعيشة فى جماعات صغيرة منعزلة ومن اعتماد الفـرد على نفسه فى توفير الطعام يؤديان الى الاتجاه الى الأحلام والتخيلات للحصول على قوى سحرية مساعدة ، ولا توجد العوامل السابقة فى المجتمعات الزراعية المستقرة ، وبالتالى تقل فيها الحاجة الى تلك القوى الغيبية . وقد اثبتت سجلات مناطق العلاقات الانسانية الفرض السابق . فبينما تستخدم ٨٠٪

---

(١) Field, P., A New Cross - Cultural Study of Drunkness, in Pittman, D. and Synder, Ch. (eds). Society, Culture and Drinking Patterns, John Wiley, Sons, N.Y. 1962, PP. 48 - 47.

(٢) Barry III, H., Child, I. and Bacon, M., Relation of Child Training to Subsistence Economy, American Anthropologist, Vol. 61, 1959, PP. 51 - 63.

من مجتمعات الصيد الاحلام بهذه الصورة ، فان ٢٠٪ فقط من المجتمعات الزراعية تستخدمها كوسيلة لاكتساب قوى غيبية (١) .

وبالاضافة الى الدراسات السابقة توجد دراسات أخرى هامة تتبع أسلوب المسح الثقافى المقارن لاثبات وجود ترابطات بين الأنماط الثقافية المختلفة . ولا يمكن اغفال دراسة العالمين «هواتنج» و «تشايلد» الخاصة بدراسة العلاقة بين نظم تربية الأطفال والعادات المرتبطة بعلاج الأمراض (٢) .

واخيرا ، يجب ملاحظة أن طريقة البحث السابقة قد تعرضت للكثير من النقد فمثلا القول بأن الترابطات الاحصائية كثيرا ما تعبر عن علاقات عارضة ومن الخطورة بمكان تصور أن كل علاقة ترابطية تمثل علاقة علية حقيقية ، ولذلك يجب عند استخدام هذه الطريقة ملاحظة أن الترابطات لا تتكلم عن نفسها ، وانما يجب التأكد من وجود أو عدم وجود علاقة علية خلف الترابط قيد البحث . ولكن من مميزات الدراسات الترابطية اتاحة الفرصة لصياغة الفروض ثم الرجوع الى المادة الثقافية لفحص تلك الفروض . وبانتهاء الدراسات الترابطية نصل الى نهاية طرق البحث التى تستخدمها أبحاث الأنثروبولوجيا النفسية .

نماذج من الأبحاث

يمكن تقسيم أبحاث الثقافة والشخصية الى اقسام عدة تبعا للاسس المستخدمة فى التقسيم ، ومن أهم تلك التقسيمات التفرقة بين الأبحاث المطبقة فى المجتمعات البدائية وتلك المطبقة فى المجتمعات المتمدينة ، ولذلك اختار المؤلف مجتمعا بدائيا ومجتمعا متمدينا ، أما المجتمع البدائى فهو جماعات تشيبوا من الهنود الحمر بأمريكا الشمالية وقد أجريت على تلك الجماعات العديدة من أبحاث الثقافة والشخصية واختلفت وجهات النظر فى تحليل المادة والنفسية ، وفيما يتعلق بالمجتمع المتمدين ، لا يمكن للمؤلف ان يغفل دراسة الشخصية المصرية فى كتاب متخصص فى الثقافة والشخصية ، وذلك لأهمية هذا الموضوع من ناحية ولكثرة الأبحاث الحديثة التى تناولت الشخصية المصرية بالتحليل من ناحية أخرى ، وقد خصص الفصل السابع

---

(١) D'Andrade, R., Anthropological Studies of Dreams, in Hsu, F., (ed)., Psychological Anthropology, The Dorsey Press, Inc., Homewood, 1961, PP, 325 - 356.

(٢) Whiting and Child, Child Training and Personality : A Cross - Cultural Study, Yale Uni. Press, New Haven 1953.

لدراسة الشخصية المصرية التقليدية ، والهدف من هذا الفصل هو اعطاء القارىء العربى فكرة واضحة عن بعض نماذج ابحاث الثقافة والشخصية وبالتالى يجمع بين دراسة المبادىء الاساسية للأنثروبولوجيا النفسية ودراسة بعض نماذج من ابحاثها .

اولا — ثقافة جماعات تشيبوا :

جماعات تشيبوا (١) هى اكبر جماعات الهنود الحمر عددا . وتعيش البقية الباقية منهم فى ولايات ميتشيجان وويسكونسن ومينيسوتا وداكوتا الشمالية ومونتانا بالولايات المتحدة الأمريكية وفى ولايات أونتاريو ومانيتوبا وساسكا تشوان بكندا .

وقد اجريت على تلك الجماعات عدد كبير من ابحاث الثقافة والشخصية، واستخدمت فى تلك الأبحاث معظم طرق البحث الخاصة بالأنثروبولوجيا النفسية ، ومن امثلة ذلك تحليل السير الذاتية وتحليل الرسوم والاختبارات الاسقاطية وخاصة اختبار رورشاخ واختبار تفهم الموضوع ، ويمكن القول أنه لا توجد جماعة بدائية اخرى قد تعرضت للدراسة من جانب عشرين عالما او يزيد ، ونذكر منهم على سبيل المثال لانديس وهالوويل وجيلين ورامى(٢) .

عاشت تلك الجماعات قديما فى اقليم البحيرات العظمى بقارة امريكا الشمالية وكان أفرادها يعتمدون فى معيشتهم على الصيد البرى والبحرى بصورة رئيسية ، وعلى بعض الزراعات القليلة بصورة فرعية ، فقد كانوا يزرعون محاصيل بسيطة من الذرة والقرع فى الصيف ، ويحصدون الأرز البرى فى الخريف ، ويجمعون السكر من أشجار القيقب فى الصيف .

تعيش تلك الجماعات فى معاشر صغيرة مبعثرة وشبه منعزلة بعضها عن بعض ، ولذلك تسمى بالمجتمع التجزيئى او المبعثر (٣) ، ولم تصل تلك الجماعات فى بنائها الاجتماعى الى مستوى القبيلة ، والمجتمع التجزيئى هو المجتمع الذى لا يصعب على وحداته المكونة له أن تنفصل وتعيش بعيدا بعضها عن بعض ، ولذلك فمن خصائصه ضعف السلطة السياسية وعدم

---

(١) Chippewa Or Ojibwa.

(٢) Ruth Landes, A.I. Hallowell, John Gillin, Victor Rainy, Ernestine Friede, Victor Barnouw, William Caudill Blanche Watrous, Alan C. Kerkhoff, Thomas G. McCormick - Bernard James, Stephen T. Boggs, Morris Teicher, and Saymour Parker.

(٣) Atomistic Society.

وجود أجهزة تجديد وتدعيم التماسك الاجتماعى ، وهكذا عاشت جماعات تشيبوا فى معاشر صغيرة متنقلة من مكان الى آخر بحثا عن الصيد البـــرى والبحرى . وكانت تتجمع فى الصيف فقط فى صورة قرى صغيرة تتكون الواحدة من حوالى اثنتى عشرة عائلة ، ولكن ما ان يحل الخريف الا وينفرط عقد تلك القرى ، اذ تتحرك العائلات فى اتجاهات مختلفة لجمع الأرز البرى . ويستمر تفرقهم فى الشتاء كذلك ، وذلك لندرة الطعام ، ولذلك يضطرون الى التفرق حتى يحصلوا على اكبر قدر ممكن من الصيد البرى والبحرى الذى يندر فى فصل الشتاء . ويبدو أن هذا التفرق يمثل ضرورة لاستمرار بقائهم ، لأنه يصعب توفير الطعام الكافى فى حالة تجمعهم فى هيئة قرى مستقـــرة على قطعة أرض صغيرة . ومع الربيع تتحرك العائلات الى مناطق بساتين القيقب فى الجنوب لاستخراج سائل يصنعون منه السكر . ويتجمعون فـــى هيئة قرى فى الصيف حيث يتوافر الطعام لاطعام التجمعات الكبيرة نسبيا ، وذلك لوفرة الصيد البرى والبحرى فى الصيف وسهولة الحركة لاعتدال المناخ . ويجب ملاحظة أن تلك القرى الصيفية هى قرى متنقلة ايضا ، اى أن مواقعها ليست ثابتة ، وكذلك يطرأ عليها تغيرات فى عدد سكانها ، ومن أسباب تغيير المواقع انتشار الأمراض ونشوب القتال بين قرية واخـــرى وزيادة أقارب المصاهرة واوامر القوى الغيبية ، وتبرز خصائص انعـــدام التماسك الاجتماعى والتعاون الجماعى والاستقرار الاجتماعى عند مقارنة جماعات تشيبوا بقبائل السهول مثل قبيلة تشيين (١) . تعيش قبائل السهول من الهنود الحمر فى قرى مستقرة ودائمة ، ويسودها التماسك الاجتماعى التابع من تنظيم سياسى متطور ، اذ يحكم القبيلة مجلس يتكون من رؤساء العشائر ، ويعاونه جهاز من الجنود يؤدى وظيفة القوة البوليسية بالاضافة الى حماية القبيلة من هجمات الأعداء . لا يوجد مثل تلك التنظيمات فى جماعات تشيبوا ولا توجد بها الرموز الدالة على وحدة الجماعة مثل السهام الطبية أو القبعة المقدسة الموجودة فى جماعة تشيين ، ولا يخرج التعاون الاقتصادى فى تشيبوا عن نطاق الأسرة الصغيرة ولذلك لا تتكون فيها فرق الصيـــد الجماعى التى تلعب دورا هاما فى اقتصاد قبيلة تشيين ويصل الأمر بجماعات تشيبو الى عدم وجود الاحتفالات الدينية التى تقام لمصلحة الجماعة ككل . ولا توجد جمعيات لرجال الطب ، وانما يمارس الطب بصورة فردية . ويبدأ الطفل فى سن الرابعة أو الخامسة فى البحث عن روح حارسة لحمايته ، وعندما يحصل الفرد على روح حارسة له عن طريق الأحلام والرؤى ، يبدأ فى ممارسة الطب بصورة فردية . وتتبع جماعات تشيبوا نظام التسلسل القرابى الأبوى ، ولذلك تتكون عشائر أبوية ، ولكن تقتصر وظيفة تلك العشائر

---

(١) Cheyenne.

على تنظيم الزواج ، ويتبعون فى ذلك نظام الزواج من خارج العشيرةالأبوية التى ينتمى اليها الفرد . ولا تلعب تلك العشائر اى دور فى النشاط الدينى أو السياسى . ويتفق الرأى على أن صعوبة الحصول على الطعام هى التى فرضت عليهم التنقل وعدم الاستقرار وعدم تكوين عشائر وقبائل بالمعنى الدقيق للمصطلحين .

ولكن حدثت تغيرات فى ثقافة تلك الجماعات بعد اكتشاف الأمريكتين واتصالهم بالرجل الأبيض وخاصة بتجار الفراء ، وتشمل تلك التغيرات بعض العناصر المادية ، فقد استعاروا البنادق والشراك والقماش والدقيق والشاى والخمور وما الى ذلك ، ولكن لم يحدث تغيير فى النسق الاقتصادى وهو الصيد البرى والبحرى . وكذلك لم يحدث تغيير فى النظم الدينيةوالقرابة؛ ولم يطرأ تغيير على تحركاتهم الموسمية وعلى البناء الاجتماعى التجزيئى . بل يمكن القول أن اتصالهم بتجار الفراء واهتمامهم بالحصول على كميات كبيرة من الفراء جعلتهم يزدادون فى التبعثر والتفرق فى مناطق بعيدة للحصول على اكبر كمية من الصيد البرى ، وقد حدث بعض الاختلاف فى تحديد مدى قدم النظام التجزيئى فى تلك الجماعات ، اذ يرى البعض أن هذا النظام مستحدث بعد اكتشاف الأمريكتين واتصال تلك الجماعات بتجار الفراء ، ولكن الرأى الأكثر ترجيحا يرجع هذا التنظيم الاجتماعى الى عصور قديمة قبل اكتشاف الأمريكتين . ومما يدعم هذا الرأى أن نظام الصيد ونـــدرة الحيوانات فى الشتاء ، وهما العاملان الأساسيان لظهور البناء الاجتماعى التجزيئى ، من العوامل القديمة جدا .

وننتقل الآن الى عرض بعض أبحاث الثقافة والشخصية التى أجريت على تلك الجماعات والنتائج التى توصلت اليها .

أولا — بحث روث لاندز :

ترى الانثروبولوجية «لاندز» أن الصيد البرى يؤثر بقوة فى شخصيات أفراد تلك الجماعات ، ومن أهم خصائصها الشعور القوى بالملكية الفردية ، وقد تصور الباحث أن كل فرد فيها يملك منطقة صيد خاصة به ، ويحددون تلك المناطق بجذوع الأشجار ، ويطلقون النار على الغرباء الذين يدخلون تلك المناطق ، وفى احسن الاحوال يعاقبونهم عن طريق اجبارهم على شرب سوائل ضارة وسامة . وترتب على قوة الشعور بالملكية الفردية انعدام الكرم فى تلك الجماعات فلا يوجد بها اى عادات خاصة بكرم الضيافة . وعندما يزور الأبناء الكبار آباءهم يعاملون معاملة الزائرين العاديين ، فـــلا

يقدم لهم شيء من الطعام أو الهدايا ، ولا يقدم لهم شيء الا اذا طلبه الابناء صراحة ، وفى تلك الحالة يكون من المتوقع رد تلك الهدايا الى الآباء (١) .

وكذلك لاحظت «لاندز» أن الأسرة الصغيرة من خصائصها التفكك وعدم الاستقرار ، برغم أنها مركز الاخلاص والانتماء فى ثقافة تلك الجماعات ، وتستدل على ذلك من كثرة الخيانات الزوجية وحالات الهرب والانفصال والمشاجرات حول النساء . وتنمو فى تلك الظروف الاجتماعية والثقافية شخصية تتسم بالانعزالية ، ويسود تلك الجماعات اتجاهات محافظة ، فالتعبير المكشوف عن العواطف من الامور المحرمة فى تلك الجماعات . ويوجد عزل ملحوظ بين الاخوة والأخوات فى الأسرة الواحدة ، وتتميز شخصية الفرد بالاستقلال والاعتماد على النفس ، ويرجع ذلك الى تركز الاهتمام فى تدريب الطفل حول الاستقلال ، فمنذ الصغر يتعلم الأطفال أن الحياة هى معركة تتصارع فيها قوى كبيرة للحصول على قطعة من اللحم او قطعة من الجلد تستخدم كغطاء ، فالحياة معركة وعلى الطفل أن يحارب فيها وحده لكى يعيش ، وذلك كل فرد آخر مشغول مثله بمعركة الحياة . وعندما يبلغ الطفل الثالثة من عمره يكون قد تعلم صيد بعض الطيور وقتلها، وبعد سنوات قليلة يتعلم صنع مصايد بسيطة ، وبعد ذلك بقليل يخرج الولد مع أبيه فى رحلات الصيد ، وعند بلوغ الثانية عشرة من عمره يكون قادرا على ترك مسكن والده والصيد فى أراضى خاصة به ، ويمكن تلخيص شخصية عضو جماعة تشيبوا فى أنها شخصية انعزالية وفردية وعدوانية وقلقة . ولا يوجد عندهم أى شعور بالمسئولية نحو الجماعة او أى مشاعر بالانتماء الى الجماعة . ويرجع القلق الى تذكر الفرد دائما بقدوم فصل الشتاء القارس البرودة وندرة الصيد فى هذا الفصل ، والى خوفه الدائم من هجوم الآخرين على منطقته وحرمانه من مورد رزقه ، ولا يتكلم أعضاء تشيبوا بصراحة الا فى حالة السكر ، ويحاول كل فرد معرفة مشاعر ونوايا الآخرين دون أن يعبر عن مشاعره ، ولا يثق الفرد فى اصدقائه فى تلك الجماعات ، وتقوى تلك الاتجاهات العدوانية كلما كبر الفرد فى العمر ، وتصل اعلى درجاتها عند الشامان أى الكاهن ، اذ يحتقر الكاهن جميع الأفراد الآخرين ، ولا يعترف بوجود شخص صالح فى الوجود ، ولا يبدى اى نوع من المودة فى التعامل مع الآخرين ، بل انه يرفض الأستجابة للابتسامة من طفل صغير . ويترتب على هذه الأتجاهات شعور قوى ومتطرف بالأنا ، ويتضح هذ الشعور من الاتجاهات العدوانية نحو الآخرين ومن الرغبة فى السمو . ومن مظاهر

---

(١) Landes, R., The Personality of the Ojibwa, Character and Personality, Vol. 6, 1937, P. 59.

الشعور القوى بالأنا انتشار أوهام العظمة بين أعضاء تلك الجماعات وقد تنتاب بعضهم هستيريا العظمة (١) .

وقد تعرض التحليل السابق لبعض النقد ، فقد اعتبره بعض المحللين الآخرين تصويرا مبالغا فيه (٢) .

ثانيا ـ بحث هالوويل :

يعد «هالوويل» من اكبر المتخصصين فى مجال الثقافة والشخصية ، وكذلك من الرواد فى تطبيق اختبار رورشاخ على المجتمعات البسيطة بنجاح كبير ، وقد نشر ابحاثه عن جماعات تشيبوا فى مجموعة من المقالات وجمع بعضها فى كتابه الشهير الثقافة والخبرة ، وتتميز ابحاثه بالدقة وعــدم المبالغة ، ولم يهتم «هالوويل» بتحديد جوانب ثقافية تلك الجماعات ، وانما ركز اهتمامه على بحث النتائج الاجتماعية والمترتبة على بعض المخاوف ومشاعر القلق المحددة ثقافيا فى تلك الجماعات . ومن النتائج التى وصل اليهــا انتشار مشاعر القلق والخوف من المرض . عندما يمرض الشخص يفسر هذا المرض على انه نتيجة لسلوك سيىء ارتكبه أو لخطيئة ارتكبها الآباء ، وكذلك يرجع المرض للسحر الذى يقوم به شخص تعرض للايذاء فى الماضى ، فينتقم عن طريق ممارسة أعمال سحرية تؤدى الى مرض الشخص الذى بدأبالايذاء. وفى حالة تفسير المرض عن طريق ارجاعه الى اقتراب المريض لسلك سيىء فى الماضى يتعين على المريض أن يعترف بخطئه بصورة علنية ، وبالتالى يقل القلق والشعور بالذنب عنده ، وتؤدى هذه الاعترافات العلنية وظائــف اجتماعية هامة فى تلك الجماعات التى تنعدم فيها السلطة السياسية وعملية الضبط الاجتماعى ، وهكذا تؤدى تلك الاعترافات العلنية وظيفة هامة فى المحافظة على الأمن وفى تقوية ضبط النفس وفى الاقلال من الجرائيم ، وذلك لأن مشاعر الخوف من الاصابة بالمرض فى حالة اقتراف الجرائيم ثم ضرورة الاعتراف العلنى باقتراف تلك الجرائم ، تكون أكثر فاعلية فى المحافظة على الأمن من العقاب المباشر الذى تفرضه الجماعة على المخطئين (٣) . ويقرر «هالوويل» ان شخصيات أعضاء جماعات تشيبوا تتميز بعدم اظهار العداء

---

(١) Landes, R., The Ojibwa of Canada, in Mead, M. (ed). Cooperation and Competition Among Primitive Peoples, McGraw - Hill Book Co., Inc., N.Y. 1937, P. 88 - 105.

(٢) Barnouw, V., Culture and Personality, P. 146.

(٣) Hallowell, A. Culture and Experience, University of Pennsylvania Press, Philadelphia 1955, PP. 272 & 273.

عند المقابلة وجها لوجه ، ولكنها داخليا مفعمة بالاتجاهات العدوانية وتوجد بعض الاستثناءات التى لا يصاحبها اتجاهات عدوانية داخلية ، ومن امثلة ذلك تبادل النكات بين أولاد العم ، وابداء الملاحظات الساخرة والمقلة للشأن بالنسبة للعشائر الأخرى . ولاحظ ايضا أن رقصة الطب التى لا يؤديها الا اعضاء معينون تعتبر من الوسائل للتنفيس عن الاتجاهات العدوانية المكبوتة، وذلك للسماح فى تلك الرقصة بتبادل الضربات بسيور جلدية دون خوف من الانتقام فى المستقبل ، وبالتالى لا يعانون من الشعور بالذنب والخوف من المرض . وتقوم الحروب بالوظيفة نفسها ، فمن خلالها يعبر الفرد عن اتجاهاته العدوانية دون أى خوف من الانتقام ، ولكن برغم وجود هذه المنافذ للتنفيس عن الميول العدوانية ، فان الصفة الغالبة هى كبت الاتجاهات العدوانية ، ولذلك ينظر الى حالات تبادل الشتائم والتهديدات اللفظية و لحركية والاعتداءات الجسيمة بصورة أكثر جدية مما يوجد عادة المجتمعات الأخرى ، ولذلك يندر حدوث مثل تلك الحالات ، هذا بالرغم من عدم وجود عقوبات مباشرة فـى جماعات تشيبوا لخلوها من مؤسسات الضبط الاجتماعى : وفى المواقف يزداد فيها الوتر والكراهية بين الأفراد ، فان الأفراد المتنازعين يتجنبون المواجهة وتبادل الاتهامات ، وانما يصرح كل فرد منهم من وراء ظهر الآخر عن مشاعر الكراهية . ويرجع «هالوويل» انتشار الاتجاه الفردى والتنظيم الاجتماعى التجزيئى الى قوة الاعتقاد فى السحر والى خوفهم من الايذاء عن طريق السحر . وذلك يفضلون العزلة والابتعاد وكبت المشاعر العدوانية (١) .

ثالثا ــ بحث بارنو :

أوضح العلامة «بارنو» فى بحثه عن تلك الجماعات (٢) بعض مصادر الخوف والعزلة التى لم تتعرض لها الدارستان السابقتان . فقد لاحظ أن الكثير من المخاوف المباشرة فى تشيبوا يقوم الآباء بزرعها فى نفوس الأطفال من خلال عملية التنشئة الاجتماعية ، وذلك لأن هؤلاء الهنود لا يلجأون فى تربية أطفالهم الى العقاب ، وانما يستخدمون أسلوب التخويف ؛ ومن امثلة ذلك تخويف الأطفال من يومه عملاقـة تخطف الطفل بعيدا فى حالة عدم الذهاب الى النوم ، وتخويفهم من ارواح الموتى التى تحوم فى الخارج ؛ والتخويف من الدببة والثعابين ورجال الطب والأعداء وأرواح تحت الماء ،

---

(١) Ibid. P. 278.

(٢) Barnouw, V., Acculturaion and Personality among the Wisconsin Chippewa, American Anthropoligcal Association Memoir, No. 72, I 950.

ولكى يزيدوا من فاعلية هذه الوسائل التخويفية يرسمون وجوها مخيفة على الأوانى ، ويضعون اقنعة مخيفة مصنوعة من لحاء الأشجار على الأكواخ ، ولا يقتصر زرع تلك المخاوف فى نفوس الأطفال على مرحلة الطفولة المبكرة وانما يستمر الآباء فى زرع مخاوف أخرى فى المراحل التالية ، ومن امثلة ذلك تخويفهم من ملامسة النساء اثناء فترة الطمس على أساس انها تؤدى الى الأصابة بالشلل او الموت ، وكذلك تخويفهم من الاتصال بالرجل الأبيض او بالجماعات الهندية الأخرى . ويرجع «بارنو» استخدام الآباء لأسلوب التخويف الى فشلهم فى اشباع حاجات اطفالهم للأمان والعاطفة . ويرى كذلك ان اهتمام ثقافة تلك الجماعات بتأكيد استغلال الفرد والاعتماد على النفس ، قد ادى بدوره الى وجود رغبات مكبوتة للتعاون مع الآخرين وللشفقة على الأطفال فى حالات الشدة ، ويمكن اكتشاف مثل تلك الرغبات المكبوتة عن طريق الاختبارات الاسقاطية ، وعن طريق تحليل ظاهرة بحث الأطفال عن روح حارسة عن طريق الأحلام ، وفى تلك الأحلام تظهر للطفل الروح الحارسة وتناديه بالعبارة التالية « ياحفيدى أننى جئت لأشفق عليك » ، وتعى كلمة «لأشفق»لأرعاك أو لأتبناك . وكذلك ، بالرغم من كراهيتهم للرجل الأبيض ، فانهم يدعون تجار الفراء من البيض باصطلاح «أب» ، ويطلقون على الخمر التى يحضرها معهم هؤلاء الرجال اصطلاح «لبن» ، أن استخدام اصطلاح «أب» يدل على رغبة مكبوتة للتعاون معهم والاتصال بهم ، واستخدام اصطلاح «لبن» يدل على وجود حرمان من الاشباع الفمى ، ولكن برغم اعجابهم بنجاح وتفوق الرجل الأبيض ، لا انهم يكرهونهم فى الوقت نفسه .

رابعا ــ بحث جيمس :

درس العلامة «جيمس» جماعات تشيبوا الجنوبية القاطنة فى مناطق «العزل» ، وهى المناطق التى وضعت حدودها الحكومة الأمريكية لتعيش فيها تلك الجماعات من الهنود الحمر وحدهم بعيدا عن المدن الأمريكية ، ولكن تحت اشراف الحكومة الأمريكية التى تقدم لهم المعونات الاقتصادية والتربوية ، وقد حدد اهم سمات شخصيات هؤلاء الهنود الحمر بالقلق والانعزال والاعتماد على النفس وكثرة الاتجاهات العدوانية ، ويرى ضرورة تفسير تلك السمات عن طريق دراسة الظروف الحالية والمواقف الحديثة ، ويعارض تفسير تلك السمات عن طريق الرجوع الى ثقافتهم الماضية أو التقليدية .

ويسمى منهجة فى دراسة شخصية تشيبوا بالاتجاه الموقفى ، ويتمثل فى دراسة المواقف التى تعيشها تلك الجماعات فى الحاضر . وقد تبين له أن سمات شخصياتهم ترجع الى الحرمان الاقتصادى والفقر واعتمادهم على الاعانات الحكومية وظروف الكبت اليومية المصاحبة للمعيشة فى مناطق

العزل ، اذ يشعر الهنود الحمر المقيمون فى تلك المناطق بعدم الحرية وبتدخل الحكومة فى شئونهم (١) .

ويجب ملاحظة أن «جيمس» توصل عن طريق دراسته للمو قفالحاضرة الى النتائج نفسها التى توصلت اليها الدراسات السابقة عن طريق تحليل الثقافة التقليدية أى القديمة لتلك الجماعات ، فهو يؤكد انتشار وسيادة القلق ، ويستدل على ذلك من اهتمامهم بصيانة حقوق الهنود وكثرةالشكوى من سوء معاملة الحكومة الأمريكية لهم والخوف من الشيوعيين ، ودرس «جيمس» كذلك ظاهرة انتشار حالات السكر فى تلك الجماعات ويرى أن السكر يمثل وسيلة للتنفيس عن اتجاهاتهم العدوانية . ويتميز بحث «جيمس» عن الأبحاث السابقة فى اهتمامه بدراسة النظام «العزل»وتأثيرهعلى شخصية جماعات تشيبوا ، فقد درس منطقة تدعى «كورت أوريلس » (٢) . وتمثل تلك المنطقة مجتمعا محليا فقيرا ، يكسب معظم سكانه عيشهم عن طريق العمل عند أرباب العمل من البيض فى مدن أمريكية خارج منطقة العزل . ويعامل اصحاب العمل هؤلاء الهنود بشىء من الحذر لتأثرهم بأحكام قبلية تحقر من شأن الهنود ، ولقد قبل هؤلاء الهنود تلك الأحكام بصورة جزئية ، وترتب على ذلك أن كون هؤلاء صورة ذاتية عن انفسهم تتسم بالشعور بالنقص . وهكذا ينتهى جيمس الى تقرير أن الفقر والعنصرية السلالية وحياة مناطق العزل هى المحددات الأساسية لشخصية تشيبوا (٣) .

خامسا ـ بحث فريدل :

أثار البحث السابق مشكلة تفسير استمرار خصائص تشيبوا برغم التغييرات الثقافية الحديثة ، فقد تبين أن تلك الخصائص قد استمرت منذ القدم ، وأن التغيرات الثقافية الحديثة الخاصة المتمثلة فى الاتصال بالثقافة الغربية والمعيشة فى مناطق العزل لم تحدث اى تغيير يذكر فى تلك الخصائص. وحاول بعض العلماء تفسير تلك المشكلة ، فمثلا يرى العلامة «بارنو» أن تلك التغييرات الحديثة لم تحدث تغييرات عميقة وجذرية فى التنظيم الاجتماعى

---

(١) James, B, Some Critical Observations Concerning Analyses of Chippewa Atomism and Chippewa Personality, American Anthopologist, No. 56, 1954, PP. 283-296.

(٢) Court Oreilles.

(٣) James, B., Social . Psychological Dimensions of Ojibwa Acculturation, American Anthropologist, Vol. 63, 1961, PP. 221-746.

وبناء العائلة ، وانما احدثت تغييرات سطحية تتمثل فى تقديم بعض المعونات وتعيين بعض الرؤساء ، ولذلك لم تؤثر تلك التغييرات الطفيفة فى خصائص شخصية تشيبوا (١) .

ولكن العلامة «فريدل» يقدم تفسيرا ثانيا للمشكلة السابقة ، فهو يرى أن المفتاح الاساسى لاستمرار خصائص شخصية تشيبوا ، برغم التغييرات الثقافية الحديثة ، يتمثل فى وجود عقيدة أو اتجاه عند جماعات تشيبوا بأن كل تغيير يحدث فى حياتهم يجب قبوله على انه حالة طبيعية للأمور ، وان التغيير من طبيعته ان يستمر ، وأن التغيير لا تصاحبه آثار بعيدة المدى وانما آثار قصيرة المدى ومؤقتة . وهكذا عندما يواجه الفرد فى تلك القبيلة بموقف جديد ، فانه ينظر اليه على أنه موقف فردى ومؤقت وآلى ولا يترتب عليه التزامات طويلة المدى ، فمثلا الاتفاقات التى يعقدونها مع جيرانهم أو مع البيض ، لا يلتزمون بها الا لفترات قصيرة ثم ينقضونها ، وترتب على ذلك الكثير من المشاكل والحروب ، فهم يتصورون أن تلك الاتفاقات والمعاهدات ما هى الا مواقف فردية غير ملزمة لهم جميعا ، وبالتالى يعتقدون امكانية تغييرها من جانب واحد فى اى وقت . ويرى فريدل ان الفقر استمر فى تلك الجماعات برغم اشراف ومعونة الحكومة الأمريكية ؛ وان كان حدث تغيير فى معتقداتهم الخاصة بمصدر المواردالاقتصادية ؛ فبعد ان كانوا يعتقدون أن مصدرها القوى الغيبية اصبحوا يدركون ان المقومات الاقتصادية مصدرها الحكومة الأمريكية (٢) . وهكذا فان التفسير الذى قدمه فريدل لاستمرار خصائص شخصية تشيبوا برغم التغيرات الثقافية الحديثة يتمثل فى عدم اهتمام تلك الجماعات بتلك التغييرات وعدم الالتزام بها ؛ هذا بالاضافة الى أن حالة الفقر الشديد التى تفسر الكثير من خصائص شخصية تشيبوا لا تزال موجودة برغم اشراف الحكومة الامريكية على تلك الجماعات .

سابعا – بحث بوجز :

درس «بوجز» مشكلة استمرار خصائص شخصية تشيبوا برغمحدوث تغييرات ثقافية حديثة ، ويفسرها عن طريق وضع فرض يقول ان الآباء لم يغيروا نظم تربية اطفالهم برغم تلك التغييرات الحديثة ولذلك استمرت خصائص شخصية تشيبوا ، ولفحص هذا الفرض قام «بوجز» بدراسة حقلية مجتمعين محليين من مجتمعات تشيبوا ، الأول فى كندا والثانى فى ولاية ويسكونسن بالولايات المتحدة الأمريكية ؛ ويتميز المجتمع الثانى بأنه اكثر

---

(١) Barnouw, V., Culture and Personality, P. 153.

(٢) Friedl, E., Persistence in Chippewa Culture and Personality, American Anthropologist, Vol. 58, 1956, P. 816.

اتصالا بالثقافة الغربية الأمريكية من المجتمع الأول ، واستخدم فى دراسته طريقة الملاحظة بالمشاركة واستغرقت ثلاثة عشر شهرا ، وركز اهتمامه على دراسة التفاعل الاجتماعى بين الآباء والأبناء فى عدد قليل من الأسر ، حوالى عشر أسر ، ولاحظ ان المجتمع الأول الأقل اتصالا وتأثرا بالثقافة الغربية الأمريكية يقل فيه التفاعل بين الآباء والأبناء بمقارنته بالمجتمع الثانى. اذا ان حالات التفاعل فيه اقل تكرارا واقل كثافة بصورة واضحة من مثيلاتها فى المجتمع الثانى ، ولكن الصورة العامة للتفاعل بين الآباء والأبناء فى المجتمعين معا هى قلة حالات التفاعل وعدم عمقها ، ويرجع «بوجز» هذه الحالة الى حدوث تغييرات أدت الى ترك بعض الانماط الثقافية التقليدية ، ومن امثلة ذلك الأنشطة الاقتصادية التقليدية الهجرة الموسمية للبحث عن موارد الرزق ونظام المهد المتنقل ، الذى يتكون من لوح من الخشب يربط عليه الطفل وتحمله الأم فى كل مكان تذهب اليه ، ونظام الرضاعة الطبيعية ونظام اخذ الطفل الى كل مكان تذهب فيه الأم ، أدت التغييرات الحديثة التى حلت محل تلك الانماط الثقافية القديمة الى عدم مصاحبة الأطفال لأمهاتهم فى تنقلاتهم خارج المنزل ، وبالتالى انخفض معدل حالات التفاعل ، اذ تترك الامهات أطفالهن فى المنزل فى رعاية الآخرين الذين يرضعونهم باستخدام زجاجة اللبن؛ وكذلك لم يعد الآباء يشعرون بالحاجة الى تعليم الأطفال مهارات وفنون الصيد لاعتمادهم بصورة أساسية على المعونات المقدمة من الحكومة الامريكية، وترتب على ذلك انخفاض بمعدلات التفاعل بين الآباء والأبناء اذ لم يعد هناك مهارات تعلم للصغار . ادت هذه التغييرات الى عدم اهتمام الآباء بالعناية بأطفالهم مغادرة الآباء منازلهم لفترات طويلة تاركين اطفالهم وحدهم او فى رعاية اخوتهم ، ولذلك يعتمد الأطفال على أنفسهم فى اعداد الطعام ، ويتعودون على ذلك منذ الصغر ، وحتى فى حالة وجود الآباء بالمنزل. وهكذا قلت فرص اللقاء والتفاعل بين الآباء والأبناء وضعت الارتباطات العاطفية بينهم ، وترتب على ذلك انقراض بعض العادات والتقاليد التى كانت تقوى الالتزامات العاطفية نحو الأطفال ونحو الآباء كذلك ، فمثلا اختفت رقصات الصغار التى كان هدفها تسلية الكبار ، وكذلك اختفى أسلوب معاملة الأطفال بالرقة واللطف كما كان الحال فى الماضى ، ولم يعد الآباء يشجعون أطفالهم على الانجازات والأعمال الناجحة ، ولم يعد الآباء يناقشون ابناءهم فى مشاكل الحياة (١) .

ونعود الآن الى الفرض الأساسى الذى وضعه «بوجز» ، حقا اثبتت

(١) Boggs, S., Culture Change and the Personality of Ojibwa Children, American Anthropolist, Vol. 60, L 958, P. 48.

الدراسة الميدانية حدوث تغييرات أساسية فى نظم تربية الأطفال فى جماعات تشيبوا وحدث انخفاض فى معدل التفاعل الاجتماعى بين الأبناء والآباء ، ولكن الدراسة الميدانية أثبتت أيضا أن هذه التغييرات لم يصاحبها أى تغيير فى خصائص شخصية تشيبوا ، وأن الخصائص القديمة مستمرة فى الوجود برغم حدوث التغييرات السابقة ، ولاحظ كذلك أن الاختلافات الموجودة بين المجتمعات الحالية التى تأثرت بقوة بالثقافة الغربية والمجتمعات المحلية التى لم تتأثر بالثقافة الغربية لم يصاحبها اختلافات فى خصائص الشخصية ، وينتهى فى بحثه الى اثبات عدم صحة الفرض الذى وضعه فى أول البحث ، وهنا يتساءل عن أسباب استمرار وتشابه خصائص شخصية تشيبوا ، هنا يعود للأخذ برأى «فريدل» القائل بأن جماعات تشيبوا لا تتأثر بقوة بالتغييرات الثقافية لأنهم ينظرون اليها كتغيرات مؤقتة سرعان ما تفقدفوتها، وكذلك يأخذ برأى «جيمس» القائل بأن استمرار الفقر فى تلك الجماعات وشعورهم بمركب النقص لتفوق الرجل الأبيض هما سبب استمرار خصائص شخصية تشيبوا .

تهدف المناقشة السابقة الى اعطاء فكرة عن أبحاث الثقافة والشخصية والصعاب التى تقابل الباحثين فى تحليل المادة التى يحصلون عليها وامكانية اختلاف وجهات النظر فى الموضوعات التى يجب التركيز عليها والموضوعات التى يجب اهمالها ، فبالرغم من أن موضوع تلك الأبحاث هو دراسة وتفسير شخصية تشيبوا ، ورغم اتفاق الباحثين على تحديد خصائص الشخصية ، فانه ظهرت اختلافات واضحة فى التحليل والتفسير . وهذا يؤكد أهمية التخصص فى هذا المجال الحديث حتى يمكن تحقيق قدر أكبر من الدقة والوضوح .

الفصل السابع

الشخصية المصرية التقليدية ومحدداتها الثقافية

- تمهيد
- رأى فى الحتمية الجغرافية والحتمية الاقتصادية
- المشكلات المنهجية
- أبعاد الشخصية المصرية التقليدية

الفصـــل السابــــع

الشخصية المصرية التقليدية ومحدداتها الثقافية

تمهيـــد :

استخدم مفهوم الشخصية المصرية للدلالة على الطابـــــع القومى المصرى ويقصد به فى الدراسات التى سنشتير اليها هنا ، أكثر سمـــات الشخصية شيوعا فى طبقة الفلاحين المصريين ، واعتمدت تلك الدراسات على طريقة تحلل التاريخ الاجتماعى وطريقة تحليل الفولكلور المصرى وبخاصة الأمثال الشعبية .

وقد كثرت دراسات الشخصية المصرية بعد نكسة عام ١٩٦٧ ، ويمكن تقسيم تلك الدراسات الى مجموعتين ، مجموعة الدراسات التى قام بهـــا بحاث مصريون وعرب ، ومجموعة الدراسات التى قام بها المفكرون الاسرائيليون والغربيون ، وينقص معظم تلك الدراسات المنهج العلمى الدقيق ، ولذلك كانت أشبه بتأملات أو انطباعات عامة مؤيدة ببعض الأحداث التاريخية أو ببعض الأمثال الشعبية ، مع اهمال الأحداث التاريخية والأقوال المأثورة التى لا تؤيد صحة تلك الانطباعات .

وينبغى الحذر حين نرى اتفاقا ظاهرا بين بعض السمات التى ينسبها البحاث الاسرائيليون والغربيون للشخصية العربية وبخاصة المصرية وتلك التى يسبغها الباحثون العرب على الشخصية العربية ، فالغرض من المحاولات الأولى هو التشويه المتعمد للشخصية العربية ، فى حين أن الهدف مـــن المحاولات العربية هو النقد الذاتى والترشيد .

وقد فشلت بعض المحاولات السابقة فى التمييز بين السمات التـــى ترد الى ظروف مجتمعية أو الى مواقف عارضة ، كفشل الصفوة السياسية فى حشد الشعب للمعركة ، أو الانهيار المفاجىء فى ميدان القتال ، نتيجـــة لاضطراب القيادات العسكرية ، وفشلها فى ادارة المعركة باستخدام الحـــد الأدنى الضرورى من المهارات اللازمة لذلك ، وبين السمات الأصلية التى تميز الشخصية العربية (١) .

من المهم اذن تضافر المتخصصين فى علم النفس والانثروبولوجيا وعلم الاجتماع على اجراء ابحاث علمية دقيقة تهدف الى تحديد سمات الشخصية المصرية وشخصيات الشعوب العربية الأخرى ، ثم الانتقال بعد ذلك الى صورة واقعية للشخصية العربية .

---

(١) السيد ياسين : الشخصية العربية بين المفهوم الاسرائيلى والمفهوم العربى ــ مركـــز الدراسات السياسية والاستراتيجية ــ مؤسسة الأهرام ــ القاهرة ١٩٧٣ ، ص ٢٣٦ .

أحدثت هزيمة ١٩٦٧ صدمة انفعالية فى الأمة العربية ، وشعر المفكر العربى بحاجة شديدة الى وقفة تأمل ينقد فيها ذاته ويراجع مفاهيمه التى وضعها لتحديد الذات والآخر على حد سواء ، واستمر هذا الاتجاه التشاؤمى الذى يركز على السلبيات دون الايجابية فى الشخصية المصرية ، والذى ساهم فيه الكتاب المصريون أنفسهم بغرض التعرف على تلك السلبيات ومحاولة اصلاحها ، حتى حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ التى انتهت بانتصار الجيش المصرى وعبور قناة السويس والاستيلاء على حصون خط بارليف ، هنا تغير الاتجاه التشاؤمى وحل محله اتجاه تفاؤلى يركز على ايجابيات الشخصية المصرية والشخصية العربية بصفة عامة ، وفسرت بعض السمات التى كانت تعد من السلبيات الأساسية مثل الصبر والصمت والتدين على أنها ايجابيات يرجع اليها تحقيق النصر الكبير . واخذ المفكرون الغربيون والاسرائيليون فى اعادة النظر فيما كتبوه عن خصائص الشخصية القومية العربية وبخاصة الشخصية المصرية ، وأرجع قادتهم انتصار ٦ اكتوبر الى الجندى المصرى الذى يتميز بشجاعة واقدام وتصميم وتضحية ، يندر وجودها فى اى جندى آخر .

وقول الأستاذ السيد ياسين فى تفسير هذا التناقض : « ترى ما هو تفسير هذا الموقف ؟ ان ذلك يرد فى رأينا — بعيدا عن الاهتمام بالعوامل الشخصية والنزاعات الذاتية — الى سيادة نظرة تجزئية مسطحة للشخصية المصرية . لقد أخطأنا فى الموقفين : موقف الهزيمة وموقف النصر . فلا المغالاة فى تجريح الذات والتركيز على سلبيات الشخصية المصرية كان يستند الى اساس علمى ، ولا القناعة بتمجيد السمات الايجابية كفيل بتصحيح الخطأ أو التخلى عن الأحكام الذاتية غير الموضوعية » (١) .

رأى فى الحتمية الجغرافية والحتمية الاقتصادية :

تهدف هذه الدراسة الى رسم صورة عامة عن ابعاد الشخصية المصرية وتفسيرها فى ضوء النظرية الأنثروبولوجية التى تركز الاهتمام على المحددات الثقافية ، وتعتمد هذه الدراسة على الأبحاث والدراسات المتاحة حول أبعاد الشخصية المصرية ، مع استبعاد دراسات المفكرين الاسرائيليين والغربيين التى تهدف الى تشويه الشخصية العربية وبخاصة الشخصية المصرية ، ومن الواضح أن هذا الموضوع من أصلح الموضوعات التى تركز عليها اساليب الحرب النفسية التى تشنها الشعوب المتحاربة بغرض تشويه صورة العدو .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٤٢ .

ان اهتمام هذه الدراسة بتحديد المحددات الثقافية للشخصيــة المصرية يتفق مع منظور هذا الكتاب ، وهو الأنثروبولوجيا النفسية التى من أهم موضوعاتها دراسة تأثير الثقافة فى الشخصية .

وجدير بالذكر أن النظرية الأنثروبولوجية لا تمثل سوى اتجاه واحد من بين عدة اتجاهات تتعلق بتفسير الشخصية القومية ، ومن أهم تلك الاتجاهات النظرية الجغرافية التى طبقها الدكتور حمدان فى دراسته القيمة « شخصية مصر : دراسة فى عبقرية المكان » وفيها يقول : « والنظرية العامة التى تقدم فى تفسير هذه الشخصية الفلتة ، هى ، التقابل — ائتلاف أو اختلافات بين بعدين أساسيين فى كيانها ، وهما الموضع والموقع ، فالموضع تقصد بــه البيئة الطبيعية بخصائصها وحجمها ومواردها فى ذاتها ، اى البيئة النهرية الفيضية ، بطبيعتها الخاصة وجسمها المادى بشكله وتركيبه ... الخ ، أما الموقع فهو صفة نسبية تتحدد بالنسبة الى توزيعات الأرض والناس والانتاج حول اقليمنا ، وتضبطه العلائق المكانية التى تربطه بها . الموضع خاصية محلية داخلية ملموسة ، ولكن الموقع فكرة هندسية غير منظورة » (١) .

ولا تقتصر تلك الدراسة القيمة على تحديد الشخصية الاقليمية لمصر وانما تتعرض كذلك لتفسير بعض أبعاد الشخصية المصرية فى ضوء النظرية الجغرافية ، فمثلا يقول : « أما الفردية العارمة واستقلال الشخصية ونمو روح المقاومة والتمرد التى يمكن أن تشجع عليها السكنى المتغيرة فى البيئات الجبلية أو الوعرة ، فلم تعرفها مصر ، وحتى العزب التى ظهرت أخيرا جدا منذ قرن لا تمثل سكنى متغيرة بمعنى الكلمة ، وهذا كله قد يعنى النظــام والوداعية الاستقرار ، ولكنه يمكن أن يكون له ثمنه الباهظ من انعدام روح المبادرة وزمام المباداة ، فضلا عن روح المغامرة ، وينتهى بالفلاح فى النهاية الى جهاز استقبال وخضوع »(٢) .

وعلى الرغم من تمتع النظرية الجغرافية لكثير من الاتساق بين المقدمات والنتائج مما يؤدى الى انبهــار القارىء بها منذ أول وهلــة ، فان النظرة التحليلية النقدية تبين خطورة انزلاقها فى مأزق الحتمية الجغرافية ، ويتعرض مبدأ الحتمية الجغرافية الى الكثير من التساؤلات التى لا يجد لها اجابة ، فمثلا أن تفسير الشخصية القومية بالمحددات الجغرافية وحدها يجعــل احتمال تغير تلك الشخصية أمرا شبه مستحيل لأنه يتطلب تغيير المحددات الجغرافية أولا ، وهو أمر يتنافى مع الواقع ، فقد حدثت تغيرات كبرى فى

---

(١) د. جمال حمدان : شخصية مصر — كتاب الهلال — القاهرة ١٩٧٣ ، ص ١٤ .

(٢) المرجع السابق : ص ٥٧ ، ٥٨ .

الشخصية القومية الصينية والشخصية القومية الأمريكية ولم يصاحبها اى تغيير فى المحددات الجغرافية ، وانما سبق تلك التغيرات تغيرات فى ثقافات المجتمعات .

أما فيما يتعلق بالحتمية الاقتصادية فان النظرية الاشتراكية خير من يمثلها ، وقد تأثر بها الى حد ما الأستاذ السيد ياسين فى كتابه القيم عن الشخصية العربية ، اذ يقول تحت عنوان « موقفنا من مفهوم الشخصية القومية » : « وهذا التصور الشامل ينطلق من الاطار الاشتراكى العلمى الذى ينظر للشخصية نظرة جدلية فى تفاعلها الدائم مع التكوين الاقتصادى والاجتماعى فى مجتمع محدد ، أو فى تأثرها بنمط الانتاج السائد فى عدة مجتمعات متشابهة » .

« وهذا يعنى على وجه التحديد أن نمط الانتاج السائد فى عصر ما أو منظمة حضارية محددة (كنمط الانتاج الاقطاعى أو الراسمالى أو الاشتراكى) من شأنه أن يشكل الشخصية الانسانية وفق خطوط متميزة» (١) .

الكثيرون منا يدركون قصور نظرية الحتمية الاقتصادية فى تفسير الكثير من التغيرات الاجتماعية الكبرى التى غيرت من معالم التاريخ ، والتى لا ترجع لأسباب اقتصادية ، ولا أدل على ذلك من الأديان السماوية وما صاحب ظهورها من تغيرات اجتماعية كبرى فى العالم ، بل لقد أرجع بعض المفكرين بعض النظم الاقتصادية الكبرى الى محددات دينية واخلاقية فمثلا ، استطاع العلامة « ماكس فيبر » أن يكشف عن العلاقة العلية بين المذهب البروتستانتى ونشأة الرأسمالية الحديثة فى أوربا ، اذ تعتمد الرأسمالية على مجموعة من القيم والمعتقدات تسمى روح الرأسمالية ، مثل الاتجاه الفردى وتقدير العمل الشاق والاخلاص فى العمل والطموح والاعتماد على النفس والنظام الدقيق والنجاح ، واستطاع « ماكس فيبر » أن يرجع تلك القيم الى مبادىء المذهب البروتستانتى التى آمن بها أصحاب المشروعات الصغيرة من الطبقة الوسطى فى انجلترا وفرنسا والمانيا ، وبفضل هؤلاء ظهر وانتشر النظام الرأسمالى .

ولقد تنبه الأستاذ ياسين الى المشاكل المصاحبة للنظرية الاشتراكية المادية فنراه يعدل بصورة من موقفه ويعترف بأهمية العوامل غير الاقتصادية فى تشكيل الشخصية القومية فيقول : « بيد أنه لا ينبغى أن يغيب عن اذهاننا أن الحديث عن تأثير نمط الانتاج على تشكيل الشخصية الانسانية، لا يجب أن يحجب عن أعيننا الحقيقة الهامة التى مؤداها أن التكوين الاقتصادى

---

(١) السيد ياسين : الثقافة العربية من المفهوم العربى والمفهوم الاسرائيلى ص ٦٧ ، ٦٨ .

والاجتماعى فى مجتمع محدد يظل هو الحاسم فى تشكيل الشخصية ، بمعنى ان التاريخ الاجتماعى لقطر ما ، تسوده العلاقات الراسمالية على سبيل المثال ، من شأنه ان يخلق نموذجا منفردا للشخصية الانسانية الواقعية ، قد يختلف نسبيا فى كثير أو قليل من النموذج العام للشخصية الانسانية فى ظل نمط الانتاج الراسمالى . . »(١) .

المشكلات المنهجية :

يواجه الدارس للشخصية المصرية بعدة مشكلات منهجية ، أولها ندرة الأبحاث العلمية الدقيقة المتخصصة فى هذا الموضوع ، وكذلك توجد مشكلة الثبات النسبى للشخصية القومية عبر الزمان ، وقد أدى وجود تلك الخاصة أن اعتقد بعض البحاث أن المصرى اليوم هو صورة مطابقة للمصرى القديم ؛ وبالتالى يهملون من تاريخ مصر آلاف السنين وما صاحبها من احداث ثقافية واجتماعية كبرى أدت الى تغير كامل فى ثقافة المجتمع المصرى وفى بنائه الاجتماعى وبالتالى فى الشخصية المصرية ، وهكذا ظن البعض أن استخدام الفلاح المصرى للفأس أو للمحراث أو للساقية ، وهى من عناصر الحضارة الفرعونية ، لهو دليل على أن الانسان المصرى لم يتغير منذ القدم ، ومما يساعد على انتشار هذا التصور وجود بعض الرواسب الاجتماعية التى ترجع الى عصر الفراعنة ، ومن أمثلة ذلك عادات النذور ورثاء الموتى واستخدام بعض الالفاظ ذات الأصل الفرعونى ، ولا يمكن اغفال الميل الى تمجيد الماضى والتغنى بالتقدم الذى أحرزته الحضارة الفرعونية ، فان هذه العوامل فى جملتها ادت الى الاعتقاد بثبات الشخصية المصرية منذ العصور القديمة حتى الآن . تثبت الأدلة والشواهد التاريخية خطأ هذا التصور ، ويجب ملاحظة أن الشخصية القومية هى صيغة كلية متكاملة ؛ ويجب أن تدرس على هذا الأساس ، ولا يمكن دراستها بصورة تجزئية لتتبع الأصل التاريخى لبعد ابعادها ، ولا شك أن اغفال هذا المبدأ ، قد أدى الى فشل الكثير من المحاولات الخاصة بتحديد أبعاد الشخصية المصرية .

ان تغير الشخصية المصرية حقيقة واقعية وتاريخية ، ولم يقتصر هذا التغير على تأثير الثقافات الأساسية التى توالت على مصر ، الثقافة الفرعونية والثقافة القبطية والثقافة العربية الاسلامية ، وانما حدثت تغيرات فى الشخصية القومية المصرية داخل اطار كل وحدة من تلك الثقافات الكبرى ، وفى هذا الموضوع يقول الأستاذ ياسين : ان البعض ممن يتعرضون للشخصية يظنون — خطأ — أن المصرى اليوم هو ابن فراعنة الأمس ، ويغيب عنهم اننا

---

(١) المرجع السابق — ص ٦٩ .

يكفى أن نستشير التاريخ لنعرف أن الشخصية المصرية قد اعيدت صياغتها بالكامل تقريبا عقب الفتح العربى الاسلامى لمصر ، وليس معنى ذلك ان الفتح العربى قد وجد أمامه شخصية مصرية فرعونية متكاملة ، على العكس ، فان هذه الشخصية كانت قد لحقتها تغييرات جسيمة نتيجة تدهور الحكم الفرعونى الخالص منذ فترة بعيدة ، بالاضافة الى ظهور الشخصية المصرية المسيحية ، فقد غير المصرى لغته ودينه . فالشخصية المصرية لحقها التغير بفعل التلقيح الحضارى الواسع المدى الذى تم نتيجة تعرض مصر لعديد من الغزوات الأجنبية ، التى استوطن بعضها دلتا وادى النيل فترات طويلة ، هذه الدلتا التى كانت أشبه بمعمل حضارى واسع الأرجاء ، متعدد الأبعاد تلاقت فيه الشخصية المصرية مرات عديدة بأنماط شتى من الحضارات اثرت فيها وتأثرت بها »(١) .

تقتصر هذه الدراسة على تحليل سمات الشخصية المصرية التقليدية ؛ وهى الشخصية القومية التى تولدت بعد الحملة الفرنسية واتصال الثقافة المصرية الاسلامية بالثقافة الغربية ، وقد استمرت المعالم الأساسية لتلك الشخصية حتى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ وبعدها ، وقد احدثت ثورة يوليو تغيرات جذرية فى بناء المجتمع ونظمه ترتب عليها بدء حدوث تغيرات فى الشخصية المصرية التقليدية ، ونحن نعاصر فى هذه الفترة تلك التغيرات ؛ فيمكن القول أننا نعيش الآن فترة انتقالية يصاحبها تغيرات فى الشخصية المصرية التقليدية ، واعتقد ان تلك التغيرات لم تصل بعد الى درجة من الاستقرار والثبات تسمح لها بتغيير واضح فى الشخصية المصرية ، وخاصة أن تلك التغيرات نابعة من الطبقة الوسطى ، فى حين تتعلق الشخصية المصرية بطبقة الفلاحين التى لم تتأثر بعد بعمق بتغيرات الطبقة الوسطى التى تتركز فى المدن .

يتضح لنا مما سبق أن هذه الدراسة تختص بالقاء الضوء على اهم أبعاد الشخصية المصرية التقليدية ، وهى الخاصة بطبقة الفلاحين التى تعيش فى القرى المصرية ، ويعتمد المؤلف فى تحديد تلك الأبعاد على الدراسات التى قام بها علماء مصريون ، بعد تمحيصها واختيار الصالح منها ، ويعالج كل بعد من ابعاد الشخصية المصرية التقليدية من ثلاثة جوانب ، وهى شرح البعد ثم عرض بعض الشواهد والأدلة الثقافية التى تثبت وجوده وأخيرا تحديد بعض المحددات الثقافية التى يمكن أن تفسر وجود هذا البعد فى الشخصية المصرية ، وجدير بالذكر أن هذه المحاولة هى دراسة استكشافية لموضوع

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٤٣ .

معقد ومتشعب الأطراف ، ولا يمكن لهذا الموضوع أن يدرس بأسلوب علمي دقيق الا عن طريق فريق من العلماء المتخصصين فى علم النفس والأنثروبولوجيا الثقافية وعلم الاجتماع والجغرافيا والتاريخ ، ويأمل المؤلف أن تكون تلك الدراسة دافعا لتحقيق هذا الأمل من خلال مجهودات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية .

يستخدم اصطلاح المحددات الثقافية بمعناه الواسع المشتق من مفهوم الثقافة كما تحدده الانثروبولوجيا الثقافية ، وبالتالى تشمل جميع انماط السلوك المكتسبة الخاصة بمجتمع معين ، سواء كانت فكرية أو اجتماعية أو مادية ، وبالتالى تندمج النظم الاجتماعية من اقتصادية وسياسية ودينية فى المفهوم الكلى لاصطلاح ثقافة ، ويشمل هذا المفهوم كذلك القيم والعادات والتقاليد . ويعترف أن هناك العديد من المشكلات التى تواجه تلك الدراسة ، فالى جانب عدم خضوعها لقواعد البحث العلمى الدقيق وعدم الدقة فى اصدار التعميمات ، توجد مشكلة ترتيب ابعاد الشخصية المصرية التقليدية ، وحاول المؤلف حل تلك المشكلة عن طريق ترتيب تلك الأبعاد على أساس مدى عمومية كل بعد ، بمعنى أن يبدأ الترتيب بالبعد الأكثر عمومية ويليه الأقل عمومية وهكذا يتم الترتيب بصور تنازلية ، هذا بالاضافة الى أن كل بعد يتضمن مجموعة من الأبعاد الخاصة ، وقد حاول المؤلف تطبيق هذا المبدأ قدر المستطاع ، وبرغم ذلك فان المحاولة لا تخلو من الأحكام التعسفية ، وهذه الأبعاد هى : الاستمرار والثبات النسبى — التدين — الوطنية والفداء — الازدواجية — الحزن والفكاهة — الكرامة .

ويشير المؤلف الى امكانية خضوعه فى تلك الدراسة الى التحيز ، فهو مصرى ويكتب عن الشخصية المصرية ، ولا يستطيع أن يتخلص من تأثير القيم المصرية التى درج عليها منذ صغره .

بقى أن نشير الى ملاحظة متعلقة بعلاقة شخصيات المركز بموضوع دراستنا ، فبالاضافة الى الشخصية القومية الخاصة أساسا بطبقة الفلاحين توجد شخصيات خاصة بمراكز معينة فى المجتمع المصرى ، فهناك شخصية الرجل المصرى وشخصية المرأة المصرية ، وشخصية الطبقة البورجوازية وشخصية الطبقة الراقية ، وشخصية الحضرى وشخصية القروى وشخصية البدوى ، تقتصر هذه الدراسة على الشخصية المصرية التقليدية الخاصة بطبقة الفلاحين بوصفها قاعدة المجتمع المصرى ، ولا تفرق تلك الشخصية القومية بين الرجال والنساء أو بين الكبار والصغار وانما تتعلق بأكثر السمات شيوعا بين تلك الفئات جميعا ، ومن الواضح اننا فى أشد الحاجة الى اجراء الأبحاث المتعلقة بهذه الشخصيات المركزية ، وفيما يلى تحليل أهم ابعاد

الشخصية المصرية التقليدية ، ويجب ملاحظة ان تلك الأبعاد تتداخل وتكون صيغة كلية دينامية ، وان تحليل تلك الصيغة الكلية الى عناصرهـا اجراء تتطلبه الدراسة التحليلية ولا يعبر عن طبعة الشخصية القومية بوصفها صيغة كلية وليس مجموعة من العناصر المرصوصة .

ابعاد الشخصية المصرية التقليدية

اولا ــ الاستمرار والثبات النسبى :

من اهم خصائص الشخصية القومية عامة خاصية الاستمرار والثبات النسبى ، ولكن لا يعنى ذلك الجمود والتصلب ، فان التغير والتطور من أهم خصائص الشخصية القومية كذلك ، ويحدد معدل التغير عوامل ثقافيـة وغير ثقافية ، وبرغم تلك التعميمات فان تحديد مدى استمرار وثبات شخصية مجتمع معين ، يرجع أساسا للدراسة الميدانية لهذا المجتمع ، ويتعاون فى تلك الدراسة مجموعة من العلماء المتخصصين فى الجغرافيـا والتاريخ وعـلم الاجتماع والأنثروبولوجيا وعلم النفس .

يتفق الراى على ان الشعب المصرى من اقدم شعوب العالم ، ويتميز بقدم الحضارة فى ربوع أرضه وبوحدة تاريخه وبوحدة أرضه منذ آلاف السنين، فهو شعب عزيق فى القدم ، وهو اول من صنع الحضارة والمدنية فى العصور القديمة ، فقد نفض عن نفسه الثقافة البدائية منذ آلاف السنين ، ولا أدل على ذلك من انه أقدم شعوب العالم فى اكتشاف الزراعة وفى بناء المدن وفى اكتشاف نظام الدولة ، ويرى البعض أن هذه الأسس الحضارية الكبرى ، قد نبعت فى مصر لاول مرة ثم انتشرت بعد ذلك الى باقى اجزاء العالم .

وهكذا فالمجتمع المصرى مجتمع متمدين منذ القدم ، ولذلك لا يرتبط عن قرب أو عن بعد بالثقافة البدائية ، وانما يرتبط منذ القدم بالثقافات المتمدينة التى تتميز بعنصرين اساسيين هما الزراعة وبناء المدن ، بل يمكن القول بأنه صانع المدنية ، فالمدن الفرعونية من اقدم مدن العالم ، وربما لا يسبقها فى القدم الا المدن البابلية . ان الاستمرار والثبات النسبى فى الشخصية المصرية التقليدية خاصية عامة جدا ، لأنها تسود باقى الأبعاد ، وقد اختلف المفكرون المحدثون فى فهم هذا البعد ، ففى فترات النكسات الحربية والتخلف الحضارى، يطلقون على هذا البعد صفات الجمود والتصلب والسكون وضعف روح المبادرة وانخفاض مستوى الطموح ، فمثلا يقول د. عزت حجازى :

« اهم مفاتيح فهم الشخصية فى نظرنا هى الوحدة الطبيعية السياسية والاستقرار النسبى عبر التاريخ ، وهما طرفان قل أن يتوافرا معا او بالدرجة

نفسها التى توفر بها للفلاح المصرى لشعب آخر ، ولهذا فليس غريبا أن يكون (التصلب النسبى) من أبرز ملامح الشخصية المصرية ، وهى خاصية تبدو فى عروق المصرى تمنعه من أن يقبل طواعية اجراء تغيير جذرى فى أى جانب من جوانب حياته ، وقيمه وأساليب سلوكه بالذات »(١) .

أعتقد أن العبارة السابقة تخلط بين جمود بعض الأنظمة اجتماعية وبين ابعاد الشخصية المصرية ، فالمصرى ، اذا اتيحت له الظروف الاجتماعية الملائمة ، فانه يخلق ويبتكر ، ولا أدل على ذلك من أنه صانع الحضـــار الفرعونية ، وبانى المدن المصرية ، وأبناء الفلاحين هم العناصر الأساسية فى الفئات المهنية والمثقفة ، واذا أتيحت للمصرى فرصة الالتحاق بالجامعات الغربية الكبرى . فانه يحصل على أعلى الدرجات ويقفز الى مكان الصدارة، وكذلك الحال بالنسبة للمصريين الذين هاجروا الى الولايات المتحدة الأمريكية وكندا ، فقد حققوا انجازات كبرى ، وتفوقوا فى العمل والخلق على أصحاب البلاد ، وهكذا لا يمكن القول مطلقا بأن « المصرى لا يقبل طواعية اجراء تغيير جذرى فى أى جانب من جوانب حياته » .

وما تشكو منه اليوم الجامعات المصرية من ضعف مستوى الطـــالب المصرى ، لا يرجع الى سمات معينة فى عقلية المصرى تمنعـــه من الابـــداع والاختراع ، وانما يرجع الى نظام التعليم الجامعى ، وفى هذا الموضوع يقول د . ملاك جرجس : « ان العقلية المصرية حاليا غالبا ما تقدس النصوص أو الكلمة المكتوبة ولا تعنى فى الغالب بالتفكير الابداعى الخلاق ، ولا غرو فى أن طالب الجامعة يدرس كتابا يحدده الأستاذ ، وفى أغلب الحالات يكون هـــو مؤلفه ، ولا تخرج الامتحانات عن كتاب الأستاذ أو مذكراته ومحاضراته ، ولذلك فطالب الجامعة يلقن معلومات ولا يتدرب على التفكير ، ان التعلم أساسا ، تدريب على التفكير ، هذا بعكس الطـــالب فى جامعـــات الدول الصناعية ، فالأستاذ يشرح المادة وفقا لخبراته ومعلوماته ، ويرشد الطالب الى عدة مراجع علمية يرجع اليها ، وكثيرا ما تتضارب آراء هذه المراجـــع مما يدفع الطالب ويدربه على التفكير والنقد العلمى والاعتماد على نفســـه فى استخلاص واستنباط الحقائق العلمية » (٢) . يوافق المؤلف على كل ماجاء بالفقرة السابقة فيما عدا السطر الأول ، فالعيب هنا ليس فى العقلية المصرية، وانما فى نظم التعليم الحالية ، فالعقلية المصرية بخير ، ولا أدل على ذلك من

---

(١) د. عزت حجازى : الشخصية المصرية بين السلبية والايجابية ـ مجلة الفكر المعاصر ـ العدد ٥٠ ـ القاهرة ١٩٦٩ ، ص ٤٥ .

(٢) د. ملاك جرجس : سيكولوجية الشخصية المصرية ومعوقات التنمية ، روزاليوسف ، القاهرة ١٩٧٣ ص ٣٦ .

ان الأستاذ الجامعى المصرى عندما يهاجر الى الجامعات الغربية حيث الامكنيات وقلة عدد الطلاب يغير من أسلوبه فى التعليم ويتبع الأسلوب الصحيح .

اما فى فترات الانتصارات والتقدم الحضارى فتصاغ صفة الاستمرار والثبات فى الشخصية المصرية بألفاظ أخرى تمجد تلك الخاصية ، فيوصف المصرى بأنه أصيل متمسك بأخلاق القرية ، حريص على القيم العربية ، ونحن نسمع هذه العبارات اليوم بعد أن حقق الجنود المصريون انتصارات اكتوبر عام ١٩٧٣ ، فهل حدثت كل تلك التغييرات الكبرى فى الشخصية المصرية فى ست سنوات ؟ بعد نكسة عام ١٩٦٧ ، فسرت خاصية الاستمرار والثبات فى الشخصية المصرية بالجمود والتخلف وعدم الابداع وضعف روح المبادرة ، ان هذه التفسيرات لا تخرج عن كونها انطباعات شخصية لمواقف مؤقتة ولا تتصل عن قرب أو بعد بموضوع أبعاد الشخصية القومية المصرية .

وجدير بالذكر أن النظم الثقافية التى من شأنها خلق سمات الاستقلال والاعتماد على النفس والمبادرة فى الشخصية لا يقتصر وجودها على المجتمعات الصناعية المتقدمة ، كما يظن البعض ، فقد يحدث أن توجد تلك السمات فى مجتمعات بدائية شديدة التأخر ، ففى أبحاث الثقافة والشخصية التى أجريت على بعض الجماعات المبعثرة من الهنود الحمر المعتمدين على الصيد وجمع الثمار مثل جماعات شيبوا ، تبين أن نظم تربية الأطفال تعمل على تأكيد سمات الاعتماد على النفس والمبادرة والتجديد فى شخصيات الصغار ، ولكن لم تفعل شيئا تلك السمات فى تغيير ثقافتهم البدائية البسيطة ، وفى مسح ثقافى مقارن يقرر ثلاثة علماء أن المجتمعات الزراعية تتميز بالخضوع التام للروتين ولذلك يخشون التجديد ، وتؤكد نظم تربية الأطفال فيها أهمية الخضوع للكبار ، فى حين تتميز مجتمعات الصيد البرى والبحرى بأهمية المبادرة الفردية ، ولا يخاف الأفراد من التجديد بنفس الدرجة السابقة ، وتؤكد نظم تربية الأطفال فيها على أهمية الاعتماد على النفس والمبادرات الفردية(١) .

وفيما يلى موجز لبعض الشواهد الثقافية التى تدل على وضوح خاصية الاستمرار والثبات النسبى للشخصية المصرية التقليدية بصورة عامة .

الشواهد الثقافية :

١ ــ ترجع معظم أدوات الزراعة فى الريف المصرى الى عهود قديمة تصل الى العصر الفرعونى .

---

(١) Barry III, H., Child, I. and Bacon, M., Relation of Child Training to Subsistence Economy, American Anthropolist, Vol. 61, 1959, PP. 51-63.

٢ ــ ارتباط الفلاح المصرى بالماضى المتمثل فى أرضه وبيته وقريته .

٣ ــ احترام الفلاح لكل ما هو قديم ، فهو يوقر ما قاله الذين سبقوه الى الحياة ، ويوقر حكمة الشيوخ ، ويحترم الآباء و لأجداد وكبار السن عامة .

٤ ــ تعبر عن هذا الاتجاه نحو احترام الماضى والتمسك به بعض الأقوال المأثورة مثل « اللى ملوش قديم ملوش جديد » « اللى تعرفه احسن من اللى ما تعرفوش » « احترم ابوك ولو كان صعلوك » « احترم كبيرك يحترمك صغيرك »(٢) .

٥ ــ يدل سلوك عمال التراحيل واغانيهم على أن الفلاح المصرى شديد الاحساس بالتربة ، موطن آبائه واجداده ، اذ اضطرته ظروفه الى الخروج من القرية ، فاذا اضطر تحت ظروف طرد قوية لا قبل له بتعديلها الى الهجرة من موطنه الأصلى الى مكان آخر ، احتفظ فى المهجر بكثير من قيمه واساليب سلوكه التى اعتاد عليها فى القرية ، حتى حين تكون هذه القيم والأساليب السلوك غير وظيفية ، والاختلاف الذى يسميه البعض فوضى فى لباس القاهريين ولهجاتهم وسلوكهم فى الأماكن العامة مثلا هو مظهر من مظاهر احتفاظ المهاجرين من الريف ببعض المقومات الثقافية الريفية ومقاومتهم ــ التى تصدر عن وعى احيانا ــ لعملية امتصاص المدينة لهم (٢) .

٦ ــ استمرار الكثير من الخرافات والبدع رغم عدم اعتراف الأديان السماوية بها ، ومن أمثلة ظاهرة النور وظاهرة كتابة رسائل الى الأولياء والاعتقاد فى الحسد .

« والناس اذ يفعلون كل هذا .. والمسلمون منهم خاصة . يفعلونه على الرغم من أن الاسلام ينهى عن الاعتقاد فى قبور الصالحين والأولياء أنها تنفع أو تضر او تقرب الى الله تعالى ، فان ذلك من عادة المشركين ومن الظواهر القديمة جدا فى المجتمع المصرى » (٣) .

٧ ــ استمرار البيروقراطية المنحرفة فى المجتمع المصرى : ويقصد بها حكم المكاتب الذى يتصف بتحكم الموظفين مما يعطل الأعمال ولا يساعد على

---

(١) رشدى صالح : شخصيات فى المأثورات الشعبية ، مجلة الفكر المعاصر ، العدد ٥٠ ــ ابريل ١٩٦٩ ص ١٣٨ .

(٢) د. عزت حجازى : الشخصية المصرية بين السلبية والايجابية ، مجلة الفكر المعاصر ــ العدد ٥٠ ــ ابريل ١٩٦٩ ص ٤٥ ، ٤٦ .

(٣) د. سيد عويس : ظاهرة الموت فى حياة المصريين ــ مجلة الفكر المعاصر ــ العدد ٥٠ ــ ابريل ١٩٦٩ ص ٧٦ ، ٧٧ .

تحقيق الكفاية الانتاجية ، بل على العكس يؤدى الى التبذير والفساد والظلم، والتهرب من المسئولية ، وترجع الجذور الأولى لتلك البيروقراطية الى شخصية « الكاتب » الجالس القرفصاء فى أيام الفراعنـــة ، ثم شخصيـــة « شيخ البـــــلد » (١) .

المحددات الثقافية :

المجتمع المصرى بلد عريق التاريخ ، واستطاع المصريـــون اكتشـــاف الزراعة منذ ثمانية آلاف سنة أو يزيد ، وتعد مصر من المراكز الأساسية فى العالم التى انتشر منها هذا الاختراع العظيم الى أجزاء كثيرة من العالم ، وباكتشاف الزراعة عرف المصريون الاستقرار وصنعوا اعظم حضـــارة فى التاريخ القديم وهى الحضارة الفرعونية ، وعاش غالبية المصريين عـــلى الزراعة منذ القدم حتى اليوم ، وتسكن تلك الغالبية الدلتا ووادى النيل فى عدد هائل من القرى يزيد على أربعة آلاف قرية اليوم ، ولا يقتصر نشـــاط الفلاح على قريته ، وانما يساهم بتوفير الطعام والقوى البشرية فى بناء المدن وازدهارها وهكذا يتم الاتصال والتعاون بين القرية والمدينة فى مصر ، وفى جميع الدول التى يعيش معظم سكانها على الزراعة .

لاحظ الأنثروبولوجى الكبير « ريدفيلد » تشابها واضحا فى أسلوب الحياة عند فلاحى العالم ، واستخدم نموذجا مثاليا لتوضيح خصائص هذا الأسلوب فى الحياة ، أطلق عليه اصطلاح « الثقافة القروية » ، وهو أسلوب الحياة المطبق فى القرية التى أطلق عليها اصطلاح « المجتمع القروى » ، تمييزا له عن نموذج « المجتمع الشعبى » ونموذج « مجتمع المدينة » (٢) .

حدد «ريدفيلد» عدة خصائص للثقافة القروية ، من شأن بعضها أن يطبع الشخصية القومية لحاملى تلك الثقافة بأبعاد معينة ، من أهم تلك الخصائص أنها ثقافة جزئية ، وذلك لارتباط ثقافة القرية بثقافة المجتمع الكبير ، سواء أكان دولة أم أمة ، ومن هنا كان لابد من دراسة علاقة القرية بالمدينة ، لأن كلا منهما يكمل الآخر . ويدرس «ريدفيلد» الفلاح على أنه مركز ثقافى وليس كمكز مهنى ، بمعنى أن الفلاح هو حامل للثقافة القروية ، وليس مجرد شخص يمتهن الزراعة ، فالزراعة ليست فقط مهنة وانما هى كل ثقافى متكامل ، ويعرف «ريدفيلد» الفلاح بأنه : «ذلك الرجل الذى يسيطر بطريقة فعالة على قطعة من الأرض الزراعية يرتبط بها منذ وقت طويل بروابط

---

(١) د. ملاك جرجس : سيكلوجية الشخصية المصرية ومعوقات التنمية ، ص ٦٧ ، ٦٨ .

(٢) د. فاروق العادلى : مقدمة كتاب : « المجتمع القروى وثقافته » تأليف روبرت ردفيلد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الاسكندرية ١٩٧٣ .

العاطفة والتقاليد ، ويكونان هو والأرض جزءا من شيء واحد أو مجموعة واحدة من العلاقات الراسخة منذ وقت طويل » (١) . ويجب دراسة الثقافة القروية كثقافة مركبة ، فهي ليست بالبساطة التي قد يتصورها البعض ، وذلك لأن الثقافة القروية تتزود بروافد فكرية متعددة عن طريق اتصالها بالانتاج العلمي والفكري للطبقات الاجتماعية الأخرى ومراكز الفكر في المدينة، فثقافة القرية مدنية (٢) بمعنى الكلمة ، ويؤكد « ريدفيلد» على ضرورة تمييز نوعين من التراث في تلك المدينة التراث الكبير (٣) والتراث الصغير (٤) ، ويقصد بالتراث الكبير تراث المدارس والمعابد في القرية ، أي تراث المثقفين من رجال الدين والعلماء ورجال الأدب ، أما التراث الصغير فهو الثقافة المحلية للقرية ، ويجب تحليل العلاقات الاجتماعية والثقافية لمجتمع القرية المحلي الصغير في ضوء اطار اشمل ، أي في نطاق علاقته بالدولة والمدينة ككل ، ومن أهم المحددات الثقافية التي تؤثر في شخصية الفلاح أسلوب النظر الى الحياة وتصوره للحياة الطيبة ، ينظر الفلاح الى الأرض نظرة تبجيل واضحة ، ويعتقد ان العمل الزراعي هو أسمى الأعمال ، ويتصف العمل الزراعي بصفة التقديس ، فالزراعة شيء عملي تسوده مشاعر دينية ، ومن خصائص الفلاحين كذلك الرزانة والمزاج المعتدل والمشاعر الرقيقة واحتقار التعبير عن العواطف بصورة علنية ، ويقرر «ريدفيلد» أن الفلاحين في الوقت الحاضر يسعون الى أن يصبحوا شيئا مختلفا ، اذ تجذبهم المدينة للعمل الصناعي ، كما تتكون وتنمو الكثير من التطلعات بين الفلاحين ، وبذلك يتحول الفلاحون الى أنواع أخرى من الأفراد مثل العمال الصناعيين أو الطبقات الاجتماعية الحضرية في المدن (٥) . وبرغم هذه الخصائص العامة للثقافة القروية فان «ريدفيلد» يؤكد أن هذا التصور يمثل « نموذجا مثاليا»، وأن القرى الواقعية تختلف في بعض تلك الخصائص ، وتحدد الدراسات الميدانية تلك الاختلافات التي يعترف بوجودها ، فمثلا يقول «ريدفيلد» وفي «الواقع توجد اختلافات كثيرة بين الشعوب القروية بالنسبة لمسائل العنف والتركيز على المغامرة الجنسية » (٦) .

وبرغم وجود مثل تلك الاختلافات ، فان بعض أوصاف «ريدفيلد»

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٤ .

(٢) Civilization

(٣) Great tradition.

(٤) Little tradition.

(٥) المرجع السابق ، ص ٢٢ ، ٢٣ .

(٦) المرجع السابق ، ص ١٨١ .

لشخصية الفلاح نجد لها مثيلا فى شخصية الفلاح المصرى ، فالى جانب الأوصاف السابقة يصفها «ريدفيلد» بالأوصاف التالية :

«وعندما ينظر المرء الى التاريخ القديم يرى أن الفلاح قد تغير قليلا عبر آلاف السنين » (١) .

« وفى كل اجزاء العالم عامة ، كان الفلاحون احد العوامل التى تقف فى وجه التغير الاجتماعى أو كبح جماح الثورة أو اعاقة عملية تكامل المجتمع المحلى الذى غالبا ما يصاحب التغير التكنولوجى السريع . وبرغم هـذا يتغير بسرعة كثير من الفلاحين فى الوقت الحاضر تغيرا سريعا ، وقد يمكن القول بأنه لن يوجد فلاحون فى المستقبل » (٢) .

يتضح لنا مما سبق أن الثقافة القروية وهى ثقافة راسخة فى المجتمع المصرى ، هى المحدد الثقافى الأساسى لخاصية استمرار وثبات الشخصية المصرية التقليدية ، وذلك لأن الغالبية من الشعب المصرى لاتزال غالبية قروية وثقافةالقرية منخصائصها طبعشخصياتالفلاحين بالثبات والاستمرار، ولكن امكانيات التغير كامنة فى ثقافة القرية التى تتصل بصورة وثقافة المدينة، والمدينة هى منبع التغيرات الثقافية والاجتماعية .

والملاحظ ان أساليب التنشئة الاجتماعية فى المجتمعات القروية هى المسئولة عن استمرار بعض سمات شخصيات الفلاحين عبـر الأجيال، اذ تعطى تلك الأساليب أهمية كبرى للانصياع وللامتثال للعادات والتقاليد المحلية ، وقد توصل الدكتور محمود على الى نتيجة مشابهة فى دراسته التجريبية القيمة لأساليب الثواب والعقاب التى تتبعها الأسرة المصرية ، وفى هذا المعنى يقول :

« .... كما أنها .(اى أساليب الثواب والعقاب التى تتبعها الأسرة) ترتبط بجهاز القيم الذى يدور محوره حول مبدأ الانصياع أو الطاعـة أو الامتثال بمعنى أساليب الممارسة والمجازاة التى يتبعها آباؤنا فى مجتمعاتنا المحلية المختلفة تهدف فى المقام الأول الى بث مفهوم حب الطاعة أو الانصياع عند الطفل ، ويختلف وضوح هذا المفهوم من والد الى آخر ، كما أنـه يختلف كميا باختلاف طبيعة البيئة الاجتماعية والجغرافية التى يعيش فـى نطاقها الفرد » (٣) .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٨٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٨٨ .

(٣) د. محمود على : دراسة تجريبية لأساليب الثواب والعقاب التى تتبعها الأسرة فى تدريب الطفل وأثرها على شخصية الأبناء ــ رسالة دكتوراه ــ جامعة القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٢ .

ثانيا — التدين :

الوطن العربى هو مهد الديانات السماوية ، ومصر ، قلب العروبة، ظلت منذ القدم حتى الآن قلعة تحافظ على الأديان من عبث العابثين ، والمصريون متدينون ، ولذلك هم قوم متسامحون ، لم يدخل التعصب الدينى قلوبهم ولم يبخلوا يوما فى الاستشهاد فى سبيل دينهم ، ويصاحب تدين المصريين ، شأنهم فى ذلك شأن باقى شعوب الأرض ، بعض الخرافات والبدع التى ليست من الدين فى شىء ، وتنتشر تلك المعتقدات الشعبية فى الريف المصرى ، ويرجع بعضها الى عصور قديمة ، ولذلك تمثل رواسب اجتماعية فى طريقها للزوال بفضل التعليم الدينى الصحيح والتعليم العلمانى الموضعى ، ويمكن تحديد تلك المعتقدات الشعبية التى لا يوافق عليها كل من الاسلام والمسيحية فى القدرية والغيبية والتواكل ، ويقصد بالقدرية الاعتقاد بأن كل ما يحدث للانسان نجاحه أو فشله ، عافيته أو مرضه ، بقاؤه أو موته .... الخ هو مقدر له (١) ، وبأن الجهد الانسانى ، عاجز عن أن يدفع القدر ، وقد انعكس ذلك فى عدة ظواهر منها الدعوة فى الأغانى الشعبية الى الصبر والرضا بالمقسوم والمكتوب والقناعة والاستسلام وقبول الحياة كما هى بمرها وحلوها (٢) ، ويرى الكثيرون أن الفلاح المصرى يتسم بالتواكل، نتيجة للقدرية التى يعتقد فيها ، فهو يعتمد على الغير فى احداث الظروف التىتضمن له اشباع حاجاته وحماية مصالحه . وينتظر حتى تحدث الواقعة ولا يتحرك قبل حدوث الأمر لمنعه ، ولا يثق فى قدرته وحده على تغيير الأمر ان هو وقع فعلا ، ويوجد آخر ينادى بعدم المبالغة فى تعميم سمة الاتكالية على الفلاح المصرى ، وذلك لأن تاريخ الفلاح المصرى ملىء بمقاومة الطغاة كما هو ملىء بفترات الخضوع والرضا بالمقسوم ، ويفضل المؤلف الرأى الأخير ، أما الغيبية فيقصد بها عدم ربط الأسباب بالمسببات بأسلوب واقعى، وانما الاعتقاد فى قوى غيبية ، لها المقدرة على حل المشكلات بأسلوب غيبى ما فوق الطبيعى فالغيبية تمثل التفكير الخرافى المناقض للتفكير العلمى . وفيما يلى عرض موجز للشواهد الثقافية على وجود هذا البعد العام .

الشواهدالثقافية :

١ — تعرف القاهرة بأنها مدينة الألف مأذنة ، وذلك لكثرة بيوت الله فيها .

---

(١) د. عزت حجازى : الشخصية المصرية بين السلبية والايجابية ، ص ٤٧ .

(٢) د. محمد الصياد : نفسية الشعب المصرى من أغانيه — مجلة علم النفس — اكتوبر ١٩٤٥ ص ٧٢ .

٢ ــ تكتظ المساجد بالمصلين المصريين فى يوم الجمعة خاصة ، وكذلك يهرع المسيحيون للكنائس يوم الأحــد .

٣ ــ يمثل المسجد المركز الدينى والثقافى للقرية ، ويلعب امام المسجــد دورا هاما كزعيم روحى لأهل القرية ، ويستشيره الفلاحون فى كل كبيرة أو صغيرة فى شئونهم .

٤ ــ الاهتمام بالدين ، سواء على المستوى الحكومى او المستوى الشعبى، فجامعة الأزهر اكبر جامعة دينية اسلامية فى العــالم ، مقرهــا القاهرة ، وتخرج رجال الدين الذين يوجهون النشاط الدينى للمصريين وغيرهم من المسلمين فى العالم منذ مئات السنين ، ويظهر الاهتمام الشعبى بالدين فى المساهمة فى بناء المساجد فى كل حى ، واحيانــا فى كل شارع .

٥ ــ يستخدم المصريون بعض العبارات الدينية عشرات المرات وفى الحياة اليومية ، فمثلا لايتكلم أحد من المصريين على المستقبل ، الا ويستخدم عبارة « ان شاء الله ، أو باذن الله » ، ولا يؤيد المؤلف بعض المفكرين الذين فسروا هذا الاتجاه بأنه تهرب من المسئولية ، ان استخدام تلك العبارة دليل ثقافى على أننا شعب متدين . ويمكن اضافة عــادة القسم باسم «الجلالة» وباسم «النبى» عليه الصلاة والسلام .

٦ ــ عادة وضع المصحف الشريف فى مكان بارز من المنزل ، ومعاملته بشىء من التقديس ، ويحمل الكثيرون المصاحف الصغيرة فى جيوبهم ، وتتحلى النساء بالمصاحف الذهبية ، ويعلق المصريون الآيات القرآنية فى حجرات الضيافة تقديرا واحتراما للكتاب الكريم . ولا يمكن اغفال ترديد جنودنا الأبطال لعبارة « الله أكبر » فى أثناء عبور قناة السويس والاستيلاء على خط بارليف فى حرب اكتوبر عام ١٩٧٣ ، مما رفــع الروح المعنوية واشعل الحماس للبذل والعطاء والاستشهاد فى سبيل الله والوطن .

٧ ــ التمسك بالزواج الدينى ، ومعارضة مبدأ الزواج المدنى ، واحترام فريضة الصوم بصورة لا نجد مثلها فى كثير من المجتمعات الاسلامية.

٨ ــ وهناك الكثير من الأمثلة الشعبية التى تؤيد وجود الاتجاهات السلبية فى ظاهرة التدين عند الفلاحين وسكان المدن ، ومنها : « اللى انكتب على الجبين لازم تشوفه العين» «اللى من نصيبك لازم يصيبك » « ادينى عمر وارمينى البحر » «اكل العيش نصيب» «تجرى جرى

الوحوش غير رزقك ما تحوش» «قليل البخت يلاقى العضم فى الكرشة» «المتعوس متعوس ولو علقوا على راسه فانوس» — «قيراط حظ ولا فدان شطارة » — «جيت أتاجر فى لحنة كترت الاحزان وجيت أتاجر فى الكتان عدموا النسوان » — «اللى ما يرضى بقضايا يطلـــع من تحت سمايا » .

وجدير بالذكر ضرورة الحذر فى تعميم معانى تلك الأمثلة الشعبية ، لأنه توجد أمثلة شعبية متناقضة ، فان بعض تلك الأمثلة تعبر عن خبرات شخصية مكررة ، ولكنها لا تمنع من وجود خبرات أخرى مختلفة ، ترتب عليها انتشار امثلة شعبية تحمل مضامين مناقضة للأمثلة الشعبية الأولى ، فالى جانب الامثلة الشعبية السابقة المثل القائل : « الشاطرة تغزل برجل حمار » ، ويناقض هذا المثل جميع الأمثلة الشعبية السابقة ، وهناك امثلة متناقضة كثيرة ، فمثلا :

(أ) «اصرف مافى الجيب يأتيك مافى الغيب » يناقض «القرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسود » ، وأيضا يناقض « من وفر غداه لعشاه ما شمت فيه عداه» .

(ب) «النواية تسند الزير» ، يناقض «عمر التشفيط ما يملاش قرب» .

(ج) « لبس البوصة تبقى عروسة » ، يناقض « ايش تعمـــل الماشطة فى الوش العكر» (١) .

ولذلك يجب الحذر عند الاعتماد الكلى فى تحديد أبعاد الشخصيـــة القومية لمجتمع ما على الأمثلة الشعبية .

٩ — « نحن شعب نؤدى النذور ، ونفى بها عادة ، وقد لا نفى بهـــا أحيانا .. كما نؤدى القرابين كذلك — نفعل ذلك منذ الماضى السحيق حتى الآن ، ونحن اذ ننذر .. نوفى النذر مشروطا ، واذا كنا نؤدى قربانا ، نفعل ذلك بقصد التقرب الى الله أى بدون شروط .. ونحن ننذر لله جل وعلا كما ننذر لأولياء الله ... ونحن اذ ننذر قد ننذر صياما لله اذا تم مطلب معين أو ننذر مالا نقديا أو عينيا فى مقابل رغبة شخصية نحن فى حاجة اليهـــا أو فى مقابل دفع ضر نريد أن نتجنبه ونتحاشاه » (٢) .

---

(١) على فهمى : شخصيتنا بين القدرية والتواكلية ، مجلة الفكر المعاصر — العدد ٥٠ — ابريل ١٩٦٩ — من ص ٨٠ الى ص ٨٤ .

(٢) د. سيد عويس : ظاهرة الموت فى حياة المصريين — مجلة الفكر المعاصر — العدد ٥٠ — ابريل ١٩٦٩ ص ٧٢ .

وقد جمع عالمان ما يقرب من ٣٠٠ خرافة فى مجتمعنا ، وتبين أن الكثير منها قديم جدا يعود الى عصر الفراعنة ، وبعضها يرجع الى أبعـد من هذا ، الى العصر الحجرى مثلا ، ويقرران شمول انتشارها بقولهما ان ٩٦ ٪ من أهل الريف عندنا وان ٦٢٪من أهل المدن يؤمنون بالخرافات (١)، ولا يمكن فى هذا المجال اغفال ظاهرة انتشار الدجالين الذين يدعون «فك السحر » ، و «معرفة الغيب» وشفاء «الرجال من الضعف الجنسى » وكذلك ظاهرة الاعتقاد فى الحسد ، وهى ظاهرة قوية الانتشار فى الريف والمدينة على السواء .

ويحذر المؤلف من المبالغة فى تقدير تأثير تلك الخرافات على امكانيات النمو الاقتصادى ، وذلك لأن الخرافات ، توجد فى المجتمعات المتقدمة ، كما توجد فى المجتمعات النامية والمتأخرة ، وان كانت بنسبة اقل ، فمثلا نلاحظ أن عدد قارئى الطالع فى الولايات المتحدة الأمريكية يصل الى أرقام مذهلة ، وأن الاعتقاد فى امكانية الاتصال بالأرواح والتحدث معهم ينتشر فى دولة مثل انجلترا بصورة أقوى مما يوجد فى كثير من المجتمعات النامية والمتأخرة .

١٠ — اهتمام الصحف والمجلات المصرية بالطالع ، ولذلك تخصص له مساحات ثابتة ويقرؤه معظم القراء ، وربما كان هو كل ما يهم بعض القراء فى الصحف (٢) ، ولكن يجب ملاحظة أن هذا الاهتمام بالطالع موجود بصورة عالمية ، وتهتم به جميع الصحف والمجلات فى العالم . وتنشر الصحف والمجلات المصرية الكثير من المقالات والتحقيقات التى تشير الى وجود اتجاهات غيبية عند سكان المدن كذلك ، فمثلا خبر نشر فى مجلة صباح الخير فى باب « ملف صباح الخير » تحت عنوان « عين الحسود .... تصيب لاعبى الأهلى » جاء ما يأتى : «عين الحسود ... أصابت لاعبى الأهلى .. هكذا يؤكد اغلب مشجعى الأهلى الذين خرجوا من مباراة الأوليمبى وكأن على رءوسهم الطير ؟ متعجبين لحالة لاعبى الأهلى أمام الأولمبى .. بينما لعبوا مباراة العمر أمام الاسماعيلى وفازوا بهدفين فقط .. وكان يمكن أن يخرجوا فائزين بخمسة أهداف ..وطالبوا «بتبخير» اللاعبين وعمل «احجبةلهم»(٣) ، وفى خبر آخر بنفس المجلة جاء مايأتى :

---

(٣) د. نجيب اسكندر و د. رشدى امام ، التفكير الخرافى — مكتبة الأنجلو المصرية — القاهرة ١٩٦٢ .

(٤) د. عزت حجازى : الشخصية المصرية بين السلبية والايجابية — ص ٤٧ .

(١) مجلة صباح الخير — العدد ٩٨٣ — القاهرة ١٩٧٤ — ص ٥٢ .

« وفى المباراة التى اقيمت يوم الجمعة ٢٥ أكتوبر عام ١٩٧٤ بين فريق المحلة وفريق تنزانيا ، ظل فريق المحلة مهاجما طوال الوقت دون جدوى مشددا هجماته الا أن جميع الفرص ضاعت منه . بدأ الجمهور يشعر بان هناك شيئا غير عادى .. وبالفعل لاحظوا وجود بعض التمائم والأحجبة وضعها حارس المرمى خلفه .. على الفور تقدم احد المتفرجين واختطف الأحجبة .. وحدثت مطاردة ثم استؤنف اللعب وجاء الهدف الأول بين تكبيرات المتفرجين » .

المحددات الثقافية :

تتميز الثقافة القروية بقوة نظام الدين فى المجتمع الذى يحمل تلك الثقافة ، وقد تركزت الثقافة القروية فى مصر منذ آلاف السنين ، بل يمكن القول أن المصريين هم أول من اخترع الثقافة ، لأنهم من أقدم الشعوب التى اكتشفت نظام الزراعة . وكان لاعتماد الزراعة فى مصر على فيضان النيل ، أن قدس المصريون منذ القدم نهر النيل وقدسوا الحاكم الذى يتحكم فى مياه النيل وهى مصدر رزقهم ، ولذلك عبدوا الفراعنة ، ويمكن تمييز طبقتين واضحتين فى البناء الاجتماعى لمصر الفرعونية ، الطبقة الحاكمة وتتكون من الملوك الآلهة والكهنة ، والطبقة المحكومة وهى طبقة الفلاحين الخاضعين روحيا واقتصاديا للطبقة الأولى ، ولم يقتصر تأثير الدين فى العصر الفرعونى على البناء الاجتماعى المصرى ، الوطن ، وعرفت الحضارة الفرعونية بأنها حضارة دينية استنفدت كل ما يمكن أن تحققه المعتقدات الدينية الفرعونية من اعمال ، فان بناء أهرامات فى دقة وفخامة اهرامات الجيزة ، وتحنيط الجثث بالأسلوب المستخدم فى المومياء المصرية والعناية بالعالم الآخر بالطريقة الفرعونية ، لانجد لها مثيلا فى اى حضارة اخرى فى التاريخ البشرى .

وعندما دخلت المسيحية مصر وجدت فى الثقافة الفرعونية بيئة صالحة للازدهار والانتشار ، وظهرت مصر القبطية التى تميزت بخصائص او بشخصية قومية لا نجد مثلها فى الشعوب المسيحية الأخرى ، ومن أهم خصائص الشخصية المصرية القبطية الرهبانية والاستشهاد ، وفى ذلك يقول الأنبا غريغوريس : «لكن الروح المصرية قد برز امتيازها أيضا لا فى الفكر الرهبانى وحده بل فى الفكر اللاهوتى . لقد تميز المصرى بتقواه وتدينه ، وببساطته فى دينه ، واطمئنانه الى اعتقاده بالله والحياة الأخرى ، ونفذ الدين الى أعماق نفسه ، فألهمه أسلوب الحياة الدنيا وطرائقها ، فلم يفصل بين الدين وبين الحياة وانما امتزج عنده الدين بالحياة . الدين سدتها ولحمتها . يتنفس الدين ، يحياه من صباحه الى مسائه ...» .

« من هنا كان تمسك المصرى بدينه ، واستمساكه بعقيدته ، وحرصه عليها وتعلقه بها ، ولن نجد فى العالم كله كالانسان المصرى ، فى مثل حبه لدينه وثباته على عقيدته ، وصموده أمام العواصف المضادة . ولقد ساد المثل قديما : أن تحويل جبل عن موضعه أيسر من تحويل قبطى أو مصرى عن عقيدته » (١) . وجاء الاسلام الى مصر ، ووجد أرضا ممهدة أمامه، وثقافة قروية تعطى للدين اهمية كبرى ، ولقد اكسب الاسلام مصر طابعها الذى تعيشه اليوم ، وتغلغل الاسلام فى كيان المجتمع المصرى كما تدل الشواهد الثقافية السابقة .

وصفوة القول أن الثقافة القروية وهى الثقافة العالمية العريضة التى ينتمى اليها الفلاح المصرى تعطى للدين أهمية كبرى ، بل ان الدين هو مركز الثقافة القروية ، ولذلك وجدت الأديان التى ظهرت أو قدمت لمصر الجو الثقافى الملائم للتأصل فى التراث الثقافى . ويرجع البعض اهتمام الثقافة القروية بالدين الى أن الزراعة من الحرف التى تظهر فيها قوة الخالق بوضوح ، اذ تتحول البذرة الى شجرة أمام عيون الفلاحين ولا يساهمون فى ذلك التحول باى مجهود مباشر ، وانما يقتصر مجهودهم على توفير الماء والتربة الصالحة للبذرة ، ويختلف الأمر فى الصناعات التحويلية ، وهى التى يساهم فيها العامل الصناعى بالعمل كله فى صناعة السلعة ، هذا بالاضافة الى أن الزراعة تعتمد على الماء ، ويأتى الماء اما عن طريق الفيضانات أو الأمطار ، وفى كلتا الحالتين يلمس الفلاح بصورة محسوسة قدرات الخالق ، وهناك أيضا تعرض المحاصيل للضياع بسبب الآفات الزراعية أو الأعاصير أو السيول ، مما يجعل الفلاح خاضعا فى رزقه للقدر ، مما يساعد على انتشار الاتجاهات الخاصة بالقدرية .

وهنك أيضا بعض أساليب التنشئة الاجتماعية فى القرية المصرية ، ومنها الأسلوب الخاص بتخويف الأطفال كوسيلة من وسائل التربيةوالتهذيب، وكثيرا ما يخيف الآباء أطفالهم من العفاريت والجن والغولة ، وفى المدن من «أبو رجل مسلوخة» و «حجرة الفيران» و «الظلام» ، يؤدى هذا الأسلوب فى تخويف الأطفال فى فترة الطفولة المبكرة الى بذر اتجاهاتالغيبية والخرافة — وتبقى تلك الاتجاهات مع الطفل حتى بعد نموه فى مراحلالبلوغ والكبر . وفى الأدب الشعبى المصرى ، الكثير من الأساطير الشعبية التى تتضمن موضوعات العفاريت والجن والغول ، وتتحدث تلك الحكايات عن تلك الموضوعات كأنها حقائق واقعية ، مما يساعد على تكوين الاتجاهات والمعتقدات الخاصة بالغيبية عند المصريين .

---

(١) الانبا غريغوريوس — مقدمة كتاب « ملامح الشخصية المصرية فى العصر المسيحى » ، تأليف دكتور رأفت عبد الحميد ، روزاليوسف ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ٨ ، ٩ .

الكثيرون منا يدركون أن الشعب المصرى ، وخاصة طبقة الفلاحين قد عانت منذ عهد بعيد من ثلاث ظواهر اجتماعية خطيرة وهى الاستعمار والاقطاع والأمية ، وتتلخص النتائج المترتبة على هذا الثالوث المزمن فى ثالوث آخر التصق باسم الفلاح المصرى منذ عهد بعيد وهو الفقر والجهل والمرض، وقد لعبت تلك الظروف الاقتصادية والاجتماعية المتخلفة دورا هاما فى تأكيد القدرية والتواكل والغيبية فى القرية المصرية ، ويعطى البعض لعامل الامية اهمية كبرى فى استمرار هذه الخصائص فى الشخصية المصرية التقليدية .

ثالثا ــ الوطنية والفداء :

يتمسك الانسان المصرى بأرضه ووطنه حتى الموت ، ويشهد على ذلك وحدة ترابط الوطن منذ آلاف السنين ، والعدد الهائل من الشهداء الذين افتدوا مصر منذ القدم حتى اليوم ، وعادة تتعرض الشعوب لحملات مسعورة لتشويه الشخصية القومية والنيل منها فى فترات الهزائم العسكرية، ولم يخرج الشعب المصرى عن تلك القاعدة العامة ، ولذلك نظم الاسرائيليون والصحفيون الغربيون الخاضعون لسيطرة الصهيونية العالمية حملات واسعة لتشويه الشخصية العربية بعد هزيمة عام ١٩٦٧ ووصفوها بالملامح التالية :

« العرب لا يفهمون سوى لغة القوة ، ولذلك فاتباع سياسة الردع والعنف معهم هى الأسلوب الأمثل . وهم قوم فرديون مفككون ، يميلون الى الكذب والمبالغة وخداع الذات . وهم بالمقارنة بالاسرائيليين كسالى وجبناء وخونة ، ومستوى ذكائهم منخفض ، وعلى الجملة هم أدنى من الاسرائيليين» (١) .

ولاتمثل تلك الحملة لتشويه الشخصية المصرية المحاولة الوحيدة التى يشنها الأعداء فقد تعرض الانسان المصرى دواما لحملات التشويه ، ففى العصور الوسطى ، وخلال الحكم العثمانى ترفع الأتراك على المصريين واحتقروا الفلاح المصرى ، وكانت كلمة فلاح تعتبر نوعا من السب الى وقت قريب ، وعندما احتل الأنجليز مصر ، شن المستعمرون الأنجليز الحملات المسعورة لتشويه الفلاح المصرى ، وخاصة بعد هزيمة الثورة العرابية ، وذلك لأن العدو يستغل الجو النفسى الكئيب الذى يسود الشعب المصرى بعد الهزائم العسكرية ، فيصدر التعميمات السطحية المزيفة ، ومن أمثلة

---

(١) السيد ياسين : الشخصية العربية بين المفهوم الاسرائيلى والمفهوم العربى ، ص ١٧٥ .

ذلك ان الشعب المصرى شعب غير مقاتل ومصر بلد زراعى ، متناسين أن التاريخ المصرى ملىء بالانتصارات العسكرية والشعبية ، وان الانسان المصرى هو صانع الحضارة الفرعونية التى انتشرت فى جميع انحاء العالم. فهدف تلك الحملات جميعا هو بث اليأس فى النفوس والاستسلام للعدو فى نهاية الأمر . واذا وضعنا فى اعتبارنا الظروف القاسية التى عاشها الانسان المصرى ، وهى الاستعمار والاقطاع والطغيان ، يتبين لنا أن الفلاح المصرى كان يصارع فى جبهتين ، فى الداخل والخارج ، وكان يحتاج بعد كل انتصار الى فترات راحة وهدوء ، وبعد كل هزيمة الى فترات صمود واستعداد ، وخاصة أن مصر بلد عريق فى التاريخ ، ولذلك نحتاج الى نظرة شاملة عميقة عند دراسة أبعاد الشخصية المصرية . وفيما يتعلق بالصورة المزيفة التى وضعها الاسرائيليون عن مصر ، فانها سرعان ما تغيرت بعد أن حقق العرب انتصارات أكتوبر ١٩٧٣ . وشهد قادة اسرائيل للمقاتل المصرى بالشجاعة والذكاء ، واصيب العالم بالذهول والدهشة لدقةالتخطيط ودقة التنفيذ فى معارك عبور قناة السويس والاستيلاء على حصون خط بارليف ، وترجع تلك الدهشة لنجاح الدعاية الصهيونية فى تشويه الشخصية العربية بعد هزيمة عام ١٩٦٧ .

ان وطنية وفداء وذكاء الشعب المصرى من الأبعاد الأساسية فى الشخصية المصرية ، ولذلك لا تختفى فى فترات الهزائم العسكرية ، وانما تكون فى حالة كمون ، تطول أو تقصر ، وتعود للظهور فى صورة ألانتصار تلو الانتصار ، وحتى فى حالة الهزائم تتحول الى صمود واعداد ومقاومة ، ولا يمكن القول بأنها تختفى الا فى أعين الذين يتمنون لها الاختفاء من الأعداء والسطحيين . وفيما يلى عرض موجز لبعض الشواهد الثقافية التاريخية على تأصل هذا البعد فى الشخصية المصرية ، ولا يدخل فى اطار هذا الكتاب العرض التفصيلى لانتصارات الشعب المصرى ، فهذه الموضوعات خاصة بكتب التاريخ التى تزخر بتلك الانتصارات .

الشواهد الثقافية :

١ — تؤكد كتب التاريخ أن المقاتل المصرى هو اقدم من حمل السلاح فى التاريخ البشرى ، فقد صاحب نشأة نظام الدولة فى مصر حروب متعددة ، وذلك لأن الحضارة المصرية الزراعية بدأت فى صورة دويلات صغيرةمستقلة، وكان لكل دولية أو امارة جيشها الخاص ، وكانت الحروبالداخلية لا تهدأ، حتى اتحدت هذه الديلات وتشكل فى مصر مملكتان ، مملكة الشمال ومملكة الجنوب ، ثم قامت عدة حروب لتوحيد مصر ، وتم ذلك بقيادة الملك مينا ، وتوحدت مصر منذ ذلك التاريخ البعيد حتى اليوم . وشهدت مصر خلال

هذه الحقبة الكثير من المعارك ، وكان الجندى المصرى أول من استخدم وسائل التمويه وقد برع فى فن الكمائن ، وكانت اجهزة المخابرات الفرعونية ذات مستوى عال فى مجالى الاستطلاع وتجميع المعلومات عن الأعداء ، والطريف أن كلمة (نفر) التى تطلق احيانا على الجندى ، هى أصلا كلمة فرعونية (نضرت) ، وكانت تطلق على الجندى ومعناها الشاب الصالح(١).

وهكذا يتضح لنا أن الانسان المصرى هو مخترع فن القتال على مستوى الجيوش المنظمة ، فكيف يطلق جزافا أن الانسان المصرى غير مقاتل .

٢ ــ يتمسك المصرى بأرضه ووطنه حتى الموت ، وتمثل الوطنية بعدا اساسيا فى الشخصية المصرية ، ولا أدل على ذلك من أن المصريين لم يحترف منهم احد القتال بغرض القتال فى حد ذاته ، ولم ينخرط بعضهم فى جيش دولة أجنبية كمرتزقة ، فلم يعرف التاريخ المصرى لطويل هذه الظاهرة ابدا ، انما كان المصرى يحمل السلاح دائما للدفاع عن الوطن او للخروج فى حملات تستهدف مطاردة بعض الغزاة وتأمين البلاد (٢) .

٣ ــ وفى حالة هجوم الأعداء ، يهب الشعب المصرى كرجل واحد للدفاع عن الوطن ، وهكذا لا يتحمل الجيش وحده مسئولية القتال ، انما يهب أهل البلاد جميعا ، سكان المدن وسكان الريف ، وسكان الصحارى ، الرجال والنساء ، الكبار والأطفال ، لدفع الخطر وتتكرر تلك الوقفة الجماعية التعاونية فى جميع حالات الغزو . سواء كان المعتدى من الهكسوس او الفرس أو اليونانيين أو التتار ، الصليبيين ، العثمانيين ، الفرنسيين ، الانجليز ، الاسرائيليين ، ان الصورة التى يمدنا بها التاريخ عن هبة الشعب المصرى فى عهد الملك بيبى تتشابه مع اسلوب المصريين عندما تصدوا للعدوان الثلاثى على مدينة بور سعيد الباسلة عام ١٩٥٦ ، وعندما تصدوا للهجوم الاسرائيلى على مدينة السويس البطلة عام ١٩٧٣ ، الكل يدافع عن الوطن ، الكل يتسابق للاستشهاد فى سبيل الله والوطن ، يدل هذا التلاحم الشعبى فى القتال على تأصل بعد الوطنية والفداء عند المصريين ، ولا يقتصر هذا التلاحم الشعبى فى القتال على التاريخ القديم والتاريخ الحديث لمصر وانما كذلك فى التاريخ الوسيط ، فى عهد المماليك خرج المصريون لرد الخطر المغولى وتم الانتصار فى موقعة عين جالوت ، وتصدوا لجيش لويس التاسع فى دمياط والمنصورة وطاردوا الصليبيين فى الشام ، وجدير بالاشارة هنا الى ان الجيوش المملوكية التى كانت تخرج لمحاربة التتار أو الصليبيين أو للجهاد

---

(١) جمال الغيطانى : المصريون والحرب ـ روزاليوسف القاهرة ١٩٧٤ ، ص ١٣ ، ١٤ .

(٢) المرجع السابق ص ١٦ .

تعتبر جيوشا مصرية خالصة ، وذلك لأن هؤلاء المماليك كانوا ينشأون فى مصر ، ويندمجون فى الشعب المصرى ويصبحون من اهل مصر . وعندما خرج السلطان الغورى عام ١٥١٧ م على راس الجيش ليدفع الخطر العثمانى، خرج الفقهاء والمشايخ يقرعون القرآن ، والتف أفراد الشعب حول طومانباى، وكانوا يحملون الذخيرة ويحفرون الحفر لتستقر فيها المدافع ، وكانوا يلتفون حوله داخل القاهرة نفسها ، وهو يبذل الجهد لمقاومة العثمانيين ، وتزخر كتب الجبرتى وابن اياس بمقاومة الشعب المصرى للمحتلين الأجانب ، وهكذا. لم تكن حياة الشعب المصرى جبنا واستسلاما وخضوعا كما ارادت الدعاية الصهيونية ان تصورها بعد هزيمة عام ١٩٦٧ .

٤ ــ واذا بحثنا عن أدلة لتأصيل خاصية الفداء فى الشعب المصرى ، نجد ان صفحات تاريخ مصر مليئة بملاحم الفداء ، فاليوم تملأ قصص البطولة والاستشهاد صفحات الصحف والمجلات والكتب ، ولا تزال وقائع اقتحام قناة السويس وخط بارليف حية فى الأزهان ، واذا رجعنا قليلا الى الوراء ، عندما قام الشعب المصرى بالثورة العرابية عام ١٨٨٢ ، نرى صفحة أخرى مشرفة لخاصية الفداء والاستشهاد ، وتروى تلك الصفحة بطولات الجنود المصريين بقيادة الأميرالاى محمد عبيد فى التل الكبير ، اذ فاجأ الانجليز حامية التل الكبير بهجوم شامل ، فصحا المصريون من نومهم ليجدوا الانجليز بين خيامهم يعملون فيهم النار والقتل ، واستشهد من المصريين فى هـــذه الليلة عشرة آلاف ، فى جو الهزيمة تبرز بطولة محمد عبيد ، الذى نصب العلم المصرى فوق مرتفع من الأرض وجمع الفيلقين اللذين كانا يراسهما ، وكان عددهم ثلاثة آلاف مقاتل ، صوب الانجليز عليهم المدافع ، واخذ الجنود يستشهدون واحدا بعد الآخر ولم يبق الا هو ، نفدت ذخيرته فرمى الأعداء ببندقية ، وعندما فاضت روحه كان ممسكا بالعلم المصرى الذى هوى معـــه مبللا بدمه فوق التل الكبير (١) .

٥ ــ خلال الشهور الأولى عام ١٩٧٠ ، برز وجه رائع من وجـــوه بطولة الانسان المصرى ، وعظمه فى جبهة القتال بقناة السويس . خلال هذه الشهور جاء العمال المصريون من اطراف الصعيد البعيد ، من القرى النائية من الريف ، جاءوا ليشتركوا فى بناء قواعد الصواريخ المضادة للطائرات ، كان لابد من اقامة هذه القواعد فى الجبهة مهما كان الثمن . وكان السباق مروعا ، من ناحيتنا لابد من الانتهاء منها بسرعة ، ومن الناحية الأخرى كان العدو يركز كل قواه الجوية بجنون وبعصبية لمنع اقامة هذه القواعد . تدفق الفلاحون من القرى لمعاونة رجال الجيش فى اقامة تلك القواعد ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٣ .

وكانوا يعرفون تماما ما ينتظرهم ، فعدد غير قليل مضى الى هناك ، ولم يرجع ، سقطوا شهداء فوق الرمال ، مع هذا كانت طوابير الرجال تمضى فوق الجسور الواقعة خارج القرى ، النساء والأطفال يودعونهم ومنهم من اصطحب طفله معه ، وبرغم تساقط الشهداء ، استمر العمل ، وتم بناء القاعدة الصاروخية الضخمة . هنا تبرز أهم عوامل الأصالة التى تشكل الشخصية المصرية ، البساطة ، التضحية ، الشجاعة (١) .

المحددات الثقافية :

١ ــ ترجع هذه الوطنية العارمة الى تدين الشعب المصرى ، فان شدة ايمانه بمعتقداته الدينية جعلته يدافع عنها حتى الموت ، ففى مصر الفرعونية . كان فرعون الاله هو قائد الجيوش ، ولذلك كانت أوامره فى الدفاع عن الوطن أوامر الهية ، ولذلك كان المصرى ينفذها بدون تردد وبحماس صوفى يهون فيه الموت والاستشهاد . وعندما دخلت المسيحية مصر ، كان الأقباط شديدى الايمان بمعتقداتهم الدينية ، وتحملوا اضطهاد الرومان لهم ولم يغيروا عقائدهم الدينية وفى ذلك يقول الأنبا غريغوريوس :

« ومن هنا أيضا كان بروز المصريين فى الاستشهاد ، أن اباطرة الوثنيين كانوا يرون المصريين اكثر الشعوب عناداً واصراراً . وذلك اختصوهم بنصيب أوفر من العنت والاضطهاد .. وأقسم ديوقلديانوس بآلهته الوثنية ، انه سيعمل بسيفه فى رقاب المسيحيين تشفيا وانتقاما وحقدا ، وأنه لن يكف عن ذبح المسيحيين بيده ، حتى تغوص سنابك جواده فى بحر من دماء المسيحيين . وقد جاء فعلا ، وبر بما وعد وتوعد . ولذلك نعت المؤرخون اضطهاده ، باكثر جميع الاضطهادات عنتا وعنفا . وبدأ الاقباط بالسنة التى ارتقى فيها عرش الامبراطورية حلقة جديدة من تاريخهم المصرى القديم ، عرفت فى التاريخ المصرى بتاريخ الشهداء وفيه تبدأ السنة القبطية » (٢) .

واستمر هذا المفهوم الخاص بالاستشهاد فى سبيل الله ودفاعا عن الوطن والدين فى الاسلام ، فحين اعتنق المصريون الاسلام ، وجدت تلك العقيدة أرضا طيبة ونفوسا متلهفة للاستشهاد ، والقرآن الكريم يكرم الاستشهاد صراحة ، فتقول الآية الكريمة : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون » . ويقرر الاسلام كذلك أن « لكل أجل كتاب » ، فيحارب المسلم وهو يعلم أن اجله مكتوب ، وبالتالى يحارب بشجاعة ، لأن الجبن والتخاذل لن يؤخرا موعد اجله .

---

(١) المرجع السابق من ص ١٦٢ الى ص ١٦٥ .

(٢) الانبا غريغوريوس : مقدمة كتاب : ملامح الشخصية المصرية فى العصر المسيحى ــ روزاليوسف ــ القاهرة ١٩٧٣ ، ص ١٠ ، ١١ .

يتضح مما سبق استمرار قوة الايمان بالمعتقدات الدينية فى الشعب المصرى ، واهتمام الأديان التى اعتنقها المصريون بالاستشهاد فى سبيل الدين والوطن ، وهكذا تبعث الوطنية والفداء من قلوب المصريين المؤمنة بدينهم كنوع من العبادة ، وليس فقط كواجب وطنى .

٢ — يقول الأستاذ الكبير عباس العقاد اننا لو احصينا الثورات فى تاريخ مصر القريب ، لما كانت فى عددها دون ثورات الأمم التى اشتهرت بالتمرد ولم تشتهر بالاستسلام ، ويرى أن تلك الثورات ترجع للعقيدة والموروثات بصورة اقوى من رجوعها للمصلحة والمرافق القومية أو الفردية . ويرى ان قدم عهد المصريين بالمدينة ترتب عليه حب الأسرة والاستقرار ، وهنا يشير الى التناقض فى ابعاد الشخصية المصرية بين شدة محافظة المصرى على تقاليده وموروثاته وكثرة ثوراته ، ويرى أن هذا التناقض هو تناقض ظاهرى ، وذلك لان شدة محافظته على تراثه يجعله مستعدا للثورة بهدف المحافظة على تلك الموروثات والتقاليد ، « وقد يبدو غير معقول فى ثورته وهياجه لأن العهد بالناس أن يستغربوا الثورة من المحافظين المقلدين ، ويزيدهم استغرابا لها الا يجدوا تفسيرا لها من خوف الضرر على المصالح والمنافع فيقولون مدهوشين ، امثل ذلك الشعب الوادع المستقر يثور لمثل هذا الضرر اليسير أو لغير ضرر على الاطلاق ، والواقع أن الذى يثور غالبا هو المحافظ المغرق فى المحافظة ، لانه لو فرط فى محافظته ينسى المصلحة فى سبيل العادات » (١) ، وهكذا يقدم لنا الأستاذ العقاد تفسيرا ثقافيا واضحا لجمع الفلاح المصرى بين الاستقرار والثورة فى شخصية واحدة .

٣ — الارتباط الشديد بالأرض ، يرتبط الفلاح المصرى عاطفيابأرضه، مصدر الحياة ، ومثوى الأجداد ، ومنبع الأمان والاستقرار ، ومكان لقاء الأقارب والاحباب ، ولذلك يحب الفلاح المصرى ارضه ، ويخاف عليها كما يخاف على عرضه ، ويدافع عن قيراط ارضه أو عن حقه فى رى ارضه أو عن محصول ارضه بكل ما أوتى من قوة ، بل قد يجود بحياته راضيا من اجل ارضه . يفسر هذا الارتباط العاطفى بالأرض شدة وطنية الفلاح المصرى ، وهناك ادلة كثيرة على الارتباط الشديد بأرض الوطن ، منها أن الفلاح المصرى لم يهاجر فى صورة جماعية برغم عمليات الاضطهادوالتعذيب التى تعرض لها من الملوك الطغاة والاقطاعيين والمستعمرين المستغلين ، فخلال تاريخ مصر الطويل ، لم تحدث اى هجرة جماعية الا فى عهد محمدعلى ، وفى ايامنا هذه عندما هاجر الفلاح المصرى من حقول منطقة القناة فى فترة التهجير ، وقد تعرضت تلك المنطقة لكثير من الأهوال والدمار بسبب المعارك

---

(١) عباس العقاد : سعد زغلول — المقدمة — القاهرة ١٩٤٥ .

الحربية التى لم تهدأ لعدة سنوات ، وعندما حدثت الثغرة ، رفض الفلاح المصرى ترك ارضه برغم وجود الجنود الاسرائيليين وبرغم الجرائم البشعة التى اقترفوها فترة تواجدهم ، « ان الارتباط بالأرض نتاج طبيعى للوضع التاريخى والجغرافى والحضارى لمصر ، فاذا ما أراد عدو أن يزحزح الانسان المصرى عن ارضه ، الى اين يذهب ، ليس حوله الا الصحراء من كل جانب ، حيث الجدب والموت ، اذن فاما ان يموت شهيدا فوق أرضه ، أويبقى» (١).

يشعر المؤلف ان الحماس الوطنى وفرحة الانتصار قد اثرا فى عرض هذا البعد من الشخصية المصرية ، مما يجعلنا فى حاجة الى عرض بعد آخر لا يتسم بتلك الصبغة الوردية وهو بعد الازدواجية ، وللأسف أن الدراسات التى بحثت هذا البعد ، قد صبغت بنزعية تشاؤمية وهى النزعة التى سادت دراسة الشخصية المصرية والعربية بعد هزيمة عام ١٩٦٧ .

رابعا ــ الازدواجية :

شرح د . حسن حنفى تلك الخاصية فى مقالة قيمة ، وحدد مظاهرها فى أربعة جوانب ، الازدواجية بين الانشاء والاخبار ، وبين القول والاعتقاد، وبين القول والعمل ، وأخيرا بين الداخل والخارج . يقصد بالازدواجية بين الانشاء والاخبار اننا كثيرا ما نفكر ويكون تفكيرنا تعبيرا عن تمن لا اخبارا بواقع ، ولذلك فقد الخبر قيمته لانه يعبر عن الواقع ، حتى فقد تأثيره وأهميته . ويتمثل المظهر الثانى من مظاهر الازدواجية فى الفصل بين القول والاعتقاد ، فنحن نقول مالا نعتقد ، ونعتقد مالا نقول حتى لقد اصبحت النصيحة الشائعة هى أن نردد ما يعتقده الآخرون . وتبدو الازدواجية فى مظهر ثالث ؛ فكثيرا ما نصرح بشىء ولا نعمله ، ونعمل شيئا لا نصرح به، حتى لقد اصبح القول ميدانا خاصا تتحقق فيه المنجزات ، ويجمع المظهر الرابع ؛ وهو الأزدواجية بين الداخل والخارج ، المظاهر الثلاثة السابقة (٢) .

ويشبه تركيز د . حسن حنفى على سمة الازدواجية فى الشخصية المصرية ــ تركيز د. حامد عمار على سمة «الفهلوية» ، وهى سمة عامة يندرج تحتها عدة سمات خاصة ، ويحدد د . حامد عمار الشخصية الفهلوية بست سمات أساسية ؛ وهى أولا ، القدرة على التكيف السريع لمختلف المواقف ، وادراك ما تتطلبه من استجابات مرغوبة والتصرف وفقا لمقتضياتها

---

(١) جمال الغيطانى : المصريون والحرب ــ روزاليوسف ــ القاهرة ١٩٧٣ ــ ص ٣٩ .

(٢) د. حسن حنفى : التفكير الدينى وازدواجية الشخصية ــ مجلة الفكر المعاصر ــ ابريل ١٩٦٩ من ص ٥٨ الى ص ٦٣ .

الى الحد الذى يراه مناسبا ، وتتميز تلك القدرة بجانبين متلازمين ، وهما المرونة ، والفطنة ، والقابلية للهضم والتمثل للجديد والمسايرة السطحيـه والمجاملة العابرة التى يقصد منها تغطية الموقف وتورية المشاعر الحقيقية ، مما لا يعنى الارتباط الحقيقى بما يقوله المرء أو بما قد يقوم به من مظاهـر سلوكية ، وهنا تطابق بين هذه السمة وسمة الازدواجية بين القول والعمل، اما السمة الثانية فهى النكتة المواتية التى غدت من الخصائص التى يتميز بها النمط المصرى ، والسمة الثالثة هى المبالغة فى تأكيد الذات والميل الملح الى اظهار القدرة الفائقة والتحكم فى الأمور ، والسمة الرابعة هى سيادة نظرة رومانتكية للمساواة ، حيث يشعر المصرى فى قرارة نفسه بالنقمة والسخط على الأوضاع التى توجد التمايز والتفرقة أيا كان نوعها ، ومهما تكن دوافعها ومبرراتها ، والسمة الخامسة هى الطمأنينة الـى العمـل الفردى وايثاره على العمل الجماعى ، والسمة السادسة والأخيرة هى سيادة الرغبة الوصول الى الهدف بأقصر الطرق واسرعها ، وعـــدم الاعتراف بالمسالك الطبيعية (١) .

ومن أهم المعدات النفسية التى تتزود بها شخصية الفهلوى هىعملية «الازاحة والاسقاط » ، وبفضل ازاحة المسئولية عن غيره من الناس أو اسقاطها على أمور خارج نطاق الذات يسهل تبرير ما قد يقع فيه المـرء من مواقف محرجة ، أو تقصير فى المسئوليات الاجتماعية ، وتزداد الفهلوة بازدياد القدرة على احكام هذه العملية الازاحية والاسقاطية ، ويجب ملاحظة أن هذا التصور الذى وضعه د . حامد عمار لا يخرج عن كونه « فرضا » يحتاج الى مزيد من المناقشة واستكمالالأدلة التى تثبته أو تدحضه ، واعتقدان الشخصية الفهلوية تنتشر فى الطبقة الوسطى من سكان المدن بصورة أقوى من انتشارها فى طبقة الفـلاحين ، ومما يـــؤيد ذلـك أن د . فؤاد مرسى (٢) قد حدد ملامح الطبقة البورجوازية الصغيرة بأنهـــا التردد والتقلب وضيق الأفق والهرب من الواقع .

الشواهد الثقافية :

١ ــ يشير د. حسن حنفى الى عدد من الأمثلة الشعبية للدلالة على وجود ازدواجية بين الانشاء والاخبار فمثلا : « مين يقرأ ومين يسمع » ــ

---

(١) د. حامد عمار : فى بناء البشر : دراسات فى التغير الحضـــارى والفكر التربوى ، منشورات سرس الليان ١٩٦٤ ، من ص ٧٩ الى ص ٩٠ .

(٢) د. فؤاد مرسى : البعد الاجتماعى للشخصية المصرية الحاضرة ــ مجلة الفكر المعاصر ــ العدد ٥٠ ــ القاهرة ١٩٦٩ ــ ص ٣٠ .

« نص الكلام مالوش جواب » — « يابو حسين اقرا الجواب ، قال مين يقرا ومين يسمع » — « زى البرابرة عشرة يتكلموا وواحد يسمع » — « كلمة تودينا وكلمة تجبنا »(١) — « كلمة باطل تجبر الخاطر » — « اقول طور يقول احلبه » — « اقول اغا يقول ولاده كام » — « كلمة بكرة زرعوهـا ما طلعتش » — « عصفور فى اليد ولا عشرة فوق الشجرة »(٢) .

٢ — وتوجد امثلة شعبية اخرى تؤيد وجود سمة الازدواجية بين القول والاعتقاد فى الشخصية المصرية ، فمثلا : « اكتم سرك تملك أمرك » — « يا قلب يا كتكت اسمع الكلام واسكت » — « ياعينى ان شفتى مارأيتى ، وان شهدوكى قولى كنت فى بيتى » — « ودن من طين وودن من عجين »(٢) .

٣ — ولا يخلو التراث الشعبى المصرى من بعض الامثلة الشعبية التى تعبر عن وجود سمة الازدواجية بين القول والعمل ، فمثلا : « يحلف لى أصدقه اشوف اموره استعجب » — « أسمع جعجعة ولا ارى طحنا » — « القد قد الفولة والحس حس الفولة » — «زى الكلب اللى ينبح ما يعضش » — « خد من كلام الشيخ ولا تاخدوش من أعماله »(٣) .

٤ — ومما يؤيد وجود الازدواج بين الداخل والخارج ، ظهور شخصيات شعبية تعبر عن تلك الازدواجية ، ومن امثلة ذلك شخصية « الفشار » وشخصية « الرغاى » وشخصية «المهياص » و « البكاش » و «أبو لمعة » و « غنى الحرب » ، كذلك يوجد الكثير من الأمثلة الشعبية التى تعبر عن تلك الازدواجية منها : « كثير النط قليل الصيد » « زى الحما فاضية ومشبوكة » « ما كان ناقص على ستى الا طرطور سيدى » — « زى الخيله الكدابة» — «زى بعجز اغا مافيه الاشنبات» — « الوش مزين والقلب حزين » — « ما كل لمن ركب الحصان خيال » — « يا ما تحت السواهى دواهى » — « اتمسكن لما تتمكن » — « كل راس مطاطية تحتها الف بلية »(٤) .

٥ — أسهب المؤرخون فى سرد بعض الخصائص عن المصريين تتفق مع سمة الازدواجية ، ومن امثلة ذلك ان المقريزى يذكر من بين الصفات التى تغلب على اخلاق المصريين : الدعة والجبن وسرعة الخوف والنميمة

---

(١) د. حسن حنفى : المرجع السابق ص ٥٩ .
(٢) المرجع السابق : ص ٦٠ .
(٣) المرجع السابق : ص ٦٢ ، ٦٣ .
(٤) المرجع السابق : ص ٦٣ .

والسعى الى السلطان ، ويقول ايضا ان للمصريين خبرة بالكيد والمكر (١) .

٦ ــ كثرة الحلفان بالله سبحانه وتعالى ، او بالطلاق من الزوجة ، بصورة غير جدية .

٧ ــ الزلفى للرؤساء فى العمل ، كثرة وتكرار الاحترامات والالفاظ المعبرة عن الترحيب بالزائرين والأصدقاء ، وكثيرا ما تعبر تلك الالفاظ عن واجب المجاملة وليس بما يجول فى نفس الشخص من مشاعر .

المحددات الثقافية :

يتفق الراى على ارجاع خاصية الازدواجية فى الشخصية المصرية الى الطغيان الاقطاعى والى فترات الاستعمار الطويلة ، والى اساليب التعذيب الوحشية التى تعرض لها الفلاح المصرى لمئات السنين ، وفى هذا المعنى يقول د. جمال حمدان : « ولهذا فان لصفات والمزايا الأخلاقية التى يجدر بالبيئة الفيضية ان تعلمها ــ وعلمتها بالفعل حينا ــ لم تلبث أن انحرفت تحت البطش والطغيان الاقطاعى فى ظل انتخابه الاجتماعى المعوج الـى نقائضها . فالنظام والقانون اصبحا جبنا واستكانة وشاية او سلبية ، وروح التعاون التى تربط السكان أصلا ضد « العنصر » تحولت الى المحسوبية والمحاباة كما انقلبت الى الآخذ بالثار واما المزاج الانطلاقى الذى غذته بيئة القرية النووية فتدهور الى تزلف ورياء وسعى لدى السلطان ، وكذلك الى روح السخرية المريرة المشهورة » (٢) . « كان الاقطاع هو القاعدة الأصولية والاستغلال المطلق هــو الأمر اليومى ، ولقــد كانت السخرة والكرباج والتعذيب من وسائل الارهاب منذ الفراعنة ، وحتى العثمانيين وكانت تتدرج على كل المستويات ابتداء من الحاكم خـلال الباشا والعمدة حتى الخفيـر النظامى »(٣) « لا يعرف تاريخ مصر من ينكر أن الطغيان والبطش من جانب والاستكانة والزلفى من الجانب الآخر هو من أعمق وأسوأ خطوط الحياة المصرية على مر العصور ، فهى فى أحقيقة النغمة الحزينة الدالة .. فى دراما التاريخ المصرى » (٤) .

يتضح لنا مما سبق ان البناء الاجتماعى للمجتمع المصرى التقليدى كان يتميز بطبقة ملكية طاغية وطبقة ارستقراطية اقطاعيــة يسندهــا جهــاز

---

(١) المقريزى : الخطط ــ جـ ١ ص ٧١ ، ٨٨ .

(٢) د. جمال حمدان : شخصية مصر : دراسة فى عبقرية المكان ، كتاب الهلال ــ القاهرة ١٩٦٧ ص ٥٨ .

(٣) المرجع السابق ص ٦٥ .

(٤) المرجع السابق ص ٧٢ .

بيروقراطى ضخم ، وطبقة عريضة من الفلاحين الفقراء ، وكانت الطبقة الوسطى المتمثلة فى ارباب المهن والحرف صغيرة الحجم ، ولذلك لم تؤثر فى النمط العام للعلاقات بين طبقات المجتمع ، وهو نمط الاستغلال والاستبداد، ويساعد الاستغلال والاستبداد على انتشار سمة الازدواجية فى شخصيات الفلاحين ، « ولم يكن من العسير على الطبقة الحاكمة والمستغلة أن تجد من بين أفرادها ومن الانتهازيين من جماهير الشعب من يتولى عملية الدفاع عن هذه الأوضاع وتبريرها . والأغنية « الطريقة » التى تقول « محلاها عيشة الفلاح مطمن قلبــه ومرتاح الشكوى عمره ما قلهــاش أن لاقى ولا ملقاش » ، هى مثال من أمثلة عديدة على الدور الخطير الذى لعبــه المثقفون التقليديون فى تخدير الفلاح المصرى وقتل روح التمرد والقدرة عليه ، وبالتالى تمكين الطبقة المستغلة منه »(١) .

يسود الريف المصرى التقليدى نظام الأسرة الممتدة ، وهى الأسرة التى تتكون من الأب وزوجته أو زوجاته وأبنائه الذكور وزوجاتهم واطفالهم وبناته غير المتزوجات ، وتكون الأسرة الممتدة وحدة اقتصادية متعاونة ، ويكون مؤســس الأسرة الممتدة اذا كان حيــا هـــو رئيس ومنظم تلــك الوحدة الاقتصادية ، وكثيرا ما يتمتع هذا الأب بسلطــات واسعــة على أبنائــه وعائلاتهم ، ولذلك يسمى هذا الشكل للاسرة باصطلاح « الأسرة الأبويــة الكبيرة » ، ويقوم الأب بادارة كل الأنشطة الاقتصادية والاجتماعيــة فى الأسرة مثل زراعة الحقول وتوزيع العمل ورعى القطعان واختيار الزوجات لأبنائه ودفع مهور تلك الزوجات ، ويتمتع الأب هنا بسلطات مطلقة ، وعلى الأبناء والبنات احترامه والخضوع وامره بدون مناقشة ، وطالما كان الأب حيا فان الأبناء لا يستطيعون تكوين ثروات شخصية ، وعندما يموت الأب يرث الابن الأكبر مركز والده القيادى ولكن بصورة محــدودة(٢) . تلعب السلطات المطلقة التى يتمتع بها الأب فى نظام الأسرة الممتدة دورا هاما فى تكوين اتجاهات الازدواجية فى الشخصية عند الأطفال الذين يخافون الأب الحاكم المطلق فى الأسرة .

عانى الفلاح المصرى من الفقر والحرمان الاقتصادى لقرون طويلة من الزمان . . وخاصة أن الغالبية العظمى من الفلاحين اجراء وليسوا ملاك أرض - وتملك الاقلية منهم مساحات صغيرة من الأرض يتقاسمها الابناء بعد

---

(١) د. عزت حجازى : الشخصية المصرية بين السلبية والايجابية ــ مجلة الفكر المعاصر ــ القاهرة ١٩٦٩ ص ٤٥ .

(٢) د. عاطف وصفى : الأنثروبولوجيا الاجتماعية ــ دار المعارف بمصر ــ القاهرة ١٩٦٧ ص ١٣١ .

موت الأب ، ومن المتوقع ان يساعد الحرمان الاقتصادى المستمر على انتشار اتجاهات النفاق والرياء والخوف والزلفى ، وهى من مظاهر ازدواجية الشخصية . ويعطى الأستاذ محمود رجب فى بحثه عن الشخصية المصرية اهمية كبرى لعامل الفقر ، ويعتبر الفقر عنصرا اساسيا من عناصر اغتراب الانسان المصرى ، ويقول : « لقد تغلغل الفقر فى جوانب كثيرة من الحياة المصرية ، لدرجة دفع معها احد علماء الدين الى ان يؤلف كتابا يحلل فيه ظاهرة الفقر والفقراء ، والكتاب عنوانه : الفلاكة والمفلكون ، نشر سنة ١٣٢ هجرية ، وان يكن قد الف قبل هذا التاريخ « والفلاكة » ــ فى نظره يلزمها القهر والاكراه ، (ومتى استولى القهر والغلبة على شخص ، حدثت فيه أخلاق رديئة : من الكذب وفساد الطوية ، والخبث والخديعة ، وثمة آفات نفسية تنشأ من الفلاكة ، لعل أهمها واخطرها الحقد الذى يعوق المفلوك عن أعماله ، فيصير الما صرفا ، وسواسا سوداويا ، ومعصية مجردة) ص ١٥ » (١) .

ويشير الأستاذ رجب الى بعض الأمثلة الشعبية التى تمجد الفقر ، مثل « الفقر حشمة » ، والتى تذم الدنيا الفانية مثل « نضربها طبنجة » ، وفيما يتعلق بالخضوع للحكام ، يذكر المثلين العامين : « فان كنت فى بلد يعبدوا الجحش ، حش وارمى له » و « ارقص للقرد فى زمانه » وتسود النزعة التشاؤمية هذا البحث ، وهى النزعة التى سادت معظم المؤلفات بعد هزيمة عام ١٩٦٧ ويتضح ذلك من قول الباحث : « لقد عاش الانسان المصرى الشقاء وتجسده ، وشعوره به لم يمس سوى ادراكه العادى العام ، ولكن لم يتحول هذا الشعور بالشقاء الى وعى جارف يدفعه اما الى العبقرية أو الجنون . ان رد الفعل ، رد فعل الانسان المصرى على العصر البائس الذى يعيش فيه يتمثل فى قولته الموجزة : (هذا زمن اغبر) ، كأنما هى بصقة أو لعنة يقذفها فى وجه الوضع الفاسد وكفى الله المؤمنين القتال » (٢) .

خامسا ــ الحزن والفكاهة :

يتفق معظم دارسى الشخصية المصرية على أن الحزن من أهم ملامحها ، ويستنتجون وجود تلك الخاصية من تحليل الكثير من عادات وتقاليد وطقوس الشعب المصرى ، وكذلك من الفولكلور المصرى وخاصة الغناء العاطفى ، ويرى البعض أن المصرى يشعر فى أعماقه بالاكتئاب الذى هو طابع مزاجه

---

(١) محمود رجب : نحن وظاهرة الاغتراب ــ مجلة الفكر المعاصر ــ العدد ٥٠ ــ القاهرة ١٩٦٩ ص ٨٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٦ .

الدائم ، وانه يشعر بالقلق اذا استمتع « خلسة » بالحياة ولو للحظة ، ولهذا يعبر المصرى عن قلقه عندما تغمره السعادة والنشوة بترديد عبارة « اللهم اجعله خير » (١) . ونحن اذا حزنا نبكى ونبكى كذلك اذا فرحنا ، ونحن نضحك بصوت عال . وقليلا ما نبتسم ، « واذا فرحنا ، واذا كنا نبكى ، نبكى كذلك بصوت عال ، ونحن نحزن كثيرا ولكن قليلا ما نغضب .. ونحن اذا غضبنا .. فان العواطف الجياشة تملأ صدورنا وتشل تفكيرنا الموضوعى .. وحتى اذا غضبنا فسرعان ما نصفوا .. فغضبنا كالبرق اللامع » (٢) هل نفهم من ذلك اننا شعب عاطفى ؟ أم أننا شعب منفعل ؟ أم أننا شعب عاطفى منفعل فى الوقت نفسه ؟ ان هذه التعميمات غير الدقيقة تحتاج الى دراسات من المتخصصين فى علم النفس لتوضيحها ولصياغتها فى أسلوب علمى دقيق .

ويتفق الراى كذلك على ان الشعب المصرى يحب الفكاهة ، وتشغل النكتة مكانا هاما فى التراث الشعبى المصرى ، لذلك اشتهر الشعب المصرى بانه اكثر الشعوب العربية ، وربما اكثر شعوب العالم تنكيتا ، والنكتة سلاح ، يستخدمه الفلاح المصرى فى الرد على مستغليه من المستعمرين والاقطاعيين ، وهو سلاح يسهل اخفاؤه ، وكذلك تنتشر النكت السياسية والاجتماعية فى أوقات الأزمات والنكسات ، وفى التندر على الحكام الطغاة مثل قراقوش والحاكم بأمر الله ، وتضعف فى فترات الرخاء والانتصار ، ويرى البعض أن النكتة هى الوسيلة التنفيسية التى يعبر بها الفلاح المصرى عن سخطه وغضبه وسخريته من مستغليه . « ولعل هذا يفسر ما بدا لأحمد أمين غريبا من (أن اشد الناس بؤسا واسواهم عيشة واقلهم مالا واخلاهم يدا أكثر الناس نكتة » .. « وكأن الطبيعة التى تداوى نفسها بنفسها رات البؤس داء فعالجته بالنكتة دواء) » (٣) .

وقد يتبادر الى الذهن أن هناك تعارضا ، كما يبدو من العبارة السابقة ، بين بعد الحزن وبعد الفكاهة فى الشخصية المصرية ، ولكن الدراسة التحليلية للنكت المصرية ، وخاصة السياسية والاجتماعية منها ، تبين أن هذه النكت ، برغم قوة تأثيرها فى اضحاك المستمع اليها لدرجة جعلت القهقهة العالية من سمات المصريين تقوم بوظيفة تنفيسية بجانب وظيفتها الفكاهية ، فهى تعبر عن شدة الألم والحزن الذى يشعر به المصرى فى فترات الطغيان والاستبداد والهزائم ، فان هذا التعارض بين الحزن والفكاهة هو تعارض ظاهرى ، لأن الحزن الشديد هو سبب اطلاق النكت

---

(١) د. عزت حجازى : الشخصية المصرية بين السلبية والايجابية ــ ص ٤٨ .
(٢) د. سيد عويس : ظاهرة الموت .. فى حياة المصريين .. ص ٧١ .
(٣) د. عزت حجازى : الشخصية المصرية بين السلبية والايجابية ــ ص ٤٨ .

القوية ، ومما يؤيد هذا الفرض قلة تداول النكت فى فترات الرخاء والانتصار، ونحن فى اشد الحاجة الى الاكثار من الدراسات الخاصة بتدوين النكت المصرية وتصنيفها وتحليلها ودراستها دراسة علمية ، وذلك لأن النكت تشغل مكانا بارزا فى الأدب الشعبى المصرى .

الشواهد الثقافية :

١ ــ يعبر الغناء المصرى ، سواء كان شعبيا أو رسميا ، على تأصيل خاصية الحزن فى الشخصية المصرية ، وذلك لكثرة الأغانى العاطفية التى تعبر عن الحرمان وهجر الحبيب واستحالة الوصال وسهر الليالى والأرق فى التفكير فى الحبيب ، هذا بالاضافة الى كثرة استخدام لفظ « الليل » الذى يعبر عن الظلام والحزن و « العين » التى ترمز للدموع التى تذرف ، وكثرة « الآهات » فى الأغانى المصرية ، وتجمع الأغانى بين كلمة « الليل » وكلمة « العين » معا فى عبارة واحدة ، وتنتشر تلك العبارة فى معظم الأغانى الشعبية والرسمية .

٢ ــ تتضح خاصية الحزن فى طقوس وعادات الجنازات ، تتسم تلك الطقوس ، منذ القدم ، بالمبالغة فى التعبير عن مشاعر الحزن التى تملأ صدور المصريين عند وفاة الأقارب والأصدقاء . ويقول الدكتور سيد عويس فى هذا الموضوع : « لقد ابدع مجتمعنا نظما اجتماعية فريدة لهذه المناسبة ، نظما تنسق البكاء والصراخ والصوات .. نظما خلقت دور « المعددة » أو دور « الندابة » .. ودور « ضاربة الطار » نظما يعمل بها الأحياء عند وفاة الأقرباء وغير الأقرباء ، وبعد الوفاة ، وفى أثناء تشييع الجنازة أو عند الدفن وبعد الدفن ، نظما للتعزية . والعزاء .. الخ ، صحيح .. ان معظم هذه النظم غير ثابت ، وانه يتطور ، ولكنه باق لا يزال ، وصحيح انها بدع لا يقرها عقل أو دين ، ولكنها لا تزال باقية » (١) .

٣ ــ يرتبط اللون الأسود بمشاعر الحزن فى بلدنا ، ولذلك تلبس المراة المصرية ملابس سوداء لفترة معينة عندما يموت قريب لها أو حتى جار أو صديق ، واذا تذكرنا أن الجلباب الشعبى للفلاحة المصرية هو رداء أسود اللون ، يتضح لنا أن هذا الاختيار الشعبى التلقائى لهذا اللون قد يعبر ، بصورة لا شعورية عن مسحة الحزن التى تسود الشخصية المصرية .

٤ ــ يضفى المجتمع المصرى قيمة مرتفعة على نظام التعزية ، ولذلك ينسى المتخاصمون خصوماتهم فى حالة الموت ، ويسارعون الى تقديم العزاء ،

---

(١) د. سيد عويس : ظاهرة الموت ــ فى حياة المصريين ــ ص ٧١ .

وكثيرا ما تصفو النفوس بعد تقديم العزاء لأهل المتوفى . وفى الوقت نفسه تنشأ الخصومات بين العائلات والأفراد بسبب عدم احترام العادات المحلية المرتبطة بنظام التعزية .

٥ ــ وتعكس بعض الاقاصيص الشعبية والملاحم المصرية سمة الحزن والألم وتربطها بالصبر فى كثير من الأحيان ، ومن أمثلة ذلك القصص الخاصة بشخصية ايوب المصرى وهى شخصية المتألم الصابر ، وتعبر تلك الشخصية عن تصور المصرى لذاته .

٦ ــ يطلق الشعب المصرى النكات والفكاهات فى أحلك الاوقات وأشد الازمات ، واشتهر الانسان المصرى بخفة دمه واتقانه فن القاء النكتة ، حتى انه اذا سافر الى اى مكان فى العالم ، فان السؤال التقليدى الذى ينتظره دائما ، ما هى آخر نكته فى مصر ؟ واشتهرت مصر بالصحافة الضاحكة ، ومن اشهر ادباء الفكاهة فى الماضى القريب الاساتذة يعقوب بن صنوع وعبد الله النديم وحسين شفيق المصرى وعبد السلام شهاب ومحمد مصطفى حمام . وكانت الصحف الفكاهية من أكثر الصحف المصرية انتشارا ، مما يعبر عن حب الشعب المصرى للنكتة ، ومن أمثلة الصحف الفكاهية التى كانت منتشرة فى مصر الى عهد قريب السيف والناس والمسامير والف نكتة والمطرقة والكشكوك والفكاهة والاثنين والبعكوكة .

واليوم تلقى الافلام والمسرحيات الكوميدية اقبالا شديدا عند الشعب المصرى ، ويجب ملاحظة أن هذا البعد يتخطى الحواجز الطبقية وينتشر فى جميع طبقات الشعب المصرى ، ولا يقتصر وجوده على طبقة الفلاحين ، ولذلك يعتمد المؤلف على الشواهد الثقافية المكتوبة الخاصة بالطبقتين الوسطى والعليا .

المحددات الثقافية :

نعود هنا الى الظروف الاجتماعية والسياسية القاسية التى خيمت على الفلاح المصرى لآلاف السنين ، وهى الطغيان والاستبداد والاقطاع والاستعمار ، فمن الواضح أن تطبع تلك النظم الاجتماعية القاسية شخصية الفلاح المصرى بالحزن والألم ، وخاصة انه يرى ثمار جهده ينعم بها المستعمرون والسادة ، ولا يتركون له سوى الفتات « ولقد كانت مصر ، فى أواخر القرن السابع الهجرى ، تقسم الى أربعة وعشرين قيراطا ، أربعة للسلطان وعشرة للامراء ، وعشرة للجند ، ويتساءل الدكتور حسين فوزى الذى نقل الينا الحسبة أو المعادلة من ابن ايـاس : اين نصيب الشعب المصرى منها ؟ ويجيب : انه القيراط الخامس والعشرون ، ومكانه .. مملكة

السماء . لذلك ، غلب الفقر والاملاق على معظم المصريين وكثرت الأمثلة الشعبية التى تمجد الفقر بوصفه (حشمة) »(١) .

عانى الفلاح المصرى ، من استبداد المستعمرين والطغاة قرابة العشرين قرنا من الزمان ، فأولا : الفترة من عام ١٧٠٠ ق.م الى عام ١٥٥٥ ق.م ، وفيها احتل الهكسوس مصر ، وتعرض الفلاح المصرى لطغيان شديد من الهكسوس ومن حكم أسرات غير معروفة ، وثانيا الفترة من عام ٦٦٣ ق.م الى عام ٥٢٥ ق.م وفيها عمت الفوضى والخراب والدمار فى جميع ارجاء مصر ، وثالثا الفترة من ٥٢٥ ق.م الى ٤٠٤ ق.م ، وهى فترة الاستعمار الفارسى الأولى وما صاحبها من مظالم وافلاس للخزينة المصرية ، وفيها قام الفلاح المصرى بثلاث ثورات ، فشلت اثنتان منها ، ونجحت الثالثة بعد تدهور الحكم الفارسى ، ولكن عاد الاستعمار الفارسى مرة ثانية فى الفترة ما بين عام ٣٤١ق.م الى عام ٣٣٣ ق.م وعاث فى البلاد فسادا وخرابا . ورابعا ، فترة الاستعمار الاغريقى والبطلمى من عام ٣٣١ ق.م الى عام ٣١ ق.م فيها وصلت مصر الى الحضيض ، وتلى ذلك مباشرة فترة الاستعمار الرومانى من عام ٣١ ق.م حتى عام ٦١٨ ميلادية ، وتسمى تلك الفترة بعصر الشهداء ، اذ شهدت تلك الحقبة الطويلة من تاريخ مصر عملية انتشار الدين المسيحى فى مصر وما صاحبها من حملات الاضطهاد الرهيبة التى قامت بها الامبراطورية الرومانية ضد الشعب المصرى . واخيرا فترة الاستعمار التركى والاستعمار الفرنسى والاستعمار البريطانى ، وهى الفترة التى امتدت الى سبعة قرون من الزمان ، من عام ١٢٥٠ ميلادية حتى عام ١٩٥٢ ولا يجهل احد الوان العذاب التى لقيها الفلاح المصرى على أيدى الأتراك .

وهكذا عاش الفلاح المصرى طوال الفى عام ، وهو معدم ، لا يملك شيئا تقريبا ، ولا يعرف من السلطة أو الحكومة الا السخرية وتحصيل الضرائب وتعنت الموظفين وفظاظة رجال الشرطة ، ولا شك ان تلك المعاملة القاسية ، بالاضافة الى الفقر الشديد ، هى المسئولة عن انتشار مسحة الحزن فى القاعدة العريضة من الشعب المصرى أى فى طبقة الفلاحين .

واستخدام الفلاح المصرى كل الوسائل الممكنة للتخلص من تلك القيود التى فرضها عليه الاستعمار القادم من الخارج والاقطاع المتأصل فى الداخل، ومن تلك الوسائل الثورات الشعبية التى ترجع فى قدمها الى قدم أول ثورة شعبية عرفها التاريخ الانسانى ، لقد ثار الفلاح المصرى فى نهاية الدولة

---

(١) محمود رجب : نحن وظاهرة الاغتراب ، مجلة الفكر المعاصر ، العدد ٥٠ ، القاهرة ١٩٦٩ ص ٨٧ .

القديمة ضد النظام الاقطاعى ، وظلم الأمراء وجور الفراعنة ، واستمرت الثورة ما يقرب من مائة وخمسين عاما ، وتلى تلك الثورة ثورات وانتفاضات تزخر بها كتب التاريخ . وبالاضافة الى الثورات الشعبية ، يستخدم الشعب المصرى سلاحا آخر ، وهو النكتة اللاذعة ، التى يسخر فيها من مستعمريه ومستغليه ، بل ويسخر فيها من نفسه ومن السلبيات التى تعوق تقدمه . وهكذا فان النكتة المصرية ، كانت ولا تزال سلاحا شعبيا للمقاومة والاحتجاج ، ويستخدم الانسان المصرى هذا السلاح فى فترات الطغيان والهزائم ، واقرب الأمثلة الينا ، هذا السيل الجارف من النكت الذى انتشر بعد هزيمة عام ١٩٦٧ ، للتعبير عن راى الشعب فى السلبيات والأخطاء التى صاحبت تلك الهزيمة ، ولم يكن هناك وسيلة اخرى للتعبير عن راى الشعب. وجدير بالملاحظة ان النكت قد قلت واختفت تقريبا بعد تحقيق انتصارات اكتوبر عام ١٩٧٣ ، مما يدعم الافتراض القائل بأن ظاهرة النكت هى وسيلة تنفيسية ، يستخدمها الشعب المصرى للتنفيس عن آلامه وأحزانه ، وهكذا لا تقتصر وظيفتها على الأضحاك فقط ، « فمن المعروف فى سيكلوجية النكتة — كما فسرها فرويد بصفة خاصة — أن أحد الدوافع الأساسية فى خلق النكتة هو العدوان ، غير أنه عدوان مكبوت لأن التعبير عنه صراحة يثير الخوف والقلق ، ولذلك تخرج النكتة عن نحو يخدع الرقابة والقوى الكابتة. والنكتة حيلة يلجأ اليها الفرد فى المجتمع ليريح نفسه من عناء الواجبات الثقيلة ، ويتحلل بها من الحرج الذى توقعه فيه المسئولية . وهى فى أوقات الألم والضيق والمشقة تعبر عن رغبات الناس وآمالهم المكبوتة المكفوفة . والنكتة بالاضافة الى ذلك تقوم بوظيفة رفع اعتبار الذات واستعادة قدرها وقيمتها والاحساس بالكيان ، أو الاطمئنان على قدرة الذات واستعادة الثقة بهــــا » (١) .

سادسا — الكرامة :

يتميز الانسان المصرى ، وبصورة عامة الانسان العربى ، بالحفاظ على كرامته ، والدفاع عنها بكل ما أوتى من قوة ، ويشعر المصرى بحزن عميق عندما يخدش أحد كبرياءه ، أو عندما ينال من كرامته ، والكرامة مفهوم عام مجرد يشمل مجموعة من الابعاد الخاصة المحددة ، منها الحفاظ على ماء الوجه والحفاظ على العرض والشرف والمروءة والتعاون والكرم ، « فقد لا يكون فى العالم كله مجتمع آخر تمثل فيه قيمة (الحفاظ على ماء

---

(١) د. سعد المغربى : نزعة الابتعاد عن الواقع — مجلة الفكر المعاصر — العدد ٥٠ — القاهرة ١٩٦٩ ص ١٠٠ .

الوجه) ما تمثله فى شخصية المصرى والعربى بعامة . ويؤدى الخوف من التورط فى أخطاء قد تنال من « ماء الوجه » الى ممارسة المصرى لقدر من الضبط لسلوكه يبلغ فى احين كثيرة درجة الكف المرضى . ويؤدى الاحساس بالضعة نتيجة لحدوث ما يقلل من ماء الوجه الى اقدام المصرى على الانتحار فى بعض الأحيان » (١) ، والشعب المصرى شعب كريم ، يحترم الضيف ويرحب به ويقدم له الطعام والشراب ، ويحافظ الانسان المصرى على صلة المودة مع جاره ، ويقدم له العون فى الأزمات ، ويحترم المصرى كبار السن والنساء والأطفال ، ولذلك يتسامح اذا أصابه ايذاء أو مكروه من اى فرد ينتمى لهذه الفئات الثلاث ، ويشعر بالخزى والعار اذا فرطت الفتاة فى عرضها ، ولا يهدأ له بال الا اذا غسل هذا العار بالدم ، ولا يتردد الرجل المصرى فى قتل زوجته اذا خانته . وقد تطورت عادة الكرم عند الطبقات الغنية واصبحت بذخا وترفا ، وحاولت الطبقات الشعبية تقليدها فى هذا البذخ والترف حتى أصبح التفاخر والتظاهر من الظواهر المنتشرة فى المجتمع المصرى ، وتتجلى تلك الظواهر فى المناسبات الاجتماعية ، مثل الأفراح والمآتم والأعياد ، ففى تلك المناسبات ينفق المصريون ببذخ لا يتلاءم مع ميزانياتهم مما يؤدى الى الاستدانة أو بيع بعض ممتلكاتهم .

الشواهد الثقافية :

١ ــ تكثر الأقوال المأثورة التى تدعو للتعاون والكرم والمروءة ، ومن امثلة ذلك : اللى ياكل لوحده يزور ــ اللقمة الهنية تكفى مية ــ أيد على أيد تساعد ــ ايد على ايد ترمى بعيد ــ من قدم السبت يلقى الحد قدامه ــ خادم الناس يلاقى الناس خدامه ــ احسن لجارك ولو اساءك ــ اختار الجار قبل الدار ــ النبى وصى على سابع جار ــ الجار أولى بالشفعة ــ حبيب ماله حبيب ماله وعدو ماله عدو ماله .

٢ ــ وتوجد بعض الأمثلة الشعبية التى تعبر عن تقاليد توقير السن ، ومنها : احترم أبوك ولو كان صعلوك واحترم كبيرك يحترمك صغيرك . وفى رثاء الأب المتوفى يقولون : بابك كبير يابا وسلمه كويس .. صبح البيت بعدك بلا ريس . وفى رثاء الأم المتوفاة تقول النساء : يا امه يا طرحتى الزيتى .. يا سائله على يا امه وانا فى بيتى ، وأن عييت يا امه ابعتى لنــا جواب .. والله المطلة يا امة من الولايا ثواب .

٣ ــ ان كراهية الشعب المصرى للسلطة تعد من الشواهد الثقافيــة على اعتزاز الانسان المصرى بكرامته ، فطوال هذه القرون التى تعرض فيها

---

(١) د. عزت حجازى : الشخصية المصرية بين السلبية والايجابية ــ ص ٤٧ .

لاقسى الوان الاستغلال والقهر ، لم يخضع الشعب المصرى للطغاة والاقطاعيين ، بل قاومهم واحتج على سوء معاملتهم ، فقام بالثورات الشعبية ، وقدم الشهداء بسخاء فى سبيل وطنه وارضه ، واستخدم وسيلة النكتة اللاذعة للتعبير عن سخطه ، والى جانب ذلك كان يكره ويحتقر السلطة ، وكان يعبر عن تلك الكراهية بانماط سلوكية متعددة ، فمثلا ، مقاومة كثير من المجتمعات المحلية لسلطة الحكومة المركزية ، وعزوفها عن الالتزام بقوانينها ؛ ويتضح ذلك فى استمرار عادة « الأخذ بالثار » فى كثير من القرى المصرية ، فقد احس الفلاح المصرى أن العدالة كما تعرفها الدولة وتنفذها هى عدالة عاجزة عن ان تستوعب حقوقه ، لأن القانون اداة ارهاب وقهر فى يد المستعمرين والاقطاعيين . وان عزوف الفلاحين حتى فى عهد قريب عن ارسال أولادهم للتجنيد فى « جيش السلطة » لأبلغ دليل على شدة كراهيتهم للحكومات الظالمة المستغلة ، وخاصة انهم كانوا يدركون أن الخدمة العسكرية كانت الى عهد قريب مقصورة على ابنائهم فقط ، لأن الأغنياء ومتوسطى الحال كان فى مقدورهم دفع البدل النقدى للخدمة العسكرية أو دفع رشوة للطبيب المكلف بفحص المطلوبين واختيار اللائقين للخدمة منهم . ولذلك كان المجند يودع بالصراخ والعويل كما لو كان ذاهبا الى حتفه .

٤ ــ الشعب المصرى شعب كريم برغم فقره ، ولا يقتصر كرمه على الترحيب بالضيف وتقديم الطعام والشراب له ، وانما يظهر هذا الكرم فى توزيع الصدقات على الفقراء فى شهر رمضان وفى الأعياد وعند زيارة الأموات وزيارة اضرحة أولياء الله ويحترم المصريون الكرماء حتى لو كانوا فقراء ، ويحتقرون البخلاء ، ويتندرون عليهم برغم غناهم ومراكزهم الاجتماعية الراقية .

المحددات الثقافية :

يرجع اعتزاز المصرى بكرامته الى عدة عوامل ثقافية ، اولها انه متدين، اذ ينادى الاسلام ، وكذلك المسيحية ، بالحفاظ على الكرامة ، وعدم السجود الا لله سبحانه وتعالى . وثانى تلك العوامل ، أن الفلاح المصرى يحمل تراثا ثقافيا عريقا ، ويشعر بمسئولية الحفاظ على هذا التراث الذى خلفه له الأجداد منذ آلاف السنين ، فهو صانع اعظم حضارة فى العصر القديم ، وفى ارجاء وطنه الكبير هبطت الديانات السماوية الكبرى ، ويتمتع وطنه الصغير بمناخ وموارد طبيعية ، وموقع جغرافى ممتاز ، ويزخر التاريخ المصرى بالانتصارات ، فمن الطبيعى أن الشعب يتمتع بتلك المقومات الطبيعية والثقافية الهائلة ، لا بد وان يشعر بالعزة والكرامة . وفيما يتعلق بخاصية الكرم ، فانها ترجع الى طبيعة الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى القرية

المصرية ، اذ تتميز تلك الحياة بالتعاون والتساند للتغلب على الأزمات الطبيعية مثل فترات الفيضان والتحاريق ، والملمات السياسية مثل الحملات الاستعمارية واستغلال الاقطاعيين ، ويسود التعاون فى المناسبات الاجتماعية العادية مثل الأفراح والجنازات والمواسم والأعياد — هذا بالاضافة الى أن الدين الاسلامى يدعو الى البر والتعاون وتقديم الصدقات، ويعطى الاسلام للزكاة أهمية كبرى ، ويهتم بالسائل الذى يجب الا ينهار .

وتمسك الفلاح المصرى بتقاليد المحافظة على الشرف والعرض يرجع الى خصائص الثقافة القروية بصورة عامة ، وتتمثل تلك الخصائص فى المحافظة على التقاليد فى القرية وقوة التماسك الاجتماعى التى تجعل من الصعوبة بمكان احداث تغيرات جذرية فى التقاليد والقيم الأساسية فى القرية ، هذا بالاضافة الى أهمية الأسرة فى البناء الاجتماعى للقرية ، فالأسرة الممتدة هى محور هذا البناء ، وتحتل النظم العائلية مكانة الصدارة بين النظم الاجتماعية السائدة فى القرية المصرية ، وهكذا فان سمعة الأسرة وشرفها من المقدسات التى يحافظ عليها رجال الأسرة والتى فى سبيلها تهون الحياة ، ولذلك يشعر الفلاح بالعار والخزى اذا فرطت احدى قريباته او حتى احدى فتيات القرية فى عرضها ، وذلك لأن الخبر سوف ينتشر فى القرية ، وكذلك فى القرى المجاورة ، ولن يرفع راسه ثانية الا اذا غسل هذا العار بالدم او اذا هرب الآثمان من القرية ، وفى كثير من الأحيان يتعقبهما اهل الفتاة فى كل مكان ولا يمكن اغفال دور الدين الاسلامى فى تاكيد تلك القيم .

* * *

واخيرا ، هذه هى اهم ابعاد الشخصية المصرية التقليدية ، وقد حاولت تفسيرها فى ضوء النظرية الانثروبولوجية الثقافية التى تهتم بابراز العوامل الثقافية فى تكوين الشخصية القومية لمجتمع معين ، ويجب الا يفهم من ذلك ان الكاتب ينكر تاثير العوامل غير الثقافية فى تكوين الشخصية القومية لشعب ما ، إن العوامل الجغرافية والبيولوجية لها دور بجانب العوامل الثقافية فى تكوين تلك الشخصية ، ولكن تخرج تلك العوامل عن مجال تخصص الكاتب ولذلك لا يتعرض لها ، ويكرر الكاتب ضرورة تبنى المركز القومى للابحاث الاجتماعية والجنائية مشروع بحث هذا الموضوع الهام ، على أن يقوم بتنفيذه فريق من المتخصصين فى الانثروبولوجيا الثقافية وعلم النفس والتاريخ والجغرافيا والفولكلور والوراثة والطب النفسى والادارة .

خاتمة

تخصص هذا الكتاب فى دراسة العلاقة بين الثقافة والشخصية وتبين من الفصول السابقة أن موضوع الثقافة والشخصية كان ، ولا يزال ، محور الدراسة للعديد من الأبحاث والنظريات ، وتبلورت تلك الدراسات فى صورة علم اجتماعى متخصص ، واطلق عليه بعض العلماء اصطلاح الأنثروبولوجيا النفسية ، وحددوا هويته كأحد فروع الأنثروبولوجيا الثقافية.

واهتم المؤلف بتتبع مراحل نشأة ونمو هذا العلم الجديد ، وبتحديد موضوعه ومنهجه ، واعتمد بصورة رئيسية على الأبحاث الميدانية ، فالأبحاث الميدانية هى الينبوع الدافق الذى يزود هذا الكتاب بالمادة الثقافية والنفسية، وكان لتوفر هذه المادة الغزيرة اكبر الأثر فى أن يحظى موضوع الثقافة والشخصية باهتمام المتخصصين فى علم النفس والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلم السياسة وغيرها ، ولم تقتصر هذه الأبحاث الميدانية على المجتمعات البدائية ، وانما شملت كذلك المجتمعات النامية والمجتمعات المتقدمة .

والى جانب الأبحاث الميدانية ، اهتم المؤلف بعرض النظريات التى تفسر العلاقة بين الثقافة والشخصية ، وكان لابد أن يسبق عرض هذه النظريات التعرف بشىء من التفصيل على المفهومين الرئيسيين ، وهما الثقافة والشخصية ، ويرجع ذلك الى اختلاف الاطار النظرى لكل مفهوم ، فالثقافة هى موضوع الأنثروبولوجيا الثقافية ، والشخصية هى موضوع علم نفس الشخصية ، ولما كانت العلاقة بين هذين المفهومين تهم من يدرس الأنثروبولوجيا الثقافية ، كما تهم من يدرس علم النفس ، واصبح على كل فريق أن يتعرف على تخصص الفريق الآخر ، قبل دراسة نظريات الثقافة

ومن الطبيعى ان تتميز الأنثروبولوجيا النفسية بمنهج خاص يتفق مع طبيعة موضوعها ، ويتضمن هذا المنهج بعض طرق البحث التى تنتمى أصلا الى الأنثروبولوجيا الثقافية وعلم النفس ، وهكذا تجسد الأنثروبولوجيا النفسية ، سواء فى جانبها النظرى او الميدانى ، التعاون الوثيق بين هذين العلمين . ولايخلو هذا التعاون من الأختلاف فى الرأى ، وبفضل هذا الأختلاف تعددت النظريات وتنوعت الفروض ، مما يدفع بالعلماء الى اجراء المزيد من

الابحاث ، والى وضع نظريات جديدة ، ولا ادل على هذا التعاون من اشتراك الانثروبولوجيين الثقافيين وعلماء النفس فى فرق عمل ، لاجراء الأبحاث الميدانية وللاشتراك فى المؤتمرات العلمية ، وترتب على هذا التعاون ازدهار هذا النوع الجديد للمعرفة .

وفى ضوء ما تقدم من موضوعات ، تولدت لدى المؤلف الرغبة فى بحث موضوع العلاقة بين الثقافة العربية المصرية والشخصية المصرية ، ولكن ، بعد التعرض لكثير من المشكلات المنهجية التى تواجه بحث هذا الموضوع المتشعب الاطراف ، راى المؤلف اختيار جانب واحد من المشكلة وهو الشخصية المصرية التقليدية ومحدداتها الثقافية ، ويحتاج هذا الموضوع الهام الى المزيد من الدراسات ، وخاصة أن الشعب المصرى يمر بتغيرات اجتماعية وثقافية عميقة ، ويتم بعض تلك التغيرات عن طريق المجالس القومية المتخصصة التى ترسم السياسة التخطيطية العامة فى مجـالات الاقتصـاد والتعليم والخدمات حتى عام الفين ، وتعد تلك المجالس العلمية ، مع سيادة القانون واطلاق الحريات من الانجازات العظيمة لثورة يوليو ، ويتوقع المؤلف ان تهيىء تلك الانجازات المناخ الصحى لانطلاق الأبعاد الايجابية فى الشخصية المصرية التقليدية ، وبالتالى يمكن تحقيق الآمال فى التحرير والتقدم والرفاهية ، وقد بدأت المسيرة بانتصارات حرب اكتوبر التى غيرت الصورة المزيفـة التى رسمتها الدعاية الصهيونية للشخصية المصرية وهكذا يسير الانســان المصرى نحو عالم افضـل بخطوات ثابتة .

تم بحمد الله

المراجــع

نكتفى هنا بذكر اهم المراجع الأجنبية ، وتوجد علاوة على ذلك اشارات كثيرة بالكتاب الى الكثير من المقالات الأجنبية .

اولا : المراجع العربية :

١ ــ د . احمد أبو زيد : البناء الاجتماعى ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٦ .

٢ ــ د . احمد الخشاب : دراسات انثروبولوجية ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٧٠ .

٣ ــ السيد ياسين : الشخصية العربية بين المفهوم الاسرائيلى والمفهوم العربى ، مؤسسة الأهرام ، القاهرة ١٩٧٣ .

٤ ــ د . جابر ومحمد الشبينى : نمو الشخصية (ترجمة لكتاب البورت) ، دار النهضةالعربية ، القاهرة ١٩٦٣ .

٥ ــ جمال الغيطانى : المصريون والحرب ، روز اليوسف ، القاهرة١٩٧٤

٦ ــ د . جمال حمدان : شخصية مصر ، كتاب الهلال ، القاهرة ١٩٧٣ .

٧ ــ د . حامد عمار : فى بناء البشر ، منشورات سرس الليان ، القاهرة ١٩٦٤ .

٨ ــ د . حسن الساعاتى : حكمة لبنان ــ منشورات جامعة بيروت العربية ، بيروت ١٩٧١ .

٩ ــ د . حسن حنفى : التفكير الدينى وازدواجية الشخصية ، مجلة الفكر المعاصر ، عدد ٥٠ ، القاهرة ١٩٦٩ .

١٠ ــ د . رافت عبد الحميد : ملامح الشخصية المصرية فى العصر المسيحى ، روزاليوسف ، القاهرة ١٩٧٣ .

١١ ــ رشدى صالح : الشخصية المصرية بين السلبية والايجابية ، مجلة الفكر المعاصر عدد ٥٠ ، القاهرة ١٩٦٩ .

١٢ ــ د . سيد عويس : منملامح المجتمع المصرى ، دار مطابع الشعب ، القاهرة ١٩٦٥ .

١٣ ــ ظاهرة الموت فى حياة المصريين ، مجلة الفكر المعاصر عدد ٥٠ ، القاهرة ١٩٦٩ .

١٤ ــ شوقى عبد الحكيم : اساطير وفولكلور العالم العربى ، روز اليوسف، القاهرة ١٩٧٤ .

١٥ ــ عباس العقاد : سعد زغلول ، القاهرة ١٩٤٥ .

١٦ ــ د . عثمان فراج : الشخصية والصحة العقلية ، دار المعارف بمصر، القاهــرة ١٩٧٠ .

١٧ ــ د . عزت حجازى : الشخصية المصرية بين السلبية والايجابية ، مجلة الفكر المعاصر ، عدد ٥٠ : القاهرة ١٩٦٩ .

١٨ ــ د . عماد الدين سلطان وآخرون : صراع القيم بين الآباء والأبناء ، المجلة الاجتماعية القومية (يناير) ، القاهرة ١٩٧٢ .

١٩ ــ د . فاروق العادلى : المجتمع وثقافته (ترجمة لكتاب ريد فيلد) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الاسكندرية ١٩٧٣ .

٢٠ ــ د . فؤاد مرسى : البعد الاجتماعى للشخصية المصرية الحاضرة ، مجلة الفكر المعاصر ، عدد ٥٠ ، القاهرة ١٩٦٩ .

٢١ ــ د . فرج وآخرون : نظريات الشخصية (ترجمة لكتاب هول ولندزى) الهيئة المصرية العامة للتاليف والنشر ، القاهرة ١٩٧١ .

٢٢ ــ د . محمد الصياد : نفسية الشعب المصرى من اغانيه ، مجلة علم النفس (اكتوبر) ، القاهرة ١٩٤٥ .

٢٣ ــ د . محمود على : دراسة تجريبية لأساليب الثواب والعقاب التى تتبعها الأسرة فى تدريب الطفل واثرها على شخصية الأبناء ، رسالة دكتوراه ، جامعة القاهرة ، القاهرة ١٩٦٥ .

٢٤ ــ د . مصطفى سويف : مقدمة لعلم النفس الاجتماعى ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٥ .

٢٥ ــ د . ملاك جرجس : سيكلوجية الشخصية المصرية ومعوقات التنمية، روزاليوسف ، القاهرة ١٩٧٣ .

٢٦ ــ د . نجيب اسكندر ، د . رشدى امام ، الفكر الخرافى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٢ .

٢٧ ــ د . يوسف مراد : مبادىء علم النفس العام : دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٥٤ .

ثانيا ـ المراجع الاجنبية :

1. Aderno, T. and Others : The Authorotarian Personality, Harper, N.Y. 1950.

2. Allport, G. : Personality, A Psychological Interpretation, Holt, N.Y. 1937.

3. Barnett, H. : Innovation, The Basis of Cultural Change, McGraw, Hill, N.Y. 1953.

4. Barnouw, V. : Culture and Personality, The Dorsey Press, Inc, Illinois 1963.

5. Bateson, G. : Naven, Stanford Uni. Press, London, 1958.

6. Beals, R. and Hoijer, H. : An Introduction to Anthropology, The Macmillan Co., N.Y. 1953.

7. Benedict, R. : Patterns of Culture, Penguin Books, N.Y. 1946.

8. ———— : The Chrysanthemum and The Sword, Patterns of Japanese Culture, Houghton Mifflin Co., Boston 1946.

9. Bellah, R. : Tokugawa Religion, The Values of Pre - Industrial Japan, The Free Press, Glencoe 1957.

10. Berman, L. : The Glands Regulating Personality, MacMillan Co. N.Y. 1928.

11. Boas, F. : Anthropology and Modern Life, W.W. Norton, N.Y. 1928.

12. ———— : Kwakiutl Culture as Reflected in The Mythology, Memoirs of The American Folklore Society, N.Y. 1935.

13. ———— : (Ed.) : General Anthropology, Heath. N.Y. 1938.

14. ———— : Primitive Art, Dover, N.Y. 1955.

15. Bowlly, Y. : Child Care and The Growth of Love, Penguin Books, London 1954.

16. Carroll, J. (Ed) : Language, Thought and Reality, Technology Press, Boston, 1956.

17. Devis, H. : Deprived Children. The Mesham Experiment, Oxford Uni. Press, London, 1954.

18. Du Bois, C. : The People of Alor, Uni. of Minnesota Press, Minneapolis 1944.

19. Faris, R. and Dunham, H. : Mental Disorders in Urban Areas, Uni. of Chicago Press, Chicago 1939.

20. Fenichel, O. : The Psychoanalytic Theory of Neurosis, W.W. Norton, N.Y. 1945.

21. Freud, S. : The Interpretation of Dreams, Modern Library, N.Y. 1938.

22. ———— : Character and Anal Erotism. The Hogarth Press, London 1950.

23. Gladwin, T. and Sarason., S. : Turk : Man in Paradise, Viking Fund Publications in Anthropology, N.Y. 1953.

24. Gorer, G. : The American People, W.W. Norton, N.Y. 1948.

25. ———— and Rickman, J. : The People of Great Russia, Cresset Press, London 1949.

26. Hall, C. : The Meaning of Dreams, Dell, N.Y. 1959.

27. Hallowell, A. : Culture and Experience, Uni. of Pennsylvania Press, Philadelphia 1955.

28. Hammer, E. : The Clinical Application of Projective Drawings, Charles C. Thomas, Illinois 1958.

29. Haring, D. (ed.) : Personal Character and Cultural Milieu, Syracuse Uni. Press, Syracuse 1949.

30. Honigmann, J. : Culture and Personality, Harper, N.Y. 1954.

31. Hooton, E. : Crime and The Man, Harvard Uni. Press, Cambridge 1939.

32. Hsu, F. : Americans and Chinese, Henry Schuman, N.Y. 1953.

33. ———— (ed.) Psychological Anthropology ,The Dorsey Press, Illinois 1960.

34. Huizinga, J. : The Waning of The Middle Ages, Edward Arnold, London, 1942.

35. Jacobs, M. : The Content and Style of an Oral Literature, Viking Fund Publications in Anthropology, No. 26, N.Y. 1950.

36. Kardiner, A. : The Individual and His Society (with a Forward and two Ethnological Repors by Linton, . R.), Columbia Univ. Press, N.Y. 1939.

37. Kardiner, A. and Others : The Psychological Frontiers of Society, Columbia Uni. Press, N.Y. 1945.

38. Kluckhohn, C. and Murray, H. (eds) : Personality in Nature, Society and Culture, Alfred A. Knopf, N.Y. 1959.

39. Kretschmer, E. : Physique and Character, Harcourt, Brace and Co. N.Y. 1925.

40. Kroeber, A. : Comfigurations of Culture Growth, Univ. of California Press, L.A. 1944.

41. Lantis, M. : Nunivak Eskimo Personality as Revealed in Mythology, Anthropological Papers of the Univ. of Alask, Alaska 1953.

42. Levy, D. : Mental Overprotection, Columbia Univ. Press, N.Y. 1943.

43. Lewis, O. : The Children of Senchez, Autobiography of a Mixican Family, Random House, N.Y. 1961.

44. Linton, R. : The cultural Background of Personality, Appleton Contury Crofts, INC. N.Y. 1945.

45. Malinowski, B. : Sex and Repression in Savage Society, Routledge and Kegan Paul, London 1953.

46. Mandelboum, D. (ed,) : Language, Culture and Personality, Univ. of California Press, L.A. 1049.

47. Manheim, K. : Idelolgy and Utopia, Harcourt, Brace, N.Y 1963.

48. Mead, M. (ed) : Cooperation and Composition Among Primitive Peoples, McGraw - Hill Book Co. N.Y. 1937.

49. ———— : From The South Seas, Studies of Adolescence and Sex in Three Primitive Societies, William Morrow, N.Y. 1939.

50. ———— and Metraux, R. (eds) : The study of Culture at A Distance, Uni. of Chicago Press, Chicago, 1953.

51. ———— and Wolfenstein, M. (eds) : Childhood in Contemporary Cultures, Univ. of Chicago Press, Chicago 1955.

53. Miner, H. and De Vos, G. : Oasis and Casbah, Anthropological Papers, Univ. of Michigan, Mich. 1960.

54. Ogburn, W. and Nimkoff, M. : A Handbook of Sociology, London 1960.

55. Pittman, D. and Synder, C. (eds) : Society, Culture and Drinking Patterns, John Wiley, Sons, N.Y. 1962.

56. Potter, D. : People of Plenty, Uni. of Chicago Press, Chicago 1954.

57. Prince, M. : The Unconcious, McMillan Co. N.Y. 1929.

58. Riesman, D. and Others : The Lonely Crowed, Yale Uni. Press, New Haven 1950.

59. Roheim, G. (ed.) : Psychoanalysis and The Social Sciences, International Universities Press, N.Y. 1947.

60. ———— : Psychoanalysis and Anthropology, International Universities Press, N.Y. 1950.

61. Shapiro, L. (ed.) : Man, Culture and Society, Oxford Univ. Press, N.Y. 1960.

62. Sheldon, W. : Varieties of Temperament, Harper and Bros, N.Y. 1942.

63. Tylor, E. : Primitive Culture, John Murray, London 1913.

64. Wallace, A. : Culture and Personality, Random House N.Y. 1961.

65. Waller, W. : The Sociology of Teaching, John Wiley, N.Y. 1932.

66. Watson, J. : Behaviorism, W.W. Norton, Co. N.Y. 1925.

67. Whiting, B. : Paiute Sorcery, Viking Fund Publications in Anthropology, No. 15, N.Y. 1959.

68. Whiting, J. and Child, I. : Child Training and Personality, Yale Univ. Press, New Haven 1953.

69. Williams, R. : Biochemical Individuality, John Wiley Sons, Inc. N.Y. 1956.

